

الجمهورية السورية
مديرية الآثار العامة
الطولبات للآثار السورية
مجلة علمية تبحث في آثار سورية وتاريخها

المجلد الثالث

١٩٥٣

الجزء الأول والثاني

فهرس القسم العربي من العدد الأول والثاني

— الأبحاث —

الصفحة

٣	حاضر المتاحف السورية ومستقبلها الدكتور سليم عادل عبد الحق
٩	أمام خرائب أوغاريت الأستاذ الشاعر حليم دموس
١١	حكمة الوزير أخيقار وأثرها في الأدب العالمي الدكتور جورج حداد
٢٩	دمشق اللجنة الدولية للأونيسكو
٤٧	الدور الأثرية الخاصة في دمشق الأستاذ أبو الفرج المش
٥٩	للروج الاستراتيجية للنسبة في التواريخ العربية وصفي زكريا
٦٩	فن العبارة الإسلامية نادر المطار

مختصرات عن المقالات المنشورة في القسم العربي من المجلد

٨٩	أهمية التحريات الأثرية في سورية	تريب وتلخيص : س . ع
٩٥	الآثار والتفام الدولي	« « « «
١٠٠	تمثيل تدمرية في متحف دمشق	« « الدكتور جورج حداد
١٠٣	لوح جديد من الفسيفساء من مدينة شهباء	« « « س . ع
١٠٧	للدراسة السلطانية في حلب	« « « جورج حداد
١١٦	للوسم التاسع في حفريات ماري	« « « س . ع
١٢٢	دراسات عن بعض مواقع في سورية الشمالية	« « « جورج حداد
١٢٩	قصر الامبراطور ديو قليسبان في انطاكية	« « « «
١٣٣	حفريات رأس شمرة — أوغاريت	« « « س . ع
١٤٤	مذابح تدمرية مكتشفة قرب نبع أفقا	« « « جورج حداد
١٤٨	تحريات أثرية في منطقة عمريت	« « « س . ع

من أعمال مديرية الآثار العامة خلال العام الفائت

نشاط المتاحف السورية :

١٥٥	معرض الزيتون في طرطوس عام ١٩٥٣	الأستاذ أبو الفرج المش
١٦٥	معرض الفنون الجميلة عام ١٩٥٣	« منير سليمان

مجلة الحوليات الأثرية السورية

مجلة علمية أثرية تاريخية ، تصدرها مديرية الآثار العامة في سورية مرتين في السنة ، غايتها دراسة تاريخ سورية وآثارها ، ونشر أخبار المكتشفات الأثرية السورية ، وإيضاح الأعمال الفنية التي تقوم بها مديرية الآثار العامة ، وإفساح المجال أمام العلماء السوريين المساهمة بالفاعلية العلمية العالمية ، وتعميم الثقافة الأثرية في البلاد السورية .

وتشرف على تحريرها وإصدارها لجنة مؤلفة من :

الدكتور سليم عادل عبد الحق	مدير الآثار العام
الدكتور جورج حداد	رئيس فرع التاريخ في كلية الآداب من الجامعة السورية
الأستاذ مطيع المرابط	مدير الشؤون الإدارية في مديرية الآثار العامة
الأستاذ فيصل الهبر في	محافظ متخبط حلب

بدل الاشتراك في هذه المجلة :

الاشتراك السنوي في سورية	٢٠ ليرة سورية
الاشتراك السنوي في خارج البلاد	٥٠ شلناً انكليزياً أو مايعادلها بالدولارات والفرنكات
ثمان الجزء الواحد في سورية	١٠ ليرات سورية
ثمان المجلد في سورية	٢٠ ليرة سورية
ثمان الجزء الواحد خارج سورية	٢٥ شلناً أو مايعادلها

ويتألف مجلس الإدارة في مديرية الآثار العامة لسنة ١٩٥٤ من السادة :

الدكتور سليم عادل عبد الحق	مدير الآثار العام
الدكتور جورج حداد	رئيس فرع التاريخ في كلية الآداب
الأستاذ رفيع السيوفي	مدير المرافقة في وزارة المالية
الدكتور نور الدين حاطوم	الأستاذ في كلية الآداب
الأستاذ مطيع المرابط	مدير للشؤون الإدارية
عضو سادس	من رؤساء فروع مديرية الآثار العامة

عنوان المجلة : الحوليات الأثرية السورية . مديرية الآثار العامة .
جميع الحقوق محفوظة لمديرية الآثار العامة .

حاضر المتاحف السورية ومستقبلها

للدكتور سليم عادل عبد الحق

مدير الآثار العام

من آثار النهضة الثقافية التي حققتها بلادنا السورية في العهد الحاضر ازدياد عنايتها بمتاحفها ، وسميتها الى توسيع ما هو موجود منها حالياً ، ورغبتها في نشرها في كل مدينة من المدن السورية . وقد أدت الاكتشافات الاثرية العظيمة التي حدثت مؤخراً في تدمر والرقعة ورأس شمرة وتل الحريري وتل الصالحية الى استصدار المرسوم التشريعي ذي الرقم (١٣٥) المؤرخ في اليوم السابع من الشهر التاسع لهذه السنة ، الذي وسع متاحفنا الحالية ، ونص على تأسيس عدد آخر في البلاد السورية التي مازالت محرومة منها . فأصبح للمتحف الوطني في دمشق أربعة أقسام كبرى تعرض فيها أجمل وأثمن الأشياء الاثرية والتاريخية والفنية التي لها شأن كبير في ماضي الوطن ، والتي تمتد على عصور مرت على شعبنا ، منذ أقدم الازمنة حتى عصرنا الحاضر . كما صار بإمكان متحف حلب أن يضم مجموعات أثرية وتاريخية مختلفة تمثل كل مراحل تاريخ المنطقة الشمالية السورية . وسمح هذا المرسوم التشريعي لمتحف تدمر أن يجمع الى الآثار التدمرية بعض الخلفات التي تمثل حياة بادية الشام وتقاليدها ، ولمتحف السويداء أن يحفظ الى الآثار البازلتية السوداء بعض الطرف عن حياة جبل الدروز ، ولمتحف التقاليد الشعبية في قصر العظم أن يحوي طرقاتاً تشمل الألبسة والحوائج والأدوات العائدة لمختلف المهن والظواهر الشعبية التي تمثل تقاليد كل المواطنين في العهود الأخيرة والمعاصرة ، وأشياء مختلفة تشمل نماذج شتى عن صناعاتنا الوطنية القديمة كالنسيج وحفر الخشب وتلوينه والتزليل والتصديف والفسيفساء والتطعيم والأسلحة والزجاج وغير ذلك . وتعد هذه المتاحف ولله الحمد غنى البلاد السورية

للتقدم المدهش الذي حققته . ويمعمل موظفوها بجهد ونشاط في تنظيمها ، وتجهيزها بكل ما تحتاج إليه . كما تساعدهم مديرية الآثار العامة على توفير الأبنية الجميلة الفنية الصالحة لها . وهذا هو بناء المتحف الوطني بدمشق مع جناحه الغربي الجديد يصبح أكبر وأجمل بناء على الإطلاق في دمشق . كما أن مشروع بناء جديد لمتحف حلب هو في قيد التنفيذ . فقد نظمت مسابقة دولية بين أشهر مهندسي العالم لمنحه أحدث تصميم وأجمله لأنه سيقوم على أحسن بقعة في عاصمة الشمال . ثم اننا استملكنا الجزء المتبقي من قصر العظم من بعض مالكيه القدماء وسنسمى في خلال هذه السنة للقيام بأعمال اصلاح واسعة في كل جوانبه ، لكي نعيد اليه رونقه القديم ، وباعتقادنا أنه لن تمضي عدة سنوات حتى تكون كل المتاحف التي عدناها قد منحت الأبنية اللائقة التي تجعلها أحدث من المتاحف الموجودة في عواصم الدول الكبرى ومتممة بما فيها من كنوز والآثار الرائعة المعروضة في اللوفر والبريتيش ميوزيوم ومتاحف برلين ومونيخ وروما وغيرها .

وقد نص المرسوم المذكور أيضاً على جواز انشاء متاحف أثرية وتاريخية وفنية وصناعية في بقية المدن السورية كحمص وحماة واللاذقية ودير الزور وطرطوس وغيرها . وذلك لحفظ آثار هذه المدن أو تخليد عظائرها أو الدلالة على اشتهاؤها بإحدى الصناعات أو الفنون الجميلة . ومديرتنا مستعدة ضمن امكانياتها للعمل مع المحافظات الراغبة في الاسراع بتحقيق هذه المشاريع ، اذا أمّنت هذه المحافظات لنا الاراضي اللازمة لقيام أبنية المتاحف المقبلة ، واذا وفرت بعض المساعدات المادية والمعنوية ولن أفشي سراً اذا صرحت أن تفكيرنا يتجه منذ الآن الى انشاء متحف من نوع خاص في مدينة طرطوس . فقد بدأنا بترميم كاتدرائيتها المشهورة ، وسيصبح هذا البناء بعد انتهاء الاعمال صالحاً لأن تقام فيه الحوامل والواجهات اللازمة للعرض ، كما ألهمتنا أحد كبار وجهاء هذه المدينة فكرة إقامة متحف يبين الدور الذي لعبه في حياة سورية الاقتصادية منذ أقدم العصور ، نبات الزيتون الذي تنتشر أشجاره بكثرة حول هذه المدينة ، وما نشأ عنه من صناعات مختلفة في كل أنحاء سورية . وقد كلفنا أحد محافظي المتحف الوطني بدراسة هذه الفكرة وتحقيقها . فعكف هذا المحافظ وهو شاب عالم نشيط على عمل ذكي منتج عرضت نتائج دراساته الأولية في معرض الزيتون الذي افتتح رسمياً في طرطوس في نهاية السنة الماضية . كما أننا بدأنا بتحقيق فكرة متحف لتجارة حلب القديمة في بناء المطبخ العجني الاثري . وسوف نظهر في هذا البناء خلال الأشياء الأثرية المجموعة وخلال الصور والخطوط البيانية والمعلومات المختلفة ، كيف كانت تجارة هذه المدينة خلال كل العصور ، وعلاقتها مع جيرانها منذ أقدم الأزمنة إلى يومنا هذا .

ثم اننا نفكر باقامة متحف طريف في دير الزور يمثل كل المدينيات التي نشأت في حوض الفرات الأوسط ، ومتحف آخر في مدينة حمّاط يمثل كل المدينيات التي ظهرت في وادي العاصي . غير اننا لا يمكننا أن نمضي في اخراج هذه الأفكار الى حيز العمل قبل أن نلقى المساعدات الكافية من السلطات الرسمية في مدن طرطوس وحلب ودير الزور وحماه ومن أهلها ، ومن جمياتها الثقافية الحريصة على تقدّمها وازدهارها .

ولا ينبغي أن دور المتاحف في حياة العصر الحاضر كبير جداً ، لا سيما في بلاد كبلادنا تخطو خطوات واسعة نحو انشاء مدينة جديدة ، وتحاول جاهدة أن تقضي على الأمية وتخلص جيلنا من شرها . وقد كانت غاية هذه المؤسسات الى عشرات من السنوات خلت قاصرة على حفظ الاشياء الأثرية والفنية الطريفة لكي يدرسها المختصون ويتمون أنفسهم لوحدهم بما ينشأ عن ذلك من لذات فنية . ولم يكن الفكر النقدي يهيمن على تنظيمها . حتى ظهرت نظرية الفن للفن ، ونادت بوجوب تحسين العرض فيها ، وتقديم آثارها بأشكال حسنة سائفة الى الجماهير . ثم أدت النزعات الاجتماعية الجديدة الى افادة كل طبقات المجتمع من تعاليمها حتى تصبح ممثلةً لثقافة المواطنين وحياتهم الروحية والمادية المعاصرة ، وحتى تبين أن التقاليد هي حوادث حية تتجدد دون انقطاع ، وأن الصلات كانت وثيقة بين الفن والمجتمع خلال كل العصور ، وأن الآثار المحفوظة هي تعابير سامية عن مدينيات منسجمة ومزدهرة وصحيحة .

وأدى كل هذا الى افتراق المتاحف وتنويع معروضاتها ، وشمولها لكل مظاهر حياة المجتمع . ونشأ الى جانب المتاحف الأثرية والتاريخية والفولكلورية والفنية التي لدينا ما يماثلها ، متاحف أخرى للحياة الريفية ، وللزراعة ، والتاريخ الطبيعي ، والصناعة والعلوم ، والترية ، والصحة والمساعدات الاجتماعية وغير ذلك . واتسعت هذه المتاحف ، وعرضت فيها الأشياء بصور مبسطة وجذابة ، وأضيفت اليها الشروح العلمية المبنية على أحدث الطرق التعليمية وجهزت بالمصورات والخطوط البيانية ، والصور ونظمت فيها الزيارات الإيضاحية ، واستخدمت داخلها الاسطوانات المسجلة ، وأجهزة الراديو التي تعطي في كل اللغات التفاسير الكافية ، وأجهزة التلفزيون التي توضح كل ما يتعلق بالاشياء المعروضة ، عندما كانت في أوساطها الطبيعية ، حتى غدت المتاحف في السنوات الأخيرة التي نعيشها أشبه بالمدارس والمعاهد والجامعات ، وأضحت تعاليمها التربوية والثقافية تكمل دروس هذه المؤسسات . ولم يعد الناس يزورونها للترفيه عن النفس فقط ، بل للاستزادة من المعارف . ثم اريد

أن يع تثقيفها المناطق النائية البعيدة عن المدن الكبرى حيث توجد ، فتحمل منظموها على إعداد معارض متنقلة تمثل بعض مظاهر الفنون والصناعات ، تحمل الى المدن الصغيرة أو الى القرى حيث تعرض هناك مدداً مختلفة من المدارس والمكاتب وقاعات الاجتماع . كما أريد أن تكون واسطة للتعارف بين دول الارض ، ولتفاهم مختلف الامم . فجملت المتاحف الكبرى تنظم معارض للدعاية الى فنون بلادها وصناعاتها . وأشهر هذه المعارض الدولية التي رأيناها بعد الحرب الأخيرة (معرض السجاد الافرنسي) ، (ومعرض كنوز متحف فيينا) و (معرض تيت غالري الانكليزي) وغيرها .

ولا ريب أننا في حاجة ماسة الى انشاء مثل هذه المتاحف والمعارض ، وأن المواطنين يرغبون كل الرغبة في أن تكون بلادهم مجهزة بها . ودلينا على ذلك ما نلتقاه كل يوم من مساعدات رسمية وغير رسمية في تذليل كل المصاعب التي اعترضت تنظيم متاحفنا الحالية . غير أن تأسيس المتاحف التي أشرت إليها في الفقرة المتقدمة يحتاج الى تعاون وثيق بين عدد من الوزارات وبين مديرية الآثار العامة ، وعن طريق دعوة كبار المثقفين والاختصاصيين وأساتذة كليات الجامعة السورية ، والجمعيات العلمية ، والثقافية ، والأفراد ، وأصحاب المصانع الكبرى وغيرهم للمساهمة في إعداد مشاريعها ، وتنفيذ هذه المشاريع التي يكون من شأنها إشعاع ثقافة الطبقة الواعية ، ورفع مستوى الشعب .

ومن المتاحف التي نحرص خاصة على نشوئها متحف (للحياة الريفية السورية) . وذلك لأن تطور الزراعة الذي نشاهد في يومنا هذا ، وإدخال الآلات والطشوق الجديدة في استثمار الأرض السورية يؤديان حتماً بعد قليل من الزمن الى زوال مظاهر الحياة الحالية الريف السوري . ونحن نعتقد جازمين أن الزمن الذي سيخلفني فيه المحراث اليدوي وآلة الدرس والعربة التي تجرها الحيوانات ليس بعيد . وسوف تزول كل أسماء هذه الادوات ، وستقرض المساكن الريفية والمزارع السورية القديمة ليحل محلها نماذج من المساكن والمزارع الأوربية والأميركية . ومن المستحسن أن ننشيء متحفاً يشبه (متحف ردينغ) الانكليزي ليقوم بحفظ نماذج مختارة من الأدوات الزراعية القديمة ، وعن الكتابات والمعلومات التي يتناولها الفلاحون جيلاً بعد جيل وعن قصص الانتاج بالطرق القديمة ، وعن أسماء الأدوات الزراعية الريفية وكيفية استعمالها ، وعن عادات الفلاحين وتقاليدهم في كل منطقة من مناطق الوطن السوري . كما أنه من المستحسن

أن تنشئ وزارة الزراعة متحفاً زراعياً لتبين حالة الزراعة السورية بصورة عامة ، وحالة الصناعات الزراعية والمساكن القروية القديمة ، والجديدة والتي يمكن انشاؤها . ولا بأس من أن نقبس بمض الآراء التي نُنظم بموجبها المتحف الزراعي الفخم في القاهرة .

وهناك نوع آخر من المتاحف يُستحسن نشرها في بلادنا . وهي متاحف التاريخ الطبيعي وحماية الطبيعة . إذ أن دور هذه المؤسسات يتضمن نشر المعارف المتعلقة بعالم الكائنات الحية والمعادن ، ومناخ الثروات ، والقوانين التي تُدير كل ذلك . وفي الحقيقة أن معرفة الطبيعة وتفهم تداخل العوامل التي توجه مصير البشرية يقودان الانسان الى الشعور بمسؤولياته أمام الطبيعة ويجعلانه يؤمن بضرورة حمايتها . وإذا كانت امكانياتنا لا تساعدنا على أن يكون لنا في متاحفنا الطبيعية المقبلة مجموعات حيوانية ونباتية غنية وعامة ملتقطة من كل أقطار الأرض والتي لا تملكها إلا العواصم الكبرى ، فلا بأس أن نجتمع فيها على الأقل نماذج من الحيوانات والنباتات الموجودة في بلادنا . حتى تكون قاعات هذه الدور وأبوابها ككتب التاريخ الطبيعي ، تنصفها ، فنرى فيها أشكالاً طبيعية أو تمثيلية عن الأشياء التي تعيش على أرضنا ، وعن مساكنها الطبيعية ، وعن مراحل حياتها ، وعاداتها وعن تداخل أنواعها بواسطة الصور والأفلام والخطوط البيانية والاحصاءات ، وعن مزايا الطبيعة وصفاتها المفيدة والجميلة ، فنؤمن بضرورة حمايتها ، والعدول عن المشاريع التي تؤدي الى افقارها كقطع الغابات ، وصيد الحيوانات المفيدة وما شاكل ذلك . كما لا بأس أن نتقدي هذه المتاحف بقاعات تمثل فيها حركة الأرض في السماء ، وتركيب هذا الكوكب ، وأوضاع الجهاز الشمسي ، وتوضح الفرضيات المختلفة التي تفسر علمياً نشوءه ، وتركيب الهواء ، وطبيعة الفضاء الذي يحيط به ، والأنواع المعدنية ، والمستحاثات التي تدل على ظهور الحياة الاولى على وجه البسيطة وتشكل التضاريس والعوامل الجيولوجية التي رفعت الجبال وأحدثت الوهاد ، وشكلت البحيرات والبحار ، ثم كيف اكتسبت قشرة الأرض شكلها الحالي ، وكيف ظهرت عليها النباتات والحيوانات ثم الانسان الذي سخر كل شيء لارادته . ولزام علينا أيضاً أن ننشئ متاحف علمية وصناعية تُعرض فيها نماذج عن الادوات والآلات القديمة التي استخدمها آباؤنا وأجدادنا في مختلف العصور ، ونماذج منتخبة من الآلات الحديثة التي نشأت عن تقدم العلوم الصحيحة ، وعن تطبيقاتها العملية ، والتي أحدثت الثورة الصناعية الكبرى في عصرنا الحاضر .

وقد زرت من مدة قريبة (متحف العلم والتكنيك) في مدينة ميلانو . وهو من اشهر

المتاحف العلمية في العالم . ويحوي أجنحة تدرج فيها نماذج عن الآلات والسفن التي عرفها الناس بين عصر النهضة وزمننا الحاضر . وغايتها إظهار التقدم المدهش الذي حققته البشرية خلال هذه الحقبة . وفي (قصر الاكتشاف) في باريس والمتاحف العلمية في (لوندرا) و (فيينا) و (مونيخ) و (شيكاغو) مجسمات وشروح عن كيفية حبس الأنهار وإنشاء السدود والاستفادة من الطاقة الكهربائية ، وتحويل المواد الابتدائية ومشاريع خطوط المواصلات بأنواعها وأثرها في انتشار المدنية ، ونشوء حياة أفضل لبني الانسان . كما فيها معلومات شتى عن طبيعة القضايا الاجتماعية والانسانية التي تنشأ عن النمو الصناعي وتحويل البيئات من حال الى حال .

ثم يجدر بنا أن ننشيء متحفاً أو متاحف صحية على شاكلة المتحف الصحي في عابدين من القاهرة الذي يتلقى فيه الجمهور المصري مبادئ حفظ الصحة بصورة عملية وبواسطة المجسمات والشروح . وقد خصصت إحدى قاعات المتحف لأمراض جهاز الدم وطرق الوقاية منها ، وقاعة ثانية للتغذية والأغذية والأمراض الناشئة عن الاقلال منها ، وقاعة رابعة للجهاز العصبي والجهاز العضلي ، والهيكلي العظمي ، وأمراض هذه الاجهزة ، ثم قاعة خاصة للأئومة والطفولة وما يعترضها من حالات مرضية ، وأخيراً جناح حفظ الصحة والخدمات الاجتماعية .

ثم يترتب علينا أخيراً أن ننظم متاحف تربوية في كل أنحاء البلاد السورية ، أهدافها العمل على تقدم التعليم في كل نواحيه بواسطة جمع كل الوثائق المتعلقة بأمور التعليم وطرق التربية ، ومساعدة المعلمين والطلاب على متابعة الأبحاث وتنظيم الدراسات ، وما شاكل ذلك . وتكون هذه المؤسسات على شاكلة متاحف (برن) و (بستالوزي) و (أمستردام) و (لاهاي) والمتحف التربوي في (باريس) .

وتشترك كل أنواع المتاحف المتقدمة بتأمين الخدمات الاجتماعية وبمساعدة الزعزعات الاصلاحية على الظهور في المجتمع ، وبالقضاء على المرض والجهل . اذ انها ينبوع لا ينضب لاقتباس كل انواع المعارف في كل نواحي العلوم والفنون . ولها من طرقها في العرض واستخدامها كل ما ابتكر من صور ومجسمات ، وخطوط بيانية ، وشروح ، وراديو ، وتلفزيون ، ما يهيئها لأن تكون خير مدارس يقصدها التلاميذ والطلاب للتعلم ، ويؤمها الكبار للثقف والتلذذ .

سليم عادل عبر الحق

لحم فراسد وخبازيت

لمؤسّس الشاعر هليم دموس

كان للآثار السورية المكتشفة حديثاً ، ولا سيما آثار رأس شمرة أثر بالغ في تعريف المواطنين بماضي بلادهم العظيم . وقد نفتقت قرائح الشعراء عن أروع القصائد ، في وصف هذا التراث التليد . ونحن نثبت فيما يلي قصيدة أهداها الشاعر المعروف الأستاذ هليم دموس ، الى مجلة الحوليات الاثريّة ، شاكرين له فضله ، ومقدرين شاعريته .

وقفة في سورية الشمالية ، بين رأس شمرة وثغر اللاذقية

١٩٥٣ - ١٩٥٤

هناك قرب اللاذقية والبحر	بدائع (أوغاريت) سيدة الدهر
روائع آثار على (رأس شمرة)	تفيض بآيات مخلّدة الذكر
صوامت ترّوي عن عظام عدها	وكم صامت يغني عن النطق والجهر
هناك برّ قد تجلّت مياهها	بأعذب من ماء الرصافة والجيسر
اثن سكنت فيها المياه كزمر	فقد سبقت ماء تدفق من نهر
قد اكتشفت بالأمس في هدأة الدجى	ولاحت لأهل الفنّ في باحة القصر
فكم أنعشت من ظامئين بمانها	وأحيت رمال القفر بالشجر النضر
وأروقة للقصر تبدو جديدة	وفيها من الأسرار ما جلّ عن حصر
وفي جانب القصر المنيع تقادم	أفرعون (مينيتاح) تسمي ذوي الفكر ^(١)
طوايح أختام الملوك تكشفّت	لهم عن لغات سوف تنتشر في سقر
مئات من الأعوام كرّت كأنها	توان من الليل البهيم إلى الفجر

(١) مينيتاح اسم لأحد الفراعنة الذي حكم من ١٢٠٠ الى ١٢٢٠ ق. م وهو الذي انتصر في عهده على الليبيين وجيم الشعوب البحرية كما يذكر التاريخ .

وآلاف أدوار تمر ولم تزل
رسائل من بعض الملوك تصونها
ولوحاتها في أحرف بابليّة
وصورة (عشتاروت) والحسن حسنها
مواسم أبناء الشعوب كثيرة
فكم من نقوش لا تعد بدعة
مناضد عاج كلشها مستديرة
فيا لمصور في الشمال تعاقبت
وثائق تاريخ قديم هفا إلى
فيالرفي العلم والفكر والنهي
ويارائعات الحسن في البحر والرّبي
أعيدي لنا ذكر الجدود وقد مشوا

وخلق بنا في الجو تحليقة النسر
أأشداً والأوطان في ربقة الأسر!
وفي كل يوم تحتسي أكؤس المر
ولم يبق منه غير آثاره الغر
حديثاً سترويه لنا ربّة الشعر
ملاحم أبطال تمر ولا ندري
وألهة (النهر) في ضفة النهر
بأجنحة فيها سنا النور والجر
سفائن بحر والرياح بها تجري

فيا أرض (أوغاريت) أنت مجانة
ولو لم تكوني آية الفن عندنا
تتاجين موج البحر في كل ساعة
وتروين للأجيال عن مدينة

طوتك يد الأقدار في مكن السر
لا حضنتك الأرض يا فتنة العصر
وتحمين ثغر الاذقية في البر
سيحفظها التاريخ كالدر في البحر !!

هليم رموس

حكمة الوزير أخيقار وأثرها في الأدب العالمي

للككتور جورج هداد

تخصيص أخيقار ومجموعتنا صكم :

ان حكمة أخيقار هي مجموعتان من الحكم والامثال ادخلتا في قصة رجل كان وزيراً لسنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) ملك آشور وابنه اسرحدون (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م) المذكور في القصة باسم « شرحدوم » . وقد تبنى الوزير أخيقار ابن اخته « نادان » وتمهده واعطاه مجموعة من الحكم والنصائح ليم تربيته . ولكن نادان لم يستفد منها وخشي ان يحرمه خاله من ثروته فسمى ضده وأظهره كمنآمر على الملك حتى حكم عليه بالموت . غير أن الجلاد كان صديق أخيقار فلم ينفذ الحكم . وبعد مدة يطلب ملك مصر من ملك آشور أن يرسل له رجلاً يحجب على جميع أسئلته « ويبنى له قصرًا في الهواء » . ويذهب أخيقار الى مصر ويحجب على أسئلة فرعون ثم يعود الى بلاده ويطلب تسليم ابن أخته فيسلمونه اياه ويضربه حتى « تدخل الحكمة من كتفيه طالما انها لم تدخل من اذنيه » ويوجه اليه مجموعة ثانية من الحكم . ولهاتين المجموعتين من الامثال أهمية رئيسية في القصة ويعرفان بحكمة أخيقار التي تشبه أمثال سليمان وأمثال يسوع بن سيرخ Sirach صاحب كتاب الجامعة Ecclesiasticus (الذي يختلف عن كتاب الجامعة Ecclesiastes في التوراة وقد عاش صاحبه في القرن الثالث ق.م) . وكتاب أخيقار في مخطوطاته وترجماته المختلفة له عناوين كثيرة منها « أمثال وحكم أخيقار » ومنها « تاريخ أخيقار » وبعضها بعنوان « تاريخ وحكمة أخيقار » وهذا الأخير هو الذي اختاره فرانسوا نو Nau الذي ترجم فيه النصوص السريانية للقصة الى الفرنسية (١) .

واسم أخيقار يكتب بهذا الشكل في جميع النصوص السريانية ولكنه في النصوص الاخرى يصبح حيقار (كما في العريسة) وخيقار (في الارمنية) وآ كير Akyr أو أكيريوس (في السلافية) ويتحول اسمه الى ايسوب Aesop في اليونانية . ويمكن تفسير معنى هذا الاسم بالآرامية « بالأخ العزيز » أو اذا أخذنا الشكل اليوناني في كتاب طويلا وهو « أخياكاروس » فيصبح معناه « اخي عزيز علي » وهذا النوع من الأسماء نجده بنفس المعنى بين الأسماء البابلية والآشورية في عهد السراجنة (اسرة سرجون الاشوري) مثلاً أَيْقَسَر Abiaqar أي « أبي عزيز علي » . وأما نادان Nadan المشتق من الفعل الآشوري نادانو Nadanu بمعنى يعطي فإنه يشبه اسم « ناتان » في الاسماء البابلية « وناتان » في الآرامية . ولا نعلم عن شخصية أخيقار سوى ما جاء في القصة . فقد يكون آشورياً وقد يكون سورياً آرامياً دخل في خدمة الآشوريين في هذا العصر الذي كانت العلاقات فيه مزدهرة بين الآراميين والامبراطورية الآشورية والذي لعب فيه الآراميون دوراً كبيراً أن كان في الامور التجارية أو في النواحي الثقافية حيث أصبحت لغتهم وكتابتهم ذات شأن في طول الامبراطورية الآشورية وعرضها . وقد تكون تسميته بالآشوري في المخطوطات ناتجة عن مجرد كونه وزيراً أو كاتباً رئيسياً في بلاط الملك الآشوري . ومن جهة أخرى فإننا نعلم انه حتى القرن الثاني الميلادي كان كثير من مشاهير الكتاب يذكرون السوريين باسم آشوريين . فقد ذكر فيلوستراتوس السوريين باسم آشوريين (١) وكذلك فعل لوكيانوس نفسه الذي كان سورياً انما في احدى عباراته ذكر مواطنيه باسم آشوريين (٢) . بينما نرى المؤرخ اللاتيني يوستينوس يقول في احدى المناسبات « الآشوريون الذين سموا سوريين » (٣) . وفيما سوى ذلك فإن لدينا شهادة بابريوس Babrius اليوناني الذي وضع قصص ايسوب شعراً في القرن الثالث وقال : « ان القصة الحكيمية هي من اختراع السوريين الذين عاشوا في بابل ونيوى » .

والجموعة الاولى من أمثال اخيقار ملأى بالمواعظ والنعاليم حيث يقول : « يا بني لا يفرنك الجمال الخارجي ، لأن الجمال يذهب ويختفي أما الذكر الطيب والسمعة الحسنة فإنها يدومان الى الابد » . وفي هذه المجموعة بعض أوجه الشبه بأمثال سليمان . أما المجموعة الثانية فإنها تحوي مقارنات

Philostratus : Life of Apollonius of Tyana I. 16.

Lucian : Syrian Goddess 17 ; Double Indictment 27, 30.

Justin : Abrégé des histoires Philippiques de Trogue Pompée (éd. et trad. Chambry) I. 2. 13.

(١)

(٢)

(٣)

يمكن أن نسميها أيضاً أمثالا وحكماً وقد جاء فيها على سبيل المثال : « يا بني لقد كنت لي كقدر جعلوا له اذنين من ذهب بدون أن ينظفوا أسفله من السواد . . . يا بني لقد كنت لي مثل كلب قرصه البرد فذهب ليتدفأ عند الجبازين وعندما دفيء أخذ ينبج ويحاول عضهم فضربوه ولكنه ظل ينبج ولما خافوا من أن يعضهم قتلوه » . وهذا القسم الثاني من الحكم يشبه أقدم مجموعات القصص الخيالية ذات المغزى الاخلاقي (Fables) .

انتقلت هاتان المجموعتان من الأمثال والحكم من بلاد الرافدين الى بلاد اليونان عن يد ديموقريطس Democritus في القرن الخامس ق. م فكانت المجموعة الاولى نموذجاً لأفكار ديموقريطس (قرن خامس) ومناندر Menander (قرن رابع ق. م) وأصبحت المجموعة الثانية نموذجاً لقصص أيسوب (القصص اليوناني) ثم أوجدت بنتيجة دمج شخصيتي أخيقار وأيسوب قصصاً وحكيماً آخر يعرف باسم لقمان .

النص الاصيل لقصة أخيقار :

ان أول نص لتاريخ أخيقار الذي استعمل في كتابات ديموقريطس ومناندر قد وضع في بلاد آشور قبل القرن الخامس ق. م. واللغة الاصلية التي وضع فيها هذا النص لا يمكن أن تكون سوى الآرامية . وقد ذكر ارنست رينان^(١) أنه « ليس من شك بان أكثرية سكان بلاد آشور كانت تتكلم الآرامية وهذه اللغة تمثل الفتح الآشوري في كل مكان . فالآرامية قد استعملها كبار الموظفين في البلاط الآشوري الذين أوفدهم سنجارب لمفاوضة الملك حزقيا في اورشليم . وعندما حلت سيادة الفرس مكان الآشوريين احتفظت الآرامية بكل أهميتها . وقد دخلت هذه اللغة الآرامية في التوراة العبرانية نفسها فكتب بها سفر عزرا ٤ : ٨ حتى ٦ : ١٨ و ٧ : ١٢ حتى ٢٦ . وربما ترجم النص الآرامي الاصيل الى السريانية في أول العصر الميلادي بعد وضع النص الاصيل بستمئة أو سبعمائة سنة . وربما كان هذا النص مؤلفاً في شكله الاصيل من قسمين أولاً تاريخ أخيقار وثانياً أمثال أو حكم أخيقار . وربما اتبع أخيقار نموذج أمثال سليمان ثم قلده يسوع بن سيرخ صاحب كتاب الجامعة الذي اطلع على كتاب أخيقار . ولا ندري إذا كانت الشكل الاصيل قد وضع شعراً أو نثراً وقد تكون النصوص الاولى ثرية كما كانت المجموعة الاولى لقصص ايسوب . ويميل البعض ومنهم رندل هاريس Rendell Harris الى الاعتقاد أنها

Renan : Histoire générale et système comparé des langues sémitiques. Paris, 1863 p. 215 .

(١)

كانت بالاصل شعراً . ويميل عالم اسمه فيتز Vetter الى القول بأن هنالك نصاً عبرانياً وضع بين ١٠٠ ق.م و ٢٠٠ م وكان أصل النص السرياني . على أن هذا النص العبراني المزعوم لا وجود له . والمعروف هو أن جميع النصوص الموجودة ترجع الى نص سرياني قديم وان المخطوطين السريانيين الحديثين وهما مخطوط برلين ومخطوط كمبرج يشبهانه . والنص الأرمني هو أشبه بمخطوط برلين السرياني بينما المخطوط العربي مصدره مخطوط كمبرج . والنصان السلافي والروماني ينحدران من مصدر شرقي بواسطة نص يوناني لم يوجد بعد بينما النص الحبشي ينحدر من النص العربي . والنص السرياني القديم الذي يمكن معرفته من النصوص الاخرى الباقية لا يكشف بوضوح كاف عن النص الآرامي الأصلي الذي انحدر منه مباشرة أو بصورة غير مباشرة . غير أن مقارنة جميع هذه النصوص وخاصة في حكمها وأمثالها تربنا أنها كلها من أصل واحد . والمخطوطات الموجودة حديثة أقدمها يرجع الى القرن الثاني عشر أو الثالث عشر وهو مخطوط لندن السرياني بينما مخطوط برلين وكمبرج السريانيان يرجعان الى عامي ١٨٣٨ و ١٦٩٧ . وبعض عناصر هذه القصة مخترعة ومنها ذهب أخيقار الى مصر . وقد اقحم هذا القسم في القصة لتبرير رضى الملك الآشوري عن الوزير وعودته الى بلاطه . وقد يكون الكاتب الأصلي لهذه الحكم هو أخيقار نفسه وقد ذكره سترابون بأنه من الحكماء السكندانيين في بروسيا (من بلاد بابل) وقد يكون الاصل الآرامي نصاً بابلياً شعبياً مبنياً على تاريخ وحكم أخيقار ، وهو يذكر الفرس ولا يذكر اليونان ولذلك كان غالباً قبل القرن الخامس ق.م .

الدراسات الحديثة حول أخيقار :

ظهرت طبعات كثيرة لقصة أخيقار منذ مائتي سنة بينها ست طبعات للنص الأرمني بين ١٧٠٨ و ١٨٦١ ، والطبعات المضافة الى ترجمة ألف ليلة وليلة للفرنسية ومنها مثلاً ماظهر في مجموعة موضوعها Cabinet des fées تحت عنوان « تاريخ سنكاريب ووزيره » وهنالك ترجمة أخرى في القم الذي أضافه كوسن دي برسيغال Caussin de Perceval لطبعة ألف ليلة وليلة في باريس عام ١٨٠٦ . كما أن هناك ترجمة افرنسية ثالثة للنص العربي وضعها آكوب Agoub المولود في القاهرة والذي نزع الى فرنسا مع جيش نابليون وتوفي في عام ١٨٣٢ . وقد ظهرت هذه الترجمة في طبعة أدوار غوتيه Gautier لألف ليلة وليلة (باريس عام ١٨٢٢) . وقد ذكر المترجم أنه نقل القصة عن مخطوطين عربيين بعد أن دققها وصححها ونشرت هذه الترجمة

نفسها في كتاب وضعه آكوب عنوانه « دراسات مختلفة في الآداب الشرقية والفرنسية » (١). وكان موضوع القصة « حيقار الحكيم : قصة عربية » .

وقد أشار السمعاني الى العلاقة بين قصص أيسوب وبين أخيقار في مجموعة « مكتبته الشرقية » Bibliotheca Orientalis (في المجلد الثالث ص ٢٨٦) . وكان هوفمان أول من رأى العلاقة بين قصتي أخيقار وطوبيا في العهد القديم وظن أن كاتباً سورياً استعار اسم أخيقار من كتاب طوبيا ليدخله في قصة قديمة ولكن المعروف أن قصة طوبيا أتت بعد قصة أخيقار . وفي عام ١٨٩٢ نشر ياجك Iagic ترجمة ألمانية للنص السلافي القديم في « المجلة البيزنطية » وقال ان هنالك نصاً صربياً مشتقاً من النص السلافي وانه اكتشف في موسكو عام ١٨٨٦ ونشر مايسنر Meissner في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية في ١٨٩٤ مقارنة بين النص العربي الذي نشره الأب صالحاني في بيروت في كتاب بعنوان « قصص عربية Contes arabes » وبين النص الذي ترجمه آكوب وأضافه الى ألف ليلة وليلة . وفي نفس السنة نشر ليدزبارسكي Lidzbarski نصاً عربياً وأمامه نصاً سريانياً بلهجة سريانية حديثة وقال انه ترجمة النص العربي حسب مخطوط ساخاو رقم ٣٣٩ . وفي السنة التالية نشر ليدزبارسكي ترجمة قصة أخيقار في مجلد عنوانه « دراسات سامية » بالألمانية وكان عنوان القصة نفسها « تاريخ خيقار الحكيم » (٢) . وفي ١٨٩٨ نشر ديبلون Dillon ترجمة مأخوذة من مخطوطي لندن وكبرج سماها « أخيقار الحكيم : قصة عبرانية شعبية قديمة » (٣) واعتقد أن العبرانيين في القرن الثاني ق.م كانوا يقرأون أخيقار كقصة حقيقية كما يقرأون طوبيا واستير وقال ان هذه القصة يهودية وانها وضعت في العبرية في القرن الثالث ق.م ثم ترجمت الى الآرامية . وقد ارتكب في زعمه هذا خطأ ولم يدر شهادات المؤرخين مثل اكليمنض الاسكندري Clement وسترابون الجغرافي عن قدم القصة ورجوعها الى القرن السابع ق.م .

ثم بعد ذلك تظهر طبعة كمبرج الجميلة التي نشرها كوينبير Coynbeare ورنلد هاريس والسيدة آغنيس سمث Agnes Smith في ١٨٩٨ وعنوانها « قصة أخيقار من النصوص السريانية والعربية والأرمنية والحبشية واليونانية والسلافونية » (٤) وفي هذه الطبعة نجد النص اليوناني المأخوذ من

G. Agoub : Mélanges de littérature orientale et française .

(١)

Geschichte des weisen Chikar .

(٢)

Ahikar the wise, an Ancient Hebrew Folk Story .

(٣)

The Story of Ahikar from the Syriac, Arabic, Armenian, Ethiopic, Greek and Slavonic Versions . 1898 .

(٤)

حياة ايسوب، والنص الأرمني والسرياني والعربي وترجمتها الانكليزية وكذلك الترجمة الانكليزية للنصوص السلافية والحبشية مع مقدمة طويلة كتبها رندل هاريس. وقد عملت هذه الطبعة على ظهور دراسات جديدة منها دراسة كوسكن Cosquin في المجلة التوراتية عام ١٨٩٩ حيث يقول ان قصة أخيقار ليست سوى قصة شعبية منتشرة حتى في الهند وان أصلها وثني انما وضعت في قالب توحيدي وليس لها أية حقيقة تاريخية. غير أن الأب هاجن Hagen رد عليه بأن مقالته هي سلسلة افتراضات لاتنزع الصفة التاريخية من قصة أخيقار. ويأتي تيودور ريناخ Reinach في ١٨٩٩ وينشر مقالاً في مجلة الدراسات اليهودية تحت عنوان « قصة بابلية في الأدب اليهودي: قصة أخيقار » ويدعي في هذا المقال أن هذه الاسطورة البابلية قد عرفها اليهود وترجموها الى لغتهم ولكنه لم يعلم أنها ليست من الأدب اليهودي وان النص الآرامي الذي احتفظ بتعدد الآلهة من الأصل البابلي قد أدخل هذه القصة الى الادب اليوناني والأرمني والسرياني. وقد انتقد هالبي Halévy في المجلة السامية في عام ١٩٠٠ نظرية ريناخ وقال ان الاسماء الواردة في هذه القصة كما في قصة طوبيا هي أسماء آرامية. ويهتم عالم يهودي آخر بهذه القصة وهو شورر Schurer في ١٨٩٨ ويؤكد أن قصة أخيقار سبقت قصة طوبيا بمكس ماقاله فيتر في عام ١٩٠٤. ودراسة فيتر جعلته يمتدح خطأ بان جميع نصوص قصة أخيقار نقلت عن أصل عبراني ومنه أتت الترجمات العربية والسريانية وان هذا الاصل العبراني أخذ عن أصل وثني كتب غالباً بالآرامية في بلاد بابل. وفي ١٩٠٨ نشر رودلف سموند Smund في غيسن Giessen بالمانيا رسالة عن علاقة قصة أخيقار بايسوب Aesop قال فيها ان جميع النصوص المتعلقة بأخيقار ترجع الى أصل واحد يجب البحث عنه بين السوريين وان النصوص العربية كلها مترجمة عن السريانية وكذلك النص الأرمني، وان النص السلافي الذي نقل عن اليونانية يرجع أيضاً الى أصل سرياني. ثم يقول ان المخطوطات السريانية المعروفة حديثة العهد ولكن يمكن معرفة النص السرياني الاصيل من المخطوطات العربية. ويقول سموند ان ماذكره سترابون يرجع غالباً الى فوسيدونيوس الافامي الذي عاش في القرن الثاني ق.م. ويجري مقارنة بين حكمة أخيقار وبين قصص ايسوب ويقول ان هذه الأخيرة مأخوذة عن أخيقار. وبابريوس نفسه الذي وضع قصص ايسوب شعراً يقول « ان القصة الحكيمة هي من اختراع السوريين الذين عاشوا في بابل ونيوى ». وبما أن مجموعة بابريوس تحوي أيضاً قصصاً من أخيقار فربما كان يقصد بكلامه أخيقار هذا ويعتبره مخترع القصة الحكيمة. وقد وضع بابريوس بشكل شعري قصصاً كانت منسوبة الى ايسوب

ومن جهة أخرى فإن الترجمة اليونانية لأخيقار كانت معروفة في القرن الأول . ويقول سموند أن نواحي الاتصال بين قصة أخيقار وبين بعض أسفار العهد القديم ومنها كتاب الجامعة متشابهة حتى ظنوا أن أصلها عبراني ويرى نو Nau أن قصة أخيقار حقيقة تاريخية وأن هذه القصة تتردد في قصة طوييا في التوراة وأن أمثال أخيقار نجدها في ديموقريطس اليوناني وفي كتاب الجامعة وأن قصصه الحكيمه تراها في قصص ايسوب .

أخيقار في الادب اليوناني :

لقد أراد الكاتب الكنسي أكليمينس Clement d'Alexandrie أن يبين أن الفلسفة اليونانية مأخوذة عن فلسفة الأمم الأخرى فقال « ان معلم فيثاغورس كان سوخيس Souchis أول حكماء المصريين وأن معلم أفلاطون كان سخنوفيس Sechnuphis من هليوبوليس وأن المؤلفات الأخلاقية التي وضعها ديموقريطس مصدرها البابليون لأنه يقال انه أدخل في كتاباته ترجمة نصب أخيقار... والواقع أن ديموقريطس ارتحل الى بلاد أجنبية كثيرة منها بابل وفارس ومصر وكانت تلميذاً للمجوس والكهان» (١) ويؤخذ من هذا القول أن ديموقريطس كان يعلم عن وجود حكم أخيقار ولكن هذه العبارة ظلت لغزاً الى أن اكتشفت قصة أخيقار . ويظهر أن ديموقريطس عثر على هذه الحكم في بابل فادخلها الى بلاد اليونان وذلك في القرن الخامس ق.م. والمعروف أن بلاد بابل كانت تحوي مجموعات من الأمثال والحكم منذ القرن السابع ق.م. على الأقل وقد نشر بعضها الأب فرنسوا مارتن في عام ١٩٠٣ كما أنه يمكن الاطلاع على البعض الآخر في « مجموعة النصوص السامرية المأخوذة من اللوحات البابلية في المتحف البريطاني » . وفي إحدى هذه النصوص نجد نصائح مثل التي أعطاها أخيقار عن ضرورة تجنب المشاحنات . وفي مجموعة أخرى من النصائح الأخلاقية المنشورة في ليزيك عام ١٩٠٦ نقرأ نصواً تقول : « لا تشكلم بالسوء عن الآخرين وإذا تحدثت فتحدث بلطف » (وهذا يشبه أقوال أخيقار فصل ٣ فقرة ٤٨ و ٥٧) و « عندما تغضب لا تشكلم أبداً » (قارن قول أخيقار فقرة ٤٣) . ومصدر هذه النصوص مكتبة آشوربناط أي مطلع القرن السابع وهو الوقت الذي عاش فيه أخيقار . وديموقريطس لم يجد حكماً ومواعظ أخلاقية فحسب وإنما يبدو أنه وجد حكم أخيقار بنفسها لأن الحكم المعروفة باسمه تشبه حكم

(١) كتابات أكليمينس الاسكندري في مجموعة كتابات آباء الكنيسة باليونانية المعروفة باسم :

Patrologiae graecae م ٨ ص ٧٧٢ .

أخيقار . على أن مواضع الاتصال بينها ليست كثيرة ولا شديدة التشابه وذلك لأن ما تبقى من أقوال ديموقريطس الحقيقية قليل وكثير منها أضافه جامع مؤلفاته ستوبيوس Stobius في القرن الرابع م . كذلك لا نعلم أقوال أخيقار الا من الترجمات وأقدم مخطوطاته من القرن الثالث عشر وإليك بعض حكم أخيقار وما يقابلها من أقوال ديموقريطس : « لا تترك قريبك يظاً على قدمك لئلا يظاً على رأسك » (أخيقار ٣٨ : ٤٩) ؛ « من الحكمة أن تحمي نفسك من الظلم الذي سيصيبك (ديموقريطس) . « لا تؤذي الرجل القوي ولا تناهض حكم مشاهير الرجال الذين يسودون بمظلمتهم وقوتهم » (أخيقار ٣ : ٥٢ ، ٧٣) ؛ « من المناسب أن تطيع الرؤساء والمعروفين بحكمتهم والقانون » (ديموقريطس) . « لا تنازع حكم رجل في يوم قوته » (أخيقار ٣ ، ٨٣) ؛ « ان الذي يناصر رئيسه العدا يموت وسمته سيئة » (ديموقريطس) . « عصفور في يدك خير من مائة طير في الهواء » (أخيقار) ؛ « الخير الذي تحصل عليه أفضل من الخير المقبل الذي ليس بمؤكد » (ديموقريطس) .

أما نواحي الشبه بين حكم أخيقار وبين حكم مناندر (الذي عاش في القرن الثالث ق . م) فهي أكثر . وحكم مناندر قد حفظت لنا في منتخبات يونانية نشرت في باريس عام ١٨٦٢ وفي مخطوط سرياني في المتحف البريطاني يبدأ بعبارة « هكذا قال مناندر » . وقد ترجم هذا المخطوط الى اللاتينية من قبل لاود Laud في مجموعة Anecdota Syriaca طبع ليدن ١٨٦٢ . والذي يلاحظ ان المنتخبات اليونانية من مناندر تشبه الترجمة اليونانية لحكم أخيقار ، بينما المخطوط السرياني لمناندر يقابل النص السرياني لأخيقار . وهذه بعض أمثلة تظهر الشبه : كلنا نظهر كحكماء ونعطي النصائح الآخرين ولكننا لا نعرف كيف نسلك (أخيقار) ؛ اننا كلنا حكماء عندما نعطي النصائح ولكننا عندما نخطيء لا نعتز بذلك (مناندر) . طالما انك انسان فكّر في الامور البشرية لأن الله يعاقب الظالمين (أخيقار) ؛ طالما انك انسان يجب أن تفكر بالامور البشرية والآلهة تعاقب الأشرار (مناندر) . لا تعط أسرارك الهامة لزوجتك (أخيقار) ؛ لا تأمن النساء على شرك (مناندر) . اعرف كيف تسيطر على لسانك (أخيقار) ؛ حاول خاصة ان تحفظ لسانك دائماً (مناندر) . كن مضيفاً للغرباء والمسافرين لكي تجد من يستقبلك عندما تسافر (أخيقار) ؛ كن مضيفاً للغرباء لأنك انت أيضاً ربما أصبحت غريباً عندما تسافر (مناندر) . يا بني لا تفرح بموت عدوك ، تمنى لأعدائك أن يمرضوا وان يصبحوا فقراء (أخيقار) ؛ عندما

يموت أحد لا تفرح لموته وإذا كان عدوك فلا تمنى موته وإنما تمنى أن يصبح فقيراً (مناندر) .
يا بني عندما ترى رجلاً اكبر منك سناً قف له (أخيقار) ؛ أكرم من هو أكبر منك
سناً (مناندر) . لا تفعل بقريبك ما تعتبره سيئاً لك (أخيقار) ؛ كل ما يبدو لك بغيضاً
لا تفعله لأخيك (مناندر) .

ويخبرنا ديوجنيس لايرتيوس مؤرخ الحكماء والفلاسفة في القرن الثاني ان ثيوفراستس الذي
عاش في القرن الرابع ق . م (وهو معلم مناندر) قد وضع كتاباً موضوعه « أخيكاروس »
وهذا يشهد بان اسم أخيقار كان معروفاً لدى المؤلفين اليونان الأقدمين . ثم هنالك دليل هام
عن شهرة أخيقار أتى به سترابون الجغرافي في القرن الاول م حين وصف حكماء البلاد
المختلفة فقال : « كان الحكماء مكرمين حتى اعتبروا أهلاً للملك وكانوا ينظرون إليهم كما لو
كانوا يأتون بنصائح إلهية في حياتهم وبعد موتهم ومنهم اورفيوس ، وأخيكاروس عند
البوسبورنيين ، والمجوس عند الفرس ... »^(١) ويبدو ان سترابون أو كتبة مخطوطه أخطأوا
بكلمة Bosporenien وكانوا يقصدون البورسيبيين Borsippéniens نسبة الى بورسبيا (وهي
اليوم برس نمرود) في بلاد بابل خاصة وان سترابون يذكر في مكان آخر (١٧ ، ١ ، ٦)
بين الحكماء السكلدانيين جماعة يعرفون بالبورسيبيين . وعلى ذلك يتضح أن أخيقار كان مشهوراً
بين حكماء بلاد بابل . وقد نقل سترابون معلوماته عن فوسيدونيوس الافامي الذي عاش في القرن
الثاني ق . م .

وقد ذكر داشيان في أبحاثه باللغة الألمانية في عام ١٩٠١ أقوالاً مماثلة لأقوال أخيقار في
كتابات المؤرخين الأرمن ومنها دفاع ايزنيك (Apologie d'Ezenik) حيث يقول : « ان أقوال
الحكماء لم تردد عبثاً والذي لا يصغي بأذنيه يحملونه يصغي بظهره » وهذا يعادل قول أخيقار ٣٣ :
٩٦ « يا بني لقد قيل في الأمثال : من لا يسمع بأذنيه فانهم يحملونه يسمع من خلف ظهره » .
ويمتد فتر أن هذه المشابهات بين المؤلفين الأرمن وأخيقار هي من قبيل الصدفة أو أنها من
مصدر مشترك لأن النص الأرمني لقصة أخيقار حديث نسبياً . هذا إلا إذا كانت هنالك مجموعة
قديمة لأمثال أخيقار مترجمة الى الأرمنية ولا نعلم عن وجودها .

(١) جغرافية سترابون ١٦ ، ٢ ، ٣٩ .

أخيقار والسكتب الرفيعة :

تحتوي الترجمة اللاتينية للعهد القديم في النوراة سفرأ يسمى سفر طوبيا وفيه قصة تشبه قصة أخيقار كما أن هذه القصة نفسها تذكر أخيقار باسم أخيقاروس (Achiacharos) وتعتبره من أقرباء طوبيا وتقول انه لما حكم اسرحدون (Sacherdonos) ابن سنحاريب أبق أخيقار مشرفاً على جميع الحسابات وعلى الادارة كلها . ثم يذكر سفر طوبيا مافعله ناداب (ويعني نادان المذكور في قصة أخيقار وهو ابن اخته) بأخيقار الذي أطعمه واعتنى به ولكن الله أنقذ أخيقار بينما أهلك ناداب . ففي قصة طوبيا لانشاهد اسم أخيقار ونادان فحسب وانما يرد ذكر وظيفتها في بلاط ملك أشور ويختصر قصة أخيقار . وفي القصتين نرى نفس الاسلوب الادبي ونفس الترتيب وسلسلتين من المواعظ الواحدة لتعليم الابن ونصحه والثانية لفهامه مدى نكرانه الجميل . وكذلك نجد بعض التشابه في العبارات والنصائح نفسها حيث يقول أخيقار : « يا بني اسكب خمرك على أرضحة العاديين ولا تنسبه مع قليلي التقوى » ويقول طوبيا : « ضع خبزك وخمرك على ضريح العادل ولا تأكل منه أو تشرب منه مع الخطاة » . وكذلك نجد شبهاً في عبارة أخيقار التالية : « يا بني لاتفعل بقريبك ما يبدو سيئاً لك » وفي عبارة طوبيا « لاتفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعله الآخرون بك » .

ويبدو كذلك أن كتاب أخيقار كان من جملة مراجع كتاب الجامعة Ecclesiasticus ليسوع ابن سيرخ في القرن الثالث ق.م. وهناك كشابه في العبارات والنصائح الموجودة في الكتابين بشأن احترام من هو أكبر سنأ وبشأن عدم مقاومة أصحاب الشأن والقوة وفي الأقوال التالية : اذا أحببت رفيقاً فجره أولاً ثم اتخذه كصديق (أخيقار) ؛ إذا كان لك صديق فاتخذه صديقاً بعد تجربة ولا تثق به بسهولة (الجامعة) . يا بني نادان اصغ لكلماتي واتبع نصائحي وتذكر أقوالي (أخيقار) ؛ يا بني اصغ إلى نصيحة العقل واقبلها ولا ترفض نصحي (الجامعة) . يا بني لاتفرح بموت عدوك لأنك بعد قليل تصبح جاره (أخيقار) ؛ لاتفرح بموت عدوك طالما اننا جميعاً سنموت (الجامعة) . لاتنظر بعينيك الى المرأة الجميلة ولا تتطلع الى الجمال الذي ليس فيك لأن الكثيرين هلكوا بسبب جمال امرأة وحبها كان كنار تحترق (أخيقار) ؛ حوّل وجهك عن المرأة الجميلة ولا تعتبر الجمال الخارجي لأن الكثيرين هلكوا بسبب جمال امرأة وهكذا اشتعلت الرغبة مثل النار (الجامعة) . لاتبتعد عن صديقك الأول امثلاً يستحيل عليك ايجاد من يحل محله

(أخيقار) ؛ لا تترك صديقاً قديماً لأن الصديق الجديد قد لا يكون مثله (الجامعة) . أراد انسان أن يرمي حجراً الى السماء فسقط على رأسه وسحقه (أخيقار) ؛ اذا رمى أحدهم حجراً الى الأعلى فإنه انما يسقط على رأسه (الجامعة) . اذا سمعت كلمة فلا تطلع عليها أحداً (أخيقار) ؛ لا تردد الكلام الذي تسمعه (الجامعة) .

كذلك نجد بعض الشبه بين كتاب أخيقار وبين سفر دانيال في العهد القديم ولكن العبارات المتشابهة قليلة . وقد لا تكون هنالك استعارات مباشرة وإنما يأتي التشابه من أن الكاتبين وضما كتابهما في وسط بابلي واستعملا تقريباً نفس التمايز في الكلام عن الملك وعن الحاشية والالبسة .

وقد أشار بعض العلماء^(١) الى وجود شبه بين سلوك نادان وبين مثل العبد الرديء الذي ورد في الانجيل متى (٢٤ : ٤٨ - ٥١) والانجيل لوقا (١٢ : ٤٥ - ٤٦) . فقد جاء في قصة أخيقار : « ان نادان ابني قد بدد ثروتي ولم يوفر أحسن عبيدي الذين ضربهم بحضوري ولا دوابي وبغالي الذين قتلهم وجمع نساء خليعات وأقام معهم يأكلون ويسكرون ويفنون . وقد قتل عبيدي وعبداتي وجردهم من ملهم وضربهم ولم يحترم حتى زوجتي » . ثم عندما عاد أخيقار بعد أن ظنوه قد مات واستعاد حظوته لدى الملك سلموه نادان . وروي لنا أخيقار ذلك فيقول : « لقد كبلت يديه ورجليه باغلال من الحديد وبدأت أضربه بالعصا ثم وضعته عند الباب وأعطيته خبزاً وماء بكية محدودة » . ولنفارن هذا القسم من قصة أخيقار بمثل العبد الرديء في الاصحاح ٢٤ من الانجيل متى حيث ورد : « ولكن ان قال ذلك العبد الرديء في قلبه سيدي يبطني قدومه فيبتدي بضرب العبيد رفقاه ويأكل ويشرب مع السكارى يأتي سيد ذلك العبد في يوم لا ينتظره وفي ساعة لا يعرفها فيقطعها ويجعل نصيبه مع المرائين هناك يكون البكاء وصرير الاسنان » . وقد رأى المؤلف جيمز شهباً بين هذين النصين وحكم أن عبارة مثل الانجيل تعتمد على عبارة قصة أخيقار . على أن فيتر Vetter يرى أن هذا التشابه من قبيل الصدفة خاصة وأنه ليس من شبه أو اتصال بين أمثال العهد الجديد وأمثال أخيقار سوى في هذه الناحية .

ورأي البعض شهباً بين قصة أخيقار وبين ما جاء في التلمود . ومن أظهر وجوه الشبه ما ورد في أخيقار بأنهم طلبوا منه أن يبني قصرأ في الهواء وأن يخطط حجر الرحي المكسور ، وثم ما ورد في التلمود البابلي من أن حكاء أثينا طلبوا من الحاخام يشوع بن حنانيا أن

يبنى لهم قصرأ في الهواء فاجاب « هنالك قصر بين السماء والارض يحتاج دوماً الى قريـد
وطين » فقالوا : « ومن يمكنه ان يوصل هذه المواد الى ارتفاع كهذا » فاجاب : « ومن
يمكنه أن يبنى بيتاً بين السماء والارض ! » ثم قالوا له : « لدينا حجر رحي مكسور فهل
يمكنك ان تخطه » فاخذ قطعة منه وناولهم اياها وقال : « اصنعوا لي أبرأ من هذه القطعة
حتى أخيط الحجر » فاجابوا « ومن يمكنه أن يصنع أبرأ من قطعة حجر ؟ » فقال : « ومن
يمكنه اذاً أن يخط حجر رحي ؟ » هذه العبارات غير واردة في التلمود الاورشليمي ولذا
فهي غالباً من تأثير الادب البابلي وقد تكون مستوحاة من قصة أخيقار . ويشير غاستر Gaster
الى عبارات من الأدب اليهودي تشبه نوعاً ما جاء في قصة أخيقار ومن أهمها ما روي عن اليعازر
الكبير أنه قال : « يا بني لا تطلع زوجتك على اسرارك وكن أميناً ومخلصاً في كل شيء ولا
تعط سرك لصديقك حتى ولو كنت على أحسن حال معه » وفي هذا شبه بأقوال أخيقار . على ان
غاستر نفسه يقول ان نواحي الشبه قليلة ولا يمكن أن تكون صلة مباشرة بين الكتاين .

وقد ذكر رندل هاريس في مقدمته لفصة أخيقار^(١) التشابهات بين أخيقار وبين ما ورد
في السورة ٣١ (سورة لقمان) في القرآن بشأن لقمان وذلك فيما يختص بعرفان الجميل وبشكرانه
وبتوجيه النصائح الاخلاقية التي تبدأ بكلمة « يا بني » وبنواح اخرى . وقد تطورت قصة
لقمان وأخيقار بعد ذلك حتى أننا نجد في مجموعة أمثال ونصائح ربما من وضع حنين بن اسحق
ترجمة لحياة لقمان وحكماً موجهة الى ابنه . ومؤلف هذه المجموعة ينسب الى لقمان المولود في
الحبشة بعض الأعمال الموجودة في حياة أيسوب . ومن النصائح الواردة في هذه المجموعة :
« يا بني تحدث مع الحكماء وبذلك يمكنك أن تنال الحكمة » (قارن أخيقار ٣ : ١٦) . « يا بني
الزم الصمت لانني كثيراً ما ندمت على الكلام أكثر من ندمي على السكوت » (قارن
أخيقار ٣ : ١٧) . « يا بني لا تجعل رفاقك سوء اصحابك لئلا تصبح واحداً منهم » (قارن أخيقار ٣ : ١٦) .
« يا بني لا ترغب في الجلوس في أرفع مكان لأنه خير أن ينقلوك من مكان منخفض الى مكان أعلى
من أن تنالك الاهانة بنقلك من مكان مرتفع الى مكان أدنى » (انظر أخيقار ٤ : ٢٧٦) .
« انه اسهل أن تنقل الجبال من مكان الى آخر من أن تفهم شيئاً لمن لا فهم له » (قارن أخيقار ٣ : ٨٠) .

ان هذا المقدار من المقارنات بين ما جاء في قصة أخيقار من حكم وأمثال وبين ما جاء في آداب الأمم الأخرى يربنا درجة انتشار هذه القصة وتأثيرها في الادب العالمي .

ترجمات قصة أخيقار :

لقد ضاع النص الاصيل لقصة أخيقار ولم تبق الا ترجماتها المتعددة . غير أن هذه الترجمات تحوي جميع التعديلات التي أدخلها المترجمون . ومن أمثلة ما فعله هؤلاء المترجمون نورد ما كتبه آكوب في ترجمته الافرنسية المأخوذة عن مخطوطين عربيين قال : « هذه الأمثال مأخوذة عن النص العربي وكل ما فعلته هو أنني رتبته بأسلوب أكثر انتظاماً واضطرت الى حذف بعضها اما لأن الحكم فيها ذات مغزى عادي أو لأنها اذا ترجمت الى الفرنسية قد تبدو غريبة للقراء الاوربيين » . (١) بهذا الشكل تصرف المترجمون ، فقد غيروا ترتيب الحكم وحذوا بعضها وفي بعض الأحيان أضافوا اليها . ومن المترجمين من لم يحذف ولم يضيف شيئاً وانما أدججوا العبارات بعضها ببعض وكتبوها بعباراتهم الخاصة . وبأني لافونتين فيما بعد فيوجز في ترجمة النص اليوناني الذي لم يكن سوى «وجز مكثف للنص الاصيل . ولهذا تبدو الترجمات المختلفة لقصة أخيقار متباينة مختلفة في نصها . ولم يقتصر الترجمة وحدهم على التصرف بالنص الاصيل فهناك النساخ انفسهم الذين اما بسبب الكسل أو الاهمال حذفوا بعض الامثال أو الحوادث وآخرون بسبب تحمسهم لموضوعهم أضافوا اليها بحيث نجد فروقاً بين مخطوط وآخر في نفس الامة . فهناك مثلاً النص العربي الذي نشرته أغنيس سميث ورفاقها (طبعة كبرديج) وهو مبني على مخطوط كرشوني (عربي مكتوب بالخط السرياني) في كبرديج وقد اضطرت أن تترك بعض نواقص هذه المخطوطة باضافة عشر عبارات استعارت ثلاثة منها من طبعة الأب صالحاني (طبعة بيروت ١٨٩٠) وسبعة من مخطوط في المتحف البريطاني . وكذلك في ترجمة النص السلافي (طبعة كبرديج) نجد ان الأمثال من رقم ٩٧ حتى ١٤٣ مفقودة في المخطوطات القديمة ولا نجدها الا في مخطوطتين سلافيين من المناطق السلافية الجنوبية يرجعان الى القرن الخامس عشر . وقد تكون هذه الامثال الناقصة في المخطوطات القديمة مضافة بالنسبة للمخطوطات السلافية الحديثة لانها ليست موجودة في الترجمات الأخرى . وأخيراً

فإن الموامش التي أضافها كوينبير الى الترجمة الأرمنية تفيدنا ان مخطوطات هذه الترجمة تعرضت لكثير من الحذف والاضافة والتكرار والتغيير . وعلى ذلك فإن قصة أخيقار قد تناولها العتب الكثير من قبل الترجمة والنساخ . وتحتاج اعادتها الى نصها الأصلي الى طبع كل من الترجمات بعد الاطلاع على أكبر عدد ممكن من مخطوطات كل ترجمة والى مقارنة هذه الترجمات بعد التثبت من نصها .

وسنكتفي ببعض التفاصيل عن مخطوطات الترجمتين السريانية والعربية . فالترجمة السريانية تحتويها مخطوطات متعددة لم تنشر الا واحدة منها . ويبدو انها كلها من أصل نسطوري بحيث انتشرت قصة أخيقار في الشرق باتجاه فارس وأرمينية وانتشرت قليلا في الغرب . وبين هذه المخطوطات مخطوط نسطوري من حوالي القرن الثاني عشر بقيت منه ورقة واحدة في المتحف البريطاني وتمكن بواسطتها هوفمان أن يعلم أن أخيقار المذكور في الحكايات العربية هو نفس أخيقار المذكور في كتاب طوبيا . ثم هنالك مخطوط كبردج النسطوري الذي أنهى في ١٨ تشرين الاول ١٦٩٧ وفيه قصص كثيرة منها قصة أخيقار التي ترجمت الى الانكليزية في طبعة كبردج . وهنالك مخطوط برلين الذي وضعه واختصره بالالمانية ساخاو في فهرس المخطوطات السريانية في برلين . وهذا المخطوط حديث نسخ في ١٨٨٣ في « تل كيف » ولم ينشر وقد ترجمه « نو » لأول مرة في ١٩٠٩ . وفي برلين مخطوط سرياني آخر فيه قطعة تتعلق بأخيقار ترجع الى القرن الخامس عشر . وفي المتحف البريطاني مخطوط نسطوري كتب في القرن السادس عشر تقريباً وفيه نحو ثمانين صفحات عن أخيقار وهنالك مخطوط سرياني في دير الكلدان في جبل بيت عذري شمالي الموصل عنوانه « قصة أخيقار كاتب سنحاريب ملك آشور وابن أخيه نادان » ويرجع الى ١٨٨٣ . وفي اورميا ثلاث مخطوطات لقصة أخيقار . والمتفق عليه هو أن الترجمة السريانية مأخوذة رأساً عن الاصل الآرامي أو عن ترجمته العبرانية وانها المصدر المباشر أو غير المباشر لجميع الترجمات الباقية .

وفي برلين مخطوط سرياني يحوي نصاً عربياً لقصة أخيقار وأمامه ترجمة في السريانية التوراتية الحديثة (اي لهجة طور عابدين) . وقد نشر مارك لدزبارسكي النصين وترجم النص السرياني الحديث (طبع وعمار Weimar) . أما في اللغة العربية فهناك ثلاث ترجمات احداها هذه التي ذكرناها ونشرها لدزبارسكي وبني عليها النص السرياني الحديث . والثانية محفوظة في مخطوطات

متعددة عربية أو كرشونية وبينها مخطوط كبرديج الكرشوني الذي كتب في ١٧٨٣ وهذا المخطوط كان أساساً لطبعة كبرديج العربية . وهناك مخطوط لندن الكرشوني وفيه قصة أخيقار وقد استخدم في طبعة كبرديج لا كمال نواقصها . وهناك أيضاً مخطوط غوتا Gotha الكرشوني الذي استخدمه كورنيل Cornill وأخذ عنه الحكم التي تقابل النص الحبشي . ومن مخطوطات الترجمة العربية الثانية أيضاً : المخطوط الكرشوني في بيروت الذي طبعه الأب صالحاني في كتاب (حكايات عربية) عام ١٨٩٠ ، ومخطوط باريس العربي الذي ترجمه كوسن دي برسيغال ومخطوط الفاتيكان بالكرشوني الذي ذكرته طبعة كبرديج ، وثلاث مخطوطات عربية في كوبنها كن والفاتيكان ، ومخطوط المتحف البريطاني بالكرشوني من القرن السادس عشر ، ومخطوط كرشوني لدى رئيس أساقفة الكلدان في ديار بكر من القرن السابع عشر ، ومخطوط باريس العربي الموافق لطبعة كبرديج . وهناك ترجمة عربية ثالثة ادخلت في نص ألف ليلة وليلة وفيها تعديلات ولها نصان الواحد ترجمة آ كوب والآخر نشره شافي وغازوت Chavis et Gazotte . ومصدر الترجمة العربية هو النص السرياني عموماً وتتبع تقريباً نفس الترتيب .

أخيقار وأصواب القصص الحكيمية :

يتميز أخيقار من القصصين القدماء الذين أثروا على القصص الحكيمية العالمية . وكانت القصص القديمة تحوي دروساً أخلاقية أو أمثالاً مأخوذة من عالم الحيوان أو الجماد لتظهر فكرة أخلاقية أو فضيلة من الفضائل . وأمثال أخيقار هي أفكار وعظات أخلاقية وتحوي أهم ما في مجموعات القصص ، بينما كان بعض الكتاب يجعلون القصص عنصراً رئيسياً ويدخلون الحكم فيها كما فعل لافونتين . وبعض عبارات أخيقار هي قصص حقيقية ويكفي أن يعدل شكلها قليلاً حتى تصبح مثل بابريوس Babrius أو لقمان أو ايسوب أو لافونتين . واليك بعض أمثلة لتأييد ذلك نذكر فيها عظات أخيقار وأمثاله وتعارفها بالقصص الخرافية المشهورة ذات المغزى الأخلاقي .

قال أخيقار : « يا بني لقد كان وضعي بالنسبة اليك كشجرة قالت للذين يقطعونها : لو لم يكن قسم مني في يديكم لما تمكنتم من مهاجمتي » . وجاء في بابريوس الذي كتب القصص المنسوبة الى ايسوب شعراً « ان الخطابين كانوا يشقون شجرة صنوبر ويضعون فيها أسافين من خشب ليسهل عليهم شقها فقالت لهم : اتني لا أشكو من الفأس لانه ليس مني ، ولكنني أشكو من هذه الاسافين الخبيثة التي ولدتها ومع ذلك تتضافر على تمزيقي ! » وفي مكان آخر من أقوال أخيقار نقرأ قوله « يا بني لقد كنت بالنسبة لك كأفراخ عصفور وقعوا من عشم فأت قطرة

وأمسكتهم وقالت : لو لم أتدارككم لكان أصابكم مكروه عظيم . فاجابوا : ومن أجل هذا جعلتنا في فك ! . . يقابل هذا القول قصة رويت عن لقمان جاء فيها « ان ابناء عرس عندما بلغهم خبر مرض الدجاج لبسوا ثياب الطواويس وأتوا لزيارتها قائلين : سمعتن حالاً أيها الدجاج كيف صحتكن ؟ فاجابت الدجاج : ان صحتنا تصبح في أحسن حال حين لانعود نراكم ! . . هذه القصة تدور حول موضوع الذي يتظاهر بالصدقة ويضمر الحقد وتشبه قصة ايسوب وموضوعها « القطة والمصافير » .

وقد جاء في أقوال أخيقار : « يا بني ، لقد كنت لي مثل عقرب اصطدم بصخرة فقالت له : لقد أصبت قلباً قاسياً . ثم اصطدم بآبرة فقتل له : انك تصطدم بآبرة أقوى من ابرتك » . يشبه هذا القول قصة لافونتين التي تروي أن حية دخلت حانوت ساعاتي وأخذت تبحث عن شيء تأكله فلم تجد سوى نصلة من فولاذ أخذت تقضمها فقالت لها النصلة : ماذا تظنين أنك فاعلة ياغبية ، لقد اصطدمت بما هو أقوى منك . وبين قصص لقمان ما يترجم قصة ايسوب رقم ٤٩ في هذا الموضوع بشكل أحسن مما فعله لافونتين .

والأمثلة كثيرة عن نواحي التشابه هذه منها مثل الكلب (في أقوال أخيقار) الذي ذهب يتدفأ عند الخبازين فحاول أن يعضهم ولذلك قتلوه ويشبه قصة الحية التي تدفأت عند أحد القرويين ثم حاولت أن تلدغه فقتلها وقد وردت في ايسوب وفي لافونتين . ومنها الحوار بين الفخ والعصفور في أخيقار ويشبه حوار الذئب والابنة الصغيرة ذات القبعة الحمراء . كذلك يمكن العثور على تشابهات كثيرة بين حكم أخيقار وبين المغازي الاخلاقية لمختلف القصص الحكيمية ومنها مثلاً قول أخيقار : « لاتؤذي الرجل القوي اثلاً يقاومك ويسبب لك الازى » ويشبه مغزى قصة الارانب والثعالب عند ايسوب ولقمان وهو أن الانسان لايجب أن يهاجم من هو أكثر حولاً وطولاً منه . ومنها قول أخيقار : « يا بني ، عندما يصبح الغراب أبيض كالثلج وعندما يصبح المر بجلاوة العسل عند ذلك يصبح الغبي حكيماً » ويشبه ماظهره قصة الزنجي في لقمان وايسوب من أن الشرير يمكن أن يفسد الصالح ولكن لاشيء يصلح الشرير . وقول أخيقار : « ان المغزى القريبة تسوى أكثر من نور وان عصفوراً تمسكه في يدك خير من مائة عصفور تطير في الهواء » يشبه مغزى قصة الكلب الذي يترك الفريسة ويتبع الظل المروية في لقمان وايسوب وباريوس ولافونتين والتي تتوجه الى الذين يهملون خيراً مؤكداً موجوداً ليسعوا وراء خير أكبر انما بعيد وغير مؤكد . وهناك قول أخيقار : « يا بني ، لاتفرح بكثرة عدد أولادك

ولا تحزن اذا لم يكن لديك أولاد ، ويشبه مغزى قصة الأرنب والبوة في لقمان وإيسوب ومؤداه أن ولداً واحداً اذا كان صالحاً خير من أولاد كثيرين أشرار . ومن أقوال أخيقار : « يا بني إذا لم تدع الى اجتماع فلا تذهب واذا لم تسأل فلا تعط جواباً » ، ويشبه هذا القول مغزى قصة الكلبيين في لقمان وإيسوب وبابريوس وهو أن كثيرين من الناس يأتون بدون دعوة ثم يطردون مشيعين بالاحتقار والخجل .

وقد اهتم الباحثون في أمر هذه المشابهات . ورأى بعضهم انه اذا كان لا يمكن التأكيد بان إيسوب شخصيه شرقية نقلت الى بلاد اليونان^(١) فانه من المؤكد على الأقل أن قصة أخيقار قد استخدمت لا كإل قصة إيسوب وأن لقمان هو نتيجة دمج شخصيتي إيسوب وأخيقار . وهناك أماكن كثيرة ذكر فيها إيسوب منها ما ذكره أفلاطون من أن سقراط في سجنه وضع قصص إيسوب شعراً منذ نهاية القرن الخامس ق . م . ويتساءل العلماء منذ القرن الثامن عشر اذا لم يكن إيسوب من أصل شرقي واذا لم يكن رمزاً يونانياً لمؤلف شرقي عاش قبل القرن الخامس ق . م . ويذكر العالم الألماني فابريسيوس^(٢) ان إيسوب لم يكن سوى آصف الشاعر صديق سليمان . وأراد مؤلف آخر أن يكتشف قسماً من الامثال التي عددها ثلاثة آلاف والانشاد التي عددها الف وخمسة التي وضعها سليمان (والمذكورة في سفر الملوك الاول ٤ : ٣٠ - ٣٣) ففكر أن الملك سليمان هو مؤلف القصص المنسوبة الى إيسوب . ويروي صاحب هذا الرأي أن سليمان كان يتكلم بهذه الحكم على المائدة وان آصف كتبها ثم نسبت الى إيسوب بعد أن أدخلها مؤلف يوناني مثل ديموقريطس الى بلاد اليونان . ومن جهة أخرى فان رندل هاريس يقترح ان آصف هو لقمان . على انه يجب التمييز بين الأقوال التي نسبها المؤلفون اليونان القدماء الى إيسوب وبين تلك التي أضافها بلانود Planude (وهو راهب يوناني في القرن الرابع عشر وضع قصص إيسوب) . ونجد بين هذه الأخيرة الأقوال المشتركة بين إيسوب وأخيقار ولذلك يتفق الباحثون انها ليست من أقوال إيسوب وانما يرجعونها الى أخيقار . وقد اعتقد المؤلفون اليونان الاقدمون ان إيسوب كان عبداً ولكن لم يذكر أحد انه كان زنجياً مشوهاً . غير ان شخصيته تحولت في الشرق وجعلت معادلة لعبد حبشي (وذلك من الشبه بين Aethiopian, Aesop) اسود أحذب وبهذا تحولت شخصيته الى لقمان .

(١) يعتقد الذين كتبوا عن إيسوب ومنهم هيرودوتس وفلوطرخس انه عاش في بلاط كيريوس (قارون) حيث يقال انه تعرف الى صولون حكيم اليونان .

Bibliotheca Graeca . ed. Hamburg 1790 Vol. I P. 620 .

(٢) في

أما لقمان فقد اهتم الباحثون بشخصيته منذ أن ذكرت في السورة ٣ في القرآن فجعله بعضهم ابن أخ أيوب أو ابن عمه (١) وجعله البعض الآخر متصلاً بإبراهيم وقال الآخرون ان لقمان هو بعلام نفسه . ويتفق الجميع أنه كان عبداً أصله من الحبشة أو النوبة وانه ظهر بمسد أن بيع في عصر داود وسليمان . وتقول الرواية ان الملائكة قالت له انه سيصبح ملكاً باذن الله ولكنه أجاب بانه يفضل الاحتفاظ بوضعه ، فسر الله بجوابه وأعطاه الله الحكمة والمقدرة على تعليم الناس عن طريق الحكم والأمثال التي قيل أن عددها ألف . واعتقد ديريولو D'Herbelot ان لقمان هو نفس ذلك الشخص الذي سماه اليونان ايسوب . والواقع أنه بين حكم وأمثال لقمان أموراً نقرأها في قصص ايسوب حتى أن الباحثين يتساءلون اذا كان اليونان أخذوها عن العرب او اذا كان العرب نقلوها عن اليونان . على أنه من المؤكد أن التعليم بطريق القصص والأمثال هو من صفات الشرقيين أكثر منه من أساليب الغربيين . ويؤكد مارسيل Marcel الذي نشر قصص لقمان وترجمها (٢) أن هذه القصص وحدها مع قصص بيدبا تستحق أن تسمى مبتكرة بينما قصص ايسوب وحتى قصص لافونتين نفسها ليست سوى ترجمات ونسخ عنها . على أن فرنسوا نويقتد أن بعض ما ذكر عن لقمان لا يرجع الى ايسوب وانما يتصل بأخيقتار . ولكن جماعة من المعلقين أوجدوا صلة بين لقمان والعهد القديم ثم بينه وبين ايسوب الذي اعتبروه حبشياً وعبداً أسود وبنتيجة ذلك نسبوا الى لقمان مجموعة من قصص ايسوب التي لا بد وصلت اليهم بطريق ترجمة سريانية .

والنتيجة أن هنالك ذكر حكيمين متعاصرين في حوالي القرن السابع ق. م. وهما ايسوب عند اليونان وأخيقتار في بلاد الرافدين . وقد أدخل اليونان قصة أخيقتار في قصة ايسوب بينما في العصر الحديث اعتقدوا بوجود صلة بين ايسوب وآصف أو الحكماء الشرقيين . والذي هو مؤكد على الأقل هو أن قصة أخيقتار قد ساعدت في تكوين قصة ايسوب وان قصصه قد ادخلت بين قصص ايسوب وان حكيماً ثالثاً وهو لقمان ربما كان اسماً مستعاراً لأخيقتار ولكنهم نسبوا اليه بعض صفات ايسوب الحبشي وقصصه . والمهم في كل هذا هو الاتصال والتفاعل بين الاقوال الحكيمية المنسوبة الى أخيقتار والى غيره من الحكماء في الشرق وبلاد اليونان وانتقالها الى الأدب الحديث .

مورج حداد

Basset : Loqman Berbère . Paris, 1890 .

(١)

J. J. Marcel : Fables de Loqman. 2 éd Paris . 1803 P. 10 .

(٢)

دمشق

اللجنة الأولمبوسكو الدولية^(١)

١ - تسطّل المدينة :

تجد دمشق ، القائمة على حدود الصحراء ، وسط سهل الغوطة الواسع الذي يرويه نهر بردى ، في موقعها الجغرافي ، وفي مياهها ، وحدثاتها المقومات الأساسية لحياتها ونموها . ويتحدث تركيب أحيائها ، وعمارة بيوتها وأوابدها وشوارعها ، عن العصور المتعاقبة التي نشأت فيها ، وعن تاريخها السياسي ، وصناعاتها ، وتجارتها . وقد تألفت نواتها الحالية في زمن الحاق سورية بامبراطورية الاسكندر . إذ قامت آنئذ في شرقي المدينة الآرامية القديمة ، مدينة على نموذج اغريقي ، بتخطيط منتظم دعت اليه الحاجات العمرانية . ويمكن عد هذا التخطيط مثلياً حتى يومنا هذا ، لأنه تألف من جزيرات مستطيلة ، طول كل منها نحو ١٠٠ متر ، وعرضه نحو ٤٥ متراً .

ولما اشتركت سورية بحياة الامبراطورية الرومانية استفادت دمشق فائدة كبرى ، وحدثت فيها أعمال التجديد العمراني خاصة في زمن الامبراطورين (سبتيم سيفير) و (كاراكالا) ، واكتسبت الشوارع اهمية تتناسب مع مواقعها قريباً وبعداً من أبواب سور المدينة . و (الباب الشرقي) الحالي هو جزء من الباب الشرقي القديم ، الذي كان يقع في نهاية الشارع المستقيم .

(١) حررت اللجنة الدولية التي كلفتها منظمة الاولمبوسكو بدراسة آثار سورية على وجه عام ، خلال صيف سنة ١٩٥٣ ، هذا البحث عن حاضرة البلاد . وسنذكر مع النصول الاخرى للمنطقة بآثار بقية للمناطق السورية بالفرنسية والانكليزية والدرية في بحر الاشهر المقبلة . وقد تألفت اللجنة الدولية من الدكتور (بول كولار) عميد كلية الآداب في جنيف ، ومن المهندس (أرماندو ديلارين) مدير آثار صقلية ، ومن الدكتور (سليم عادل عبد الحق) مدير الآثار العام في سورية .

وقد أعيد تركيب فتحة من فتحات قوس (ضخمة قديم) (١) منذ مدة قريبة ، في جزء من التخطيط القديم لهذا الشارع . كما ان الأطلال الرائعة في غربي المسجد الأموي هي بقايا معبد (جوبيتر الدمشقي) ، وتتألف من أعمدة كورنثية كانت لاحد مداخل المعبد ، وفوق هذه الأعمدة بعض الأقواس ، وما تحمله من قطع ضخمة منحوتة .

وظلت دمشق تابعة إلى روما ثم إلى بيزنطة ، حتى فتحها العرب . فجعلوا منها في ظل سلالة الأمويين عاصمة لامبراطورية كبرى ، ومركزاً سياسياً وثقافياً ودينياً كبيراً . وكان قلبها (الجامع الأموي) الذي بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك مكان المعبد الوثني القديم ، وكنيسة القديس يوحنا المعمدان . وقد وفق المهندسون الشاميون مخطط المسجد مع مجموع أطلال الأبنية القديمة ، وأدخلوا في تركيب بنائه بعض أجزاء هذه الأبنية ، ونشروا مشاهد الفسيفساء الرائعة ، وأعاجيب الصنائع الفنية الدقيقة على أطراف صحنه . حتى غدا هذا المسجد آية من آيات العمارة ، واشتهر وذاع صيته واشتهار وذبوع صيت مسجد عمر في القدس .

ولما جاء زمن العباسيين فقدت دمشق صفتها كعاصمة ، وزالت منها آثار الأمويين ، وهدمت منشآتهم ، وأزيل سورها الحصين لكي يتأمن للخلفاء العباسيين إخضاع سكانها ، ومنع ثوراتهم . ومرّ عليها عهد من الفوضى والاضطراب ، ونشأت خلالها نقابات الحرف ، وازدهرت الحياة الثقافية . ولم تعد المدينة جسماً متماسكاً ، تصرفه الإدارة التي تملك السلطات العالية العامة وتدير شؤون المجتمع ، وانقسمت إلى أحياء مستقلة ، يشبه كل منها مدينة صغيرة . وكانت هذه الأحياء تتنافس ، وتملك تنظيماتها الخاصة ، وفي كل منها مسجد وحمام وأسواق ، وكل واحد حدود وأبواب ، وشيخ تحت تصرفه قوات نقابية .

ونتج عن هذه الظروف العامة نظام جديد للملكية ، ومفهوم جديد للحياة المدنية ، وتشكلت هيئات جديدة للدفاع عن حقوق النقابات الخاصة كانت لها صفات دينية ومهنية .

(١) هذا القوس هو القوس الذي عثرت عليه مديرية الآثار العامة في سنة ١٩٤٧ في حي الأمين . وكان منخفضاً بنحو (٥٥٠ م) عن سوية الشارع الحالي ، وقد نزعته وجعلته حجراً حجراً وأعادت تركيبه وترتيبه ، بمد أن رفعت إلى هذا الطريق .

٢ - العصر الأيوبي:

وقام الأتابكة السلجوقيون ثم السلاطين الأيوبيون من بعدهم بإعادة الأهمية الثقافية والدينية إلى دمشق وأرجعوا لها صفتها العسكرية . وذلك لأنهم كانوا متحمسين لاعتلاء شأن الإسلام السني ، والدفاع عن الشام ضد الصليبيين . وقد توزعت أحياء المدينة في هذا العصر بحسب المذاهب الدينية ، فتمركز المسيحيون في الشمال الشرقي من المدينة القديمة ، وأقام اليهود في جنوبها الشرقي ، وشغل المسلمون كل ما عدا ذلك ولا سيما قسمها الغربي . وهناك نشأت المدارس الكثيرة والأبنية العامة ، وشيدت القلعة . وقد استخدم في بنائها أسس السور القديم ، وبعض أحجاره . وانشطر عن المدينة بعض الأحياء التي تألفت بعيداً عن النواة العمرانية القديمة . وارتفعت المساجد والمدارس في المناطق النائية ، وحول جبل قاسيون حيث ينسجم الجو مع الدراسة والتعب . وما زال قائماً من هذه الأبنية نحو خمسين بناء . وقد هجر بعضها ، وتهدم بعضها الآخر ، وتبدلت معالم قسم غير يسير منها ، أو أنها ضمت إلى أبنية حديثة .

و (بيمارستان نور الدين) أهم أبنية هذا العهد في المدينة القديمة . وهو أحد المستشفيات المشهورة جداً في العالم الإسلامي . وله أهمية كبرى . ومما يؤسف أنه أحيط بعدد من الأبنية الحديثة ، وله باب ذو زخارف فنية عربية ، قوامها المقرنصات ، ومصرعان جميلان . وفوقه جبهة كلاسيكية . ووراء هذا الباب دهليز مغطى بقبة صغيرة مضلعة منتفخة ، قائمة على عنق مخروطية فوقها المقرنصات المتعالية ، التي تشاهد أيضاً من خارج البناء ، كما هو الأمر بمدفن زبيدة بالقرب من بندان . وفي صحن البيمارستان إيوانان جميلان ، وبعض بقايا الزخارف الخطية ، ونوافذ ذات زخارف جصية بديمة .

وفوق (المدرسة النورية) الواقعة إلى الجنوب من المسجد الأموي قبة تماثل قبة البيمارستان . غير أن باب هذه المدرسة لا يشبه باب البناء المتقدم . إذ أنه يتصف باحتوائه على موضوع زخرفي جديد هو المفتاح الحجري المدلى الذي يشاهد أيضاً فوق باب (المدرسة العادية) ، التي تعد آية من آيات البناء الصلب والتجهيز المعماري القوي . وقد رسم مخطط هذا الباب ، ونفذ حسب أصول العمارة السائدة آنئذ في سورية الشمالية وأساليها . ويشغل المجمع العلمي العربي حالياً هذا البناء . وقد أصلح ورمم ، وأجريت فيه بعض التعديلات بعناية فائقة . وهو يؤلف مع المدرسة الظاهرية (وهي المكتبة الوطنية حالياً) التي كانت بيت والد صلاح الدين ، ثم جعلها

الظاهر بيبس مدرسة ومدفناً ، ومع المدرسة العزيزية (مدفن السلطان صلاح الدين الأيوبي) شمالي الجامع الأموي ، مجموعة مهمة من الأبنية التاريخية التي ما زالت تحتفظ بكثير من الخلفات الفنية ، والكتابات ، والفسيفساء ، والأبواب ، والنوافذ القديمة .

وعلى هذا فإن الحياة الفنية في عهد نور الدين وصلاح الدين في دمشق تختص بأنها متأثرة من فنون بلاد الرافدين وسورية الشمالية .

وتقوم شمالي نواة المدينة القديمة ، في المنطقة الواقعة بين النهر وشارع بغداد الجديد ، عدة مدافن منها (مدفن ست الشام) (سنة ١١٧٢) . وهو أقدمها ، وله قبة قائمة على عنقين ، ومدفن (السلطان حسن) ذو القبة المضلعة ، وتزينه زخارف جصية وتصاوير جميلة ، و (المدرسة الشامية) ، وتحوي أجمل مجموعة جصية منحوتة في دمشق ، وكتابات قديمة ، وبعض النوافذ الزجاجية الثمينة . وهناك أيضاً (تربة ابن المقدم) أمير حلب ، وهي بناء يشابه الأبنية الحلبية المماثلة . ويقع إلى شرقي المدينة (جامع التوبة) ، وقد أنشئ على شكل جامع بني أمية وتخطيطه وله أهمية كبرى ناشئة عن عمارته وتزييناته ، وبابه ، ومحرابه ، ونوافذه الزجاجية .

وقد تألف حي الصالحية على سفح الجبل حول مجموعة من المدافن والمدارس والمساجد التي هجرت اليوم ، أو أنها لم تستخدم بشكل مرضٍ ، ويشاهد في موقع جميل ، على نهر يزيد عدد من الأعمدة كانت جزءاً من أقدم مدارس الصالحية ، وعدد من الأوابد التي بناها أعيان بلاط نور الدين أو بلاط صلاح الدين . ومعظم هذه الأوابد مدافن تعلوها قباب من الآجر . وبعض هذه القباب مضامة ، وبعضها مزدوجة ، وقائمة على رقتين مزينتين بأقواس صغيرة أو محاريب منحنية أو مزدوجة . ويحوي كثير منها أضرحة خشبية منحوتة ، ونوافذ زجاجية قديمة ، وعوارض حجرية عليها كتابات رشيقة ورموز .

وفي (الجامع المظفري) المبني (سنة ١٢٠٢) زخارف مهمة جداً ، وفريدة في نوعها وهذا الجامع من أقدم المساجد الأيوبية ، ويذكرنا مخططة بتخطيط الجوامع الأموية . ويشاهد حول صحنه بعض الأعمدة القديمة التي استخدمت هي وتيجانها في الأروقة ، كما يشاهد في أبواب الحرم السبعة عوارض خشبية منحوتة مزينة بزخارف خطية محفورة . وقد احتفظ بإبان من هذه بكتبتين من الجص الخرم . وفي داخل الحرم عدة نوافذ زجاجية قديمة .

ومن الواجب ذكر (المدرسة الأتابكية) التي أنشأتها الأميرة تركان خاتون ودفنت فيها . ولها باب مزين بالقرنصات . ويبدو اليوم هذا الباب كأنه محطم لما أضيف عليه من عناصر

متفرقة أخفت أعمدة الزوايا . ويتوجب رفعها ويلاحظ أن شكل مقرنصاته ، وأحجار قوسه ، وصنعة كورنيشه ذات صفات فريدة لا تخلو من بعض القسوة .
وامتد هذا الحي فيما بعد ، واتسع كثيراً ، وأضيف إليه حي الأكراد في زمن صلاح الدين ، وحي المهاجرين في نهاية القرن التاسع عشر . في وسطه حالياً جامع محي الدين الذي بناه السلطان سليم سنة (١٥١٨) حول ضريح الصوفي المنهور . وهو يحوي أيضاً قبر الأمير عبد القادر الجزائري . وله مثذنة جميلة ، وتزينه الواح بديمة من الفاشاني الثمين .

٣ - عصر المماليك :

وتابعت دمشق تطورها وانتشارها خارج سورها في فاتحة عصر المماليك . واختصت صناعاتها تبعاً لأذواق العصر بالمنتجات الثمينة . وقد ساعد الصليبيون أنفسهم على توثيق علاقاتها بالعالم الغربي . فجعلت ترتبط شأن مدينة حلب بعلاقات تجارية مع فرانس الجنوبية ، ومدن جنوا وبيزا والبندقية الايتالية . وعرفت في كل مكان بمصنوعاتها الفنية كالأقمشة الحريرية ، والادوات النحاسية ، والأسلحة والأواني المطلية بالميلاء ، والأشياء الزجاجية . ونشأ عن هذه الفاعلية الصناعية أن اتسعت أسواقها ، وانتشرت شمالي القلعة في منطقة (سوق الخيل) ، حيث بني (جامع يلبنغا) سنة (١٢٦٤) .

وقام حكامها وقوادها المسكربون وأفراد أسرهم يحتذون مثل سلاطين القاهرة ، ويبنون عدداً كبيراً من المدارس والمدافن . وقد انتشرت هذه المدافن خاصة على طول طريق الحج التي تنجّه من طرف المدينة الجنوبي الى مكة ، حتى يستفيد أصحابها من دعاء الحجاج حين مرورهم بترهم . ونشأ على طرفي هذه الطريق حي جديد هو حي الميدان ، وتتفق صفته مع طبيعة تجارة الحج الخاصة . وقد أُلّف هذا الحي ضاحية للمدينة طولها ثلاثة كيلومترات ، متصلة بمحيط المدينة بمجموعة من الأسواق (السنانية) واقعة خارج الباب الغربي من السور بين حي الشاغور وحي قصر الحجاج وقد تمثل حي الميدان قرية القبيبات القديمة ، وهو ينتهي بباب الله الذي كان يخرج منه الحجاج للسير نحو الحجاز .

ويطول أمداد كل الأوابد التي بنيت في هذا العهد ، والتي ما تزال قائمة في الأحياء المذكورة . حتى أن مديرية الآثار العامة لم تسجلها جميعاً ، على الرغم من أن لبعض المآذن والبرك غير المسجلة ، أهمية فائقة ، لأنها تساهم في خلق الجو الدمشقي الخاص ، ولائها

تحتوي عناصر فريدة ، قد لا تظهر دوماً بسبب التغيرات الكثيرة التي طرأت عليها ، أو بسبب ما تلاعب عليها من إصلاحات سيئة أخفت مزاياها .

وان نذكر هنا إلا بعض الابنية التي تمتاز بصفات فريدة خاصة ، مثل تربة الافريدونية (جامع المجمي) ، الواقعة في أول حي الميدان . وهي مدرسة لتعليم القرآن ، وقد دفن فيها التاجر الفارسي (أفريدون) المتوفى سنة (١٣٤٨) . وواجهتها جميلة ، وتتألف من صفوف من الأحجار البيضاء والسوداء متعاقبة على شكل متوازن ، حاو لعناصر زخرفية منسجمة مع بعضها انسجاماً كلياً . وهذه العناصر كثيرة ، وفيها الطنف ، والكوات ، وباب مزين بالزخارف المنزلة ، ولهذا الباب قبة على شكل الصدفة ، ومقرنصات بديمة ، وكتابات خطية ، وقوس يتألف من قطع حجرية متداخلة ، وألواح مستطيلة ذات زخارف نباتية محفورة . وقد نسخ الفنانون اللمشقيون هذه الزخارف فيما بعد ، وزينوا بها عدداً من الأبواب الأخرى .

ويقع الى جنوبي هذه التربة تربة يطلق عليها اسم (الولي الشيباني) . وعمارتها بسيطة غير أنها جميلة . وواجهتها ذات مداميك منحوتة نحتاً جيداً ، وفيها باب مقرنص ، ونافذتان موصولتان بعارضة مشتركة متألفة من ثلاثة صفوف من الأحجار ، الأوسط منها من أحجار المدككة ، وفوق العارضة التي تفرق بينها كوة مستديرة ، وتغطي البناء قبة قائمة على رقبة تتوزع حولها ست عشرة نافذة .

وفي وسط الميدان تقوم (تربة عراقك) ، وهي من نفس العصر (سنة ١٣٤٩) . وتخطيطها أكثر تعقيداً من تخطيط التربة السابقة . ويزين واجهاتها الفاشاني الازرق المنزل حول بابها المقرنص والمزخرف بخطوط منزلة أيضاً . ولاطراف هذا الباب المقطوعة مقرنصات أيضاً . ويلاحظ فيها ان عوارض النوافذ تقسم سطح الجهاز الملون بالأحجار المدككة ، على شكل متتابع ومزدوج ومتعاكس . كما أن أحجار الاقواس المنظمة على شكل محدد حول الكوات المستديرة كثيرة ، وتتألف لإشعاعات على شكل قوارير . وكذلك فإن العوارض مزينة بعناصر هندسية ونباتية . وأخيراً فانه يحيط بكل هذه العناصر زخرفة مكتوبة تتناسب معها وتوحد بينها .

وقد انتشرت العناصر البنائية والتزيينية المستخدمة في العمارات المتقدمة بشيء كثير من التوازن والانسجام على واجهات الابنية المتأخرة ، وعم استعمالها بكثرة زائدة على سطوحها ،

حتى أصبحت هذه السطوح تشعرنا بكثير من علائم الفوضى الزينية ، والتفكك ، والانحطاط الفني ، التي تطبع آخر عصر الممالك بطابعها .

هذا وان التربة (التينية) المبنية سنة (١٣٧٧) مركبة تركيباً جيداً ، ولها قباب قائمة على مقرنصات . ولواجهتها باب مقرنص واقع في محورها ، وزخارف جميلة حول كواتها تؤلف منطقة أفقية ، يقابلها ، داخل الباب ، لوح مزين بزخارف منزلة مرمرية وقاشانية نباتية حول الرمز المملوكي الممثل .

وتشاهد هذه الصفات أيضاً في (المدرسة الرشيدية) ، التي جعل في مدخلها حالياً بناء طفيلي ، وحجب جزء من واجهاتها الجميلة باصافات بنائية جديدة . ويتوجب علينا أن نذكر أيضاً بين منشآت الممالك المتأخرة (المدرسة الصابونية) و (المدرسة السباهية) في النهاية الغربية للشارع المستقيم ، و (المدرسة المرادية) . وتساهم هذه الابنية الاثرية بمواقمها الممتازة ، وتجذب قباها ، وجذوع مآذنها الجميلة ، في خلق أجواء خاصة تحسن منظور هذا الشارع .

ومن منشآت هذا العصر في المدينة القديمة ، وفي أحيائها الشمالية ، عدد من الابنية الاثرية الاخرى . وكنا ذكرنا اسم (جامع بلبغا) الذي يذكرنا تخطيطه بتخطيط جامع بني أمية ، وتشاهد فيه المحاريب والنوافذ المقرنصة المبنية على شكل جميل للغاية ، كما تشاهد فيه مناطق للزخارف الجصية المحفورة ، والنوافذ الزجاجية ، والابواب والمئذنة . ومن اللازم أن يظهر جمال هذا المسجد ، وأن يحسن كل التحسين ، وخاصة واجهاته الخارجية .

ويعود عهد مجموعة من الابنية المهمة الى زمن (تنكز) نائب الملك في بلاد الشام . ولم يبق من المسجد الذي يحمل اسمه إلا مئذنته الجميلة وبابه الرائع ، على أثر الاعمال العمرانية التي قامت في شارع النصر . غير أن التربة المزروجة التي شيدها زوجته والتي تعرف باسم (التربة الكوكباتية) مازالت قائمة في الشارع المستقيم ، كما تقوم غير بعيد عنها (دار الحديث الشريف) .

وآخر أبنية هذا العصر مئذنتان جميلتان (القلي ، وهشام) في سوق باب الجالية ، وتختصان بتخطيطاتها المتعاقبة ، وزخارفها الفنية ، وكذلك مئذنة (جامع الملق) ، حيث يؤلف شكل عمارتها بواسطة الاحجار السوداء خطأ متصلاً حول محاريبها وورداها .

٤ - العهد العثماني :

وحدثت في آخر عصر المماليك أزمة اقتصادية شديدة في دمشق ، زاد في وطأتها ، آثار التخريب التي تركها (تيمورلنك) ، وانحراف تيارات الشرق الدولية عن سورية ومصر بسبب اكتشاف البرتغاليين للطريق البحرية حول رأس الرجاء الصالح . ولم تستعد دمشق نشاطها الا لما أصبحت في عداد مدن الامبراطورية العثمانية ، التي وسعت لها حدودها الاقتصادية والسياسية . وفتح نظام الامتيازات الاجنبية المرافىء التركية أمام التجار الاوربيين ، كما أن الحجيخ الى مكة الذي كان يتألف في دمشق صار يتطلب منها تأمين الوسائل الكافية لتجهيزاته ، وجمع مؤنه وأغذيته ، قبل اجتياز الصحراء .

وأدت هذه الشروط إلى بناء رباطات كثيرة ، حول باحات تقوم أروقتها على عمد ، ولها دكاكين ، واصطبلات في الطابق السفلي ، وفاعات للنوم في الطابق العلوي . وفقدت المدينة أهميتها الاستراتيجية والعسكرية . وأصبحت تحصيناتها العسكرية عديمة الفائدة منذ تشكل الاحياء الخارجية ، فأهملت العناية بها ، ومليء خندقها ، وبدأت فلعتها بالتهدم . وصار الباشا الحاكم يقيم في السراي خارج السور في حي القنصوات هو والارستقراطيون الاتراك ، وموظفو الادارات المختلفة .

وبالقرب من هذا الحي شيدت المدرستان الامبراطوريتان (السليمانية) سنة (١٥٥٤) التي بناها المهندس التركي المشهور (سنان) باني السليمانية في القسطنطينية ، و (السليمية) (سنة ١٥٦٦) التي بناها مهندس فارسي . وتؤلف هاتان المدرستان بقبتيهما المدعومتين بمساند ، وما يحيط بهاتين القبتين الكبيرتين من قببات تغطي الاروقة والغرف ، وبالجذعين المحروطين لثمثنتيهما الرشيقتين ، وتنظيم أحواض الماء والاشجار والازهار في باحتهما ، جواً خاصاً جداً يتفق مع ذوق القسطنطينية الذي انسجم دون صعوبة في جو دمشق .

ويشاهد في (المدرسة السليمانية) عدد ضخم من المواضيع المعمارية والزخرفية الخاصة بهذا العصر . ومنها تنزيل الممر ، وجعل ألواح القاشاني على الجدران ، والمثلثات العلوية فوق الابواب والنوافذ ، وتزيين الاقواس بالاحجار السوداء والبيضاء المتعاقبة ، واستخدام المقرنصات بكثرة ، وتنظيم المحاريب على شكل الاصداف المتتابعة ، والموارض المدككة الملونة ذات الاشكال الهندسية

الفنية المعقدة . وقد أصبحت تيجان الأعمدة على أشكال مثلثات بحجمه ، وصارت تلون بالاحمر والازرق ، كما أن أعناق الأعمدة وأنطقة قواعدها تلبست بأنطقة نحاسية مذهبية ، وامتلات السطوح بالمدايك الملونة المتعاقبة .

وقد أعيدت هذه العناصر في مجموعة العمارات التي أنشأها الوالي درويش باشا . وأجملها المارة القائمة في أول طريق الحج غربي المدينة ، وهي (جامع الدرويشية) الذي تتعاقب صفوف أحجاره السوداء على صفوف أخرى بيضاء ، وترتفع فوقه مثذنته المضلعة المظلمة بطلاء قاشاني أخضر . وإلى جانب المثذنة تقوم قبة كبيرة يحيط بها عقد من القباب الصغيرة . ويتصل هذا الجامع بالتربة المجاورة بقوس يعلو الطريق التي تمر من تحته . وتتوزع الرسوم والاشكال والالوان على مستويات المسجد بعث في كبير جداً . ومن ذلك قبة التربة الكائنة على رقبة نيس لها شكل منتظم ، وقد انتفخت انتفاخة لها رأس مدبب . وإلى الجنوب من هذه المارة يقوم جامع سنان باشا (الذي بني في أسواق باب الجالية . وفيه الصفات والعناصر الفنية التي تقدم ذكرها . فترى فيه المثذنة الملبسة بالقاشاني الاخضر ، والقبة الكبيرة ، والاقواس المحذبة ، والنيجان الهندسية الخ . . . ولموقعه في جو هذا الحي ، صفة رائعة حقاً لانه يؤلف نقطة مركزية بين الاسواق وطريق الحج .

وقد شيدت في اطار المدينة القديمة بين الجامع الاموي والشارع المستقيم الرباطات المختلفة وحمامان جديدان . وأشهر هذه الابنية (خان الحرر) الذي أنشأه درويش باشا ، وتجلت فيه التقاليد الممارية السورية متمزجة بالتقاليد الممارية التركية . والواقع انه بناء متناسب جداً وتحيط الاروقة باحته الداخلية ، وتقوم مجموعتان من القاعات في طابقه العلوي ، ويصل بين هذه القاعات رواق ضيق ، وتعلوها قباب منظمة على صفوف ثلاثة .

ويقع أيضاً في هذه المنطقة من دمشق (خان الجمر) . ويختص أن فسحته الكبيرة المسقوفة قامت مقام الباحة المكشوفة في بقية الخانات . كما يختص بقبابه الكبرى الست المرفوعة على جيوب بين الاقواس . ويشاهد هذا التخطيط أيضاً في (خان سليمان باشا) المبني (سنة ١٧٣٢) . وفيه فسحة كبيرة فوقها قبتان عظيمتان . وتتحد هنا تأثيرات الهجوم الواسعة الممارية مع تأثيرات التلويح في المدايك السوداء والبيضاء وفي الاقواس ، وفي جيوها . وقد بني أسعد باشا والي دمشق وأمير الحج خلال حكمه الذي دام أربعة عشر عاماً ، خاناً جديداً ، وقصراً فخماً بين هذا الخان وبين الجامع الاموي .

ولحان أسعد باشا واجهة يذكرنا تأليفها بفن عمارة مدينة البندقية خلال عصر النهضة . غير أنها تمت بصلة الى التقاليد الفنية السورية الشمالية ، وذلك في صنعة بنائها ، وانتقاء مواضعها الزخرفية ، واختيار موادها . وتشاهد أيضاً كل العناصر المتقدمة مجردة ومنوعة في بناء قصر العظم سنة (١٧٤٩) . ويلاحظ في هذا القصر التوزيع التقليدي للبيوت الشامية بمجموعتين من القاعات المتميزة (السلامك والحرمك) ، وبما فيها من باحات ، وأروقة ، وأواوين وأحواض الماء ، ونوافيره .

وقد استمرت دمشق حتى يومنا هذا شأنها منذ أقدم عصور تاريخها ، على تمثل ، وتحسين المواضيع الفنية والثقافية التي تتجه إلى واحتها وتلتقي فيها ، بعد أن تسير على طرق التجارة الكبرى ، التي تصل ببعضها كل أجزاء المنطقة الواقعة في شرقي البحر الابيض المتوسط .

٥ — العناية بالادبعية الأثرية :

وقد توخينا من دراستنا المتقدمة عن تشكل المدينة وعن أحيائها ، المختلفة أن نبين صفات ووظيفة عدة مجموعات عمرانية ، يمكن إذا رمت ولفظت ، أن تحسن الابنية الاثرية ، وأن تمنح مدينة دمشق بكاملها أهمية وجاذبية كبيرتين . ولا يجب أن يسى عن البال أنه لا يوجد في النواة المدنية القديمة ، أبنية معزولة عن غيرها يحتم القانون المحافظة عليها فقط . بل يجب الاعتقاد أنه يوجد فن عمارة قائم بنفسه ألفته العصور ، وتجمد فيه التاريخ ، وعادات السكان ، وحاجاتهم .

ولا يخفى أن لكل آبدية قيمة ايجابية لانها أثر في ، كما أن لها قيمة أكبر بكثير إذا كانت قائمة في مجموعة من المنشآت الاخرى ، التي يمكنها أن توضح الغاية من بنائها وتاريخها ، ونسب حجوما وأشكالها . أي أن كل آبدية هي في مجموع أبنية المدينة ، كحجر صغير من أحجار لوح من الفسيفساء . ومما كانت قيمة هذا الحجر الصغير ثمينة ، فان ما يجعل للوح الفسيفساء قيمة ما هو مجموع الاحجار الداخلة في تركيبه .

ومما لا شك فيه أنه توجد عناصر كثيرة ليس لها أية قيمة ، ومنشآت طفيلية وغير صحيحة في الأحياء القديمة . لأن المدينة القديمة أمراضها وعلاها شأن كل جسم حي . على أن إلقاء هذه الأسواء يحتاج الى عناية دقيقة جداً ، وتقدير صحيح للعناصر الواجب تعديلها أو حذفها ،

بحيث أنه لا يجب مسها إلا بالاحتباس الذي تقتضيه طرق النقد المستخدمة في إصلاح الآثار وفي التنقيب عنها . ولا يمكن بصورة مبدئية أن نقول على الفور ماذا يتوجب عمله في كل من الأحياء القديمة . إذ لا يمكن أن نخط ، لمعالجة هذه الأحياء بالمسطرة والفرجار على المخطط ، شوارع وتخطيطات وميادين وساحات جديدة . لأن البدء في هدم مجموعة من أبنية أحدها يمكن أن يظهر خلايا ، وأنقاضاً ، وآثاراً فنية تفني تراثنا الأثري ، وتوضح قضايا تاريخية وفنية . وهذا ما يمنع حياة البلاد الثقافية والروحية أهمية كبرى . ولا نموزنا الامثلة الدالة على ما نشأ من صموبات وأخطاء عن وجود الأوابد أثناء تهيئة المخططات التنظيمية ، على الرغم من أن واضعي هذه المخططات توخوا احترام الابنية التي يحميها القانون . ولا نذكر الا مثل جامع تنكز الذي لم يبق منه إلا باباه ومئذنته البارزة على الشارع .

ونلاحظ بسرور كبير أن الأحياء الجديدة في دمشق اكتسبت طابعاً وجمالاً خاصين ، وأن هذا الطابع جعل يظهر بجلاء ، كلما شيدت أبنية جديدة ، وكلما استفادت هذه الابنية من التجارب الماضية ، وانسجمت مع جو دمشق ، ومع عاداتها ، ومع اقليمها . وعلى الرغم من أن الشوارع الجديدة عرضت أكثر من اللازم ، وأنه رصفت على جانبيها عمارات جامدة ، بسبب أن تراكيبيها الظاهرة تم بوضوح على أنها مصنوعة من الاسمنت المسلح ، وأن لها صفات الادعاء والتزين الزائد ، الناشئة عن جمع عناصر زخرفية لم يفهمها مهندسوها تماماً ، فإن هذه العمارات سوف تنسجم مع مجموع المدينة ، لما تكبر الأشجار المزروعة في الحدائق وعلى أرصفة الطرق ، ولما تمليها الخضراء الفراغات الكبيرة ، وتخفف شيئاً من حدة نور دمشق الساطع .

غير أننا لا يمكننا أن نخفي حيرتنا أمام النتائج التي نشأت عن تنفيذ المخطط التنظيمي الجديد ، ومن تقسيم الأراضي وتوزيعها ، في المنطقة الممتدة بين طرف القلعة الجنوبي ، وبين الشارع المستقيم . إذ أنه حل محل الاسواق والطرق المتعرجة القديمة التي كانت تعترضها التلوات ، محاضر صغيرة منظمة على شاكلة رقعة الشطرنج . ونتج من ذلك أن الأوابد ضاعت ، بين الابنية ذات الطوابق المتعددة . وسحقت على هذا الشكل قباب ومئذنة (جامع درويش باشا) من جوار البناء الشعبي المرتفع الذي شيد على جانبه . ويمكننا أن نكرر هذا الانتقاد تلقاء ما جرى في

جوار عذة ترب أثرية ، وخاصة إزاء (بمارستان نور الدين) الذي يعد من أهم أوابد دمشق ، وأكثرها طرافة .

ولا يجب تشجيع النزعة الداعية - وهي نزعة الى مساومتها تتطلب أموالاً باهظة - إلى نقل أبدة بعيداً عن المحيط الذي نشأت به ، وذلك عن طريق هدمها ، وإعادة إنشائها على مسافة مامن مكانها الاول ، كما فكر في ذلك واضمو المخطط التنظيمي لتخلية ما حول المسجد الاموي .

إن الاسواق بما فيها من رباطات وحمامات وجوامع ومدارس تؤلف في غالب الاحيان جسماً متماسكاً ومنسجماً في عمارته وفي وظيفته . ويجب المحافظة عليه بمجموعة ، لا بعدد من أجزائه . كما يتوجب إكمال الطريقة المستعملة حالياً في تسجيل الابنية ، بأن تؤخذ بعين الاعتبار المجموعات المعمارية ، وألا يكتفي بحماية بعض الابنية المنفردة . ومن اللازم أن يفهم بوضوح أن الغاية من ذلك ليست إيقاف كل محاولة تستهدف تحسين حي ، أو تطويره ، وإنما يراد فقط بيان حاجة هذه المجموعات المعمارية إلى قواعد وإلى طرق وأساليب تختلف عن المبادئ السائدة في مكاتب المحافظة الفنية ، حيث لا ينظر غالباً إلا إلى مصالح الناس الفردية ، وإلا إلى المنافع المباشرة . فكان من اللازم مثلاً أن يمنع قيام بيت حديث ، جانب الواجهة الجنوبية للمدرسة الظاهرية (المكتبة الوطنية حالياً) . إذ أن هذا البيت الحديث له لون وأشكال مبتذلة وجائرة . كما أنه يمكننا أن نسرده مثلاً ثانياً . وهو كان بالإمكان عدم السماح ببناء العمارات في شارع السليمانى القريب من خان الجمرک . وذلك لأن الابنية الجديدة في الاحياء القديمة يجب أن تدرس دراسة دقيقة جداً ، تشمل ألوانها ومناظرها ، وتتوخى تحسين وضعها الحاضر ، وإظهار الاوابد التي هي عناصر الجمال في مجموع المدينة ، وعنواناً لمفاخرها . إن معيار الفائدة المادية العاجلة لا يمكن أن يطبق تماماً على منتجات الثقافة والفكر . ولهذا فأننا ننصح المهندسين العمرانيين الدمشقيين ألا يبحثوا تلقاء ما يبذل من أموال في إقامة ميادين على شكل النجمة ، أو في طرق طرقات واسمة ، في الاحياء القديمة ، كيفية استثمار أراضي هذه الاحياء ، التي لا يعطي ريع بيوتها الحالية إلا قليلاً من المال ، أو كيفية الاستفادة من الحمامات أو المدارس أو الحدائق التي لا تساوي وارداتها شيئاً .

إننا نرى أيضاً أهمية كبرى يمكن أن تكتسبها نواة المدينة القديمة من الناحيتين البدئية والعملية ، اذا نظمت القلعة ويلاحظ أن جمال هذه العمارة ظاهر هنا بجلاء . وبكفي لذلك أن نفكر بحجوم واجهاتها العظيمة وبأبراجها ، وبجمال بابها المقرنص في مدخلها الشرقي ولا ننحى

أنها تستخدم مكتنة وسجناً في يومنا هذا، ويجب إذا أريد أن يستفاد منها ، أن تدخل فراغاتها الداخلية في حياة المدينة ، وذلك عن طريق إيجاد حديقة عامة فيها ، وأن يوصل بين هذه الحديقة وبين شوارع المدينة . كما يمكن لمهندس مبتكر أن يوفق بين عماراتها الضخمة وبين حاجات دائرة حكومية . ومن الجائز مثلاً أن تنشأ فيها مدينة جامعية ، وأن يجعل في أحد أقسامها بيت للطلبة يحوى مساكن للاستاذة والطلاب الغريباء عن دمشق ، ومكتبة ، وقاعات للقراءة والمحاضرات ، والمعارض . وتجب إعادة إقامة الصلاة في جامعها ، وتخصيص بعض أجزائها للتسليّة الجامعية عن طريق إيجاد سينما ومقهى ومطعم الخ . . . فيها ثم أن عزل واجبتها الغربية عن الابنية الطفيلية التي تحيط بها بمنح شارع النصر الواسع ، منظوراً رائماً . والخلاصة إن القلعة إذا أصلحت كما ذكرنا ، لاصبحت بدلاً من أن تكون حائلاً كما هي الآن دون تقدم المدينة ، نافعة للحياة العامة في شكلها الجديد ، ولاغنت تراث المدينة ، والدولة الاجتماعي .

ثم إن الجامع الأموي هو أهم أوابد مدينة دمشق . غير أنه يبدو اليوم مزيجاً من عناصر فنية وبنائية ذات قيم متباينة ، بسبب ما أصابه من كوارث ، وزلازل ، وحرائق . ومن المستحسن أن يتابع ويوسع برنامج إصلاحه وإعادة قيمه إليه ، الذي تسهر على تحقيقه مديرتنا الاوقاف والآثار العثمانان . وذلك بواسطة تنفيذته بموارد مالية مناسبة ، لكي يمنح هذا المسجد مظهراً حسن لائقاً بأهميته الفنية والتاريخية ودوره كمرکز ديني لعاصمة سورية .

وتظهر اليوم عناصره القديمة (الفسيفساء ، والأعمدة ، والزخارف الجصية ، والمحراب والقبّة الخ . .) كأنها منفصلة عنه وكأنها ميتة . حتى يظن أنها لا تمت بصلة إلى المسجد ، وأنها ثقلة ، وتحمله كثيراً من الاعباء . لهذا فإن إصلاحه يجب أن يتوخى تحسين هذا التراث الفني والتاريخي ، وأن تسبقه دراسة نقدية غايتها ، تقدير قيمة كل عنصر من عناصره تقديراً صحيحاً ، وأن يتم هذا الإصلاح على أعمال غايتها ، جعل هذه المجموعة كلاً عضوياً ، وإرجاع وحدتها وانسجامها إليها . ولا ريب أن ذلك معقد وصعب ويحتاج إلى تعاون عدد من الفنانين والعلماء . غير أنه إذا نفذ بعناية لازمة ، ليمكن أن يعاد إلى دمشق روعة أكبر بناء ديني فيها .

ويمكننا أن نشير حسب انطباعاتنا الاولى ، إلى العناصر التي يجب أخذها بعين الاعتبار ، في برنامج يقصد منه تحسين هذا الجامع وإصلاحه . ولا يخفى أن الاقسام التي لها أهمية تاريخية

كبيرة فيه ، هي العناصر المنحدرة من العصور القديمة كالاعمدة ، والنيجان ، والطنف والكتابات وبعض أجزاء الجدران والاقواس الخ . وذلك لأنها ذكريات مدنية زالت ، فيجب المحافظة عليها لقيمتها الايضاحية والثقافية . كما أن لها قيمة زخرفية لتبديها على أشكال أطلال وبقايا محطمة . ولا يمكن البتة ، أن يبرر أي رأي يستهدف إصلاحها عن طريق إكمال ما ينقصها .

كما إن الأقسام المنحدرة من البناء الأموي الأول (الاقواس والنيجان والفسيفساء) تقدم هي الأخرى أهمية تاريخية وأثرية من الدرجة الأولى . ويضع إصلاح هذه العناصر على بساط البحث ، قضية صعبة ، لأنها أجزاء من الجسم الحي للبناء الحالي ، ولا يخفى أن قيمتها البديعية عظيمة جداً .

ثم إن داخل الحرم ، في القسم المتوسط من البهو المستعرض ، يبين تماقب العصور التي مرت على الجامع ، والإصلاحات التي طرأت عليه ، غير أن هذا المكان لا يؤلف أهمية ما . ويخيل للزائر أنه عبارة عن حاجز يفصل بين جناحي الأبناء . وتبدو آثار الفسيفساء على جداره الشمالي متسخة ، وفارقة قيمتها ومؤلفة لطخات كامدة ، على أساس الجدار الأبيض . وتوصحب النوافذ القديمة القليلة ، نوافذ حديثة كثيرة ذات رسوم مبتذلة ، وزجاج ذي ألوان صارخة . كما أن الألواح المرمرية على دعائمه الأربع المركزية الضخمة ، ليست على شيء من الأهمية . وكذلك فإن للجدار الجنوبي نفس الملل البديعية . وهو لا يملك وحدة أو انسجاماً ما ، على الرغم من أن المحراب قد نزلت فيه حجارة الزخارف المرمرية ، وزين بالآيات القرآنية القاشانية . وعلى الرغم من أن النوافذ الثلاث الداخلية ذات رسوم دقيقة ومن أن السقف مذهب ، فإن كل هذه لا تتفق مع غيرها من العناصر .

ويخيل إلينا أنه من المناسب أن يلغى ابيضاض الجدران في هذا الجزء (من البهو المستعرض) من الجامع ، ومن الاقواس ، ومن رقبة القبة ، لكي يظهر تركيب الاحجار الأصلية كما يبدو ذلك من بعض الجهات . ثم يجب استبدال النوافذ العلوية ، وتغيير لون عوارض السقف الخشبية ، وإيجاد شكل لآلة المسجد يلغى الشكل الحالي . ولا تخلو البلاد السورية من فنانين أكفاء قادرين على القيام بأعمال ذات قيمة . وإصلاح الجامع يقدم لهم أعمالاً طويلة الأمد ، ويسمح باستدامة التقاليد الفنية التي تعاني ضيقاً في سورية خلال العصر الحاضر من جراء عمل الآلة ومزاحمتها .

ويمكن إعادة ما قلنا عن حرم المسجد لدى البحث في صحنة ومدخله الغربي وأبوابه .
إذ يلاحظ أنه توجد الى جانب آثارها قيمة كبرى ، كمشاهد الفسيفساء وتيجان الأعمدة
وقبة الخزانة والآذن والأبواب ، عناصر أخرى ليست لها أهمية ولا معنى ، كالأبواب الزجاجية
والسقوف الجديدة ، والألواح المرمرية الجانبية ذات الأسلوب الكلاسيكي الحديث ، وبعض
أقسام أرض الأروقة المبلطة ببلاطات من الاسمنت المسلح .

ويلاحظ أيضاً في المدخل الغربي أنه توجد (بقع) واسعة بيضاء الى جانب ألواح
الفسيفساء الثمينة . وتدل هذه البقع على عدم صلاح عملية الترميم التي أجريت في هذا القسم .
وعلى العكس يمكن الإشارة الى الأعمال التي نفذتها مديرية الآثار العامة بكثير من العناية في
القسم الشمالي الشرقي من أروقة الصحن حيث طليت الأقسام المتعربة مما كان عليها من فسيفساء ،
بلون قريب من لون هذه الفسيفساء . ولا شك أن ذلك حل جيد ، على الرغم من أن السطوح
الملونة تبدو عتمة إزاء سطوح الفسيفساء المتأقعة ، وربما أمكن إحراز نتيجة أفضل ، إذا مزج
اللون المستعمل ببعض مسحوق المرمر الذي يمكنه أن يضفي عليه شيئاً من اللعنان .

ومن الواجب أن توسع أعمال الإصلاح حتى تشمل كل أجزاء المسجد . وقد ذهبت المكاتب
الفنية في المحافظة إلى التصميم على عزله عما حوله بإيجاد شوارع واسعة في كل أطرافه الخارجية .
ويجدر للحكم على قيمة هذا المشروع ، ألا نبعد عن ذهننا ، أن المسجد لم يكن ليكن
عمارة معزولة عن غيرها من الأبنية ، وأنه يلقى إشعاعاً تاريخياً ، ووظائفاً على جو ما حوله ،
وعلى فن العمارات الخارجية عنه ، كالأطلال الضخمة العائدة للمعبد القديم والكنيسة القديمة ،
وعلى التربة والمدارس والخانات والأسواق المجاورة .

فيوجد مثلاً في جهته الشمالية خمس أوابد لها أهمية كبرى وهي : (المدرسة العادلية)
(المجمع العلمي العربي) التي ذكرنا أن لها مدخلاً جميلاً فيه مفتاح معلق ، وأنها أثر رائع
للمهارة الصلبة المتوازنة ، ثم (المدرسة الظاهرية) وهي (المكتبة الوطنية) التي صارت مدفناً
للملك الظاهر بيبرس ، و (المدرسة العزيزية) التي تأوي ضريح السلطان صلاح الدين الأيوبي ،
والتي تتصف بقببها المضلعة القائمة على رقبتين ، لها ثمانية وستة عشر ضلعاً . وقد رُمّم مؤخراً
هذا الأثر ترميماً فنياً مثلياً أضفى عليه جواً خارجياً لاثقاً . وأخيراً (المدرسة الحفصية)
و (التربة الاخنائية) بالقرب من طرف المسجد الشمالي ، وهما تؤلفان مدخلاً جميلاً للجامع ،
وتكملان منظور الأعمدة البيزنطية ، والباب الشمالي والمئذنة .

ولكل من واجهات المسجد الأخرى إشعاع عماري له نفس الأهمية التي وصفناها على الرغم من أنه أقل وضوحاً وظهوراً . ولا يتمكن قليلو الاطلاع على ما للخانات والأسواق والحمامات من قيمة فنية كبرى من تقدير هذه القيمة من أول نظرة بسبب ان هذه الأبنية ما تزال مستعملة . ولا يظهر تأثيرها مباشرة شأن ظهور تأثير الأطلال .

ومن الواضح أن مجموعة الأبنية القائمة في الجنوب الغربي من الجامع الأموي لها كل صفات فن العمارة الجيد . إذ يمر المرء من خان الكرك ويرى قبابه الست الكبرى القائمة على جيوب ، وبخان الحرير ذي القبيبات المتجمعة في ثلاث سلاسل ، وبقصر العظم حيث سينظم متحف للتقاليد الشعبية ، وبخان أسعد باشا ذي الواجهة الجميلة ، ثم يصل الى سوق مدحت باشا (الشارع المستقيم) . ويظهر ان هذا الشارع سوف يعرض حسب المخطط التنظيمي . ويجب أن يتم ذلك بحذر شديد لتفادي الأسواء التي أسلفنا ذكرها . وتبقى لو أبقى هذا الشارع على شكله الحاضر . وإذا لم يكن بد من إصلاحه فيجدر الإبقاء على الأقل على جزئه الغربي الذي يحيط به عدد من الأسواق فيها كثير من الحيوية والأهمية . ونود هنا أن نذكر مرة أخرى ما للأسواق من جمال خاص وما يمكن أن تقدمه من فوائد ، إذ أنها تقي المارين من حر الشمس ومن الأمطار والرياح والغبار . وتؤلف هذه الأسواق بمجموعها شبكة مزدهمة طبيعية ، تجدد الأوابد خلالها مواضعها ، محدثة مناظر ونقاطاً إيضاحية ، شأن مثذتي هشام والقلمي وواجهات المدرسة السباهية وجامعي درويش باشا وسنان باشا وقيامها .

ويمكننا متابعة تأييد رأينا هذا بذكر أهمية وصفات حي الميدان (بما فيه من مجموعة معمارية جميلة في مقبرة الباب الصغير) وحي سوق ماروجا والصالحية . وكنا قد درسنا خصائصها لما تكلمنا عن تاريخ المدينة . ولا يمكننا في هذا المقام إلا أن نكرر نفس الملاحظات في أفضلية الإبقاء على الجو الخاص لهذه الأحياء .

وخلاصة القول يتحتم علينا لكي نتفادي أي سوء تفاهم أن نسترعي انتباه مهندسينا المعماريين الشبان المأخوذون بالشوارع العريضة المستقيمة ، الى صفة الطرافة والطابع الخاص اللذين تولينا الدفاع عنها ، وإلى الأهمية السياحية التي يمكن لمدينة غنية بالآثار الفنية أن تفيد منها فائدة كبيرة .

وفي الواقع إننا نعتقد أنه يوجد في العالم قليل من المجموعات العمرانية يمكنها أن تقدم جاذبية رومانظيقية وطريفة شأن المجموعة الدمشقية التي تحدثنا عنها . غير أنه يجب أن نوضح

أن ما تقصده بالطرافة هو هذه الفوضى الظاهرية التي يبررها ويبرر سبب وجودها وجمالها أنها نشأت عفويًا وبصورة طبيعية ، واتفقت في كل حال ، على أحسن شكل ممكن مع الشروط التي كانت قائمة قبل نشوئها . وصارت بذلك تعبر عن كثير من العواطف والحياة . لهذا فإن هذه العناصر المختلفة تبرز ببعضها بشكل مرضٍ ، ويصبح كل عنصر منها لازماً للآخر . والخلاصة تلك هي صفة الطرافة العمرانية في أبنية دمشق ، التي نرى وجوب المحافظة عليها وضرورة تحسينها ، وتخليصها من كل مظاهر الإهمال وقلة العناية والقذارة .

أما ما يتعلق بالأهمية السياحية فإننا لم نذكر أنه يجب تضحية حياة المدينة وتطورها ، وإخضاع تنظيمها لذوق الأجانب الذين يهتمون بالأشياء الغريبة والمعجبية . وإنما أردنا فقط أن نشير إلى أن السياحة تدعو إلى تحسين وتطوير ما يستحق في المدينة أن يعرف، ويمجبه ، ويجب .

اللجنة الدولية للأونسكو



مركز تحقيقات كميوتير علوم إسلامي

مصادر البحث

- R. Hartmann, *Encyclopédie de l'Islam*, s. v. *Damas*, Leyde et Paris, 1913, p. 926 à 934.
- C. Watzinger et K. Wulzinger, *Damascus (L : die antike Stad; LL : die islamische Stadt)*, 2 vol., Berlin et Leibzig, 1921 — 1924.
- J. Sauvaget, *Les monuments historiques de damas*, Beyrouth 1932.
- id. , *Esquisse d'une histoire de la ville de Damas*, *Revue des Etudes islamiques*, 1934, p. 421 à 480.
- id. , *Le plan antique de Damas*, *Syria* XXVI, 1949, p. 314 à 358.
- E. de Lorey et M. van Berchem, *Les mosaïques de la mosquée des Omayyades à Damas*, *Monuments Piot*, XXX, 1929, p. 111 à 139.
- Les Monuments ayyoubides de Damas*, livraisons I, II, III et IV, Institut français de Damas, Paris 1938 — 1940 — 1948 — 1950.
- M. Ecochard et C. le Cœur, *Les bains de Damas*, 2 vol., Institut français de Damas, Beyrouth, 1942 — 1943.
- E. Herzfeld, *Damascus, studies in Architecture*, I, II, III, et IV, *Ars Islamica*, IX, 1942, p. 1 à 53; X, 1953, p. 13 à 70 ; XI — XII, 1946 , p. 1 à 71; XIII — XIV , 1948 , p. 118 à 138; et comptes rendus de J.Sauvaget dans *Syria*, XXIV et XXV, 1944 — 1945 et 1948 , p. 211 à 231 et p. 259 à 267.
- S. Abdul-Hak et K. Moaz *Aspects de l'ancienne Damas*, Direction générale des Antiquités , Damas, s. d.
- G. Haddad, *Damas et la Syrie du Sud*, Damas, 1952.

الدور الأثرية الخاصة في دمشق

للمؤسس أ. ب. الفرج العيسى

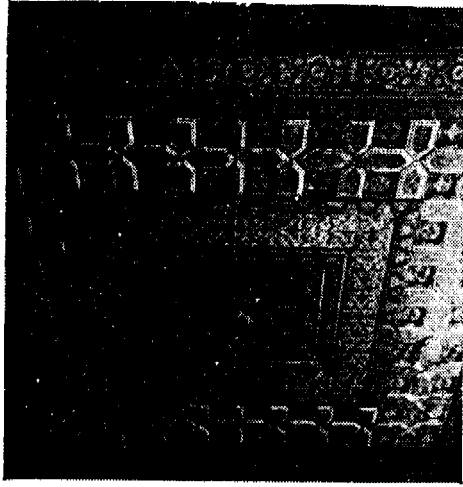
في سوريا ثروة هامة من الآثار البديعة مخبوءة لدى أفراد الشعب يطلع على النذر القليل منها المواطنون أو الأجانب بعامل الصدفة ... ألا وهي الدور الأثرية الخاصة .
سنقصر البحث في هذه المجالة على الدور الأثرية في دمشق ، فنأتي بأمثلة عنها ،
وسنوسع البحث في المستقبل ليشمل جميع الدور الأثرية في سوريا .

ترجع أكثر الدور الأثرية في دمشق الى العصر العثماني . ونادرة جداً الدور التي تعود إلى أقدم من هذا العصر ، بل لا توجد دار واحدة يعود تاريخ جميع أقسامها الى ما قبل العهد العثماني ، وإنما يعثر الباحث على قوس قديم ، أو مصب قديم ، أو مقرنص لباب أو مقرنص لمصب ، أو خيط عربي ، أو لوحة رخامية ، أو بحرة رخامية ... يعود تاريخها الى ما قبل العصر العثماني .

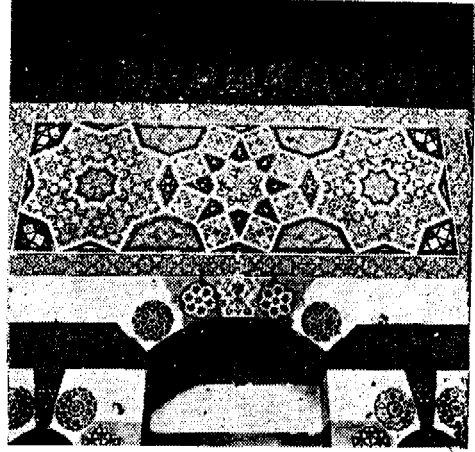


هذا الجدار الحجري الذي يبدو فيه خيط عربي هام هو أقدم من بقية أقسام إحدى الدور الأثرية في دمشق .

والدور الأثرية الموجودة حالياً متأثرة بمختلف التأثيرات العربية والفارسية والتركية والأوربية وخاصة الإيطالية منها . ومن النادر أيضاً أن نجد أحداً داراً غير متأثرة بمدة مصادر ؛ وكثير من الدور فيها أقسام من عهود مختلفة ؛ ويتضح للرأي التباين الجلي بين تلك الأقسام من حيث الصنعة والفن ودرجة القدم .



السقف الذي يشبه سجادة عجيبة من الفن
الفارسي (دار السيد احمد السباعي)



النقوش الهندسية من الفن العربي
في دار السيد احمد السباعي - مأذنة الشعم

وقد نثر على دار تنبئ جميع ظواهرها أنها لم تكن لغرض السكن الأهلي وإنما كانت مؤسسة عامة كمسجد أو دار حكومة أو زاوية لطريقة دينية ... ولكن لانعلم كيف ومتى تحولت الى دار واغتصبها المالك القديم .

إن الدور العربية القديمة متشابهة بمخطط بنائها على الأكثر ؛ فيها أقسام رئيسية لا بد أن توجد في الجميع : الدهليز الطويل ، الباحة السماوية ، الايوان ، القاعات الشتوية في الجهة الشمالية من الباحة ، والقاعات الصيفية ذات المياه الدافئة في الجهة الجنوبية منها . والدور تحوي ثلاثة أقسام رئيسية في مخطط الدار :

١ - القسم الخارجي (البراني) : وفيه مركز الحارس والخدام الرجال والسائس ، وفيه باب يؤدي الى الاصطبل .

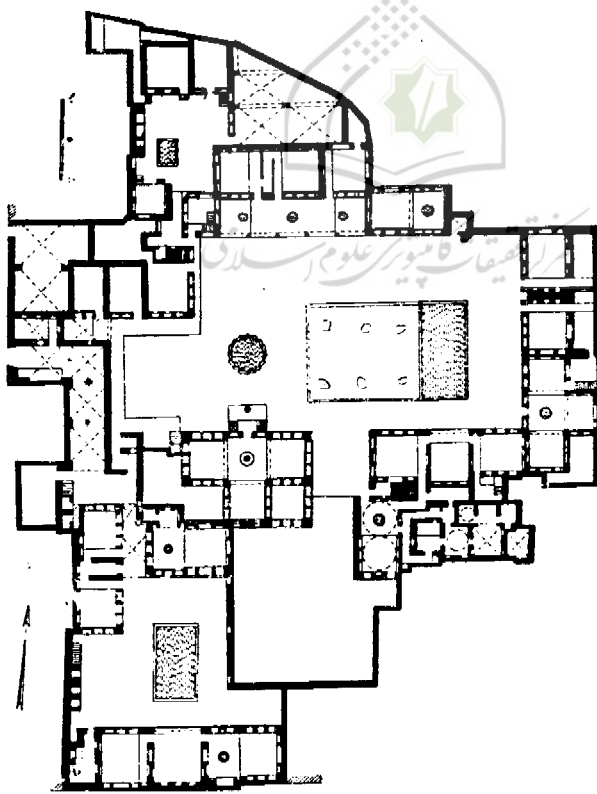
٢ - القسم الأوسط : وهو أهم الأقسام وأوسعها وأجملها . وفيه القاعات الهامة .

٣ - القسم الخاص بالحريم وله ملحقات خاص بالجواني . وقد استغني عن إنشاء القسم الخاص بالحريم عندما اعتاد الناس على بناء الطابق العلوي في الجهة الشمالية من الباحة فخصص لهم . والسبب في إنشاء القسم العلوي في الجهة الشمالية من الباحة لتكون الغرف معرضة لاشعة الشمس من جهة ، ولأن القاعات الصيفية السكائنة في الجهة الجنوبية من الباحة ذات سقف مرتفعة جداً تعادل طابقين من الطوابق القديمة .

كانت العناية في الدور العربية مبذولة الى داخل البناء لا الى خارجه ؛ وأكثر الدور القديمة الجميلة ، مظهرها الخارجي بسيط ، ومداخلها لا تتم عن عظمة ما فيها ، ما خلا دور الأمراء أو الولاة الذين كانوا يُعنون بالمدخل أيضاً - كما هو الامر في قصر العظم - .

إذا دخل الزائر الى الدار العربية ، وجب عليه أن يمرّ بهليز يكون على الاغلب طويلاً وضيقاً ، وقد يكون متعرجاً ، ثم ينفرج أمامه منظر جميل عندما يصل الى الباحة الواسعة حيث الاشجار والازهار والبحرات الرخامية ذات النوافير ؛ فيحار الزائر في أي شيء ينظر . وكان هذا الترتيب : المدخل البسيط ، الدهليز الضيق المملّ ، الباحة الرائعة فيه تركيز نفسيّ لمفاجأة الزائر بنقله من الضيق الى الفرج ، ومن البشع الى البديع ، فينشرح صدره ويدخل السرور الى قلبه .

الباحة في الدار العربية القديمة قسم أساسي فيها ، وبدونها لا يمكن أن تكون الدار عادية مألوفة . فهي جنة أهل البيت ومنتزههم في الصيف والشتاء ، وموضع عنايتهم من حيث الترتيب والنظافة والزينة .



مخطط قصر العظم

تجد الأرض في الدور الغنية مفروشة على الغالب بالرخام الناصع ؛ وتحيط بالبحرّة الرئيسية

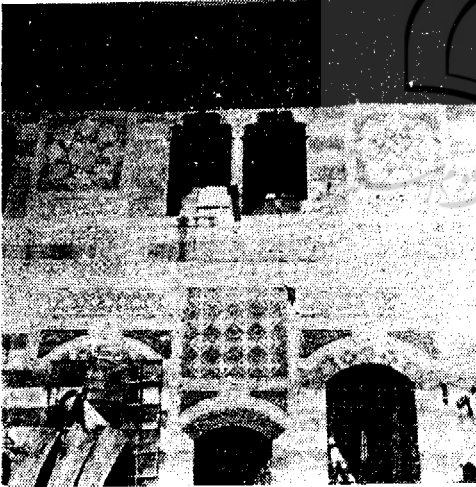


صورة بحرة رخامية لباحة متوسطة السعة
(دار السيد موفق الهاياتي - للميدان)

والأحواض تزيينات هندسية من الرخام الملون .

أما الباحات الواسعة جداً والدور المتوسطة الغنى فباحاتها مفروشة بخيوط من الحجر البركاني الأسود متداخلة مع خيوط من الحجر المزّي الأزهر . قد تكون الحلقة المحيطة بالبحرة رخامية إذا كانت البحرة من الرخام ، أو تبقى من الحجر الأزهر إذا كانت البحرة بنيت منه . يكون شكل البحرة مضلعاً إذا كانت من الرخام ، أو بيضوية أو دائرية إذا كانت من الحجر الأزهر .

أما الجدران المحيطة بالباحة فهي مغطاة بالتزيينات الهندسية المحفورة على الحجر الأبيض النحيت والمملوءة بالحص الملون يتخللها أحياناً حجارة صفراء بالتزيينات جميعاً خيط عربي من الحجر الأصفر المضفور . وحول أبواب القاعات والنوافذ أقواس وكوى فيها قرنصة أو تزيينات نباتية بارزة على الحجر الأصفر .



تزيينات جدران الباحة

(في دار آل حورانية - سوق الصوف)

ومن الملاحظ أن هناك تنظيماً في تقسيم طول الجدار من أجل تعيين مواضع فتحات الابواب والنوافذ والكوى الصغيرة الموجودة بين نافذة وأخرى وبجانب الباب وفي أعلاه . ويراعى على الاغلب التناظر في تصميم القاعات والابواب والنوافذ والكوى حتى في الدرجات الموضوعة أمام أبواب القاعات الشتوية التي تكون أكثر ارتفاعاً من مستوى الباحة لتتلقى أشعة الشمس .

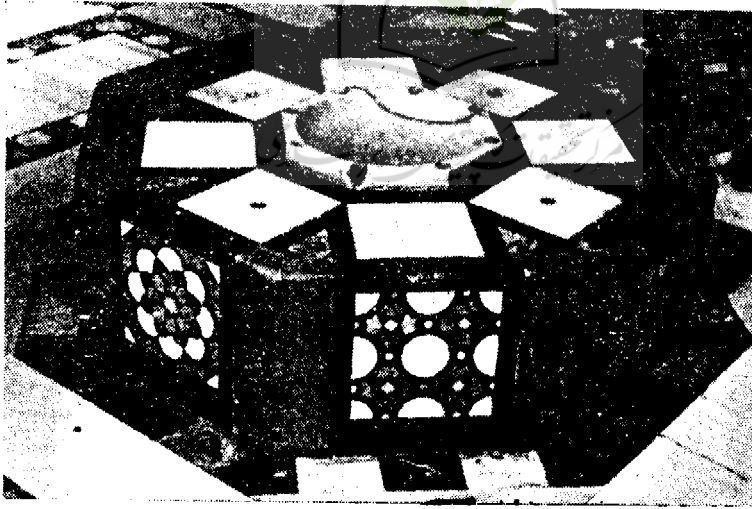
في الدور العظيمة : كقصر العظم ودار عنبر ودار السقاأميني بدمشق . في أحد جوانب الباحة يشاهد رواق غم تبدو فيه أناقة الاعمدة ، وتقدم الصنعة في نحت الاقواس والنيجان وقد يكون الرواق أمام الايوان الاكبر - كما هي الحال في دار آل الفارحي (في الخراب) .

وهناك شيء آخر يلاحظ في باحات الدور القديمة وهو الدرج ذو المصعد الواحد أو المصعدين المتناظرين اللذين يؤديان إلى قاعة مرتفعة مبنية فوق قبو . وهذا الدرج يشكل ، أمام باب القاعة ، شرفة ذات رواق محمول بأعمدة رخامية لطيفة كالشرفة الموجودة في دار آل الشيخ قطنا في المسكية .



أما الأيوان فإن العناية به عظيمة . ويقع غالباً في الجهة الجنوبية من الباحة ليستفاد منه في فصل الصيف حيث يثقي فيه أصحاب المنزل شمس النهار ويتلقون النسيم الشمالي المنعش . وقد يكون في الدار الكبيرة إيوان آخر في الجهة الشمالية يصلح لتصل الشتاء حيث يتعرض لأشعة الشمس الدافئة .

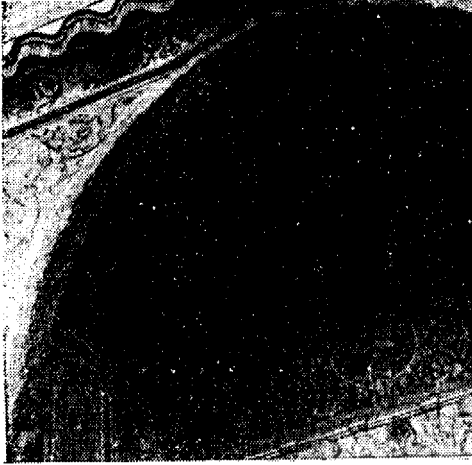
يتألف الإيوان من عتبة على مستوى الباحة فيها فسقية رخامية أنيقة تنثر رذاذها على الزرائع الكوة للترنصة فوق باب قاعة (دار السيد أحمد السباعي - مأذنة الشحم)



فسقية عربية جميلة في عتبة قاعة دار آل بولاد - قنوات

المحيطة بها ؛ والأرض حولها مفروشة بالرخام الملون المرصوف رصفاً هندسياً ينم عن الذوق والمهارة . يرقى الزائر إلى الإيوان نفسه ، وكان دائماً فيما مضى أعلى من مستوى العتبة ، أما الآن فإن أغلب سكان هذه الدور قد سبوا بين العتبات وصدور الأواوين والقاعات .

في مدخل الايوان قوس عظيم عال من الحجر النحيت المزخرف بما يشبه ويتلاءم مع زخرفة جدران المباحة والايوان . للقوس ركنيتان من الحجر الصلد وهما مزخرفتان زخرفة بارزة ، ثم تتصل الزخرفة بانسجام وتوافق على جدران الايوان حول أبواب القاعات (على الغالب يوجد بابان لقاعتين متقابلتين فقط)



زخارف قوس وايوان متأثرين بالفن الاوربي
(دار لينادور)

بانتظام . واذا لم تكن العمود مستقيمة



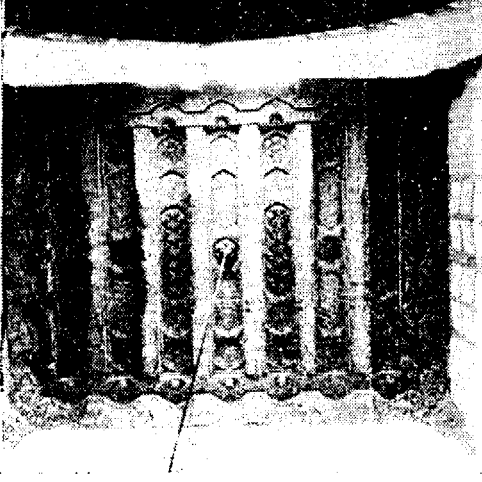
قاعة بطريرين : وبلاحظ انه اكتفى باطار خشبي مفرنس فوق الزخرفة على الحجر دار السيد احمد السباعي

وحول النوافذ المطلّة عليه . ويبدو في صدر الايوان مصب رخامي عظيم يحيط به إطار جميل بارز من الحجر الاصفر أو الرخام المزخرف . وبجانب المصب ترى كوتان لطيفتان توضع بها الازهار . صار البناءون المتأثرون بالفن الأوربي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يضعون في صدر الايوان عدة مصبات رخامية فارهة غنية بالزخرفة كدار لينادور ودار لينبونا — في محلة الخراب .

أما سقف الايوان فهو شاهق يعدل ارتفاع طابقين . وأجل انواع الزخرفة الخشبية للسقف ما كان عجباً متوافق الالوان ؛ وأحسن الزخرفة وأتقنها ما كانت على نفس النمط الخشبية المنصودة منتظمة ، اضطر الفنان الى إكسائها بغلاف خشبي وضع عليه الزخرفة . يحيط بالسقف إطار ذو أفاريز مدموجة متوازية تنتهي بزوايا خشبية جميلة جداً تتدل الى قرن الايوان لتجيبك السقف مع جدران الايوان وتؤلف بين زخرفتيهما .

في الدور العربية الفخمة اكثر القاعات بل جميعها مزخرف ، تختلف انواع زخارفها بحسب أهمية القاعة وسعتها . لكن العناية تبذل بالدرجة الاولى في أوسع قاعة وأخفها ، وتكون هذه على الاكثر إحدى القاعتين الصيفيتين المحيطتين بالايوان . وقد تكون القاعات الاخرى عادية أو فيها مسحة بسيطة من الزخرفة .

والقاعة الكبرى الصيفية إما أن تكون ذات طزر (١) واحد أو طزرين أو ثلاثة ، وليست



سقف العتبة لقاعة السيد احمد السباعي ذات الطزرين ويبدو في الصورة طرف القوس الفاصل بين العتبة والطزر .

القاعة ذات الطزر الواحد أقل شأنًا من ذات الطزرين أو الثلاثة بل قد تكون أهم شأنًا ؛ وإن إنشاء القاعة على أحد هذه الأنواع الثلاثة يعود الى مخطط المنزل : فإذا كان باب القاعة جانبيًا وجب أن تكون القاعة ذات طزر واحد ؛ وإذا كان الباب في الوسط لزم أن تكون ذات طزرين ؛ وإذا كان في مقابل باب القاعة إمكان في مساحة البناء لإنشاء الطزر الثالث أنشئ ، أو استمض عنه بإنشاء غرفة صغيرة داخل القاعة الكبرى لتكون مكانًا لاستجمام الضيف . وهذه الغرفة الصغيرة

السرية ضمن القاعات تعتبر من أطرف ما يوجد في الدور العربية ، بأنها يشبه باب الخزائن العسادية

من الحلقة الخشبية ، وداخلها معتنى به تمامًا وفيها

حلقة خشبية لطيفة وسقف عجمي ، وتفرش عادة بما يريح الضيف .

تخطيط الطزرات عادة بعتبة رخامية فسحة يتدنى مستواها عن مستوى الطزرات ، في وسطها فسقية أنيقة يتدفق منها الماء فيشيع الرطوبة المنعشة في جو القاعة صيفاً .



واجهة قاعة ذات طزرين
تبدو فيها حلقة خشبية منقطة الصنع
(دار السيد احمد السباعي)

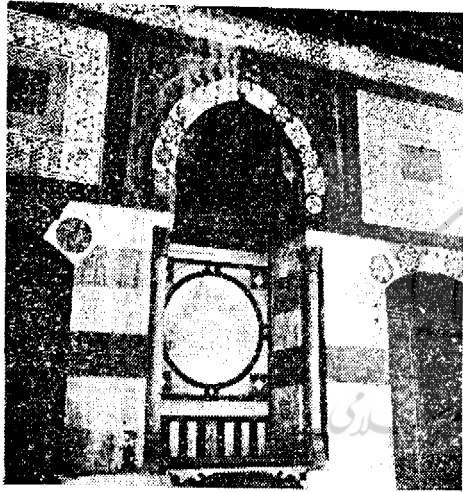
تفصل الطزرات عن العتبة بأقواس حجرية عليها تزيينات هندسية ملونة منزلة في الحجر النجيت كشبه قوس الايوان الآنف الذكر .

يلاحظ أن سقف العتبة شاهق وأكثر ارتفاعاً من سقوف الطزرات ويكون سقفها على الأغلب ذا عمود مزخرفة بالصنعة المعجمية كسقف الايوان الموصوف سابقاً . أما سقوف الطزرات فانها تشبه الى حد ما سجادات معجمية مزخرفة زخرفة نائثة بديعة ذات دوحة مركزية يتدلى منها أحياناً مقرنصات

(١) الطزر : كلمة دخيلة تعني أحد الأقسام المرتفعة من القاعة .

لطيفة تنتهي بفوانيس من الخشب المحفور والمدهون على نحو ينسّق مع زخرفة السقف ؛ أو يحيط بالسقوف أفاريز متلاحقة مندوجة ترتبط مع الزوايا الخشبية الثابتة في قرّان الطرزات . تكون رسوم الطزرين المتقابلين في أغلب الاحيان من نوع واحد ، ويمتاز الطزر الاوسط بشيء من التعقيد .

تبدو على جدران كل طزر الحلقة الخشبية التي تتألف من أطناف مقرنصة بالأعلى تمسك باطارات أبواب النوافذ والمكاتب (١) المختلفة السمة . جميع هذه الاطناف والاطارات والابواب الخشبية مزخرف بما يناسب زخرفة السقوف المعجمية التي تعتمد على الحفر والتنزيل والتلوين بألوان قائمة وزاهية مذهبة . في الفراغ الحاصل على الجدران بين الحلقة الخشبية والسقف الخشبي



مصعب قاعة السيد احمد السباعي

تظهر التزيينات الهندسية على الحجر النحيت وهي على غرار تزيينات جدران الايوان في أكثر الاحوال ، أو يبقى الفراغ بياضاً لازينة فيه .

وبعد أن يحيل الزائر نظره في الطزرين المتناظرين ويحدق بالطزر الاوسط الفخم اذا كان هناك طزر ثالث ، لا بدّ له أن يعمّن بالتزيينات البديعة التي تغطي ما تبقى من عتبة القاعة ، وأن يتأمل بالمصب الرخامي البديع الذي يقابل الباب . ولا يدري الزائر هل العتبة الرخامية أجمل أو أن الحلقات الخشبية أكمل وأنعم ؟ قد يلفت النظر جرن ماء لطيف يتدفق في إحدى نوافذ القاعة لان مصمم البناء لم ير وجود الفسقية مناسباً في عتبة قاعة صغيرة فأثر ألا يحرم المكان من نعمة الماء فجعله في النافذة .

بالغ الفنانون الذين صنعوا الحلقات الخشبية في العصور المتأخرة بالتزيين واستعمال المرايا والالوان الصارخة المذهبة ، والاكتار من المصبات الرخامية المتتالية ، حتى وصلوا الى حد الافراط . لا شك أن هذا النوع يدهش الراي لأول وهلة لكنه لا يكون عميق الاثر في النفس .

(١) تسمى للمكتبه المذممة ذات الباب الخشبي (بوكاً) وتوضع فيها الاغراض التي لا يجوز رؤيتها ، بينما تكون للمكاتب الاخرى عريضة ذات أبواب زجاجية لتعرض فيها التحف النفيسة أو ضيقة بدون أبواب يوضع فيها التحف المحصنة للاضرار الطبيعية .

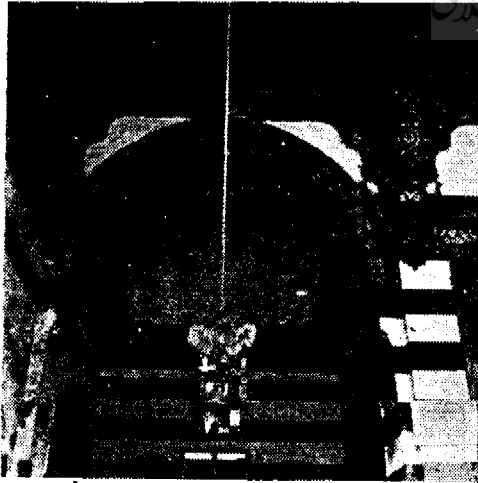
أما الحلقات العجيبة القديمة فإنها لا تدهش كثيراً لكنها تدخل الارتياح الى القلب ، وتجذب الناظر اليها ليتعمق بدقة صنعها وفننه جمالها ، ويخرج الزائر وقد استولى عليه جلال وقارها ، فلا تمسح الصورة من رأسه ولا الانطباع الجميل من قلبه ، ويتمنى أن يعود لزيارتها مرات أخرى ليستدرك ما فاتته النظر اليه .



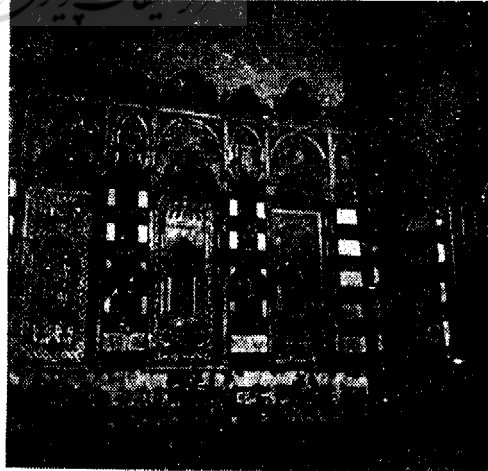
قاعة (آل الموصلي - الميدان)
تعتبر من الفن المتأخر العصر

ما كنت أريد أن أصف للقارئ الكريم القاعة الكبرى قبل أن أتجول في أقسام الدار العربية الأخرى ، لكن ترتيب البحث يقتضي أن أذكر له الأقسام الأساسية أولاً بأول . ولكن ليس يعني ذلك أنه لن يجد بداعة بعد أن يزور أغخم مكان ، بل ربما استهوته طرافة طزر أنيق صغير منعزل

في قاعة الجلوس الشتوية مثلاً . فكأنني أتمثل الاسرة القديمة في سهرة ليلية في فصل الشتاء تأوي الى هذه القاعة ، وقد انهمك الشباب بلعبة نرد أو شطرنج أو ورق في ركن من الطزر الكبير ، وعكفت الفتيات على نسج الصوف أو التطريز في ركن آخر من الطزر نفسه يلحظن الشباب المرحين ،



الطزر الصغير في القاعة الشتوية
دار السيد احمد السباعي - مأذنة الشحم



للصبات الرخامية للتتالية
دار إيزيونا - الحراب

وبلاحظن الاطفال اللاعبين في العتبة . . . بينما قبع الجد والجدة في صدر هذا الطزر الصغير المنعزل .
 يماثقان المنقل الامع وينفثان دخان النرجيلة ، ويعطيان الملاحظات بين حين وآخر الى الأطفال العابثين .
 لم أستطع ان أصف هذا الطزر الطريف دون أن أتمثل الحياة الاجتماعية السابقة وأستعيدها
 حيّة في الذهن . وكم هو جميل من القارئ أن يسترسل في الخيال ممي ، فيرى فتيات الدار
 في صباح نهار ضاحك ، وقد شمرون عن سواعد الجد وأخذن يتماون في تنظيف الباحة الرحبة ،
 وارواء الزرائع ، وتنقية الاوساخ من بينها . . . بينما وقفت إحدى كبريات الدار كشذب بعض
 الأغصان ، وتقوّم ما عوج منها ، وتنظم باقة من زهور حان قطافها .

وكم يسلينا ان ندخل المطبخ الكبير فنرى الوجاق العظيم مع مدخته الضخمة يملأ صدر
 المكان ، والنار تتاجج فيه ، ومواعين الخضرة منتثرة هنا وهناك ، وقد أخذت كبيرة البيت
 تنهي وتأمّر برزاة وتزمت ، والصبايا يهرعن الى تلبية الاوامر وخرط الخضر ، بينما وقفت
 الجارية ، وكأنها من زبانية الجحيم تلقم الوجاق وقوداً ، وتركّز القدر الكبيرة في
 مواضعها . . .

ما دمت أنحدث عن طرائف الدار العربية القديمة ، فلا بد لي من الإشارة إلى المداخل
 والممرات السرية الموجودة فيها : في القاعات الرئيسية يوجد أحياناً باب في الحلقة الخشبية
 المزخرفة ولا يمكن تمييزه من ابواب المكتبات الأخرى ؛ وهو في الحقيقة باب لغرفة صغيرة —
 تكلمنا عنها — أو باب لدرج يوصل إلى غرفة علوية فوق أحد^(١) الطزرات تصاح ان تكون
 لمنامة رب الدار أو تخصص للضيوف على الأكثر حتى تكون بمنزل تام عن باقي أقسام المنزل .
 قد يكون أيضاً في القاعة الكبرى باب ممر سري يتصل بقسم الخدم حتى لا يمر الخادم في
 الباحة ، فيستطيع أن يأتي وقت الطلب ويقدم القهوة . وقد حدثنا أحد أصحاب الدور القديمة
 في دمشق بأن في قاعة داره الأثرية (التي كانت خربة واضطر الى بيع اقتاضها الثمينة) ممراً
 سرياً إلى الاصطبل يخرج منه رب البيت مع ضيوفه رأساً للركوب . وقد أشار لنا عن
 موضع الممر ، ومكان الاصطبل . كما دلنا على المكان الذي يقبع فيه الخادم لتحضير القهوة
 بالقرب من القاعة وله مدخل مكتوم إليها .

* * *

(١) كنت ذكرت سابقاً ان ستوف الطزرات في القاعة الكبرى أقل ارتفاعاً عن سقف العتبة .
 لذا يمكن بناء غرف فوق هذه الطزرات فقط .

ان هذه الثروة العظيمة من الدور القديمة سائرة مع الاسف بطريق الزوال ، لأن أغلب هذا النوع من الدور يكون متسماً ، ويشترك بملكية أفراد عديدون . لذا نرى أن أكثر الناس يجهون الى هجر هذه الدور ، إما لصعوبة خدمتها ، أو للفرار من السكن المشترك أو لعدم ملاءمة هذه الدار للحياة الاجتماعية الجديدة ، أو لبعدها عن مراكز العمل في المناطق الحديثة ، أو لهذه الاسباب جميعاً .

وقد اقتضى هذا الاتجاه من الناس في هجر هذه الدور أن تمتد يد التخريب أو الترميم إلى تشويه هذه الدور النفيسة . وكانت النتيجة محزنة في أكثر الأحوال : فالمالكون المشتركون يمتنعون على الاغلب عن الانفاق على ترميم الدار القديمة : الميسور منهم ينتقل الى دار حديثة مستقلة ، أما المعسور فيلجأ الى ركن سليم من الدار ، ويتحاشى الامكنة التي يحتمل أن تقع عليه ، وتمتد يده الى الدعائم والنفائس الخشبية فيحرقها ايدراً عن نفسه قرّ الشتاء وما هي الا أعوام حتى تصبح الدار بمجموعها خراباً وتقدروعتها وبهاؤها . وقد لا تنتبه البلديات الى أهمية الدار فتفتح شارعاً أو توسع ساحة ويكون ذلك على حساب الدار الخربة .

وقد يكون مصير الدار الأثرية أقل خطراً فيؤجرها المالكون مطبعة أو مخزناً تجارياً أو معملًا فيساهم في تلويثها العمال والمواد القذرة المخزونة ، ولا تمضي فترة من الزمن حتى يقتنع المشاهد أن إزالة هذا الأثر خير من بقاءه على هذه الصورة البشعة .

واذا كان الأثر أكثر حظاً وقع بيد نظيفة تدرك أهمية الأثر كأن يؤجر مدرسة يقدر القائمون عليها قيمة المكان فيعمنون به ؛ أو يسكن به رجل غاوي القديم ، ويحب التمسك بالعادات الاجتماعية السابقة فيسلم الأثر على قدر الامكان من يد التخريب . لكن البلية في هذه الحال تأتي من يد الترميم . فقد يستهوي الساكن الجديد الدهانات الحديثة فيطمس لنا الزخارف الأثرية البديعة ، أو يكلف دهاناً قليل الخبرة بترميم الزخارف مع ابقائها على حالها فيشوهها ويغيّر من مادتها وموضوعها . وقد تضاف نفس المالك هذه الزخارف القديمة وبغيره بعض تجار الآثار لبيعها ، فيقتلع من الوجه عينه ، ويبقي داره عوراء قبيحة ليفرح بمض الوقت بمال ضئيل زائل .

قليلاً ما تقع الدار بيد من يقدرها حق قدرها فيعني تحسينها وترميمها بعد استشارة المختصين الماهرين ، ويبقى على هذا التراث الفاخر ، فيحفظ للأجيال القادمة الصورة البديعة ، والطابع

الاصيل للمدينة العربية الاسلامية الساقفة . ونحمد الله انه لازال هذا القليل من المالكين موجوداً ، ولا زالت العناية مبذولة بصورة تلقائية ، لكنها تفتقر الى توجيه وإرشاد . انتبهت مديرية الآثار العامة الى صيانة هذه الدور فكلفت لجنة من موظفيها لزيارة هذه الدور والتقاط صور الآثار فيها ، ورسم مخططات الدور الهامة منها ، وإسداء النصح اللطيف الى أصحابها من أجل حفظها . وإن هذا العمل المتواضع يعد مقدمة مبدئية ، لكن هذه المديرية ستواصل جهودها في هذه الناحية لتهيء مشروع مفصل يضمن مصلحة الافراد المالكين ، وسلامة التراث .

إن المشروع المنتظر يتطلب اهتماماً وتعاوناً من جميع الافراد والهيئات صاحبة العلاقة في هذا الموضوع ، نسرده خطوطه الرئيسية فيما يلي ؛ ونرجو أن نوفق في المستقبل لتحقيقه .

١ - باشرت هذه المديرية في إعداد مخطط مدينة دمشق نضع عليه مراكز الدور الاثرية الخاصة . وعند الانتهاء من إعداد هذا المخطط ستشاور مع المحافظة الممتازة ، لتتجنب هذه الدور في التنظيمات والتخطيطات الحديثة . وستشرع المديرية أيضاً بالقيام بنفس العمل في المدن السورية الاخرى .

٢ - مادامت الدور الاثرية معروضة للبيع بسبب زهد أصحابها بها ، فإن المديرية العامة تحرص أن تشتري عبون هذه الدور لتهيئ منها متاحف شعبية تبرز فيها مختلف نواحي الحياة الماضية . ولا بأس أن تشتري وزارة المعارف الدور الاخرى لحاجتها في إبقاء المدارس في أحياء المدينة القديمة ، وتظل هذه الدور تحت إشراف هذه المديرية لتسهر على رعايتها .

٣ - توصي هذه المديرية وزارة المعارف في أن توجه المديرين والمديرات القائمين على المدارس التي هي دور أثرية مشتراة أو مكتراة لاستشارة المختصين في مصلحتنا من أجل الترميم .

٤ - تزور اللجنة المختصة هذه الدور من حين الى آخر لتتفقدتها وتساعد الراغبين من المالكين في إسداء الارشاد الفني في الترميم كما أنها تساعد مادياً المالكين الفقراء العاجزين عن الاصلاح ؛ ويكون ذلك بملاحظة اعتمادات خاصة لهذا الغرض في الموازنات القادمة بعد أن تستدرك الاعتبارات القانونية لصرف هذه الاعتمادات .

هذا وإن مديرية الآثار العامة ماضية في سبيلها من أجل تحقيق رسالتها في إبراز حضارات المعصور الحالية على أحسن وجه ونرجو أن يحالفها التوفيق في كل ما يعمود على الأمانة بالخير .

م . ابو الفرج العس

المروج للسكرابجية المنسبة

في التواريخ العربية

محمّد طبراني تاريخي

للاستاذ وصفي زكريا

تحتوي الكتب العربية القديمة في التاريخ والجغرافيا على أسماء عدة مروج استراتيجية^(١) في بلاد الشام كانت مسرحاً لمعارك شديدة بعضها كان من نوع (المعارك الحاسمة) قلبت صفحة تاريخ وبدلت أوضاع ورفعت دولة وأزالت أخرى . ويردد المتأخرون من المؤلفين في التاريخ والخطط أسماء هذه الأماكن دون أن ينعنوا بتحديد مواقعها وأوصافها وأسمائها الحاضرة . لأن بعضها قد نسي اسمه القديم أو حرف أو بدل بغيره أو تغيرت معالمه ولم يعد مرجحاً . وقد شغل بالي منذ سنين في التعرف الى أماكن هذه المروج واستقصاء طبغرافيتها التاريخية ومزاياها الاستراتيجية وكيفية وصول الجيوش المهاجمة والمدافعة إليها وتميئتها واقتنالتها وأسباب النصر أو الكسر التي حدثت فيها . وبعد زيارات وتحقيقات حصلت على ما يلي مما أرجو ان أكون قد وفقت فيه . ويطيب لي أن اتلقى ملاحظة سلبية أو ايجابية على ما سردته من ذوى الاطلاع والاهتمام عندنا بهذه الابحاث التي ندر الخوض فيها ليكون ذلك مثاراً للتوسع والاكمال لكل الاعلام الجغرافية الهامة منسية كانت أم غير منسية في تاريخ بلاد الشام . خاصة وقد سبقنا الاوربيون الى ذلك حتى فيما يتعلق ببلادنا . وفي طليعة هؤلاء المستشرق العلامة دوسسو مؤلف الكتاب القيم المسمى (الطبغرافية التاريخية لسورية في العصور القديمة والمتوسطة)^(٢) ، بينما نحن أولى بخدمة تاريخ بلادنا وجغرافيتها من ذلك المستشرق المحمود العمل . ومثله بين العرب فيما علمت واحد فقط هو الفاضل العراقي العميد الركن طه الهاشمي صاحب المؤلفات والمقالات القيمة العديدة . فهو يتطرق الى هذه الموضوعات ويمجدها أي إجادة .

(١) كلمة يونانية الاصل عامة الاستعمال في كل اللغات بمعنى سوق الجيش وإبلاغه مكان احتشاد العدو

Topographie historique de la Syrie antique et médiévale . Dussaud .

(٢)

مرج راهط : فاول هذه المروج المنسية هو المسمى (مرج راهط) ، يذكره المؤرخون عند بحثهم في نشأة دولة بني أمية ووصفهم المعركة الهائلة التي وقعت فيه بين القيسية جماعة عبدالله بن الزبير واليمانية جماعة مروان بن الحكم ، كل منها يريد الخلافة لصاحبه . فأين مرج راهط هذا ، وهل يعرفه أحد الآن ، ولماذا نسي الناس هذا الاسم ، هذا ما شغل بالي منذ سنين . وقد تحررت فلم أجد مؤلفاً ولا تأليفاً تطرق الى هذه النقطة الهامة .

فلننظر بادىء بدء الى ما قاله المؤرخون عن معركة مرج راهط المذكورة لنستطيع على ضوءها من تحديد موقعها على أقوى تخمين . قالوا ما خلاصته (١) ؛ بعد موت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان تولى الخلافة ابنه معاوية بن يزيد مائة يوم . ثم ترك الامر واعتزل وبيع الناس عبدالله بن الزبير في أكثر النواحي ولا سيما في الحجاز ومصر . وكان مروان بن الحكم بن أبي العاص بالشام . وكان من أعظم رجال بني أمية عقلاً وحكمةً وسياسةً . فهم بالمسير الى المدينة لمبايعة ابن الزبير . لكن بمض أنصاره أشاروا عليه ألا يسير بل يدعو بالخلافة لنفسه ففعل . وخالف عليه الضحّاك بن قيس الفهري عامل دمشق الذي ظل موالياً لابن الزبير ، وصار أهل الشام حزينين حزب مع مروان وهم يمانية « كلب وغسان والسكاسك والسكون » وحزب مع الضحّاك وهم قيسية من قبائلها المختلفة ومعهم أجناد دمشق وحمص وحلب وخرج الضحّاك بمجموعه من دمشق وزحف مروان بمجموعه من الجابية في ارض حوران والتقى بمرج راهط ، قالوا : كان مع الضحّاك ثلاثون ألفاً ومع مروان ثلاثة عشر ألفاً أكثرهم رجالة . فاقتتلوا اقتتالاً شديداً دام عشرين يوماً خلال شهر محرم سنة ٦٥ هـ (آب سنة ٦٨٤ م) ، وكانت الغلبة أخيراً لمروان . فقتل الضحّاك « وقتل من جيشه مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها في موطن قط » واستقام الامر لمروان وعدت هذه الوقعة من الوقائع المشهورة « الحاسمة » لأنها وطدت الخلافة لبني أمية . وقد اكدت الشعراء من ذكرها وافتخرت اليمانية على القيسية كما رثت اليمانية مصيبتهم بها . منها قصيدة لزُؤَر بن الحارث الكلابي نذكر بعض أبياتها التي جرت مجرى الامثال ، وكان فر يومئذ عن ثلاثة بنين له وغلام فقتلوا :

لمعري لقد أبقت وقعة راهط لمروان صدعاً بيننا وتنائياً

* * *

فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا وتثار من نسوان كلب نسايا
فقد يثبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

(١) تاريخ الطبري ج ٧ و ٨ ، تاريخ ابن الأثير ج ٣ و ٤ ، تاريخ الدول الاسلامية للخضري ج ٢ .

ومن ذلك الحين انقسم العرب في بلاد الشام والاندلس وغيرها من الاقطار التي افتتحوها وانتقلوا اليها الى فرقتين قيسية وعمانية ظلنا (والصدع بينها متنازع) في تنافر وتناحر دامت ذيوهما حتى القرن الهجري الماضي في فلسطين ولبنان خاصة .

والحقيقة ان هذه العادة في العرب « هي التي كانت الاصل الاصيل في فقدم الاندلس ، بل في نكوسهم عن قلب اوربا بعد ان وطأوه بأقدامهم وكادوا يستولون على تلك القارة . وقد كانوا كلما تم لهم الظفر في واقعة على الاجانب عادوا فاقتتلوا فيما بينهم بين قيسي وعماني « مضري وقحطاني ، ففشلوا وذهبت ريحهم واضطروا أن يعودوا من حيث أتوا» (١) .

قلت : نشأ الانقسام اذن بين الامة العربية من يوم معركة مرج راهط . وصار هذا المرج مبدأ النكبات في التاريخ العربي . واصبح من الواجب معرفته للتأسي والاعتبار .

لننظر الآن الى ما قاله الجغرافيون : قال ياقوت الحموي في كتابه المعتم (معجم البلدان) في مادة راهط : راهط بكسر الهاء وطاء مهمل ، موضع في الغوطة من دمشق في شرقيه بعد مرج عنراء اذا كنت في القصير طالبا ثنية العقاب تلقاء حمص فهو عن يمينك . وسماها كثير نقعاء راهط . . قال :

ابوكم تلاقى يوم نقعاء راهط بني عبد شمس وهي متنى ومقتل

راهط اسم رجل من قضاة ويقال له مرج راهط . وقال أيضاً في مادة قرية عنراء ؛ واليه ينسب مرج عنراء وبالقرب منها راهط الذي كانت فيه الوقعة بين الزيرية والروانية . وقال الملك المؤيد ابو الفداء في كتابه القيم (تقويم البلدان) في مادة مرج راهط : هو في غوطة دمشق من ناحية الشرق وبه كانت الوقعة بين القيسية واليمانية .

ان تعريف أبي الفداء واضح . فهو يضع مرج راهط في شرقي الغوطة . واذن هو المنطقة التي تعرف الآن باسم (المرج) فقط وتشمل بعض ناحية دومة في جنوبي طريق سيارات حمص وكل ناحية النشابية في جنوبي ناحية دومة . ولكن لماذا اهلكت كلمة (راهط) وفي أي عصر جرى هذا الاهمال واكتفى بكلمة مرج فقط . ذلك ما لم نثر على جوابه .

أما تعريف ياقوت فهمهم وغير صائب ويحتاج للتأويل . لان الموضع الذي قال انه بعد مرج عنراء اذا كنت في القصير . . الخ يدعى في يومنا (سهل رمدان) بفتح الراء والميم . وهو

(١) من تعليقات الامير شكيب أرسلان على الجزء الاول من تاريخ ابن خلدون .

يقع بين طريق سيارات بغداد وبحيرة الغنيبة بل هو يمتد ويتسع نحو شرقها حتى الاديعة الرومانية. الثلاثة الشاخصة بجدرانها حتى الآن. وهو ليس مرجاً ذا نبت كثير تخرج فيه الدواب بل هو ارض جرداء او تكاد ، رخاء عطشى لا تصلح لاحتشاد الالوف من الجنود وخيلهم المحتاجة للماء والمرعى طوال عشرين يوماً ، ولا سيما في شهر آب الالهاب الذي حدثت فيه الممارك المذكورة .

ولو قال ياقوت (قبل مرج عذراء) أو (بين القصير وعذراء) لاستقام المعنى أكثر . لان الارض هناك لا تبعد عن دمشق الذي خرج منها جيش الضحاك أكثر من ١٧ - ١٨ كيلومتراً ، وهي مروج واسعة منبسطة فيها الآن عدة مزارع تدعى احواشاً (جمع حوش) كتل الكردي وحوش الريحان وحوش الخياط وحوش مبارك وحوش الفاره وحوش نصري والزريقة وقرية حزرما . وكلها يمتد غربي مرج عذراء لا بعده وعلى يمين من يقف في مستشفى القصير ويطلب ثنية العقاب تلقاء حمص - على حد تمبير ياقوت - وكلها ذو عشب وماء وصالح لاحتشاد الجيوش والكر والفر .

هذا واذا اردنا ان نتوسع في التحديد لتراعي ما قاله المؤرخون عن الممارك المذكورة التي خاضها ثلاثة واربعون الفا من جنود الفريقين ، وقد زحفوا من دمشق التي غربي مرج راهط ومن ارض حوران التي جنوبيه ودام اقتتالهم عشرين يوماً لا يبعد ان تكون مساحة الحرب أوسع ونارها اشتعلت في اكثر من محل واحد من الشمال الى الجنوب في مساحة ٢١ × ١٢ كيلومتراً حتى مجرى نهر الاعوج وشملت منطقة المرج كلها التي هي (مرج راهط) نفسه .

مرج الصفر : وهذا ثاني المروج الاستراتيجية المنسية . رددت التواريخ ذكره مراراً وتكلم عنه ياقوت في معجمه . وقد سئلت الكثيرين في دمشق حتى الملاكين منهم للقرى المجاورة لهذا المرج فلم يعرفه أحد ولا سمع بهذا الاسم . بينما هو على بعد سبعة وعشرون كيلومتراً عن دمشق في جنوبها يقع شرقي قرية شقحب بينها وبين طريق سيارات درعا يصل اليه القاصد بعد مغادرة دمشق والكسوة وبلوغ خاندون في طريق غير معبد ينشط من غربي هذا الخان نحو الجنوب الغربي حتى شقحب وما بعدها . فاذا سار في هذا الطريق نحو ستة كيلومترات يجد على يساره سهلاً فسيحاً منبسطة ربما بلغ ذرعه ٤ × ٣ كيلومترات . يشمل في يومنا

الاراضي الزراعية الشرقية لقريتي زاكية وشقحب والاراضي الشمالية لقريتي اركيس والزريقية . وهو على ما رأيت صالح أي صلاح « استراتيجياً » لاحتشاد الجيوش واقتتالها . بحكم انبساطه وقلة أجاره ووجود عيون صالحة لشرب الجند والخيول ، اسماؤها عين السوداء وعين النهدين وعين شقحب . وفي شماله الى الشرق عن بعد جبل المانع (١١٣٠ م) الذي يرى من دمشق ، ونهر الاعوج الفاصل بين ارض حوران وغوطة دمشق . وفي شرقيه عن قرب تلأل أو آكام مرتفعة وعرة كانت الجيوش السباقة اليها تجملها دريئة وراء ظهرها لضمان خط الرجعة أسماؤها تل ابو العبا (٨٨٥ م) وتل السوبا (٨٣٥ م) . وفي منحدرات هذه السلسلة قرية مذكورة في التاريخ اسمها عالقين مات فيها الملك العادل ابو بكر بن ايوب سنة ٦١٥ هـ وهو في الصيد وأخذ منها ميتاً في محفة الى دمشق حيث دفن في المدرسة العادلية الكبرى (دار المجمع العلمي الآن) .

ذكر ياقوت هذا المروج فقال ؛ مرج الصفر بالضم وتشديد الفاء موضع بين دمشق والجولان صحراء كانت بها وقعة مشهورة في أيام بني مروان وقد ذكروه في اخبارهم وأشعارهم . منها :

شهدت قبائل مالك وتغيت عني عميرة يوم مرج الصفر

وقال خالد بن سعيد العاص وقد قتل بمرج الصفر :

هل فارس كره التزال يميزني ربحاً اذا نزولوا بمرج الصفر

قلت : وكان مرج الصفر ذا شأن استراتيجي هام للهجوم على دمشق من قبل الجيوش الزاحفة من الجنوب لثقتي فيه بالمدافعين عنها . ولذا يتكرر اسمه في مناسبات شتى طوال العصور الاسلامية . وقعت فيه معارك شديدة من الصنف الذي يقال عنها (حاسمة) نوّعت بها التواريخ أولها بين جيوش المسلمين الزاحفين على دمشق بعد انتصارهم في موقعة اليرموك والروم البيزنطيين المدافعين عنها في سنة ١٤ هـ (٦٣٤ م) ، والثانية نوه بها ياقوت في معجمه انها وقعة مشهورة في أيام بني مروان ، والثالثة بين جيش المسلمين المدافعين عن دمشق والصابيين الزاحفين من أنحاء فلسطين في سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ، والرابعة بين المغل (التتار) الزاحفين للغارة على بلاد الشام ومصر وبين جيش المسلمين القادمين من مصر ومختلف أنحاء الشام في سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٣ م) في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون .

قالت التواريخ عن الوقعة الاولى ما خلاصته : بعد ان تم للمسلمين النصر في اليرموك اجتمعت الروم جمعاً عظيماً وامدم هرقل بمدد فلقبيهم المسلمون بمرج الصفر وهم متوجهون لفتح دمشق وذلك لهدال الحرم سنة ١٤ فافتتلوا اقتتالاً شديداً وجرح من المسلمين زهاء اربعة آلاف وولى الروم مغلوبين لا يلوون على شيء . وتقدم المسلمون وراءهم وأخذوا الفوطه ونازلوا دمشق وحاصروها حتى فتحو نصفها عنوة والنصف الآخر صلحاً ... الخ (١) .

أما الوقعة الثانية التي نوه بها ياقوت في معجمه ووصفها بكلمة مشهورة في أيام بني مروان دون أن يسطر أو يحدد تاريخ وقوعها واسماء بعض من كان فيها ، فهذه لم نعثر على خبرها في ما رجعنا اليه من المصادر . لذلك اكتفينا بذكرها حسب مع العلم بأن ياقوت ثقة في ما يكتبه .

وقالت التواريخ عن الوقعة الثالثة ان ملك القدس الصليبي بغدودين قصد بلاد حوران للعبث بها فخرج اليه صاحب دمشق الاتابك السلجوقي ظهير الدين طغتكين ومعه جموع من التركان وأحداث دمشق والفوطه والمرج ، ولقي الصليبيين بمرج الصفر واشتد القتال فانهزم صاحب دمشق وخياله بادىء بدء ولحقهم الفرنج ، وفيما كانوا مشغولين بهذا اللحاق ارتد بعض جند المسلمين ونهب تخيم الفرنج وأثقالهم ورجع الفرنج من المهزمين ورأوا رجالتهم قتلى وأموالهم منهوبة فانهزموا لا يلوون على أخيه . وكان هذا من الغريب أن طائفتين تنهزمان كل واحدة منها من صاحبها (٢) وكان ذلك سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) .

وقالت عن الوقعة الرابعة ان المغل (التتار) كانوا في قيادة قطلوشاه نائب غازان خان حفيد هولاكو خان هادم الخلافة العباسية ومغرب بغداد وغيرها . وقد زحف جيش التتار العرمرم من شمالي ايران وعبروا الفرات ووصلوا الى حماة فاندفعت المساكر الذين كانوا بها وبمحض وهدمشق بين ايديهم . واجتمعت عساكر الشام ومصر في مرج الصفر لما قاربهم العدو وبقت تنتظر قدوم الملك الناصر محمد بن قلاوون من مصر . وسار التتار طالبين العسكر ، ولما علموا باجتماعه في مرج الصفر ابتعدوا عن دمشق وبلغوا هذا المرج والنقي الجمعان في ٣ رمضان سنة ٧٠٢ هـ (نيسان ١٣٠٢ م) ، وكان وقتئذ للعلامة تقي الدين احمد بن تيمية رأس فقهاء عصره فضل كبير في هذه الممركة . فقد خرج من دمشق الى ساحة القتال ، واستقبل السلطان الملك

(١) و (٢) خطط الشام للسرد علي

الناصر قبل وصوله وكان متردداً يفكر بالنكوص الى مصر . فجاء ابن تيمية وحشه على الزحف والجهاد وسار معه يعظ المساكر ويشجعهم ويقتي بإمكان الافطار في رمضان بسبب القتال ويلبب المواطف والعزائم .

قالوا^(١) ولما اصطفت المساكر والتجم القتال ثبت السلطان ثباتاً عظيماً وأمر بجواده فقيده حتى لا يهرب . وجرت خطوب عظيمة وقتل جماعة من كبار الامراء . ثم نزل النصر على المسلمين . ولما جاء الليل لجأ التار الى اقتحام التلال والجبال والآكام (التي ذكرناها في مطلع هذا البحث) واشعلوا النيران فاحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الحرب ويرمونهم عن قوس واحدة الى الفجر فقتلوا منهم ما لا يعلم عدده الا الله وجعلوا يحيئون بهم في الجبال فتضرب أعناقهم .

ويبدو ان التار المنهزمين لجأوا بعد الى سفوح جبل المانع الذي شرقي الكسوة . ولما لم ينعمهم عبروا نهر الاعوج نحو مرج راهط وفي ذلك يقول شمس الدين البطي :

يا مرج صفر بيضت الوجوه كما فملت من قبل والاسلام مؤتلف
غدران ارضك قد اضحت لواردها ممزوجة بدماء المخل تعترف
فما استقام لهم في (اعوج) نهج ولا أجارهم من (مانع) كنف

وراح المنهزمون نحو ثنية العقاب والمسلمون في اقفيتهم يقتلون ويأسرون . وكان في طريقهم ارض متوحلة (قلت لعلها مستنقعات مرج راهط) فتوحد فيها عالم كثير من التتر^(٢) حتى اجتازوا القطيفة وجبرود والقريتين وتدمر الى أن بلغوا الفرات وهو في قوة زيادته . فلم يقدروا على العبور والذي عبر فيها هلك فساروا على جانبه الى بغداد وانقطع أكثرهم على شاطئ الفرات وأخذ الاعراب منهم جماعة كثيرة . . . الخ

تجمع المروج : وهذا ثالث مرج منسي . قال عنه ابو الفداء في تاريخه ج ٤ انه في شرقي حمص على نحو نصف مرحلة منها . بينما ليس الآن في حمص لهذا الاسم اثر او خبر . وهذا التعريف اضطرنا الى أن نضع (مجمع المروج) هذا في واد فسيح اسمه (وادي الميدان) عند قرية اسمها وريدة تبعد اثنين وعشرين كيلو متراً عن حمص الى الشرق وهو مقدار نصف المرحلة التي ذكرت . وهو مكان

(١) البداة والنهاية في التاريخ لابن كثير ج ١٤

(٢) تاريخ ابو الفداء ج ٤

صالح نسبياً لاحتشاد الجيوش والكر والفر . لكنه هو وما حوله ليس مرجأ معشوشباً بل ارضه معدة للحرث والزرع من أقدم زمن ، وليس هناك مروج مجتمعة ولا متفرقة حتى يصح تسميته (مجمع المروج) كما انه هو ليس على الطريق العام القادم من انحاء سلمية او حماة او تدمر ، فذا الذي جعله مسرحاً للمعركة التي سنتكلم عنها وما الداعي لأن تسميه اتوارينخ (مجمع المروج) وكيف بدل هذا الاسم بوادي الميدان ؟ هذه غوامض لم نستطع جلاءها .

على حين انه في شمالي حمص قرية على بعد خمسة وعشرون كيلومتراً اسمها (دير فور) او (دير الفول) في شرقيها مكان يدعونه الآن (المجمع) بسبب اجتماع اودية عديدة فيه قادمة من جنوبيه وشرقيه ، كوادى تل عمري ووادى عين حسين والسمن الاسود وغيرها . وكلها يجتمع في شرق القرية المذكورة على بعد ثلاثة كيلو مترات ويجري في مسيل واحد شمالاً للانصباب في نهر العاصي . لكن الوضع الطبغرافي لاراضي هذه الاودية متموج وذو مرتفعات ومنخفضات لا تساعد على اصطفاف جيوش العصور المتوسطة وكرها وفرها ، لان هذا الاصطفاف والافتتال يومئذ كان يتطلب أرضاً مستوية مكشوفة . وأرض (المجمع) المذكور ليست كذلك . وهي ليست (مجمع مروج) بل (مجمع اودية) وليست شرقي حمص كما قالت التواريخ بل شمالها . هذا ما حال دون العثور على مكان (مجمع المروج) وقد تركنا البت به الى من يهيمه هذا البحث العلمي من مفكري حمص ، فهل يحقق رجاءنا أحد منهم ؟

ومن الغريب ان ابن تفردي بردى المتوفى سنة ٨٧٤ مؤلف التاريخ الكبير المسمى (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) ذكر (في ج ٨ ص ١٢١) مكان هذه المعركة بانها « بالقرب من سلمية بمكان يسمى وادي الخازندار » بينما ليس الآن هناك لهذا الوادي ايضاً أثر أو خبر فمن هو أصدق فيما ذكره ، ابو الفداء أم ابن تفردي بردى ؟

أما المعركة التي حدثت في أحد هذين المكانين ، فقد كانت في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) بينه وبين التتار الذين كان يقودهم غازان خان حفيد هولاكو خان القادم من عاصمته تبريز التي هي الآن قاعدة ولاية آذر بايجان في شمالي ايران . قالوا ؛ وكان بعض امراء السلطان الملك الناصر متلبين على الدولة ولاهين بمطامعهم فلم يكملوا عدة جندهم فنقص العسكر كثيراً مع سوء التدبير ومحو ذلك من الامور الفاسدة التي أوجبت هزيمة جيش السلطان على رأي أبي الفداء . ثم ساروا والتقوا بالقرب من مجمع المروج فولت ميمنة المسلمين ثم الميسرة وثبت القلب وأحاطت به التتار وجرى بينهم قتال عظيم ، وتراجع السلطان الى جهة حمص

فولت المساكر الاسلامية منزهة الى دمشق ثم الى مصر . وبلغ التثار دمشق واخشوا فيها بالهدم والحرق والنهب والتفريغ كما عملوا في أنحاء حلب وغيرها دون وازع طوال ثلاث سنوات ابتليت بهم بلاد الشام كلها وقتئذ بلاء عظيم وتقلص عمرانها حتى قال ابن قاضي شبة في رثاء هذه المصائب :

رمتنا صروف الدهر حقاً بسبمة فما احد منا من السبع سالم
غلاء وغازان وغزو وغارة وغدر وإغبان وغم ملازم

ظلوا على ذلك الى أن عاد السلطان المذكور سنة ٧٠٢ في معركة مرج الصفر التي قدمنا وصفها وانتصر عليهم وكف شرهم .

مرج الاخرم : وهذا رابع مرج منسي ذكرت التواريخ اسمه ولم تعين مكانه . وذلك في حديثها عن معركة شديدة من صنف (المارك الحاسمة) كانت السبب في توطيد دولة العباسيين والقضاء على الامويين باتاً . وقد وقعت هذه في سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩ م) بين جيش عباسي وجنود من الثائرين على العباسيين من أهالي بلاد الشام الشمالية (قسرين ، حمص ، تدمر) فقد بيض هؤلاء — على حد تعبير ذلك العهد — أي انهم لبسوا البياض شعار الامويين ضد المسودة العباسيين وقاموا يحاولون ارجاع الخلافة الى الامويين بعد أن فانت الفرصة بانكسار آخر خليفة أموي مروان بن محمد وانهزامه وقتله وزوال دولة الامويين وتشتت شملهم .

وكان الثوار في قيادة ابو محمد زياد بن عبدالله الاموي حفيد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وكان مدبر اموره (رئيس أركان حربه) أحد قواد الامويين البارزين واسمه ابا الورد بن الكوثر الكلبي . قالوا : واحتشدت جنود الثوار وكان عددهم اربعين ألفاً ، في مرج الاخرم . وجاء العباسيون وعددهم نحو نصف ذلك يقودهم عبدالله بن علي العباسي عم ابو العباس عبدالله السفاح . وهو اول قائد وعامل عباسي دخل بلاد الشام ودوخها واستأصل شأفة الامويين منها ونش قبرهم وعنى آثارهم .

وقد جرت معركتان في مرج الاخرم المذكور ، دارت الدائرة في الاولى على العباسيين ، وفي الثانية على الثوار انصار الامويين ، وقتل ابو الورد وهرب ابو محمد زياد ومن معه حتى لحقوا بتدمر ، وسوّدت البلاد أي دخلت في طاعة العباسيين . . . الخ

والآن لتتحرى في محافظات حلب وحماة وحمص واقضيبتها على مرج اسمه الاخرم . هل نجده ، كلا . بل نجد مرجاً في ضواحي سلمية اسمه في يومنا (مرج الكريم) بكسر الكاف وفتح الراء وسكون الياء والميم ، ونفترض ان كلمة الكريم هذه محرفة عن كلمة الاخرم على توالى العصور فصارت (خريم ، كريم) لانه ليس في تلك المحافظات كلها اسم مرج يقرب من هذا اللفظ الا الكريم المذكور . وهذا المرج في غربي سلمية وعلى بعد ثلاثة كيلومترات ، وهو مرج أفيح منبسط كل الانبساط ، مستطيل الشكل ، زرعه فيما اذكر حوالي 4×3 كيلومتر ، وهو خصب التربة ، كان العشب فيه يعلو ركبة الانسان في عنفوان الربيع على ما أدركته والماء تتناوله باليد حيثما حفرت ، واذن هو صالح لاحتشاد الجيوش وكرها وفرها كل الصلاح . هذا الى ان الموقع الجغرافي لسلمية (Salamias في عهد الرومانيين) جعلها في ملتقى الطرق القديمة التي كانت تأتي من تدمر نحو حماة وانطاكية ومن الجزيرة الفراتية نحو الرصافة وحمص ودمشق وما بعدها ومن قنسرين (حلب) مارة بالخرابج وتل حلاوة والحمراء وغيرها . فلا عجب بعد هذا أن تتوارد الجيوش الى سلمية وان تحدث تلك المعركة الحاسمة في مرج الكريم الذي كان اسمه القديم مرج الاخرم ، وان يكون لهذا المرج ذكرى بالغة الاثر في قيام الخلافة العباسية كما لزيميله مرج راهط في قيام الخلافة الاموية .

فن العمارة الإسلامية

لمحة تاريخية :

قد يتعذر على الكاتب في هذه المجالة أن يذكر كل ما يتعلق بالعمارة الإسلامية بالتفصيل ، وبالشكل الذي يستحقه هذا الفن الجميل الذي يمد بحق — اذا استثنينا الفن الصيني — أطول الفنون عمراً على الاطلاق . ولا شك ان العمارة الإسلامية مدينة في نشوئها وتطورها الى انتشار الاسلام في القرن السابع الميلادي ، وما نتج عن ذلك الانتشار من نتائج امتدت حتى وقتنا هذا ، وكان لها أكبر الأثر في تطور الحضارة الإسلامية بشكل عام .

فقد خرج المسلمون فاتحين من شبه الجزيرة العربية بعد توحيدها في ظل الاسلام ، فاحتلوا سورية في مدة وجيزة ، وثلوا عروش الاكسرة والقيصرية ، وملكوا ناحية العراق وبلاد فارس ، ثم انتشروا غرباً في افريقيا والاندلس وشرقاً نحو الهند والصين ، بحيث لم ينقض القرن الثاني الهجري حتى كانت امبراطورية العرب تمتد من جنوبي فرنسا وجبال البيرنة غرباً حتى حدود طوروس وتركستان ووادي كشمير شرقاً ما عدا جزر البحر الابيض المتوسط التي كانت تابعة لهم ، والجزيرة التي كانوا يتقاضونها من ملوك كابل وجميع أمراء وادي مهران ،

وقد مر تاريخ الامبراطورية الإسلامية الكبيرة بمراحل كانت بعضها حاسمة : كان القرن السابع الميلادي ومنتصف القرن الثامن عصر الخلفاء الراشدين والدولة الاموية التي زالت حوالي (٧٥٢) م وحلت محلها الدولة العباسية التي تأثرت بحضارة الفرس الى حد كبير ، فانفصلت الدولة الاموية في الاندلس مفتتحة بذلك حركة الانفصال عن جسم الدولة العربية الاساسي ، الذي ما عتم أن بدأ يتفكك بتشكيل دول الطوائف ، وابتدأت عناصر غير عربية تسيطر على

آ (١٠)

خلافة بغداد ، الأمر الذي سهل على الغرب الانتصار في الحروب الصليبية الاولى ، والاستيلاء على قسم من سوريا امتد حتى بيت المقدس ، إلا ان المسلمين استطاعوا بعد ذلك استعادة فلسطين بقيادة صلاح الدين الايوبي ، والوقوف في وجه الحملات الصليبية التالية حتى تم جلاء قواتها ، وعاد الاسلام يسيطر على الامبراطورية من جديد .

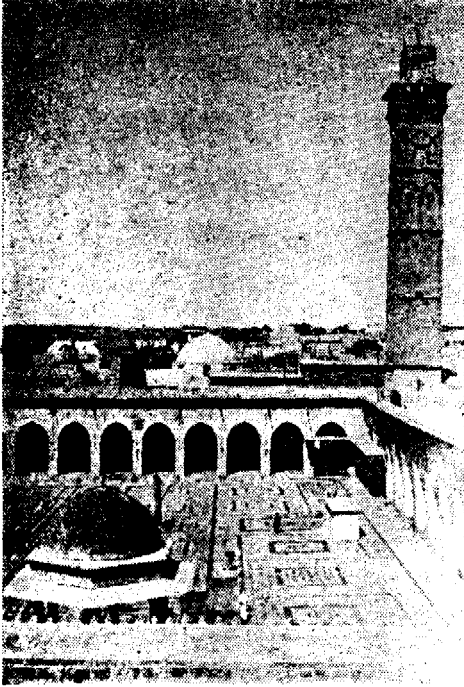
وما كاد منتصف القرن الثالث عشر ينقضي حتى كانت مجافل المغول وجيوشهم تنقض على الشرق الاسلامي ، فتقضي على الخلافة العباسية ، وتعيث فساداً في الارض بقيادة جنكيز خان سنة (١٢٥٨ م) ثم بقيادة تيمورلنك سنة (١٤٠٠ م) . وتم طرده هؤلاء نهائياً على يد المماليك الذين أخضعوا سوريا لحكمهم حتى مجيء العثمانيين سنة (١٥١٦ م) فدخلت أمم الشرق الأدنى وشمال أفريقيا مع البلاد الاخرى في تاريخ الامبراطورية الاسلامية الجديدة ،

* * *

أنواع الابنية الاسلامية :

ولم يكن هناك من بد للدولة الاسلامية في مراحل تاريخها الطويل الذي أتينا على ذكره من تشييد العمارات المختلفة لخدمة أهدافها الدينية والعسكرية والمدنية بشكل اختلف حسب تلك الاهداف ، ونبدأ منها بالابنية الدينية وفي مقدمتها الجوامع والمساجد ، ولها طرز خاص : ففي وسط الجامع عادة باحة مكشوفة تحيط بها أربعة أروقة تغطي بسقوف محمولة على أقواس أو على دعائم مجردة ، تقع في رابعها القبليّة أو المصلى ، وهو يتألف من قاعة مستطيلة الشكل تتخللها أعمدة أو دعائم مليئة لعلوها الأقواس ، ويقف المصلون بخطوط عرضانية باتجاه القبلة نحو المحراب ، الذي يتوسط الجدار القبلي ، وهو تجويف صغير في الجدار يحيط به من الطرفين عمودان صغيران ، ولم يكن المحراب معروفاً في المساجد التي سبقت عصر الوليد بن عبد الملك ، فقد أشارت المراجع القديمة ان عمر بن عبد العزيز كان أول من أحدث المحراب عندما أعاد بناء مسجد النبي بالمدينة . وإلى يسار المحراب منبر يث منه الخطيب أيام الجمعة وفي المناسبات كعالم الدين الحنفي . يحدثنا مخبرو السير ان النبي اتخذ منبر من خشب الابل على ثلاث درجات كان

يجلس على الدرجة العليا منها ، فلما خلفه أبو بكر في امامة المسلمين جلس على الدرجة الثانية أما الخليفة عمر فكان يجلس على الدرجة الاولى ، وهو الذي نهى عمرو بن العاص عن بناء المنبر



في جامعهم بالفسطاط ، الا ان ابن دقاق (١) يحدثنا عن وجود المنبر في جامع عمرو قبل سنة (٥٩٣ هـ) ولكن هذا التحفظ زال بزوال الخلفاء الراشدين لان الامويين دأبوا على استعمال المنابر وبقي هذا الاستعمال حتى الآن ، كما أدخلوا في بناء المساجد المقصورة بعد محاولة اغتيال معاوية بن أبي سفيان .

وكان أول مسجد في الاسلام هو ذلك الذي بناه الرسول عليه السلام في المدينة سنة (٦٢٢) م أما المسجد الثاني فقد بني في الكوفة بأرض الجزيرة سنة (٦٣٩) م وكان مربع الشكل تحيط به الخنادق ويستند سقفه الى أعمدة من الرخام أتى بها من أحد قصور الملوك في الحيرة ، ثم بنى عمرو جامعهم بالفسطاط سنة (٦٤٢) م ، وبعد سنين ادخلت المقصورة في

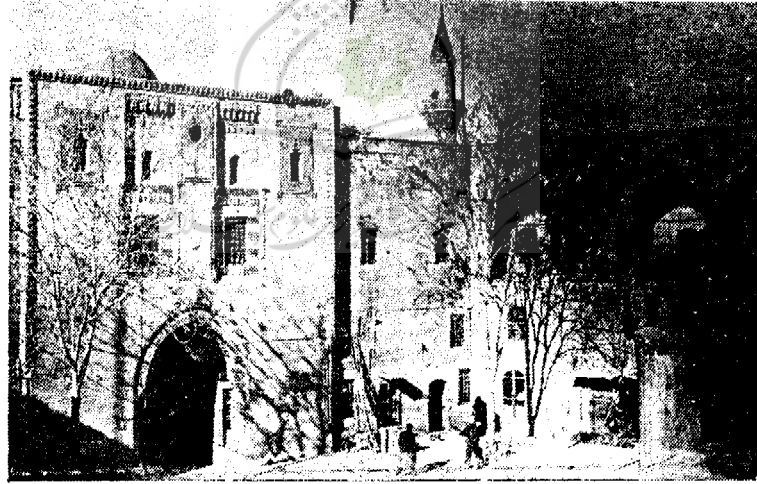
عمارة المساجد لتحجب الامام عن بقية المصلين ، وفي (١) الجامع الكبير بحلب : زخرف الارض والاروقة المحيطة بالباحة وشكل المآذن الاموية للربعة آخر هذا القرن (السابع) ظهرت المآذن وتبعها ظهور المحاريب . وهكذا نرى ان عمارة المسجد تطورت في الاعوام التسعين التي تلت بناء المسجد الاول حتى شملت أهم العناصر التي نراها في الجوامع التي بنيت فيما بعد .

ثم ادخلت المدارس في عداد الأبنية الدينية ، وتتألف من باحة متوسطة تؤدي الى ايوان يجتمع فيه الطلبة حول الاساتذة لتلقي الدروس فيه على شكل حلقات ، وبجانبه من الطرفين غرفتان متعامدتان مع الايوان ، يأوي اليها الاساتذة والطلاب أيام الشتاء . وفي المدرسة غرف ملحقة لاقامة هؤلاء الطلاب والاساتذة كما تحتوي على مصلى لاقامة الصلوات مع ما يتبع ذلك من

(١) ابن دقاق : الانتصار بواسطة عند الامصار (ج ٤ - ص ٦٣)

أما كن للوضوء... الخ... وكثيراً ما جمعت المدرسة والمسجد معاً حتى أصبحت بعض المساجد مدارس بالضرورة فيما بعد ، وقد انتشرت المدارس كثيراً في المغرب العربي .

ومن العمار الدينية في الاسلام (الخان قاه) وهي كلمة فارسية تطلق على الابنية التي ابتدأ المسلمون يشيدونها منذ القرن الخامس الهجري لايواء المتصوفين ، وهو يحتوي أيضاً على مكان لاقامة الصلاة (كخاتناه الفرافرة بحلب) ، ثم أنشأ الاتراك العثمانيون التكايا ليلوذ بها الدراويش والنسك (كتكية السلطان سليم في دمشق) . وآخر ما نذكر من الابنية الدينية (الضريح) وهو البناء الذي يقام لتخليد ذكر امام أو أمير ، وتعلو البناء عادة قبة ، ويتوسطه ضريح هجري أو خشبي منقوش ومكتوب عليه بخط جميل اسم المتوفى وتاريخ وفاته مع بعض الآيات القرآنية وغير ذلك ، وقد يكون الضريح ملحقاً بجامع أو بمدرسة ، ولعل الاضرحه أكثر انتشاراً في ايران أكثر منها في البلاد الاخرى .



(٢) خان الوزير : واجهته من الداخل ، ويرى قسم من الساحة ومن البناء المحيط به بطابقيه وترى اقبية وهي عثمانية بشكل نصف كرة غير كامل فوق للدخل ، وللائذنة (عثمانية الطراز) ورائه من الناحية الاخرى

على ان الحياة الاقتصادية اقتضت وجود الخانات والاسواق في المدن عدا عن الابنية الدينية ، فشيدت الخانات على طراز يؤمن راحة المسافرين ويحافظ على بضائعهم ، واشتملت على

بأحة متوسطة تربط فيها الخيول ، ويحيط بها بناء من طابقين ، يتألف الأرضي منها من قسم يطل على الصحن وتوضع فيه البضائع ، وقسم آخر يشرف على الشارع ويؤجر حوانيت للتجار أما الطابق الثاني فيقيم فيه التجار والمسافرون . وتتميز الخانات فخامة مداخلها وروعة واجهاتها ؛ أما الأسواق فقد امتازت بقبواتها الكبيرة وامتدادها ولا يزال منها في دمشق وحلب الكثير ، حيث يسير السائح مسافة كبيرة في مأمن من حرارة الشمس في الصيف ومن المطر والثلج في الشتاء .

أما ابنية الخدمة العامة فأول ما نذكر منها البيمارستانات — ومعتها المستشفيات بشكل عام ، والمستشفيات الأمراض العقلية فقط كما يفهم من اللفظة الآن — وتتألف من بأحة رئيسية ذات إيوان تنفرع منها بأحات ثانوية ، تحيط بكل منها غرف لأقامة المرضى ، وتخصص الغرف الداخلية منها للمصابين بالأمراض الخطيرة . وثاني ما نذكر من هذا النوع من الابنية الإسلامية



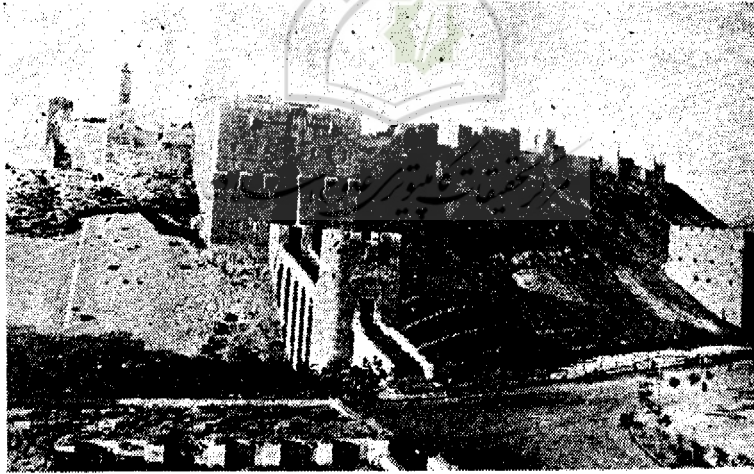
الحمامات التي بنيت بشكل يضمن الانتقال التدريجي من الحرارة إلى البرودة وبالعكس ، فكانت الحمامات تشتمل على قسم خارجي نخلع الثياب عند الدخول والاستراحة عند الخروج ، وقسم متوسط ، ثم قسم داخلي يحتوي على خلوات للاستحمام على انفراد ، وكانت أنابيب المياه الحارة والباردة تجري داخل الجدران ، كما يسخن القسم الداخلي بإيقاد النار تحت أرضه ؛ وفي الحمام نقوش جميلة تزيدها روعة وبهاء .

ولم تخل بيوت الافراد الخاصة من جمال ، خصوصاً في العهود المتأخرة ، فكان المنزل يتألف من مدخل متواضع لئلا يدل على غنى صاحبه فيقطع فيه اللصوص ، يؤدي إلى بأحة تتوسطها غالباً فسقية وتزدهن حولها أشجار البرتقال والكمثرى والتين ، وأمامها إيوان يجلس فيه أفراد الأسرة مع ضيوفهم ، وهناك مكان يجلس فيه الموسيقيون والمنشدون لأطراب الموجودين ، أما أم غرف البيت فهو ما يسمى (بالقاعة) ، وهي غرفة تمتاز بسقفها الجبل من

(٣) بيت الدلال بحلب: وترى الفسقية في الوسط والايوان امامها وقسم من اشجار البرتقال

الخشب المزخرف بالنقوش المذهبة ، وتنقسم الى ثلاثة أقسام اوسطها مربع تنخفض أرضه قليلاً عن الجناحين الآخرين وبعلو سقفه عنها ويزدان بالزجاج المون ، وغالباً ما يحتوي قسمها الاوسط على فسقية صغيرة ، وكل ما فيها من خشب مذهب وزخرف نباتي وهندي يشهد ببراعة صانعيها وابداعه^(١) . ولا يفوتنا بهذه المناسبة أن نذكر ان الخلفاء كانوا يبتنون لهم القصور بعيداً عن المدن للاستجمام والراحة وقضاء قسم من فصل الصيف فيها ، وكانت تجمع بين الرفاه والناحية الصحية فهناك المياه الفزيرة والتحصين المتقن ، وهناك النقوش الفزيرة الجميلة (كقصر الحير شمالي شرقي تدمر حيث يمتزج الفن الإيراني والتدمري وبعض عناصر فن المتوسط الهلنستي ببعض خصائص الزين المعماري الاسلامي كشكل النبات الستوك الخ . . .)^(٢) .

ولحماية كل هذه المنشآت ، عمد المسلمون الى تشييد الابنية العسكرية نذكر منها الاربطة (جمع رباط) على الحدود ، وهي ابنية مستطيلة الشكل ذات أبراج للمراقبة قاعاتها معدومة النوافذ يسكنها المجاهدون الذين شبههم بعض الكتاب بالرهبان العسكريين وفي افريقيا الشمالية منها الكثير . وهناك عدا ذلك الاسوار المنيعة التي تتخللها الابراج ، وهناك الابواب الحصينة التي



(٤) قلعة حلب : مثل من الاسوار الاسلامية والابراج غير المستديرة ومما يجدر ان يذكره المرتفعات الحصون وترى فيها المثيرات البارزة ومبنة الجامع الكبير

تغلّق عند الخطر ، وهناك القلاع العظيمة وتبنى غالباً على مرتفع من الارض يحيط بها خندق واسع ثم سور منيع فوق سفح يسيطر عليه التبالا من الاعلى ، وتتخلله أبراج هندسية صغيرة.

(١) E. Pauty : comité de conservation des monuments de l'art arab . 1909 . (P. 172 ~ 176)

(٢) J. Marcais : l'art de l'islam (P. 27)

وكبيرة ، أما أبوابها فتعرجة لتقطع اندفاع المهاجمين ، وفي هذه الفلاع الوسائل الكافية لتكوين سكانها من الجنود والاجئين المدنيين ، للقيام بطفوسهم الدينية ، وفيها السرايب السرية البعيدة المدى . أما سورها الخارجي وأبراجها فتزيد في مناعة الأعمدة العرضانية التي هي بمثابة مسامير للجدران ، والمثربيات والمنافذ التي ترمى منها السهام .

العناصر الأساسية في العمارة الدينية :

ولهذه الأبنية ، خصوصاً الدينية منها ، عناصر لا بد من توفرها ، وهي التي تساهم كلها أو بعضها في الدلالة على اسلامية البناء ، وأهم هذه العناصر المآذن ، وقد تأخر ظهورها قليلاً لأن المساجد الأولى كانت خالية من المآذن ، وكان الناس يجتمعون الى النبي للصلاة بغير دعوة ، فأراد الرسول استعمال بوق كبوق اليهود لدعوتهم ثم كرهه ، وأمر باستخدام ناقوس لهذا الغرض ، ثم همّ عمر أن يقترح عليه الأذان ، ولكنه رأى بلائاً يؤذن من سطح بيت مرتفع قرب المسجد ، فعلم أن الوحي قد سبقه الى ذلك (١) . وكانت أولى المآذن تلك التي شيدها مسلمة بن مخلد للجامع عمرو بامر معاوية بن أبي سفيان وهي برجية مربعة الشكل ، ثم استعملت أبراج الجامع الأموي بدمشق مآذن يدعى الناس منها للصلاة ، وعلى مثالها المربع الشكل انتشرت المآذن في الامبراطورية الأموية ولا سيما في سوريا ومصر والمغرب العربي والاندلس ، ثم شيد العباسيون المئذنة الملتوية ذات الطبقات التي تضيق كلما اقتربت من القمة والدرج الحلزوني الذي يدور حولها من الخارج كمئذنة جامع سامرا الذي شيده المتوكل سنة (٢٣٤ - ٢٣٧ هـ) ومئذنة الجامع الطولوني بمصر الذي شيده سنة (٢٦٥ هـ) . ثم تمدهل طراز المآذن ، حتى شيدها المماليك على الأكثر بقاعدة مكعبة فبدن مشعن يملؤه قسم اسطواناني الشكل ، وزينوها بالمقرنصات والحوذات المضلعة والمستديرة تحملها الأكتاف والأعمدة ، وكسوا قمتها بالقاشاني وجعلوا قمماً من بدنها بالرخام ، أما الأتراك فقد زادوا في ارتفاعها وجعلوها اسطوانية رشيقة يملؤها مخروط مدبب يكسى بالرخام عادة .

أما أصل المئذنة فقد اختلف المؤرخون فيه ، جملة بعضهم مشتقاً من أبراج الكنائس ، وعزاء بعضهم الآخر الى مشابهة أبراج الحراسة والمراقبة أو بعض أبراج العبادة في الهند والجزيرة

(١) سيرة ابن هشام .

المليا أو الفئارات القديمة . وقد سميت بالمثلثة نظراً لالقاء الأذان منها على الناس ، وبالمثارة . لمشايتها أبراج الفئارات التي كانت تشتعل فيها النار ، وبالصومعة لمشايتها بعض طرزها لأبراج الزهاد وهذه التسمية معروفة في المغرب العربي ، كما أطلق عليها اسم العساس لاستخدامها للمراقبة . في بعض الأحيان نظراً لارتفاعها واشرافها على مسافات بعيدة . وأما مادة بنائها فتختلف حسب المكان ، ففي اسبانيا ومصر وبلاد العرب وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد الجزيرة استعمل الحجر ، أما في المغرب وفي العراق فقد عم استعمال الطوب وكذلك في إيران وأفغانستان ، كما استخدم الحجر والطوب على السواء في المآذن الهندية التي تمتاز بشكلها الاسطواني الذي يضيق كلما ارتفعت ، وبتضليعاتها الطولونية وشرفاتها المتعددة (ليس في حلب مثلثة بشرفتين إلا مثلثة جامع الطروش) .

ويلى المآذن من حيث الاهمية القباب ، وقد اقتبسها المسلمون عن البيزنطيين والفرس والقبط ، ثم استعملوها على نطاق واسع خصوصاً في الأضرحة ، وزخرفوا بعضها من الداخل بالنقوش والكتابات الكوفية ، كما كسوا رقبته بالقاشاني الذي زين سطحها أيضاً اذا لم تزين الرقبة بزخارف نباتية أخرى . وتختلف أشكال القباب حسب مكان بنائها ، ففي مصر وسورية بنيت بشكل نصف دائري ذي مقرنصات بحطة واحدة في العصر الفاطمي ، ثم أصبحت بحطتين في القرن السادس الهجري ، ثم ازدادت الزخارف الجصية في قواعدها ابان العهد الأيوبي ، وفي عهد المماليك البحرية زاد ارتفاع رقبة القبة ، وقد عرفت مصر أيام المماليك أنواعاً مختلفة من القباب كنصف الكروية والبضاوية والمضلعة والخشبية وأعجبها قبة الشيخ عبد الله المنوفي بالقاهرة ، التي تنتهي في أعلاها بمشعنة تحمل قبة صغيرة مضلعة (١) . أما في بلاد المغرب فقد سادت القبة نصف الكروية الخالية غالباً من الزخارف الخارجية ، وأخذت في إيران شكلاً بيضياً أو بصلياً مع تغطيتها بالقاشاني ، وامل القبة البيضية في الهند التي يكسوقتها زخرف يشبه زهرة اللوتس مقتبسة منها .

وثالث ما يميز الأبنية الاسلامية بشكل خاص المقرنصات وأصلها تجويف فريد استعمل سنة (١١ هـ) في الزوايا ، ثم ضوعفت هذه التجاويف وانتشرت في الأبنية الاسلامية وتعد شكلاً فأصبح يتألف من تجاويف متتابعة تشبه خلايا النحل ، ودلائل تشبه الأعمدة الناشئة .

(١) Hauteccœur et Wiet : les mosquées du Caire (planche 33) .

عن رشح المياه الكسبية في بعض المغاور (ومن هنا جاءت تسميتها الأجنبية) ، واستعملت للزخرفة أو للتدرج من الزاوية القائمة الى المثلع والدائرة ، وعلى تيجان الأعمدة ، وفي السقوف الخشبية ، وبلغت المقرنصات ذروة ما وصلت اليه في قصر الحمراء بقرطبة .

واستعمل المسلمون في عمارتهم الأعمدة الأسطوانية والحزونية المضلعة ، واستعمل الإيرانيون الأعمدة الخشبية المذهبة التي تزينها مرايا معينة الشكل ، أما تيجان الأعمدة فقد كانت بصليية الشكل أو ناقوسية ، أو مكسوة بالمقرنصات كما مر .

وكان دور العقود في الابنية الإسلامية هاماً باشكالها المختلفة ، شاع منها في الاندلس وبلاد المغرب ما شابه نعل الفرس ، ثم العقد الخموس والعقد ذو الفصوص (عقود صغيرة متتالية ضمن عقد كبير) وكذلك العقود التي زين داخلها بالمقرنصات ، أما في إيران فقد شاعت العقود المدببة المرتفعة (التي اشتهرت بالقوطية في الفن الغربي) . أما في سوريا ومصر فقد غلبت عليها البساطة بشكل عام .

كل هذه العناصر بالإضافة الى فخامة المدخل والاعتناء به تجعل للبناء الإسلامي طابعاً خاصاً يعرف لأول وهلة .

الخطوط الأساسية لزخارف العمارة الإسلامية :

وقد زين هذا البناء نوع من الزخارف تطور حتى أصبح فناً قائماً بذاته ، ورغم أن كثيراً من عناصره اقتبست بادىء ذي بدء عن الأمم المغلوبة ، إلا أن خصائصه العامة ميزته عن غيره بسهولة . ولا عجب في ذلك ، فإن الاسلام أتى للناس بمقيدة خاصة أعانت على تغيير الأساليب المحلية في فن العمارة ، وإيجاد المميزات التي نعالجها ، لأن الفن لغة لها أهميتها في التعبير ، لذلك كانت المعتقدات ذات شأن كبير في تاريخ الفنون ،

وأول هذه المميزات الأقلال من تصوير الكائنات الحية ، وخصوصاً البشرية منها ، لسبب عزاء بعض المستشرقين الى احاديث للنبي عليه السلام قصد بها البعد عن أصنام الجاهلية ، وعزاه بعضهم الآخر الى نفور المسلمين من مضاهاة خلق الله . وقد أدى ذلك الى اختفاء شخصية الفنان ، تلك الشخصية التي تظهر عادة عند نحت التماثيل البشرية ؛ ورغم ان السلاجقة

صوروا بعض الكائنات الحية في زخارفهم ، الا انها كانت قليلة بالنسبة الى الفنون الاخرى كالفارسية واليونانية مثلاً .



وتتج عن ذلك أن انصرف المسلمون في زخرفة عماثرهم الى الزخارف الهندسية والنقوش النباتية ، ولكن هذه الزخارف وتلك النقوش كانت ذات بروز قليل ان لم تكن مسطحة ، لان المسلمين رغبوا عن الزخارف النافرة المجسمة ، كما انها لم تكن تدور حول موضوع رئيسي ، فكان قوامها في الاعمى الاغلب سلسلة متصلة من الرسوم المتكررة ، مما أعطى لزخارفهم صفة التكرار الذي وصفه بعض الغربيين (بالانهاثي) وعزوا أسبابه الى طبيعة الصحراء موطن العرب الأول .

وثالث ما نذكر من مميزات هذا الفن

استعمال الخط العربي على نطاق واسع ؛ ذلك لأن في الخط العربي قابلية للزينة بطبيعته حتى ان بعض بنائي المسيحية في القرون الوسطى أكثروا من تزيين أبنيتهم به ، لذلك

(٥) محراب جامع الحلوية الحشي بحلب : مثل من النقوش الهندسية والزهرية المتتالية دون ان تدور حول موضوع رئيسي معين ، مع الكتابات المحيطة المختلفة

نرى على الابنية الاسلامية الخط النسخي ، والخط الزهري ، والخط الكوفي المتعامد ، والمشجر الخ... بشكل يتلاءم مع مواضيع الزخرفة الهندسية والنباتية ، فاذا اضفت الى كل ذلك الواناً خاصة تدل على ذوق سليم ، لم يصعب عليك أن تدرك من زخارف بناية ما وشكلها انها اسلامية ، أو مقتبسة عن المسلمين .

مميزات العمارة السورية :

على اننا اذ نتعرض الى العناصر الاساسية والخطوط العامة لآخرفتها ، لا نملك الا الاعتراف بأن هناك فروقاً بين مختلف المائر الاسلامية حسب البلاد التي نشأت فيها ، لأن الاسلام ترك في البدء الصناعات والفنون بيد أصحابها من أهل البلاد الاصليين ، فلما بدأت الانشاءات الاسلامية الضخمة ، روعيت فيها الخطوط العامة التي ذكرناها ، الا انها لم تقطع كل علاقة لها بالتقاليد والاساليب الفنية السابقة ، فنشأت مباني العراق مثلاً متأثرة بالطراز الفارسي ، ونشأت مباني سوريا متأثرة بالفن البيزنطي وخصوصاً الفن الاغريقي الذي حافظ عليه الرومان بعد قدومهم الى سوريا ، وكانت بلاد الشام مشبعة بالروح الهلنستية والبيزنطية التي تجلّى الكثير منها في الجامع الاموي بدمشق ، وكان العهد الاموي نقطة ارتكاز وانطلاق في دور الانتقال الى (اسلامية الابنية) . فاذا أضفنا الى ذلك ان مصر والهلل الخصب على السواء أثرتا على طراز البناء في سوريا التي كانت خلال حقبة طويلة من الزمن مسرحاً للنزاع بين هاتين المنطقتين قبل الاسلام ، وبعد الاسلام ، ادركنا ان الموامل التاريخية قد جعلت للبناء الاسلامي في سوريا صبغة خاصة تميزه عن ابنية البلاد الاسلامية الاخرى .

والواقع . . ان الابنية السورية — وخصوصاً ما انحصر منها في المنطقة الداخلية ، تتمتع بخصائص تميزها عن مباني العراق وبلاد فارس والهند مثلاً ، واذا ألحنا على المنطقة الداخلية فلائها تعبر أكثر من المنطقة الساحلية عن الفن السوري الذي نحن بصددده ، وذلك لاسباب أهمها ان المناطق الجبلية الغربية فقيرة كستها الثابات مدة طويلة ، مما تعذر معه تشييد الابنية الضخمة التي تعبر عن الفن ، وان المناطق الساحلية كانت تحت حكم الصليبيين عندما ازدهرت العمارة العربية في الداخل ، فلما رحل الصليبيون عنها ، كانت مدنها كانطاكية وطرابلس وغيرها قد تهدمت . أو تهدم أكثرها على الأقل ، الأمر الذي جعل الابنية لهذه المنطقة ناقصة الدلالة على تطور العمارة الاسلامية بشكل منتظم .

وأول ما نذكر من خصائص الابنية السورية استعمال الحجر للبناء ، بينما كانت الابنية في العراق واران والجزيرة العليا تبنى بالقرميد ، وقد عني السوريون بآراز الحجر في أبنيهم دون أن تستر الزخارف الجصية أو تكسوه النقوش الفزيرة مما أعطى لابنية سوريا ميزة أخرى وهي الرصانة في الزخرفة ، بحيث ان التزيين كان يحتل المكان الثاني في البناء ، فهو يهدف الى تجميله دون ان يغطي كل أجزائه ، أو معظمها كما تجلّى ذلك لنا في مقرنصات الزوايا

التي تقوم عليها القبة مثلاً . ولعل هذه الرصانة نفسها هي التي جعلت الفن السوري عملياً ، يهتم بالنفع الذي ينتج عن تشييد المآثر أكثر مما يهتم بالضخامة ومظاهر الأبهة . صحيح ان البعض شيدوا أبنية جبارة فخمة كسرتها النقوش ، الا ان هذا الأمر تم في عهود معينة ، ولم يتمد حدود المنشآت العامة دون الخاصة .

بل اننا نلاحظ أيضاً ، رغم هذه الميزات المشتركة ، بعض الفروق بين أبنية المنطقة الشمالية من سوريا وأبنية المنطقة الجنوبية فيها ، وخصوصاً بين أبنية حلب ودمشق ، لأسباب عديدة أهمها ان أحجار جبل قلسيون المجاور لدمشق لا تصلح للبناء لأنها كلسية تنفتحت تحت الضغط الشديد ، في وقت تحيط فيه بدمشق غوطة جميلة غنية بالاشخاب ، فكان من الطبيعي أن يلجأ سكانها غالباً الى البناء بالخشب والمواد الاخرى السهلة الاستعمال ، بينما يجاور حلب جبل ذو أحجار جيدة تصلح لتشييد أقوى الابنية وأضخمها ، فانصرف الحلبيون الى البناء بالحجر ، ونبغ منهم البناؤون والمعماريون ، ومن هنا كان الاختلاف في مادة البناء بين دمشق وحلب بشكل عام ، مع العلم ان بعض حكام دمشق عملوا على جلب الاحجار لتشييد الابنية الضخمة منها كان الثمن .

ثم هناك سبب تاريخي ، وهو ان دمشق ظلت دوماً عاصمة الدول التي جمعت سوريا تحت ظل حكم واحد ، ولم يجد الفاتحون فيها فناً خاصاً نظراً لصعوبة الحصول على مواد البناء الاساسية ، فكان كل منهم يشيد الابنية وفق الطراز الذي عرف عنه وبذلك ظهر في دمشق التأثير الخارجي على البناء أكثر مما ظهر في حلب ، التي كان لها من مواد البناء الثقيلة ما جعل لها فناً أساسياً ، يسيطر على تطور العمارة فيها ، ويخضعه لتقاليد اعتاد عليها البناء منذ زمن طويل ، وقواعد فرضتها طبيعة المنطقة وموقع حلب التجاري والحربي الذي يجعل منها قلعة تحمي طريق الفرات وتقف في وجه غزاة المشرق ، وطريقاً للقوافل القادمة من الخليج الفارسي عبر وادي الفرات ، وواسطة هامة لا يصال بضائع الهند والشرق الأقصى الى انطاكية ، مما ادى الى الاكثار من الابنية التجارية كالتنانيت ومن مؤسسات الدفاع فيها . لذلك ظهر في دمشق تأثير الفن البيزنطي في العصر الاموي ، والمدرسة المصرية السورية فيما بعد ، بينما ظهر في حلب تأثير نصيبين من جهة ، وأثر سنجار والهلل الخصب الشمالي من جهة ثانية ، ثم تطورت عمارتها بشكل رصين .

على انه يجب علينا أن نذكر — وقد رأينا فيما سبق بعض الفرق بين ابنية الشمال والجنوب في مواد البناء ، وفي طريقته وفي الذوق المستوحى من التأثيرات الخارجية — ان المقارنة بين ابنية المنطقتين تبقى دائماً نسبية نظراً للصلات المستديمة بينها ، والوحدة التي جمعتهما غالباً في صعيد واحد ، الأمر الذي يوجب على الباحث دراسة المنطقتين معاً لمعرفة تطور فن العمارة الإسلامية في سورية بشكل دقيق .

تطور العمارة السورية :

كل ذلك يتبين لنا من مراجعة تاريخ تطور العمارة السورية الإسلامية بشكل عام ، ويبدأ الموضوع منذ ولادة هذا الفن في سورية على أيدي الأمويين الذين جعلوا من دمشق عاصمة الاسلام ، وعملوا على التوفيق بين مختلف الطرز التي كانت سائدة في امبراطوريتهم بمساعدة لفيف من مهرة الصنائع والبنائين من أبناء البلاد أنفسهم ريثما يتم انتقال الفنون المختلفة — وأبرزها فن العمارة — الى أيدي العرب أنفسهم . فلما دالت دولتهم وحل محلهم العباسيون نقلوا العاصمة الى بغداد ، حيث ظهر تأثير الفن الفارسي في عمارتهم التي تميزت باستخدام الآجر وبتفضيل الدعائم على الأعمدة في حمل الأقواس ، وبطلاء الجدران بقشرة من الجص المزخرف أحياناً ؛ كما أحرقوا وخربوا الكثير من أبنية الأمويين وأضرحتهم في دمشق وسوريا بشكل عام .

ومرت القرون التي تلت ذلك ، حتى ظهر الأتراك السلجوقيون على مسرح التاريخ في الربع الأخير من القرن الحادي عشر ، وابتدأت عمارتهم تتميز بتفخيم الواجهات والعناية بتزيينها وبالأقبال على رسوم الكائنات الحية المقتبسة عن الصين كالتنين وقاطيع وجوه الأدميين ، خصوصاً ما يمثل من تلك النقوش صراع الحيوانات بشكل بارز نافر ؛ ولما كان السلاجقة من أنصار المذهب السني فقد عنوا بالمدارس ، فابتنوا منها العدد الكثير ، وابتدأ تأثيرها على تصميم المساجد يتضح ويظهر ، كما أسسوا أبنية الخانقاه ، فكان من الطبيعي ان تتأثر العمارة السورية في أيامهم ، ولكن الى حد ، وبحسب المناطق .

فأتابكة حلب كانوا من الموصل ، لذلك استقدموا صناعاتهم وبنائهم من الجزيرة العليا ، واستوحى هؤلاء مواضعهم من شمالي الهلال الخصيب ، الا أنهم حافظوا على تقاليد أبنية حلب ، مقتبسين فقط بعض عناصر البناء والتزيين ، بحيث ان البناء الأساسي بقي من الحجر ، أما القرميد فلم يستعمل إلا لبناء الاقسام التي يصعب اقامتها بالحجر ، وأقيمت القباب على منحدرات مستقيمة الوجوه مثلثة الشكل لتخلق شكلاً مضملاً يسهل بواسطته الانتقال الى الشكل الدائري ، وأحيطت المحاريب بنقوش هندسية أو نباتية أو بكتابة كوفية على الشكل الفاطمي .

أما دمشق فقد كانت تحت سلطة أمراء السلاجقة الأصليين الذين حافظوا على صلاتهم مع بغداد ، فكان من الطبيعي أن يستوحى البناء فيها عناصرهم من جنوبي الجزيرة ، ولما كان أهل دمشق قد اعتادوا استعمال مواد البناء الخفيفة من قبل ، فقد تقبلوا بسهولة استعمال مواد جنوبي الرافدين ، واقتبسوا كذلك طرق البناء والتزيين العراقية والفارسية ، فاتبع نظام الاعتماد في المدارس ورفعت فوق الأبنية القباب ، وزينت أبوابها بالقرنصات ، واستعمل فيها الخط النسخي الى جانب الخط الكوفي .

ثم حل العصر الأيوبي الذي اختلف بميزتين ، اولاهما بناء المدارس لنشر المذهب السني ، وثانيها تطور العمارة العسكرية حسب مقتضيات الدفاع ، وقد أوجد صلاح الدين لسوريا نوعاً من الوحدة ، فتضاءلت علاقات الجنوب مع العراق ، وتوثقت بشمالي سوريا ، مما نشر طراز الشمال في البناء بعد أن وجده الناس أشد قوة ومتانة ، وتبع ذلك بالضرورة ان كبرت آلة البناء في دمشق ، وحل الحجر محل القرميد الذي انحصر استعماله منذئذ في بناء القباب ، وكثرت النقوش والزخارف الحصية والخشبية ذات المواضيع النباتية المنشابة ، وأكمل الزجاج الملون هذا التزيين من الداخل ، أما من الخارج فقد تناوبت الحطاط الحمراء أو البيضاء والسوداء في الجدران ، وانتشر ذلك حتى أصبح طابعاً مميزاً للأبنية الدمشقية ، وسيفتسفن العمارة فيما بعد الكثير عن هذا الطراز في عهد المماليك . ومما يكن من أمر ، فإن للعصر الأيوبي أهمية كبيرة في انتشار البناء في سوريا بمنطقتيها ، وفي اكساب العمارة السورية طابعاً خاصاً يميزها عن الجوار ، ويرفها الى عداد الشواهد التاريخية الحية ، جاءلاً منها نقطة ارتكاز جديدة في اتجاه العمارة السورية فيما بعد .

ثم اضطرب التاريخ على أثر الغزو المغولي ، وتبعه ذلك الاقبال على تشييد المعابر المختلفة التي تجلت فيها الصبغة المملوكية ، فزيد في مساحة المدرسة لتكون مدرسة ومسجداً في الوقت نفسه وازدادت العناية بالواجهات حتى أصبح المهندسون حريصين على أن يكون المدخل في ركن من الواجهة بدلاً من جعله في وسطها ، وكذلك المئذنة ، بل عمد البعض الى تشييد أكثر من واجهة في البناء الواحد ، أما قطع الاحجار المستعملة فقد صغر حجمها ، وتناوبت فيها الحطاط السوداء والبيضاء ، وازدهرت زخرفة الارضيات والمحاريب بالرخام (استعمل الملون منه مع الصدف في المحاريب) كما استعمل أيضاً في اقامة المنابر . أي أن فن البناء بدأ يتجه الى اظهار ضخامة الأبنية من الخارج ، فانعدم أو كاد التوافق بين النقوش وماهية البناء ، وتركز اهتمام الناس في اظهار البذخ والترف فيما يشيدون .



جامع الطروش بحلب : مثل عن المئذنة ذات الشرفتين . يلاحظ ان المدخل ليس في وسط الواجهة

وكان التأثير الاساسي لهذا الطراز في دمشق حيث قل التناسب بين الزخرفة وضخامة البناء منذ القرن الرابع عشر ، وابتدأت الزخارف تميل الى نوع من الستوك الملون ، وتمعدت الموضوعات الهندسية أما المداخل فقد امتازت بالضخامة وازدادت بالقرنصات والدلايات ، بينما قل استعمال القبة وغطت الألوان المتعددة السقوف ، واكملت الفسيفساء وغيرها بقية عناصر التزيين . أما في حلب فقد كان تأثير فن المالك أقل منه في دمشق ، اذ ظلت الابنية تشيد بالحجر العادي وتحفظ البناؤون في الواجهات المتمددة الألوان ، زينوا الواجهات بالتجاويف والاشكال المشبكة

الرصينة المقتبسة عن الابنية السلجوقية في الأناضول . وقد ازدادت مكانة حلب التجارية بعد الحروب الصليبية فكثرت فيها الخانات (كخان الصابون) وزينت واجهاتها ، وبدأ بين اجزائها تناسق فريد حتى قال دوسو عن بنائي حلب (انهم أعطوا للعالم التجاري درساً في الذوق والاتقان).

وفي سنة (١٥١٦ م) دخلت سورية في حظيرة الامبراطورية العثمانية الواسعة ، وسارت منشآتها مع الفن الذي انبثق عن القسطنطينية آتتذ ، فكثرت الخانات مع تغيير طفيف في طرازها (كخان الوزير بحلب) وكذلك الاسبله (جمع سبيل) التي زخرفت بعناية ، وامتدت الاسواق المسقوفة ، واتخذت الحمام التخطيط الكلاسيكي . أما البيوت الخاصة فقد تألفت من عدة طبقات : الاولى منها للاستقبال ، أما الأخرى فلافراد الاسرة ؛ الا ان الاثرياء كانوا يجمعون دورهم على أقسام : الاول (السلامك) للاستقبال ، والثاني (الحرملك) للنساء . وقد يضاف اليها قسم آخر للخدم والملحقات (كقصر العظم بدمشق) . وقد تميزت قصور العثمانيين بسقوفها الخشبية المرتفعة المزينة بالزخارف الهندسية والنباتية الملونة ، كل ذلك مع بعض أبيات من الشعر وزخارف الفسيفساء الرخامية وزخارف الاحجار المتعددة الألوان ، أما الواجهات فقد فقدت أهميتها السابقة ، واستخدم المرمر في صناعة المنابر ، وطاقت الجدران ، واستعمل القاشاني على نطاق واسع بعد ان زالت الفسيفساء الخزفية التي أكثر استعمالها .

وكانت دمشق المجال الفسيح لظهور هذا الفن بـمميزاته المذكورة مع بقاء آثار من العناصر المملوكية السابقة كاستوك الملون وفسيفساء المرمر والرسم على الخشب . أما حلب فقد حافظت على قسم من طابعها الخاص ، واحتفظت المنازل الخاصة بطابعها المملوكي حتى القرن التاسع عشر مع بعض التغير في الزوايا التي تقوم عليها القبة وغير ذلك من العناصر . ولعل (اسلام الشرق) ولائصال العثمانيين مع الغرب أثر على فن العمارة ، فظهر تأثير طراز (الباروك) الغربي في انحناء السقوف بالشرق ثم عرف طراز الروكوكو الفرنسي الذي جاء به بعض صناع المرمر من الايطاليين الى القسطنطينية الا ان الأتراك احتفظوا بطابعهم الخاص في استعماله . أما الآن فيحاول البنؤون احياء الفن الاسلامي مع ادخال التحسينات العملية الضرورية عليه وانسجامة مع النقوش التي انصرف عنها الناس في الاعم الاغلب .

أثر العمارة الإسلامية في الغرب :

هذا يجعل لآم مميزات فن العمارة الإسلامية ومقوماته وخلاصة لتطوره خلال العصور ، لذلك لا نرى من العجب في شيء إذا اقتبس عنه الغربيون الكثير ، وتبنوا بعض عناصره وفاخروا بها مجاورهم من الأمم ؛

والواقع .. ان الغربيين اقتبسوا عن العمارة الإسلامية المشربيات التي ظهرت أقدم أمثلتها في أوربا في (Chateau gaillard) سنة (١١٨٤) م ولم تلبث المشربيات المنتظمة على صف من الدعائم ان أصبحت من أجلى مظاهر الاناقة في القصور الفرنسية والانكليزية في القرن الرابع عشر ؛ كما أخذ الغرب عن الاسلام جعل ممرات القلعة التي تلي الباب الخارجى مترجة لقطع اندفاع العدو واعاقه هجومه ، لان الابواب في البناء العسكري عند الرومان والبيزنطيين كانت تشيد على قطر واحد يفصل أحدها عن الآخر فضاء كانوا يسمونه (Propugnaculum) وأول ما ظهر تمرج المداخل في بغداد المستديرة ، ثم في قلعة صلاح الدين بالقاهرة ، ثم ظهر مثال جميل منها في قلعة حلب .

وكان من جملة ما أخذته الغرب أيضاً الأقواس الطولانية المدببة القمة (القوطية) وامكنة المراقبة الصغيرة على الاسوار^(١) والابرار الصغيرة ، واقتبسوا تناوب الاحجار القائمة والزاهية في (بيزا) و (فلورنسا) و (جنووه) و (مسينا) كما نرى في بلدة (بوى Puy) المقود المتعددة الفصوص المأخوذة عن الفن الاسلامي كما تقدم . ويقال ان بعض مصممي أبراج النواقيس في ايطاليا النهضة استرشدوا بتصميم المآذن في المساجد المملوكية بمصر والشام .

أما في المواضيع الزخرفية فقد اقتبس الغربيون ما سمي عندهم (بالارابيسك Arabesque) أي تلك الزخرفة النباتية الخاصة البارزة بروزاً بسيطاً والتي انتشرت في انكلترا منذ عصر الملكة اليزابت الأولى^(٢) ، ثم الزخارف الحجرية التي كانت تملأ بها الشبابيك ويركب بينها الزجاج في العمارة القوطية ، وكذلك الزخارف الهندسية . وأبرز ما اقتبسه الغرب في الزين

(١) L . Reau :

Dictionnaire illustré d'art et d'archéologie (P. 160)

(٢) Martin S. Briggs : Muhammadan architecture (Ch. 10)

السكّابات الكوفيّة التي تفلّغت في فرنسا عندما احتل المسلمون جنوبها بعد تراجعهم في معركة بواتيه ، هذا وقد وجدت في انكلترا امثلة نادرة من الزخارف التي يظن أنها تأثرت بالزخارف العربيّة .

اقد كان فن العمارة الاسلاميّة آية في الاتقان والابداع ، سد حاجات الدين والدنيا في الدولة الاسلاميّة ، وارضى الحس البديهي في أمرائها وفنانيها ، حتى غدا العالم الاسلامي في فترة من الفترات المدرسة الفنيّة الكبرى التي اقتبس عنها العالم أروع ما توصل اليه العمران آنئذ من مناعة وجمال .



مركز تحقيقات كافيور علوم إسلامي

مختصرات عن المقالات المنشورة في لقسم الغربي من المجلة



مركز تحقيقات كميّات علوم إسلامي

الاهمية التاريخية في سورية

للعالم العربي الكبير

— رينه دبسو —

تعريب س. ع

يكفي تقدير هذه الاهمية أن نزور المتاحف السورية التي لم تترك وسيلة إلا استخدمتها
لتحدث الى الخيال . سواء عن طريق عرض مكتشفات الحفريات السورية التي أوضحت المدينيات
المزدهرة ، التي كانت لهذه البلاد منذ أربعة آلاف سنة قبل المسيح ، أو عن طريق اعادة تشييد
أكبر المنشآت الأثرية الضخمة . وليس يوجد في العالم متحف يضارع المتحف الوطني بدمشق
في هذا المضمار . ففيه القسم الذي يمثل الجناح الشرقي من قصر الحير الغربي الاموي ، وجزء
كبير من مدفن يرحاي الفخم ، وفيه صور جدارية رائعة من كنيس دورا اوروبوس . وفيه
آثار أخرى عظيمة جداً تجدر الإشارة الى أهميتها بعدة كلمات ، لمن لا يستطيع مشاهدتها . وفي
الواقع إن المكتشفات الأثرية السورية التي يضمها هذا المتحف ليست موضوعاً للعجاب الفني
فقط ، بل هي لذة فادرة للفكر ، لأنها تدعو الى فهم التطور الرائع للمدينة العالمية .

وقد جذب علماء الآثار إلى مصر التي كشفت عنها النقاب حملة بونابرت وقدمت مدينتها
القديمة الى العالم الغربي . ثم أتى دور بلاد الرافدين في التعريف بمدينتها القديمة . وظلت سورية
مدة طويلة محرومة من الأعمال الأثرية الجذبة . واول بعثة نقت فيها كانت بعثة (ارنت
رنان ، خلال سنتي (١٨٦٠ — ١٨٦١) . ولم يخذ مثلها أحد حتى قدمت بعثة (بير مونت)
في الربع الاول من القرن العشرين .

أما فلسطين فقد كانت أسعد حظاً من سورية ، وتتابعت فيها التنقيبات ، وأدت الى معرفة تماقيب عهود الفخار التي ترقى إلى فاتحة عهد البرونز . وانجلت الاعمال المتأخرة عن اظهار وحدة رائمة للمدن التي عاشت فيها وفي سورية .

وفتح في آخر الربع الاول من القرن العشرين عهد الحفريات الخصب في سورية . وقد ساعد على ذلك السلطات السورية بما بذلته من مساعدات . وليس مرادنا هنا سرد جميع تفاصيلها ولا تعداد أسماء من قام بها . ونكتفي فقط بذكر بعض النتائج الهامة التي انجبت عنها ، وببيان الحوادث التاريخية التي اتضحت بها .

وفي الواقع لم يستخدم المؤرخون القدماء إلا الوثائق التي قدمتها مصر وبلاد الرافدين ، لهذا فانهم كانوا ينظرون الى سورية نظرم الى منطقة ثانوية مرتبطة باحدى هذين القطبين ، وفاتهم ما للمدينة السورية من أصالة معجبة .

وتماقت الحفريات ، وصارت مكتشفاتها تبين فساد هذا الخطأ التاريخي الفادح ، ولا أذكر للدلالة على ذلك إلا ما استبان من حفريات رأس شمرا (أوغاريت) وتل حريري (ماري) . فقد ظهرت في أطلال هاتين المدينتين منشآت ضخمة ، ومراكز فنية رائمة . كما تجمعت كثير من الوثائق الهامة التي تزايد على أثر مواسم الحفر عاماً بعد عام . وقد سارع علماء الآثار لنشر نتائج أعمالهم ، ومحتويات هذه الوثائق . ولحسن الحظ أن هذه المحتويات محفوظة على لوحات فخارية لا يمكن أن تبلى مع الأزمان .

وصورت لنا آلاف اللوحات الفخارية التي عثر عليها في قصر ماري ، بتفاصيل دقيقة ، حياة هذه المدينة الهامة ، والظروف التي مرت عليها في النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد ، كما أوضحت لنا تاريخ ما يجاورها من البلدان .

أما لوحات رأس شمرا فقد زودتنا بصفحات تامة من الادب الفينيقي ، وكذبت ما زعمه أحد الجغرافيين من أن هذا الادب لم يوجد على الرغم من شهادة المؤرخين القدماء . وفي الواقع فقد امتلكننا الآن نصوصاً أصلية من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، فيها الوثائق الادارية ، والاتفاقيات والاجبيديات بلغات متعددة ، والرسائل الملكية ، والحسابات المختلفة ، وغير ذلك من النصوص التي دلت على ما بلغتته مدينة (أوغاريت) من تقدم فكري مذهش .

ولاريب ان الفوائد التاريخية والدينية واللغوية التي حملتها هذه النصوص عظيمة جداً ، وتفق بأهميتها فوائد لوحات تل العمارنة التي اكتشفت في مصر نحو اواخر القرن الماضي ، وأدهشت العالم بما تضمنته من معلومات . ولن نذكر الامثلاً واحداً عن ذلك ، وهو قضية الهيكسوس التي حُلَّتْ نهائياً . فقد ظن المؤرخون المتأخرون خلافاً لآراء المؤرخ القديم (مانتون) وخلفائه ، ان الهيكسوس كانوا من الحوريين الذين انحدروا من بلاد الرافدين ، واجتازوا سورية من الشمال الى الجنوب ، ثم اجتاحوا دلتا النيل . ونسب هؤلاء المؤرخون اليهم ادخال العرب التي تجرها الجياد الى مصر . وقد تبين ان هذا الزعم غير صحيح ، لان الحصان لم يظهر في مصر الا بعد عصر الهيكسوس . كما نسبوا اليهم تأسيس امبراطورية واسعة امتدت على جزيرة كريت ومصر وسورية وبلاد الرافدين .

وتبين اليوم أنه يجب طرح كل هذه المزاعم ، والرجوع الى ما ذكره (مانتون) في أن الهيكسوس كانوا من الكنعانيين والعرب . اذ ان كل أسماء السلالات الهيكسوسية هي غير حورية بل هي أسماء مصرية وسامية . كما ان آلهتهم كانت تجوي آلهة مصرية وآلهة كنعانية ، منها (إيل) و (بل) و (عنات) . ثم ان النصوص المصرية المتقدمة على عصر الهيكسوس (١٧٣٠ ق . م تعرض لعريضاً سيئاً بالامراء السوريين الذين يحملون أسماء سامية ، وتدل بذلك على ان المصريين كانوا يخشون الكنعانيين كثيراً . وهذا ما دفعهم لان يبنوا سوراً عظيماً يحيط ببرزخ السويس .

ثم ان النصوص المصرية المعاصرة لاحتلال الهيكسوس لمصر والنصوص المتأخرة عن هذه الحادثة تحمل بشدة على هذا القوم . ولم يذكر الساميون عن نزولهم في وادي النيل الا بعض الاساطير التي تدور مواضعها حول (يوسف) و (يعقوب) . الا ان آثار هذا الحدث الكبير امتدت حتى بلاد اليونان . فقد اكتشف في جزيرة (كريت) غطاء اناه عليه اسم (خيان) ملك الهيكسوس . ولاريب ان الاله المذكور كان هدية من هذا الملك الى أحد امراء الجزيرة . ثم ان السيد (جان بيرار) أوضح مؤخراً أنه يمكن أخذ فكرة عن طبيعة العلاقات بين الهيكسوس والجزيرة بما تضمنته اسطورة أغريقية هي اسطورة (إيو) ابنة ملك (ارجوس) التي اختطفها مراكب فينيقي ، وحملها الى مصر لا إلى سورية . وذلك لان دلتا النيل كانت أرضاً سورية في ذلك العصر .

ولم يكن احتلال السوريين لمصر عصر تأخر وجعل كما ظن سابقاً ، بل كان عصرراً زاهراً طبع بتقدم ثقافي رائع . اذ ان سنواته شاهدة ابتكار الابجدية الفينيقية التي استخدمت في فلسطين والبلاد الفينيقية حتى رأس شمرا . وفي الواقع ان ابجدية رأس شمرا متضمنة رموزاً مسبارية ، ومنظمة على شكل نهجت على منواله الابجدية العبرية وجميع الابجديات الاخرى الشائعة في الغرب . كما ان هذا العصر كان الزمن الذي نفذت خلاله الى مصر الاساطير الفينيقية وتأثر منها القصاصون المصريون ، وقد اوضحت الاقسام المصرية من اسطورة عشتروت نصاً من نصوص رأس شمرا .

* * *

ثم ان دراسات العلماء للآثار السورية ظلت حتى اليوم تفرق هذه الآثار بحسب انواع المواد التي صنعت منها ، وبحسب المناطق التي وجدت فيها . واليوم حان الوقت الملائم لان نجعل المعلومات التاريخية عنها في دراسات جامعة . أي ان الحفريات التي تجري حالياً بصورة علمية دقيقة جداً تساعدنا على ذلك .

وفي الواقع ان الجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية تبينان على ان شبه جزيرة العرب وسورية تشكلان معاً هضبة منعزلة ومتصفة بصفات تميزها عن غيرها . وهي تؤلف المدى الجيوي الخاص للشعوب السامية ، ولها حدود غير واضحة نحو الشمال . ويبلغ طول اراضيها الشاسعة (٣٥٠٠٠ كم) ، وعرضها (١٥٠٠ كم) . وتحميها من عداوة الشعوب الغازية صفاتها الفاحلة . الا ان الاقليم فيها بقي صحيب ، والحياة قاسية قابلة لان تخلق عرقاً قوياً . كما ان ضرورات رعي الماشية تحمل السكان على التنقل في كل الفصول ، وبؤدي هذا التنقل الى تزييد العلاقات بين القبائل الرحل وإقامة الاحتكاك مع السكان المتحضرين . وتنشأ بين الطرفين روابط الاخوة . أحياناً كما تحدث احتكاكات عداوية أحياناً أخرى . ويلاحظ انه لما تقوم حكومات قوية في اراضي المتحضرين يخضع الرحل الى القواعد التي تسنها هذه الحكومات ، ولما تضعف ينزع الرحل الى الاغارة على الاراضي المزروعة واحتلالها .

وهكذا فان العلاقات بين البداءة والمتحضرين الذين كانوا أنفسهم بداءة قديماً تتعقد وينشأ عنها تبادل المنتجات . ومن هذه المنتجات ما كان يأتي خلال الازمنة القديمة عن طريق تجارة القوافل التي حملت الى شاطئ البحر الابيض المتوسط حاصلات بلاد العرب والهند .

وقد تمكن المؤرخون لدى اطلاعهم على نحو (٤٠٠٠) كتابة منقوشة على الاحجار ، عثر عليها في انحاء مختلفة من بلاد ، اليمن من ان يتعرفوا على التنظيم الذي كان لهؤلاء السكان خلال الالف الاول قبل الميلاد . ويظهر أنهم انتقلوا من الحياة القبلية الى حياة (المقاريين) الذين كانوا أمراء وكنة معاً ، ويشبهون (قضاة) بني اسرائيل . ثم تحول هذا النظام الى نظام الملكية .

ونشأ عن المبادلات التجارية الواسعة بين بلاد العرب الجنوبية وبين سورية ، ان عدداً من الرحل أقاموا حول بلاد المتحضرين . وهكذا فقد تحضرت بعض المجموعات العرقية شأن الانباط والتدمريين ، واستمرت على تصريف شؤون التجارة ، وانتظمت في ممالك . حتى ان تدمر أوشكت أن تؤسس امبراطورية كبرى تمتد على سورية ومصر وآسية الصغرى .

وقد اقام الكنعانيون في بلاد ايدوم والنقب والبلاد الفلسطينية منذ الالف الثالث قبل الميلاد . وتجربنا نصوص رأس شمرا أنهم عبدوا نحو منتصف الالف الثاني آلهة ، منها (ايلون) و (ايل) ، كانت مشتركة بينهم وبين (شيوخ) اسرائيل . ولا يمكن تعليل ذلك إلا باقوال المعتقدات في الآلهة الكبرى الكنعانية والاسرائيلية على السواء حملت من شبه جزيرة العرب ، وانها وجدت قبلهم في سورية على شكل (الة السماء) وعلى شكل الآلهة (ايل) .

وقد اعتنق الكنعانيون منذ ما أقاموا خلال الالف الثالث في (صور) و (صيدا) و (جبيل) و (لبنان) وقبل ان يبلغوا رأس شمرا (اوغاريت) ديانة الآلة (حدد) ، وأطلقوا عليه اسم (بعل) . وهو الآلهة الذي كان حسب الاعتقادات الشائعة يسود الجبال العالية ، ويثير العواصف المربعة ، ويرسل الامطار الغزيرة . ومن ذلك الوقت انتشرت المجموعة الكنعانية العمورية في كل سورية وأنشأت لها وحدتها اللغوية ، ووحدتها الدينية .

وأدى انتشار السكان الكنعانيين — العموريين الذين كانت ترفدهم دوماً عناصر عربية الى أنهم احتلوا كل سورية حتى الفرات ، وانهم تجاوزوا الفرات أحياناً الى بلاد الرافدين . الا ان بعض الدول كانت تجد من هذا الانتشار . الى أن أتى الآشوريون ، وحدوا نهائياً من توسع الكنعانيين نحو الشرق ، ودفنهم الى الغرب ، وكان من اثر ذلك أن السكان السوريين صاروا يحثون نحو آخر الالف الثاني قبل الميلاد عن منفذ لهم في البحر الابيض المتوسط ، وجعلوا ينشؤون المستعمرات في (مالطة) و (افريقيا الشمالية) و (اسبانيا) . أي انه منذ ذلك الوقت صار يهاجر السكان الكنعانيون الى الغرب ، ويحل محلهم في سورية أقوام عربية رحل . آ (١٣)

وينتج مما تقدم أن الحفريات القائمة في سورية منذ أكثر من ثلاثين سنة ، غيرت معالم التاريخ الذي كان معروفاً تـيـراً تاماً . وأظهرت بوضوح الدور الذي لعبه السكان العرب السوريون في المساهمة بنشوء الديانات السماوية الثلاث في ارضهم . ولا ريب ان هذا الاستعداد الفطري للوحدانية يمود الى الكنعانيين الذين جارت عليهم أخبار بني اسرائيل فلم تذكر شيئاً عن التقدم الديني والاخلاقي الرفيع الذي بلغوه منذ ازمان طويلة ، والذي يمكن ان يجعل مجملين وردتا في أحد نصوص رأس شمرا وهما :

« كلامك يا إيل ! هو الحكمة
وحكمتك هي وظيفتك الخالدة »

ربنر ديسو

عضو في المعهد الافرنسي



مركز تحقيقات كميوتير علوم إسلامي

للآثار والتفاهم الدولي^(١)

للدكتور سليم عادل عبد الحفي
مدير الآثار العام

يقول بعض المفكرين : إن التاريخ مضرّ لأنه يقدم ، بواسطة الذكريات التي يحفظها ويجمعها ، ما يضرم نيران الاحقاد بين الشعوب . غير أن العهد الوضي الذي يقطعه هذا العلم في عصرنا هذا والدقة التي اكتسبها ، ورغبته في إفساح مجال واسع إلى تاريخ الأفكار والفنون والصناعات ، وعملة على دمج تواريخ الأمم المحلية ، في تواريخ البشرية العامة ، تجعله أحسن الوسائط لتقريب الشعوب وإظهار تداخل منافعها ، وإيضاح أن المدنية العالمية هي مجموعة من الخدمات المتبادلة التي قدمتها الشعوب إلى بعضها في كل الأزمان .

ولا ريب أن الآثار التي يستقي منها التاريخ مادته تلعب دوراً هاماً في إنشاء التفاهم الدولي . وذلك لأنه يمكنها أن تجعل المدنية العالمية واضحة ملموسة ، إذ أنها دلائل عن التقدم الذي حققه الإنسان خلال العصور الحالية ، وذكرى انتصاره على المادة ، وثقته في مستقبله الخالد . ويمكن بسهولة أن ينتقي منها ما يمثل ما حققه كل شعب من ابتكارات واختراعات سلمية ، وجميع ما كان لتقاليده وأخلاقه من شأن في المساهمة بتحسين حياة العالم .

لهذا فإنه يتحتم على مدراء المتاحف ومحافظيها أن يكونوا وضيعين وحياديين ومشبعين باحساس دولي عندما ينظمون المؤسسات التي يولون عليها ، وأن يمتنعوا عن عرض الآثار التي من شأنها إذكاء نار الوطنية الطائشة ، أو خدمة أية دعاية غير الدعاية المتوخية لنشر التفاهم الدولي في العالم . ويتحتم أن يقوم مجلس المتاحف الدولي لتوطيد الصداقة بين الشعوب ، بتنظيم معارض

(١) ألقى هذا البحث في مؤتمر ثماني مؤلف من مندوبي « انكلترا ، والولايات المتحدة ، وفرنسا ، وسورية ، وإيطاليا ، وألمانيا الغربية ، والسويد ، والهند » عقد في شهر تموز من سنة ١٩٥٣ في مدينة نابولي الإيطالية . وكان مدير الآثار العام السوري مقراً للجنة التي عهد إليها تنظيم أعمال هذا المؤتمر .

دورية تنتقل من بلد إلى آخر ، وتكون غايتها تمثيل أهم المبتكرات العالمية أو الخدمات الكبرى التي تبادلتها شعوب معينة . ويمكننا مثلاً أن ننظم معارض ، تعرض فيها ما اكتسبته المدنية الحاضرة من حلقات التاريخ الثلاث : القرون القديمة ، والقرون المتوسطة ، والأزمنة المعاصرة . أو ما اغتنمته من قرن معين ، كالقرن الثامن عشر ، أو القرن التاسع عشر . أو ما أخذته عن حضارة من الحضارات كالحضارة المصرية أو الحضارة العربية ، أو ما انتهى إليها من بلد من البلاد ، كالصين وأمريكا الشمالية . وفي الواقع إذا تعددت هذه الظواهر الثقافية فإن الثقافة التاريخية تلتقي انتشاراً واسعاً ، ويتصل عن طريقها الماضي بالحاضر ، ويتضح الدور الذي لعبه كل شعب في إنشاء مدنية العصر الحاضر .

وتتحقق هذه الغاية إذا قام عمل مشترك بين متاحف التاريخ والآثار في كل بلاد العالم ، وإذا نسقت علاقات هذه المؤسسات ، وحددت مهامها الثقافية ، وأوجدت قواعد لعرض كل الآثار التي تعزز الروابط السلمية . وليس من السهل تعداد المبادئ العامة الواجب اتخاذها في هذا المضمار . ولا شك أنه يمكن أن نستخلص عدداً منها إذا عملنا معاً ، وجربنا تدريجياً ما لدينا من الأفكار . والمهم هو أن نوجد هذا العمل المشترك ، وأن ننظمه بين متاحف البلاد المتقدمة ، وبين المتاحف التي مازالت في طريق التقدم .

وفي الواقع يجب علينا أن نساعد كل أمة تحاول — مخلصاً بكل ما لديها من وسائل — السير في ركاب الحضارة ، على أن يكون لها متاحف تجمع فيها الوثائق والآثار التي تدل على ماضيها . إذ أن ذلك يساعدها على أن تنضم إلى المجموعة الدولية ؛ كما يساعدها على أن تجد مكانها بين الشعوب ، بعد أن تفهم ما أعطت إلى هذه الشعوب وما أخذته منها . ولا شك أن هذه الفكرة متفقة مع الثورة السلمية التي بدأتها الأونيسكو والتي تتوخى منها أن تفيد البلاد غير المتقدمة من تطبيقات العلم الذي منه ولا شك الآثار والتاريخ . ولا ريب أن هذا التعاون بين المتاحف الكبرى وبين المتاحف الناشئة يجب أن يكون عن طريق مجلس المتاحف الدولي ، ويمكن أن يتجلى خاصة في نواحي الأبحاث العلمية ، وفي تأسيس المجموعات الأثرية والتاريخية ، وفي حفظها ، وفي عرضها .

أما في ناحية الأبحاث العلمية ، فإن العمل المشترك واجب ، وتكون غايته هنا إحسان معرفة الماضي . إذ أن التقدم الذي أحرزته الجامعات الكبرى والمؤسسات المشهورة في العلوم التاريخية والأثرية واللغات القديمة ، دعا المختصين إلى أن يعرفوا إلى بعضهم ، لكي يقارنوا نتائج أعمالهم . وقد عاد هذا التعرف بخير جزيل على الدراسات المصرية ، والآشورية ، والسورية ،

والاغريقية ، واللاتينية ، والبيزنطية ، والاسلامية . فاستفاد من ذلك علم الآثار فوائد جليلة . ولا يخفى أن الحفريات الاثرية في عصرنا الحاضر تحتاج إلى اشتراك عدد من المختصين في الآثار والهندسة العمرانية ؛ والهندسة المعمارية ، والجغرافية ، والكيمياء ، والتصوير . وقد تدوم هذه الحفريات عشرات السنين ، مما يرهق كاهل الجامعات والمؤسسات العلمية التي تنفق عليها ويحملها أعباء مالية جسيمة . ومن الممكن أن ينشأ تعاون بين هذه الجامعات والمؤسسات عن طريق اشتراكها في مشاريع علمية موحدة ، وعن طريق توزيعها فيما بينها النفقات التي تنجم عن هذه المشاريع . وقد سبق أن قام هذا التعاون في الاعمال الاثرية في حالات معينة على نطاق ضيق . ومن ذلك أن حفريات دورا — أوروبوس على ضفة الفرات الأوسط في سورية ، جرت في بادئ الامر تحت إشراف العالم البلجيكي فرانز — كومون ، ثم تولتها جامعة بيل الأميركية مع أكاديمية الخطوط والآداب الجميلة الافرنسية . كما أن بعثة الأستاذ أندره بارو التي تعمل في مدينة ماري من سورية منذ سنة ١٩٣٤ تضم عدة مختصين أجانب منهم الأستاذ البلجيكي جورج دوسان . وكذلك فإن بعثة جامعة أوبسالا الاثرية التي تحفر في تل الصالحية قرب دمشق تضم العالم الاثري الالماني فون دير أوستن . وعلى هذا فالتعاون الدولي في الأبحاث الاثرية ذو فائدة كبرى ، ويمكن توسيعه في العمل على التنقيب في مناطق أثرية مهمة لم تكشف بعد . ولا يخفى أن دراسة الشرق الأدنى من الناحية الاثرية تتسع يوماً عن يوم . إذ أن هذه المنطقة من العالم رأت كثيراً من المدينيات التي نشأت ثم زالت ، وكثيراً من الامبراطوريات التي تأسست ثم انهارت . فيمكن — والحالة هذه — التوفيق بين أعمال بعثات الحفر ، وإكمال أشخاصها الفنيين ، ومنحها الاعتمادات التي تنقصها ، والعمل على اشراك البلاد التي تقوم فيها هذه الحفريات بها ، وجعلها تساهم في نتائجها العلمية . وذلك عن طريق منح كراسي مجانية لبعض طلابها ، وتنظيم رحلات علمية للمختصين فيها يمثل هذه الدراسات . كما أنه يمكن تعميم العمل المشترك بين المتاحف عن طريق تأسيس المجموعات الاثرية القيمة . ولا شك أن نشوء المتاحف الكبرى في عواصم الدول المعظمة كان حدثاً مهماً في تعريف الجماهير الاوربية والاميركية بالمدينيات القديمة ، وفي بعث الدراسات التي تتعلق بها . ومن المفيد أن تستمر هذه المؤسسات على الازدهار ، وأن تضم آثاراً جديدة إلى مجموعاتها لما ينتج عن ذلك من فوائد المدينة العالمية . غير أن النزعة الحديثة بتخصيص كل منطقة من مناطق العالم بنوع خاص من الثقافات ، ورغبة كل بلد من البلاد التي نشأت فيها المدينيات القديمة ، والتي توصلت إلى انزعاستها السياسي ، في أن تحتفظ بكل آثارها ، يدعونا إلى معالجة المشكلة الناشئة عن تضارب هاتين النزعتين . ولا شك أن البلاد ذات المدينيات القديمة محقة برغبتها المذكورة ،

إذ لا يخفى أن بعض البعثات التي عملت في الزمن الماضي لم تترك شيئاً من الآثار في البلاد التي نقتب فيها .

ولسكي يوفق بين المتاحف الكبرى والدول الحديثة ، يمكن طرح الحلول الآتية ، وهي أن تدعى المتاحف الكبرى للتخلي عن بعض الآثار من مجموعاتها الى البلاد التي نهبت آثارها . وأن ترسل الى هذه البلاد بعض النسخ المزدوجة وبعض المجسمات من الأبنية التي نقلت منها سابقاً ، كما يمكن التوصية بإجراء نوع من التبادل بين مجموعات المتاحف الكبرى ، وبين الآثار المكتشفة حديثاً والتي احتفظ فيها في البلاد التي وجدت فيها . على أن تقام قواعد عادلة لهذا التبادل يرضى عنها الفريقان . ومما يمكن فيجب تطمين الدول الناشئة على أن أهم الآثار التي تمثل حضاراتها السابقة يجب أن تبقى فيها ، وأنه إذا أخرجت إلى وراء حدودها بعض الآثار ذات الأهمية الثانوية ، فذلك لسكي تعرف مدنياتها الغابرة في العالم ولسكي تكون دعاية لها .

وأظن أن القضية الأساسية هي : اكتشاف الآثار التي مازالت في بطن الأرض . لأنها تحل جميع الصعوبات القائمة وترضي كل الأطراف المعنية . وقد أوضحت فيما تقدم أن تأليف البعثات الأثرية الدولية يوجد جواً من الثقة بين المتاحف الكبرى ، ومتاحف الدول الناشئة . ولا يجب تفسير هذا القول على أنه يجب العدول عن تأليف البعثات التي يكون كل أعضائها من جنسية واحدة . فقد خدمت هذه البعثات علم الآثار الدولي خدمات جليلة ، ولها ميزة أن أعمال أعضائها تنسجم بسرعة . والمهم في هذه القضية أن توجد اتفاقات حبية بين حكومات البلاد التي تجري فيها هذه الحفريات وبين بعثات التنقيب . فإذا شاءت هذه الحكومات أن تحتفظ بكل الآثار التي يثر عليها في أراضيها ، فمن الطبيعي أن تساهم في حدود امكانياتها بنفقات الحفر ، وبإقامة البعثات وفي استهلاك أرض التنقيب والتعويض على أصحابها ، وفي نفقات نشر الابحاث العلمية وفي حفظ المناطق الأثرية . بيد أنه يجب أيضاً الأخذ بعين الاعتبار أن الاعتمادات التي تخصصها الحكومات الناشئة لمثل هذه الأعمال ضئيلة . لهذا فانه يجب دعوتها للمساهمة في ذلك ضمن حدود طاقتها . وإن تتأخر هي من نفسها عن ذلك لأن مناطقها الأثرية التي تنقب فيها تصبح ملقاة بجميع علماء العالم ، وتدخل الآثار المكتشفة فيها إلى متاحفها ، وتغنيها وتساعد على توجيه تيارات السياحة الدولية إليها ، ونؤمن لها موارد اقتصادية مهمة .

ويمكن التعاون بين المتاحف أيضاً في قضية حفظ الآثار المكتشفة التي تحتاج إلى عناية دقيقة ، واختصاص واسع ، ومعلومات فنية ، ومهارة ، وأجهزة ، وأدوات مختلفة ، قد لا تتوفر إلا في المتاحف الكبرى ، وفي بعض البلاد التي تجري فيها الحفريات الأثرية على نطاق

واسع . فلهذا تتوجب مساعدة الدول ذات المدينيات القديمة على أن يكون في متاحفها على الأقل معمل في واسع مجهز بالآلات اللازمة ، وأن تقدم لها كل المعلومات اللازمة عن كل ما يطرأ من ابتكارات في حقل الترميم الأثري ، وجميع ما يتعلق بالقضايا المهمة التي يعالجها مشهورو المرممين . كما يجب تنظيم قوائم بأشهر المرممين ، والخبراء والمعامل الموجودة في كل بلاد العالم ، وإرسالها إلى كل المتاحف ودعوتها للاستفادة منها .

ثم أن تنظيم المتاحف يحتاج إلى التضلع بمعارف كثيرة . حتى يكون عرض الآثار فيها على أحسن وجه ، وحتى تستفيد الآثار المعروضة من النور الطبيعي أو من النور الاصطناعي . ويجب أن تجعل هذه الآثار في دواليب وخزائن وعلى حوامل توشي بالأوساط التاريخية والبشرية التي كانت فيها . ويضاف إلى المعارف الفنية في هذه الناحية الذوق السليم فلذا فإن تأسيس أي متحف يجب أن يعتبر حادثة هامة ، لأنه يتم عن ذوق وعمق وعبقورية الأمة التي تنشئه . بيد أنه يمكن أن تساعد الشعوب التي تبدي الرغبة في تنظيم متاحفها ، وذلك عن طريق جعل مجالس المتاحف الدولي يلحق به ، بين فينة وأخرى ، بعض مشوري منظمي المتاحف ، وأن يضعهم تحت تصرف من يريد الاستفادة من خدماتهم . ثم أنه من المستحسن قبل أن تفكر في إنشاء هذا الجهاز الفني أن تفكر بإيجاد عدد من المفتشين الملحقين بهذا المجلس . وتكون مهمتهم أن يزوروا مختلف المتاحف وأن يدرسوها ، وأن يستعلموا عن حاجاتها ، وأن ينصحوا بحفاظها أن يعملوا على توطيد دعائم التفاهم الدولي عن طريق الآثار ، وأن يحسنوا الطرق التي يتبعونها في أعمالهم ، وأن يستفيدوا من المستحدثات الفنية التي توصلت إليها بعض المتاحف المتقدمة عن غيرها .

وخلاصة القول أن التعاون بين المتاحف هو أول الشرائط اللازمة لجعل هذه المتاحف تقرب الشعوب من بعضها ، وتوطيد دعائم التفاهم الدولي الذي يستند على إيضاح ما كان لها من مصالح متداخلة وعلاقات سلمية ، خلال كل العصور . كما أن الأبحاث العلمية ، وتأليف المجموعات الأثرية ، وحفظها ، وإتقان عرضها هي القضايا التي تهتم بحفاظي المتاحف ومدراءها . ومن هذه القضايا تحقق أهدافنا الرامية إلى إنقاذ تراث الإنسانية الخالد ، ونقله إلى الأجيال الصاعدة .

سليم عادل عبر الحق

نمايل تدمرية جديدة في متحف دمشق

للكنوز جوزيف سبع

محافظة المتحف الوطني في دمشق

ترجمة وتلخيص : جورج هداد

لقد أضيفت إلى المجموعة التدمرية في المتحف الوطني بدمشق بعض قطع منحوتة لم تنشر بعد ورأينا أن نشرها نظراً لأهميتها . وأقدم هذه القطع نحت بارز أصابه الاثتكال ويثمل مشهداً دينياً . ففي قسمه اليساري يظهر رجل يلبس قميصاً طويلاً الأكام ومغطفاً . ويحرق البخور بيده اليمنى بينما يمسك بيده اليسرى علبة للبخور وإبريقاً لاراقة السوائل ويتخذ هذا الرجل وضع كاهن يقدم التضحيات وتتقدم نحوه امرأة تحمل اناء غطاءه مروس . ويمكن أن يتصل هذا النحت بحجمه ومادته وموضوعه وأسلوبه بالمجموعة القديمة التي استخرجت من تحت باحة «عبد « بعل » في تدمر وترجع الى ما قبل بناء المعبد في ٣٣ م . ولذلك فانه يمكن القول بان هذا الاثر كان قسماً من بقايا البناء القديم للمعبد وأن تاريخه من نهاية القرن الاول ق . م أو من مطلع القرن الاول م . ويتصف هذا النحت البارز بأنه أقدم نموذج للتأثير الهليني في اتجاه الأشخاص المنحوتة .

وهناك أثر آخر اقتناه المتحف بواسطة أحد تجار العاديات بدون معرفة ظروف اكتشافه ويثمل سريراً جنائزياً يحتوي تمثالين نصفين وكان عليه غالباً مشهد مأدبة جنائزية . وقد وجدت كتابة تدمرية الى يمين التمثال المذكور هذا نصها : « واحسرتاه ! مقيموا الصانع ابن نوربل بن زبدا » . والى يمين التمثال المؤنث هذه الكتابة : « واحسرتاه ! تدمر زوجة مقيم بن نوربل بن زبدا الصانع » والى يسار التمثال المؤنث تمة الكتابة السابقة : « توفيت في التاسع والعشرين من سيوان عام ٤٥٩ » ويوافق هذا التاريخ الموضوع حسب العصر السلوقي ٢٩ حزيران ١٤٨ م ويدل كذلك أسلوب السرير الفني انه من النصف الاول للقرن الثاني م . وترينا

ملابس الزوجين وصورتهما ان التماثيل من الفئة الاولى للتماثيل التدمرية التي ينتهي عهدها في ١٥٠ م وان هنالك شبيهاً بين شكلها وبين الصور الرومانية من عهد تراجان وهادريان . وأهمية هذه القطعة انها مرحلة هامة في تاريخ تطور النحت التدمري . وفي متحف المتروبوليتان في نيويورك صورة منحوتة لتدمر زوجة مقيم عليها نفس التاريخ ولكن العلماء جعلوا تاريخها ١٤٦ م لأن الاشارتين الاخيرتين من اشارات السنين قد كسرتا ولذلك فان هذا النحت يصحح تاريخ القطعة الموجودة في نيويورك .

وقد اقتنى المتحف بواسطة أحد سكان القريتين تماثلاً نصفياً تدمرياً كتب على كتفه الايسر : « واحسرتاه ! أحيناي بن حطراي » . ويختلف عن تماثيل مقيم بان له شارباً صغيراً ولحية قصيرة مما يجعل تاريخه بعد عام ١٥٠ م وعلى رأسه إكليل من الفار مزدان بوردة صغيرة في وسطه . ولشاهد اليد اليمنى على الصدر بينما تقبض اليد اليسرى على خنجر مرصع بالحجارة الكريمة . والكتابة تحوي ميزات عصر متأخر كما أن الاسم « أحيناي » يبدو جديداً . ومن مجموع الدلائل يمكن القول أن هذه القطعة من أوائل النصف الثاني للقرن الثاني بسبب بقاء بعض ميزات الفترة السابقة . وربما كان صاحب التمثال من أنساب الأشخاص الذين من أسرة « حطراي » المذكورين في بعض النقوش وقد يكون شقيق « شالة بنت حطراي » التي رينا تماثلها الموجود في منزل الشيخ فياض في القريتين نفس الاساليب الفنية . ومن المرجح أن تكون هذه الاسرة أصلاً من مدينة حطرة المروفة اليوم بالحضر في العراق .

وبما حصل عليه المتحف من أبناء الشيخ فياض بالقريتين بواسطة تاجر العاديات نفسه قطعة نحت جنائزية تتضمن تماثيل نصفين لساين كتبت بينهما الكتابة التدمرية الآتية من جهة اليمين : « بملشور بن حيرة بن اكليدي واحسرتاه ! عاش ١٩ عاماً » ، ومن جهة اليسار « مقيم بن حيرة بن اكليدي واحسرتاه ! عاش ١٦ عاماً » . ويشاهد ذراع مقيم اليمين حول كتفي أخيه كإشارة التعزية . وتاريخ هذين التماثيل هو غالباً تاريخ تماثيل شبيه بها في متحف اللوفر وقد قدر بعام ١٥٥ م . والشبه واضح في صفات هذه التماثيل الفنية المشتركة في تصنيف شعرها وإكليل الفار على الرأس والوجوه الفنية وطيات ثيابها . وهنالك تماثيل في مجموعة الشيخ فياض في القريتين لهؤلاء الأشخاص عرفت من النقوش الموجودة عليها . ويمثل التمثال المزدوج (١٤) آ

في المجموعة بعلشور وأخته بتموجة بينما يرينسا التمثال الآخر صورة مقيمور . والتماثيل التي تحتويها النقوش تشبه تماثيل القطعة التي نحن في ذكرها . وفي متحف اللوفر تمثال آخر « لبتموجة » أخت الشاين كما أن تمثال ابن عمهم « زبيدة » الذي وجد غالباً في نفس القبر هو الآن في متحف كارلزبرغ في كوبنهاغن . والذي يلاحظ أن اسم « الكندي » لم يثر عليه إلا في هذه النقوش . ومما يكتن فان هذه القطعة التي اقتناها المتحف هي من أجل قطع النحت التي وصلتنا وهي تضيف إلى معلوماتنا عن هذه الاسرة التدمرية المعروفة لدينا بواسطة النقوش .



مركز تحقيقات كاپيتور علوم اسلامی

لوح جبريس الفسيفساء

(١) من مدينة شربا - فيليو بوليس

للاستاذ

أرنست ويل

تلخيص وتعريب سي . ع

لقد اكتشفت في حفريات مدينة انطاكية ألواح رائعة من الفسيفساء. مما يدل على أن عاصمة سورية الرومانية كانت مزينة تزييناً غنياً، ويظهر من عدة دلائل أن فن الفسيفساء كان منتشرًا في مدن أخرى من هذه البلاد، ولا سيما في مدينة (شربا - فيليو بوليس)، التي تمتعت بمجد لم يدم طويلاً، بفضل أحد أبنائها، الذي اعتلى عرش امبراطورية روما، وعرف باسم فيليب العربي بين سنتي (٢٤٤ - ٢٤٩) .

وظهرت في عدة أنحاء من هذه المدينة القديمة العظيمة ضمن سورها الروماني وداخل منازلها الحديثة، بقايا مهمة من الفسيفساء القديمة . ومن ذلك مجموعتان جديدتان انشقت عنها الأرض لدى حفر أسس بيتين جديدين في الجهة الجنوبية الشرقية، غير بعيد عن باب المدينة الشرقي، وفي جنوبي شارعها الطويل . وكانت أولى هاتين المجموعتين في بيت السيد حروفوش، وتتألف من لوحين موضوعهما (ربات الطبيعة الثلاث ، والاله ديونيزوس) ، وثانيتها من بيت السيد العوا ، وتتألف من لوح واحد ذي موضوع مهم جداً ، سنخصص لدراسته السطور الآتية :

(١) عرض هذا اللوح منذ مدة قريبة جداً في قاعة السويداء من الجناح اليوناني - الروماني - الميزنطي من المتحف الوطني بدمشق .

وتبلغ أبعاد هذا اللوح المستطيل ٣٣٧ م × ٢٧٦ . وفيه مستطيل متوسط محاط بإطار غرضه (٠٠٦٤ م) ، وزينه موضوع هندسي بسيط ملون بألوان كامدة سوداء وبيضاء وسمراء وصفراء وزرقاء وخضراء . ويعليء صفحة المستطيل المركزي مشهد ذو عناصر متعددة ، ومعقدة ، ومتجلية خلال ألوان كثيرة . ويظهر أن الفنان بذل في تركيبها عناية فائقة . ويمكن أن نتعرف خلال الأشخاص الكثيرين الذين يؤلفون هذا المشهد ، وبمساعدة الكلمات اليونانية المخطوطة حذاءها ، على لوح رمزي فيه مجموعة متوسطة من الأشخاص ، تحيط بها مجموعة أخرى من كل من الجانبين وفوقها صور أخرى ثانوية . وإليك وصفها :

تشاهد في الوسط امرأة مضطجعة في وضع تقليدي يرى في كثير من المشاهد الرومانية الفنية ، وحولها أربعة أطفال صغار . وهذه المرأة هي ربة الأرض (جه) وسط أولادها آلهة الفواكه (كاربوا) . وهي مرتدية ثوباً (فاتحاً) له انعكاسات صفراء وزرقاء ، يتعلق على كتفها ، ويلف ساقها ، وينحسر عن صدرها . وعلى رأسها تاج من الزهر ينحدر منه وشاح أبيض على ظهرها . وفي يدها اليمنى (قرن الخصب) ، فيه عناقيد العنب وأثمار أخرى صغيرة . وما أشبه هذه الربة بالربة الرومانية (تيللوس) والربة السورية (آتارغاتيس) اللتين تمثلها عدة آثار رومانية معاصرة .

ويقوم أحد أولاد هذه الربة وراء كتفها الأيسر ، ويضع الثاني مرفقه على ركبها اليسرى . ويستند الثالث على كتفها الأيمن ، ويتقدم الرابع منها وهو يحمل قرن خصب آخر مثقلاً . وكلهم مخففون من الثياب ، وعلى رؤوسهم تيجان من الزهر ، وفي أيديهم الفواكه . ولا يمكن القول إن هذه الفواكه تمثل محاصيل الفصول التي يرمز إليها هؤلاء الأطفال الأربعة ، لأن الفصول ممثلة في ركن آخر من أركان لوح الفسيفساء هذا .

ويبتدىء أشخاص هذه المجموعة على أساس يمثل صخوراً متعددة يشاهد أمثالها كثيراً في الفن الهلنستي . وتوجد وراءهم من الجهة اليسرى امرأة أخرى منتعلة حذاء ، وعلى رأسها قبعة خضراء وذات أطراف عريضة ، ولايسة معطفاً ذا ألوان سمراء وحمراء وبرتقالية ينحسر عن ثديها الأيمن . وهي تتأمل الأرض وأولادها ، وتمسك بيدها اليمنى محفراً بسنين يستند على كتفها ، وإلى جانبها كلمة يونانية تشير إلى أنها (جورجيا) ربة الزراعة التي لم يمثلها أي مشهد في آخر . وإلى يمينها رجل متدثر بثوب ومعطف ، ممثلين بألوان صفراء - برتقالية وخضراء

وحمرء وسمرء ، وعلى رأسه قبة تشبه قبعته . وهو يقود بيده اليسرى ثوراً ، وفي يده اليمنى عصا . وإلى جانبه كلمة (تريبتوليم) جني الزراعة في أصول ديانة (ايلوزيس) .

وتتألف المجموعة الواقعة في يسار لوح الفسيفساء من عدة أشخاص آخرين . ويشاهد في المستوى الأمامي رجل يتألف جسمه من عضلات قوية ممثلة بلون نحاسي . وهو يجلس على مقعد مكعب أسود . ويرى جسمه من وجهه الأمامي وساقاه من وجهها الجاني ، وهو يوجه نظراته إلى مركز المشهد ، وعلى كتفه الأيسر معطف يتدلى فيغطي ساقيه . ويظهر من صورته أنه شاب حليق ، ويمسك بيده دائرة صفراء وبرتقالية . ولا ريب أنه يمثل (ايون) رب الزمان اللامتناهي . وعلى المستوى الثاني من هذه المجموعة تقوم أربع نساء بأجنحة رمزية ، تشير الكتابة حذاءها أنها (تروباي) ربات الفصول الأربعة . والأولى واقفة حذاء إطار النوح ، ولايسة ثوباً أخضر وممسكة بطرف من هذا الثوب حيث يوجد عدد من الفواكه المستديرة الصغيرة . وهي ترمز إلى الخريف وإلى جانبها المرأة الثانية وترى من وجهها الجاني وعلى رأسها إكليل من الزهور ، وهي تمسك بيدها اليمنى بعض سنابل القمح وتشير إلى الصيف ، والمرأة الثالثة وراء هاتين الاثنتين ، ورأسها مستور بجزء من معطفها الأخضر الغامق وهي تمثل الشتاء ، والرابعة لابسة ثوباً ومعطفاً وترفع يدها اليمنى إلى إكليلها ، وتمسك بيسراها جدياً صغيراً وهي تعبر عن الربيع .

وإذا اتجهنا إلى المجموعة اليمنى في هذا اللوح ، لوجدنا فيها أشخاصاً متعددين قد نظموا على عدة مستويات شأن المجموعتين السابقتين . ويرى في المستوى الأول رجل عار جالس على صخرة سوداء يتجه إلى اليمين ، وهو حليق وشعره أشعث . وينصرف إلى صنع تمثال أمامه فيمسك بيده اليسرى كتلة من الطين ، يرفعها من سلة حذاء قدميه ، ويسوي بيده اليمنى كتف التمثال . وهذا الرجل هو (بروميتة) الذي خلق أول إنسان من الطين كما تذكر ذلك كتابة بالقرب منه ، ويوجد وراءه رجل آخر يشبه (ايون) من المجموعة اليسرى ، وهو (هرمس) ، وشعره معصوب بمصابة ، وله أجنحة صغيرة ، وبيده صولجان . وتقوم إلى يمينه بنت صغيرة تلبس ثوباً طويلاً ولها أجنحة فراشة ، وهي تمثل الروح أي (بسيشة) . ويدها في وضع يمثل رعباً من المصير الذي ينتظرها من اتحادها مع المادة . ولا ريب أن هرمس يستعد لمزجها مع الجسم الذي يصنعه (بروميتة) . وتكمل مجموعة هؤلاء الأشخاص صورتان الواحدة بالقرب من (هرمس) ، وهي مدثرة وموشحة ، والثانية وراء هرمس ، وصدرها عارٍ ويظن أنها (أفروديت) ربة الحب ، ويظهر أنهما من الربات المتفرجات اللواتي يمثلان عادة في الألواح الرومانية الميثولوجية .

وأخيراً يوجد عدة أشخاص في المنطقة العلوية من لوح الفسيفساء . ويوجد زوج من الرؤوس الصغيرة في جانب ، وزوج آخر في الجانب الثاني . وكلهم ينفخون دخاناً خلال النيوم . وهم يرمزون إلى الرياح ، ويقوم (نوتوس) ريح الجنوب و (أوريوس) ريح الغرب إلى اليسار ، و (زفير) ريح الغرب ، و (بوره) ريح الشمال إلى اليمين . وعلى الفراغ بين الطرفين في الوسط طفلان صغيران يمسكان إناءين ينحدر منها الماء ، وهما يمثلان كما تقول الكتابة حذاءهما (دروزوي) جني الندى .

ويرى مما تقدم أن لوح الفسيفساء الذي وجد في شهباء يحوي عالماً صغيراً من الآلهة وأشباهاها . ويجدر بنا أن نحدد موضوعه وأن نوضح الإلهام الذي استقى منه الفنان هذا الموضوع ، ويظهر من وجود مجموعة خلق (بروميتيه) للإنسان ومن صورة (ايون) ، نزعاً دينية وصوفية ناشئة عن أصل (ايلوزيبي) كما تشهد بذلك صورة (تريبتوليم) إلا أنه يصعب أن نوضح كيف نفذت التأثيرات الايلوزيسية في القرن الثالث الميلادي إلى منطقة نائية كجبل الدروز . لاسيما وأن الربة (ديمتير) زعيمة أرباب هذه الديانة لم تكن تعبد هناك . ويمكن اعتبار أن صورة (تريبتوليم) الذي يبتدى هنا وهو يقود ثوراً ، تشبه ما تحدث به عنه الشاعر الهلنستي (كالليماك) ، الذي وصفه بالراعي وناشر علم الزراعة . ويظن أن هذا التحول الذي طرأ على مفهوم هذا الإله نشأ في مركز من المراكز الدينية السورية .

ومما يمكن أن وجود (تريبتوليم) في هذا اللوح مع الزراعة (جورجيا) يفسر بوجود الربة (جي) الأرض التي تحتل مكان الصدارة في اللوح . كما يفسر أيضاً بوجود الأرباب التي تمثل الحوادث الطبيعية والرياح والندى اللازمة لنمو النبات ، وبوجود (ايون) والفصول الأربعة التي تشرف على نضج الاثمار . وكذلك يمكن الآن فهم مشهد خلق الإنسان من الطين الذي هو من الأرض . وعلى هذا فإن الفنان أراد من تمجيد الأرض أم الاثمار ، وهي محاطة بأعوانها الخالدين (الفصول) تمجيد الأرض المغذية التي تقف إلى جانبها الزراعة كما أراد من مشهد (بروميتيه) تمجيد الأرض أم البئر .

وعلى هذا فإن إلهام الفنان لم يكن دينياً . وقد أراد الفنان فيه أن يكون تحية للقوى التي توجه وتؤمن حياة الأرض المادية . ويظن أن أحد الملاكين الكبار الذين كانوا يستثمرون أراضي حوران التي هي أنبار سورية هو الذي فكر بإبراز عواطفه على الشكل المتقدم . وقد كان هذا الرجل مثقفاً بثقافة عصره ، ومطلعاً على شيء من فلسفة هذا العصر المؤلفة من امتزاج

عدة مذاهب فلسفية مبسطة . لهذا فانه أمر بتثيل عدد من الافكار الشائعة في ذلك الزمن . فأتت هذه الافكار مزيجاً من الفلسفة النظرية والعملية والديانة الشائعة الرسمية والاعتقادات بالجن . ولا يظن أن هذا الفنان قد استخدم نماذج معينة في تأليف هذا اللوح الرائع . فأشكال الفصول هنا لا تشبه الاشكال التي نعرفها عنها في المشاهد الفنية الرومانية . وكذلك أشكال وأوضاع (تريبوليم) و (ايون) و (بروميت) ليس لها شبيه في تلك المشاهد . حتى أن صورة (بروميت) يمكن أن نعد أنها أروع صورة تركتها لنا العصور القديمة عن خلق الانسان . على الرغم من أن الربتين اللتين تشاهدان هذه العملية تدلان على أنها منقولتان عن مشهد آخر مماثل .

والخلاصة أن الفنان رسم لوحته بعد أن اطلع على دفتر من الرسوم التي كانت تستعمل في انشاء لوحات الفسيفساء على الرغم من أن مشهد بروميت وصورة (تريبوليم) جديداً كما قلنا . وعلى الرغم من أنه يوجد شيء من التشابه بين صور (ايون) و (هرمس) و (بروميت) وهذا لا ينفي احتمال أن الفنان استوحى تأليفه من عدد من اللوحات . ويمكن أن نبحت عن هذا المصدر في انطاكية .

أما تاريخ هذا الاثر فيمكن تعيينه دون خطأ . إذ أن إنشاء مدينة فيليوبوليس بواسطة الامبراطور فليب العربي كان نحو منتصف القرن الثالث الميلادي . وبما لاشك فيه أن هذا اللوح من الفسيفساء كان من ذلك العصر . وعلى هذا فيمكن الاعتماد على التاريخ المتقدم كنقطة موضحة لمعرفة تاريخ الفسيفساء القديم بصورة عامة .

وأخيراً يجب ملاحظة جمال الاطار الذي تبدى فيه هذا اللوح ، ودقة المنظور الذي استخدم في تنظيم أشخاص المشهد المتقدم ، وانسجام الوانه وتنوعها . إذ يجاور الأسود والأصفر الغامق والأصفر الفاتح منها البرتقالي والأصفر والأبيض والأحمر والوردي والأزرق . وتتابع كلها بنظام ودقة تدلان على مهارة الفنان الذي ابتكرها . حتى يخيل للرائي أنه يصعب تحديد ألوان الألبسة إذ أن كل لباس يتبدى بألوان شتى تظهر انثناءاتها ، وتميز أقسامها العلوية من أقسامها السفلية . وكذلك فإن ألوان الوجوه تختلف باختلاف متعددة . فالألوان وجوه الأرباب غامقة

والوان وجوه الربان والاطفال فاتحة . ثم ان الظلال تحيط بكل الاجسام وتوهم انها بارزة ، وتساهم باظهار تقاطيع الوجوه ، ويجعل اثار الحياة ظاهرة عليها . كما أن هذا الفنان اجتهد لجعل وجه كل شخص يمثل على أساس يصعب وصف ألوانه . وكل ما يقال فيها إنها تساعد على إبراز روعة هذه الوجوه كلها .

ويستنتج مما ذكرنا أن هذا اللوح الكبير الرمزي الذي أخرجته أرض فيليبوبوليس ، يقدم لنا خلاصة رائعة عن عالم من الأفكار شغلت مكانة ممتازة في آخر حياة العالم القديم . وبرأيي إنه يعد أعظم أثر ابتكر في حوران ، وأجمل ما يمكن أن يعبر به عن مجد هذه المقاطعة وفنها الطبيعي خلال عصور المدنية الرومانية الاغريقية .



مركز تحقيقات كميوير علوم إسدلي

المدرسة السلطانية في حلب

دراسة عن عمارتها

بـعلم : ج . لوفري

تـعريب وتـلخيص الدكتور جورج حداد

تقع المدرسة السلطانية التي تسمى أيضاً بالمدرسة الظاهرية أمام مدخل قلعة حلب . وقد أسسها الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الايوبي وكان أول ملك ايوبي حكم حلب ودفن في هذه المدرسة . وبما أن بناءها لم يتم عند وفاته في ٦١٣ هـ (١٢١٦ - ١٢١٧ م) فقد أمر شهاب الدين طغرل أتابك الملك العزيز ابن الملك الظاهر بإكمال بنائها . وانتهت أعمال البناء في ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ - ١٢٢٤ م) وجعلت وقفاً للحنفية والشافعية . واليوم تضم مدرسة دينية . وهناك مدرسة أخرى تعرف بالظاهرية ولكنها خارج الأسوار ، وكان من عادة الأمراء أن يشيدوا مدرستين تتعلقان الواحدة بالدفن داخل الأسوار والأخرى خارجها .

كانت أرض هذه المدرسة حتى عام ١٩٤٤ منخفصة عن سطح الأرض المحيطة بها وكان ينزل إليها بدرج صغير . كما أن قسماً من البناء في داخلها كان متهدماً ولذلك كان يصعب وصف واجهتها وتصميم بنائها . ولكن أعمال الترميم بدأت فيها في ذلك العام كما أن بلدية حلب أزالت الأتربة المتراكمة حولها . والدراسة التي سنقدمها مبنية على وضع البناء بعد هذه الأعمال ، وهدفها سيكون بيان التطورات التي طرأت على المدرسة واعطاء المعلومات اللازمة عن عمارة سورية الشمالية في العصر الايوبي . على أن هذه الدراسة يجب أن لا تعتبر نهائية لان إزالة المواد الكلاسيكية وغيرها التي تغطيها وأعمال الحفر على مقياس أوسع قد تظهر أوضاع البناء الأصلية . وقد أكتشفت كتابات أثرية في هذه المدرسة تتعلق بهدفها وتاريخها وأساتذتها ونشر بعضها ، وسيظهر بعد هذا المقال نص الكتابة الأثرية الوحيدة التي لم تنشر بعد . ويرى الاستاذ كرزول وكذلك سوفاجيه أن أهداف مدرسة كهذه توجب وجود العناصر الآتية : الباحة وقاعة الصلاة وأماكن التدريس وإيوان لكل من مذهبي الحنفية والشافعية ، وأماكن سكن الاساتذة والطلاب ، وضريح المتوفى .

لقد أظهرنا في التصميم الذي وضعناه (لوح رقم ١) كيف كانت تتوزع عناصر البناء وخالفنا برأينا ما توصل اليه كريزول . فالبناء بكامله قائم على مربع طول ضامه ٤٠ متراً . والمباني تحيط بصحن طوله ١٩٠٧٠ م من الشرق إلى الغرب و ١٦٠٨٠ م من الشمال إلى الجنوب وفي وسطه حوض مستطيل . والمباني التي تحيط بالصحن تختلف في أسلوبها وسماكتها . فالقسم القبلي غم الاسلوب يستعمل الحجارة الكبيرة ويتضمن قاعة كبرى في وسطها المسجد وقاعات للتدريس وضريح الملك الظاهر . والاقسام الثلاثة الاخرى تحتوي مجموعتين متناظرتين من المساكن المؤلفة من طابقين من الغرف وهي موزعة على جانبي باب أثري مرتفع يقابل المسجد ويشبهه بأسلوب بنائه .

وإذا عدنا إلى القسم القبلي نجد فيه غرفة مربعة وسطى تملوها قبة وتحتوي على محراب . وفي هذا القسم تقع أماكن التدريس وهي في القسم المخصص للمسجد وذلك لعدم وجود أيوان خاص للتدريس ولا تزال المدرسة الدينية اليوم تقوم في هذا القسم ، وأما الضريح الذي يتصل بالقاعة القبليّة فانه في غرفة مربعة طول ضلعها ٨٥ م تملوها قبة كما في سائر أضرحة مؤسسي المدارس وهناك رواق تحت الأرض يبدأ من هذه الغرفة وتقول المرويات انه يؤدي إلى القلعة . والنوافذ المتجهة نحو الخارج عددها ثلاثة تملوها كتابات أثرية باسم الملك الظاهر . أما في الاقسام الاخرى فان هنالك الباب الرئيسي في وسط القسم الشمالي ومقابل المسجد وارتفاعه يبلغ ٧٥٠ م وتملوه مئذنة أضيفت في العصور التالية وهي مثمنة الاضلاع . ومساكن الطلاب تنقسم الى مجموعتين يفصل بينهما الباب الرئيسي وقد يكون كل قسم مخصصاً لطلاب كل من المذهبين . والغرف الوحيدة الباقية بصورة تامة تقريباً هي في الغرف الست الواقعة في الجهة الشمالية . وفي الطابق الارضي نشاهد ثلاث غرف في الجهة الشرقية وغرفتين في الجهة الغربية . واتساع هذه الغرف أعظم منه في سائر الاقسام ولذلك يمكن الظن انها كانت مخصصة للاساتذة . وغرف الطابق الاول كان يحيط بها رواق ويصعد الى كل مجموعة منها بدرج في الزاويتين الشمالية الشرقية والشمالية الغربية ، ويمكن أن نستنتج من بقايا هذه المدرسة أن كلاً من مجموعتي غرف السكنى كانت تضم ثلاث أو أربع غرف للاساتذة ونحو سبع غرف للطلاب في الطابق الارضي وعلى الأقل احدى عشرة غرفة في الطابق الاول مما يجعل عدد غرف كل من المذهبين نحو ٢١ غرفة ومجموع غرف المدرسة كلها ٤٢ غرفة ولذلك فان المدرسة كان بإمكانها أن تضم بين اربعين وخمسين شخصاً .

يتصف بناء المدرسة السلطانية بالبساطة وعدم وجود الزخارف الزائدة . فالجدران الخارجية عارية ولكنها دقيقة في تركيبها . وأما في الداخل من جهة الصحن فإنه يمكن مشاهدة الاختلاف ومراعاة النسبة بين أقواس المسجد الكبرى وبين أقواس غرف السكنى الصغيرة . وفي الزخارف نرى أنها تقتصر على النقاط الحساسة في البناء وهي الباب الرئيسي ونوافذ غرفة الضريح ، والمحراب . ومما يمكن أن البساطة في الزخرفة لم تكن نتيجة عجز وإنما كانت نتيجة رغبة في البساطة . والمستطيل الذي يحيط بالباب عرضه ٥٥٠ م وارتفاعه ٧٤٠ م وتعلوه حاشية عليها كتابة أيوبية نسخية رقم ١٤٨ والحجارة متقنة الصنع كبيرة يبلغ متوسط قياسها ٥٠ سم ومحاطة بحاشية منحوتة . وفتحة القوس الذي يعلو المدخل هي أقل من الفتحة بين جانبي المدخل وهناك كتابة أثرية رقم ١٤٩ فوق المدخل ، ويمكن تمييز موقع الحوض بواسطة الحجارة الباقية في مكانها . وقد كان طول ضلعه ٧٤٠ م وآثار خزانين تبدو على الجانبين الشمالي والشرقي . وأما واجهة أما كن السكنى فلها مهدمة الا قرب الباب الرئيسي ومن الخارج لم يبق إلا القسم الأسفل من جدران الواجهة الاصلية وهي مبنية بحجارة كبيرة كاللابل . وفي الداخل تشاهد سلسلة منظمة من الابواب في الطابق الارضي تعلوها نوافذ في الطابق الاول .

ويبدو مسجد المدرسة من بعيد بسبب قبه المرتفعة وهناك جدران من العصر التركي أضيفت الى واجهته على أنه يمكن تصور هذه الواجهة بعد دراسة بقاياها . وبلاحظ أن الحجارة المستعملة في الصفوف العليا للواجهة أصغر من تلك التي استعملت في الصفوف الاثني عشر السفلى وهذا الترتيب موجود في مدرسة الفردوس بحلب أيضاً . أما الافريز الذي يعلو الواجهة فإنه حديث . والمحراب الذي تشتهر به هذه المدرسة قد بقي بحالة جيدة في داخل المسجد . وتنبثنا المرويات كيف حالت مهارة الحلبين دون انتزاع هذا المحراب وسرقته من قبل تيمورلنك . وقد استخدمت في زخرفته مختلف الاساليب الزخرفية من حجارة ورخام ملون وخطوط متداخلة وأعمال نحت دقيقة وتيجان كورنثية ومراعاة للنسبة ، ويجب أن يعتبر هذا المحراب من سلسلة المحاريب الحلبية التي من نفس العصر والاسلوب وبينها محراب مدرسة الفردوس ومحراب الجامع الرومي . أما غرفة الضريح فإن نوافذها المتجهة نحو الخارج قد وضعت في أسلوب أثري أغخم من أسلوب نوافذ غرف السكنى . وهناك نقوش أثرية تعلو هذه النوافذ بينما تزين فتحاتها قضبان حديدية مصنوعة صنفاً خاصاً .

أما فيما يتعلق بمراحل بناء المدرسة السلطانية فإنه يتضح من دراسة عمارة المدرسة وكتاباتاتها أنها شيدت على مراحل متعددة . والذي يبدو أن المسجد بني في المرحلة الاولى وأن غرفة الضريح بنيت في مرحلة تالية . وقد جرى تعديل الخطة الاصلية غالباً بسبب أن الملك الظاهر عندما بني ضريحاً خارج الاسوار لم يفكر بأن يدفن في السلطانية ولكنه تخنى بعد ذلك أن يدفن داخل المدينة فيما لو مات هناك ولذلك اجري تعديل بناء السلطانية باضافة غرفة الضريح ويبدو ان نصوص الكتابات الاثرية فوق نوافذ هذه الغرفة ترجع الى ما بعد تاريخ البناء .

وباب المدرسة يرجع الى المرحلة الاولى أو الثانية وبنائه بحجارة كبيرة وبناية فائقة من مميزات البناء الايوبي ويبدو ان الكتابة الاثرية رقم ١٤٨ الموضوعة فوق الافريز قد نقشت فيما بعد لأن تاريخها في ٦٢٠ هـ (١٢٢٥) بينما تاريخ بناء الباب قبل ذلك . وكذلك الكتابة رقم ١٤٩ الواقعة فوق الباب فإنه يبدو انها اضيفت . ويذكر نص هذه الكتابات ان البناء الذي كان لا يزال ناقصاً في عهد وصاية طغرل قد اكمل وخصص لتدريس مدرستي الفقه الحنفي والشافعي . فاكمل البناء اذاً هو المرحلة الثالثة في اعمال البناء التي تضمنت انشاء غرف السكى واذنت بافتتاح المدرسة . ويبرهن بناء الباب منذ المراحل الاولى للبناء ان المخطط الاصيل كان يتضمن موقع غرف السكى . ويبدو ان البناء اصابه بعض التعديل في عهد المماليك لان الكتابة رقم ١٥٠ المؤرخة في ٨٧٤ هـ تهاجم الذين يبدلون او يعدلون الغاية التي بنيت من اجلها المدرسة السلطانية . وحصلت ترميمات غير مناسبة فيما بعد شوهت البناء واضيفت المأذنة فوق المدخل ورمت الاقسام العليا من الجدران بحجارة صغيرة وفي العهد التركي سدت ابواب المسجد .

أما بشأن أصل تصميم المدرسة السورية فقد ذكر السيد غودار في مقال له في مجلة آرس اسلاميكا (م ١٥ - ١٦ عام ١٩٥١ ص ١) ان المدارس الاولى ظهرت في خراسان حيث كانت عبارة عن بيوت خاصة وان المدرسة السورية لا تظهر في تاريخ تطور بناء المدارس . ويقول غودار ان تلك البيوت الخاصة كانت تحوي اربع ايوانات مفتوحة على الباحة وان هذا كان تصميم المدارس الاولى ولذلك لم يكن وجود الايوانات متصلاً بتدريس فقه المدارس الاربعة وعندما انتشر بناء المدارس خارج ايران انتقل هذا الاسلوب الى مصر والمغرب ولذلك لم يأخذ صاحب هذا الرأي بنظرية كريزول التي ترى أن اصل المدرسة ذات الايوانات الاربعة مصرياً

ولا برأي فان برشم وسلاذن اللذين قالوا ان اصلها سوري . اذاً كيف نفسر وجود المدرسة السورية التي شذت عن قاعدة الايوانات الاربع . ان تفسير ذلك كما يبدو هو انه عندما ظهرت المدارس في شمالي سورية كانت تقاليد العارة قد وطدت دعائمها ولذلك بدلاً من اتخاذ التقاليد الاجنبية واقتباسها لاجل مبانيها الحجرية فانها فضلت ان تستوحي من اسلوب بناء البيوت الخاصة المحلية وتطورت في هذا الاتجاه . فالمدرسة السلطانية كما يبدو لنا قد تكيفت حسب نموذج بناء البيوت الخاصة في شمالي سورية وهذه اقتبست اسلوبها كما قال سوفاجيه من البيوت البيزنطية في تلك المنطقة .

ويتضح من دراسة المدرسة السلطانية أنه يمكن تأكيد ما قاله سوفاجيه عن العارة الاسلامية في سورية الشمالية . فالخصائص البارزة للفن الايوبي في هذه المناطق هي تكيف التصميم وفقاً للاهداف التي وضع من أجلها ، ووضوح التعبير وبقاء التقاليد اليونانية الرومانية والتكشف والبساطة في المظهر مما يترك الحجارة ظاهرة وتمركز الزخارف في الاقسام الهامة من البناء ، واحترام الدور الذي يلعبه كل من أجزاء البناء ، ووجود الفكرة المسيطرة في الفن وهي عودة السيادة للاسلام السني . هذا الفن يفقد سيادته ونقاوته عندما يرغب المالك في الدور التالي في اظهار ثروة البناء وزخامته ولقد بدأ بناء السلطانية قبل بناء مدرسة الفردوس بعشرين سنة ولا بد أن نفس العمال اشتغلوا في بناء المدرستين وان أساليب مدرسة الفردوس قد نقلت عن السلطانية .

كتاب الزينة غير منسورة

في المدرسة السلطانية في حلب

بقلم جانين سورول نوميين تعريب وتلخيص الدكتور جورج دراد

لقد اظهرت تحريات الاستاذ لوفري في المدرسة السلطانية بحلب كتابة اثرية كانت محاولة حتى اليوم في الزاوية الشمالية الشرقية من المدرسة . وليس للكتابة صلة ببناء المدرسة نفسها ولكنها تعطينا بعض ايضاحات عن تاريخ بناء مجاور لم يكتب له البقاء .

تتألف هذه الكتابة الناقصة والصعبة التفسير من ثلاثة سطور متوسطة في حجم حروفها ضعيفة في نتوئها محفورة في حجر الزاوية على ارتفاع مترين تقريباً من مستوى الشارع الحالي . ويمكن تأريخ هذه الكتابة بناءً على أسلوبها في نهاية عصر المماليك تقريباً . وقد تعذرت قراءة السطر الثالث وهو أقصر من السطرين السابقين ولذلك تعذر الوصول إلى فهم محتويات السطر الثاني . غير أنه يمكن التأكد من نص السطر الأول وإليك ما جاء في الكتابة :

(١) هذا البيت وقف على الفقراء المغاربة المجاورين عند سيدي غوث .

(٢) وان لا يؤخذ كراهه إلا (؟) من رمضان الى رمضان ...

وقد زال البيت المذكور وكان غالباً بجوار المدرسة السلطانية . ومقام سيدي غوث الذي أصبح البيت وفقاً عليه كان في هذه المنطقة وذكره البعض أنه كان شرقي المدرسة السلطانية ويفصل بينهما طريق . وقد بني مقام سيدي غوث حسب المرويات بأمر زنكي في عام ٥٣٦ هـ ١١٤١ م ليكون ضمنه جزء من عامود عجائبي جلب من الرقة ، وهدم المقام من قبل الحكومة العثمانية في ١٣٣٢ = ١٩١٤ . وتعود شهرة هذا المقام للحجيرة التي كانت تحوي كتابة بتوقيع الامام علي وقد وضعها زنكي هناك وكان يذكرها الرحالة والمؤرخون في العصر الأيوبي كهدف من أهداف زائري المدينة . وفي شهرة هذا المقام مظهر من مظاهر موقف الامراء الزنكيين الديني تجاه أماكن الزيارة لدى الشيعة التي جعلوا السنة بالتدريج توافق عليها . وفي عصر

المالِك يبدو أن شخصية سيدي غوث اتخذت أهمية خاصة وأُنْ مسجد غوث الذي كان سابقاً مكاناً للزيارة أصبح الآن شبه زاوية يسكن فيها عدد من الصوفيين . ولا ندري إذا كان جميع فقراء هذه الزاوية من المغاربة أو إذا كانت فوائد الوقفية قد خصصت للمغاربة الذين في الزاوية .

ومما يَكن فإن هذه الكتابة تشبه بعض الكتابات الأخرى التي لها نفس الاهداف . فهناك كتابات تمنح المجاورين فوائد ومخصصات في الجامع الأزهر بتاريخ ٧٨٤ هـ وفي جامع كرك نوح بتاريخ ٧٩٧ = ١٣٩٤ من عصر قايتباي وفي المدينة بتاريخ ٨٨٤ = ١٤٨٠ . والمنحة هنا هي منحة بسيطة لجماعة من الغرباء البعيدين عن بلادهم ولا تشبه تلك المنح في مراكز الشرق الأدنى الدينية الكبرى حيث كانت توزع الأطعمة وغيرها على الساكنين والزائرين بصورة منتظمة . وعلى كل فأننا نرى في هذه الوقفية برهاناً آخر عما كان يتمتع به الآتوت من المغرب إلى المشرق من عطف في المجتمع الاسلامي في العصور الوسطى وذلك نعلمه من كتابات الرحالة الزائرين مثل ابن جبير وابن بطوطة .



مركز تحقيقات كاتبات علوم إسلامي

الموسم التاسع في حفريات ماري

الاستاذ

أندره بارو

تعريب وتلخيص من ع

وبقي علينا من العام الفائت عمل جسيم جداً. إذ أننا كنا نرغب معرفة الآلهة التي بنيت المعابد على شرفها في الحي الديني من مدينة ماري. وتحقيقاً لهذه الغاية كان يترتب أن نثر على الخابىء التدشين التي يحوي كل منها نصاً مكتوباً ويقع في ركن من أركانها. ولا يخفى أن بناء المعابد في بلاد الرافدين اعتادوا على جعل مثل هذه الخابىء في منشآتهم الدينية. كما كان يجب علينا أن نهي الكشف عن معبد عشتارات الذي يعود زمنه إلى ما قبل عهد صارغون، وأن نوضح اجزاء كل المعابد التي تعاقبت فوق بعضها في رقعة (ب ٢٥) (١). فانصرفنا في هذه السنة لتحقيق هذا البرنامج تحقيقاً تاماً. ولا ندعي أننا تمكنا من حل كل القضايا المعقدة التي يقتضيها التنقيب. لأن أرض ماري الاثرية غنية جداً. وما زالت تطالع علينا بمفاجئات كثيرة كل يوم.

وقد خصصنا منذ بداية أعمالنا فثنين من العمل للتنقيب في منطقة المعابد المجهولة الهوية. وتضع هذه المنطقة على بساط البحث قضية تعاقب تواريخها. وهي قضية صعبة الحل. لأن المعابد التي عثرنا عليها في سنة ١٩٣٨ (٢) لم تترك بين ايدينا ولا نصاً واحداً يسمح لنا بتخصيص اي منها، أو بتاريخه تاريخاً صحيحاً. الا انها واقعة في سوية أعلى من سوية المعابد ما قبل السارغونية المجاورة، وتشبهها من عدة أوجه. ثم أن هذا الشبه، لا يعني انها من عصر

(١) انظر للقال الذي نشره الاستاذ اندره بارو في المجلد السابق من مجلة الحوليات الاثرية السورية.

(٢) انظر العدد (٢١) في مجلة (سيريا) الصادر في سنة ١٩٤٠.

واحد . إذ ان النموذج الذي بنيت بحسبه انتقل من عصر الى آخر . لهذا فقد نحينا نحو هدم جدرانها كلها حتى نعثر على مخابئ التدشين فيها ، وحتى نصل إلى الطبقات السفلية . ولم تظهر لنا هذه العملية مخابئ التدشين التي أملناها ، بل انها أعطتنا أشياء أخرى وقفت على المعابد لدى بنائها . وهي من عصور مختلفة . ومنها ختم — اسطوانة من عصر أغادة (نحو ٢٤٠٠ ق.م) ، وصفيحة صغيرة من العاج تمثل محارباً على رأسه خوذة من العصر ما قبل الصارغوني (أي من النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد) ، وصفيحة من الجص ترقى إلى آخر الألف الثالث .

وألفتنا هذه الأشياء في حيرة شديدة . إذ ان الأثرين الأول والثاني يمكن أن يكونا أقدم من البناء الذي وجدنا فيه ، على حين أن الأثر الثالث يظهر أنه معاصر للأبنية التي تقبنا فيها ، وللمنصر الجصية التي وجدت في الطبقات المؤرخة من عصر سلالة أور الثالثة . ومما يكن فأكبر الظن ان المعابد المجهولة هويتها انشئت من قبل ملوك أو حكام خاضعين للسومريين . كما أن استخدام الآجر المسطح في فرش قاعاتها يدل على انها غير قديمة جداً ، بل إنها من عصر أتى بعد عصر المعابد ما قبل الصارغونية . وتلك هي النتيجة الأولى التي سجلناها في هذه المنطقة .

وكان هدفنا الثاني انهاء ازاحة التراب عن معبد عشتارات . وقد صرفنا في تحقيقه أسابيع طويلة ، وتيسرت لنا خلال ذلك عدة ملاحظات مهمة . منها أنه لم يكن هناك معبد بل معبدان متجاوران ومنفصلان ومستقلان عن بعضهما ، دون أن يكون بينهما أي اتصال . وقد دلت اجزاء التماثيل الصغيرة التي وجدت فيها السنة الماضية وهذه السنة ، على ان الشمالي الشرقي منها مخصص للربة عشتارات ، وأن الجنوبي الغربي موقوف على عبادة الربة (نيني — زازا) . وهاتان الربتان متشابهتان ، الا ان اسم الاولى سامي واسم الثانية سومري .

واطلعنا بنتيجة العمل المتقدم على فن عمارة هذين المعبدتين اللذين من العهد ما قبل الصارغوني . وقد نظم كل منها تنظيم منزل عادي . ويحوي باباً يشرف على الطريق وراءه غرفة تؤدي إلى باحة . ومن هذه الباحة ينفذ الى غرفة العبادة . ويتصل بكل هذا بعض الغرف المخصصة للطبخ وغير ذلك من الحاجات . وعلى الرغم من التهديم والحريق اللذين دمرتا

الاثاث المخصص للعبادة والأصنام (التماثيل الصغيرة ، والأواني الحجرية أو الألواح المزينة بفسيفساء من الأصداف) ، فإن بقايا هذه الاشياء وأشكال الغرف والباحثين مكنتنا من تسجيل عدة ملاحظات عملية ثمينة جداً . كما اننا التقطنا حجراً لا (يبتيل) وهو أثر مهم للغاية . اذ أننا نمتر للمرة الاولى في بقعة من بلاد الرافدين على مثل هذا الشيء المخصص للعبادة ، وكنا نظن أنه كان خاصاً بالبلاد الفينيقية والكنعانية . وهو مقطوع من الحجر البازلي . وقد استغربنا أنه لم تكن له قاعدة يمكن اركازه عليها .

وذكرنا أننا عثرنا في السنة الفائتة اثناء تنقيبنا في غرف هذين المعبدتين على أجزاء كثيرة من التماثيل الصغيرة . وقد تمكنا من إعادة تركيب عدد مهم منها . ولم يكن حظنا في هذا الموسم حظنا في الموسم الفائت على الرغم من اننا التقطنا اجزاء أخرى من هذه التماثيل الصغيرة ، وبعض أجزاء تماثيل كبيرة مهشمة تهشياً تاماً . وبينها اجزاء لثقال ملك متعبد ملتحج وبعض قطع الأصداف المخطمة . وبستغرب أنه لم يوجد بينها جزء سالم الا رأس امرأة جميل جداً ، عثرنا عليه في غرفة من غرف معبد (نيني - زازا) . وقد حمل الينا هذا الرأس تأكيداً عما نعرفه عن فن مدينة ماري ، ذلك الفن الواقعي الذي ابتدعه نحاتو هذه المدينة . فأتي مغزماً بمحاكاة الطبيعة ، وازافة طابع رقيق وارسنقراطي على ما يسجله من ملاحظات عنها .

وكانت المنطقة الثانية التي ركزنا جهودنا حولها هي التي اطلقنا عليها السنة الماضية رمز (ب ٢٥) . وقد ذكرنا أننا عثرنا في السنة الماضية على معبد دون أن نجد في هذا المعبد أي نص مكتوب يمكننا من نسبته إلى أحد الآلهة . وفي هذه السنة وجدنا في اطراف باحة المعبد عدداً من مخابىء التندشين فيها تسع لوحات كبرى وعلى كل من هذه اللوحات نص كبير يحوي ١٥٧ سطراً . وقد تمكن الاستاذ (دوسان) قارئ الخطوط في بعثتنا من قراءة هذا النص في يوم واحد ، وهو يتضمن اسم الملك الذي انشأ المعبد المذكور وهو معبد للآله (شماش) . وهذا الملك هو (ايهدونليم) الذي يتحدث في النص المذكور بلغة شعرية رائعة عن اعماله السياسية والعسكرية الباهرة .

ووجدنا إلى جوار مخابىء التندشين المذكور ستة مخابىء أخرى لم نجد فيها إلا مسامير من البرونز مغروسة في الأرض بعد ان تحترق لوحات برونزية . وكشبهه اشكال هذه المسامير

اشكال المسامير التي عثرنا عليها في زوايا مصد الربة (فينهور ساغ) والتي امكن نسبتها بفضل كتابات هذا المعبد إلى عهد سلالة أور الثالثة . ومن هذه المسامير مساران . احدها طويل وهو من النحاس والى جانبه آجرة مسطحة عليها بعض حبات ذهبية وعقيقية . والثاني مفروس في حلقة مسطحة ويشبه ما وجدنا في مخايء التدشين في معبد عشتار الذي يعود عهده الى قبل عهد صارغون . وقد عثرنا على هذا المعبد في موسم ١٩٣٤ - ١٩٣٥ . ولا يمكن ايضاح هذا الاختلاف في عهود المسامير المذكورة إلا بأن الملك (ايهودنليم) استخدم لدى انشاءه معبد (شماش) مخايء للتدشين يرق عهدها إلى زمن أقدم من زمنه .

وفي الواقع إن معبد (شماش) لم يكن يتألف من باحة واحدة فقط بل من عدة قاعات أخرى ايضاً . وكنا نتوقع أن نجد هذه القاعات بسهولة . فأخطأنا في تقديرنا . إذ أن التخريب الذي تعرض له هذا المعبد يفوق الوصف . وقد التقطنا حطاماً من التماثيل المهشمة ، واللوحات العاجية (بينها مشهد يمثل نحر الكباش) ، والآنية الحجرية .

ولم تلبث الحفريات أن وضعنا أمام لغز محير . لأنه ظهر تحت بناء معبد (ايهودنليم) بناء أقدم منه . وقد ثقت أرض هذا البناء وجعلت فيها حفرة واسعة (٣٨٠ م × ١٨٠ م) مملوءة بالتراب والحصى ، وعمقها ٥٩٠ م ، وأرض قعرها مملوء بالآجر المكسور . وظللنا نحفر حتى وصلنا إلى الأرض المذراء على عمق ٧٩٠ م . وكان من نتيجة هذا العمل ان عرفنا عمق الطبقة ما قبل الصارغونية في ماري (أكثر من ستة أمتار) ، وان التقطنا على عمق (٧ - ٧٩٠ م) وثائق من عهد يرجع إلى ما قبل التاريخ في بلاد الرافدين ، لم نصل اليها ابداً من قبل في ماري . ومن هذه الوثائق بعض كسرات الفخار المكسور وإثناان صغيران رماديان مزينان بزخارف محفورة . وكلها شبيهة بما وجد في طبقة نينوا الخامسة أو في شاعر بازار . وهي تدل على وحدة حضارية بين وادي الخابور والفرات الأوسط ، ودجلة الأعلى .

وليس يعلم لماذا حفرت الحفرة المتقدمة ، ويظهر أنها ردمت في زمن ملوك ماري المتأخرين أصحاب قصرها الملكي . كما ان الملك (ايهودنليم) غطاها بكتلة كبيرة من الآجر غير المشوي واحاطها بتسع مخايء للتدشين دون حساب المخايء السابقة ، وجعل هذه المخايء حولها كأنها تنموج حول نعل . ويمكن ان يفرض أن هذه الحفرة كانت قبراً من قبور الملوك القدماء ، أو أنها ما يسمى (جيفونو) وهي بناء غامض لم تعرف هويته تماماً .

وعثرنا في هذه المنطقة أيضاً شمالي معبد (شماش) على بناء من الطوب مربع تقريباً (١٥٣٠ م × ١٤٣٠ م) ، له واجهات مزينة بدعائم ومستنات ، وارتفاع جدرانها (١٩٠ م) تقريباً . وتختلف هذه الواجهات عن بعضها . إلا أنها تؤلف كلاً منسجماً . ولم يظهر أي باب لهذا البناء . الا أنه يمكن أن يكون له رواق في جهته الغربية الجنوبية . ويوجد في داخل هذا البناء غرفة (٥٤٠ م × ٢٣٠ م) ليس لها أي مدخل . وقد أفرغناها تماماً ، فلم نثر فيها إلا على بعض كسرات الفخار . وتحت ارض هذه الغرفة المبنية من الطوب طبقة من العهد ما قبل الصارغوني . أما البناء نفسه فيظن أنه من عهد القصر الملكي أي من فاتحة الألف الثاني قبل الميلاد . ومهما يكن فإنه ليس لدينا أي دليل يجعلنا واثقين تماماً من ذلك . وإننا نأمل أن نجد يوماً مخابئ تدشين في هذا البناء الذي يعد من أحسن الابنية المصانة بعض الشيء في ماري ، حتى نخرج من حيرتنا هذه .

وكنا نقبنا خلال سنة ١٩٣٨ في معبد الربة (نينهورساغ) الذي يتصل من الشمالي الشرقي بمعبد (شماش) بجدار . وظهر لنا فيه عدة طبقات متعاقبة تتدرج من أعلى إلى أسفل بين عصر القصر (فاتحة الألف الثاني قبل الميلاد) والعهد ما قبل الصارغوني . وفي هذه السنة عدنا إليه ، ونقبنا في اقدم طبقة فيه وهي الطبقة ما قبل الصارغونية . فوجدنا أنها متأثرة من تدمير مزج كل معالمها حتى لم يعد يعرف إذا كانت الجدران فيها من الطين أو الطوب . ومهما يكن فإن هذا المعبد (معبد الربة نينهورساغ) لا يقل غنى عن المعبد المجاورين معبدي (عشتارات ونيني - زازا) أو عن معبد (شماش) . وكنا التقطنا فيه سنة ١٩٣٨ بعض اجزاء التماثيل والاصداف . أما هذه السنة فلم يكن من حظنا إلا بعض قطع الاحجار التي تمثل أبواب (الكوناكس) لبعض التماثيل ولبعض حطام التماثيل المصنوعة من القار . وخلاصة القول إن هذا المعبد لم يكشف عنه تماماً من جهته الشمالية ، لأن قسمه هذا واقع تحت معبد (داغان) وقد عثرنا حذاء هذا الأخير على ورقة ذهبية تشبه الورقة التي عثرنا عليها هنا سنة ١٩٣٨ . ويظهر أنها جمعت بدلاً عن اشياء أقدم منها : واخيراً فإن الأيام الأخيرة من هذا الموسم أعادتنا الى منطقة المعابد المجهولة الهوية التي افتتحنا فيها كما ذكرنا اعمال هذه السنة .

وقد حققنا أيضاً رغبتنا بإجراء عدة أسبار في مناطق التسل التي لم يكشف عنها

بعد . ونجحنا في نقطتين ، وشاهدنا فيها تماقب منشآت تقابل عهود ماري المختلفة من آشورية وبابلية أولى وما قبل الصارغونية ، بالإضافة الى ما يشهد على آخر عهد من حياة المدينة ، وهي مقبرة سلوقية . وقد كثرت القبور خاصة في نقطة (ر ٢٨٠) إلا انها قبور فقيرة ، أما في المنطقة (ل ٣٥٠) فإننا انحدرنا الى عمق (٦٠ و ٢٠ م) القريب من ارتفاع السهل المجاور ، فشاهدنا عدة ابنية فوق بعضها . وكنا نأمل العثور على قطعات من الفخار المحفور ، إلا أن هذا الأمل لم يتحقق ، ولم نجد إلا بعض الفخار ما قبل الصارغوني ، وعدة أشياء برونزية بالية . وتحققنا هنا أيضاً عمق الطبقة ما قبل الصارغونية ، كما كان ذلك في حفرة معبد (شماش) . ولا بد أن يؤثر هذا التحقق على تقرير مدة هذا العهد التي تمتد عادة بين نهاية عهد حمده نصر ، وعهد الأغاديين

هذه هي نتائج الموسم التاسع للتنقيب في ماري . ويرى مما تقدم أن هذا الموسم يختلف تماماً عن المواسم السابقة . وهو وإن كان افقر من غيره بالأشياء الفنية ، فإنه أغنى منها جميعاً بأهمية المعلومات الدينية والمعمارية التي وفّرها لنا . وظهر بنتيجته أيضاً عدة معابد من العهد ما قبل الصارغوني بحالة تامة بما فيها من تقسيمات داخلية . كما ان حجراً للبيتيل وجد في باحة معبد (نيني — زازا) . وأخيراً فقد قدم لنا (ايهدونليم) صفحة رائعة من أجمل صفحات الأدب المسماري

اندره بارو

مركز تحقيق كاتوير علوم إسلامي

دراسة عن بصره موقع في سورية الشمالية وكتابات الأثرية

بقلم : جانين ودومينيك سوردل

تأليف وتحرير : جورج حداد

١ - كتاب كوفية جديرة في حاص : يستفاد من كتابتين مؤرختين في عام ٤٥٦ م (١٠٦٤ م) ومن وجود جامع قديم في قرية حاص الواقعة في جبل الزاوية في جنوب غربي معرة النيمان ان هذه القرية كانت موجودة في العصور الوسطى وتمتعت بأهمية نسبية . يضاف الى ذلك وجود كتابة اكثر قدماً لم تتصل بالعالم ليمان عند مروره في هذه المنطقة . وهذه الكتابة الآن على حجر مربع في اسفل الجدار الخارجي لمزار باسم سيدي احمد وقد نقشت بالكوفية انما تدل على قلة مهارة الذي كتبها . وقد جاء فيها : انشأ هذا المسجد هشام بن محمد وذلك في شهر رمضان من سنة اثنتين وثلثين وثلث مائة . . . لك الا هو والثواب رحم الله من سما . . . وكتبه المار بن ايوب . . . ونجد في الكتابة مجزات الكوفية البسيطة التي كانت معروفة في سورية منذ العصر الأموي . ولا ندري الاثر الذي تتصل به هذه الكتابة كما ان مؤسس المسجد ليس معروفاً ولا بد انه يتصل بالتاريخ المحلي ولم يذكره مؤرخو ذلك العصر .

٢ - دبر النفيرة وتعيين موقع قبر عمر بن عبد العزيز : يشير عدد من المؤرخين العرب في العصر الأيوبي الى ان قبر الخليفة عمر بن عبد العزيز في مكان قريب من معرة النيمان انما لا يتفقون على تسميته . على ان الايضاحات التي يعطونها ودراسة اسماء الاماكن في المنطقة المتصلة بهذا المكان تساعد على تعيين الموقع على وجه التقريب . فقد ذكر المؤرخ

ابن واصل (المتوفى ٦٩٧/١٢٩٨) اقدم تمييز لمكان قبر عمر في قرية اسمها دير النقيرة ويقول ان صلاح الدين مر بها في عام ٥٨٤/١١٨٨ وزار الشيخ المتصوف أبو زكريا المغربي كما زار قبر عمر بن عبد العزيز بطريقه من حلب الى معرة النعمان ثم الى حماة . ويروي ابن الوردي نقلاً عن ابن واصل ان دير سيمان هو المكان المعروف اليوم بدير النقيرة في منطقة معرة النعمان ويضيف الى ذلك انه زار القبر عدة مرات بعد ان جمع معلومات من سكان المعرة وانه رأى على القبر كتابة تختصر حياة الخليفة الاموي وتشيد بصفاته . وهناك ثلاثة مؤرخين من العصر الايوبي يعتبرون قبر عمر بين اماكن الزيارة في منطقة حلب واولهم الهروي (توفي ٦١١/١٢١٤) الذي يجعل القبر في دير النقيرة ويقول ان هناك رواية اخرى تجعل قبر الخليفة في دير سيمان وان هذه الرواية أكثر انتشاراً . وبعد مدة يقول ابن شداد (توفي ٦٨٤/١٢٨٥) نقلاً عن ابن العديم (توفي ٦٦٠/١٢٦٢) ان قبر عمر بن عبد العزيز موجود في دير سيمان وهي قرية قريبة من المعرة وتعرف ايضاً بدير النقيرة وبقرب قبر الخليفة قبر الشيخ ابو زكريا يحيى بن منصور . اما ياقوت (توفي ٦٢٢/١٢٢٩) فانه لا يتمكن من التوفيق بين مختلف الروايات فيقول ان دير النقيرة على مرتفع قرب المعرة هو المكان الذي يقال ان فيه قبر عمر بن عبد العزيز ثم يقول ان القبر بالحقيقة في دير سيمان في منطقة دمشق وكذلك قبر الشيخ أبو زكريا يحيى المغربي . وفي مكان آخر يقول ياقوت ان قبر عمر بن عبد العزيز في دير مران على مرتفع قرب المعرة . كذلك جميع مؤرخي عصر المماليك يعتبرون ان قبر عمر قرب المعرة فالقلقشندي يقول في دير سيمان وخبيل الظاهري في دير مران والعمرى في البقرة (وهي النقيرة التي كتبها النساخ خطأ) وابن بطوطة يقول على فرسخ من المعرة .

وعلى ذلك فقبر عمر بن عبد العزيز الذي كان موضع زيارة في القرنين الخامس والسادس الهجريين يقع قرب المعرة في مكان يدعى دير النقيرة أو دير مران أو دير سيمان على مرتفع يشرف على كفرطاب أي خان شيخون اليوم . ودير النقيرة معروف باليونانية باسم نيكركتاي واصله من السريانية قيرتا ويؤيد وجود هذه الاسماء وثائق قديمة . وفي هذا المكان قرب المعرة بني دير لسيمان من قبل رجل اسمه آغا يتوس وهذا اصل الاتصال بين اسمي النقيرة ودير سيمان . ويقول سوفاجيه ان النقيرة هي موقع قيراطه القريب من معرة دبي . ومن جهة

أخرى فإن الخريطة تذكر مكاناً اسمه قيراطه وقربه مرتفع يسمى تل عمران ولكن السكان يعرفونه كما تبين لنا باسم تل مران ومن قمته تشاهد بلدة خان شيخون . ولذلك فانه يمكن القول ان هذا التل هو تل مران أو دير سيمان المذكورين في كتابات مؤرخي العصر الايوبي . ويقول جيب الزيات الذي بحث عن اديرة دمشق وضواحيها ان قبر عمر بن عبد العزيز كان قرب دمشق في مكان يدعى دير سيمان ولكن حجته ليست مقنعة . ويذكر البكري (متوفى ١٠٩٤/٤٨٧) ان عمر توفي في خناصره ودفن في دير سيمان من أرض المعرة ، واقدم من يذكر قبر عمر هو المسعودي (توفي ٩٤٦/٣٤٥) الذي يقول انه توفي في دير سيمان في منطقة حمص التي تجاور بلاد قنسرين . واخيراً فان اليعقوبي يذكر بان عمر غادر دمشق الى حمص وعندما مرض اراد الذهاب الى دير سيمان حيث كانت له أرض ورثها من امه . ان معظم هذه النصوص تنفي فكرة وجود القبر في دير قرب دمشق ولا نجد لزوماً للشك بقول المؤرخين الحلبين من ان القبر كان في دير النقيرة أو دير سيمان أو تل مران قرب المعرة .

٣ — **مشهد الرجم في عندان** : يشير ابن شداد بين اماكن الزيارة القريبة من حلب الى مكان بهذه الكلمات : « مشهد الرجم في منطقة آرال (٩) بقرب عندان . . . يزوره الناس ويتبركون به وفيه سرداب يقال ان فيه مدفن نبي رجمه قومه في هذا المكان » . ويروي ابن العديم الرواية نفسها التي نقلها عنه غالباً ابن شداد ويضيف الى ذلك ان التل الذي يقع عليه المشهد هو في القسم الشرقي من جبل سيمان . وقد ذهبنا الى تلك المنطقة فوجدنا بموجب الخريطة انه في غربي عندان يوجد مرتفع يسمى «زيارة النبي راميا» (٩) . وشاهدنا في احدى غرف هذا المزار خندقاً يوصل اليه بسلم صنيبر وقد يكون هو السرداب الذي ذكره ابن شداد ولكن السكان لا يعرفون الاسم القديم ولا الاسم الموجود على الخريطة . وقد يكون الموقع مكاناً قديماً للعبادات السامية حيث كانوا يمارسون الرجم على شرف احد المدافن ومن ثم فان الرواية على ما يظهر حولت اخبار بعض الطقوس الممارسة قديماً الى رواية قصة رجم احد الانبياء .

٤ — **كتابة كوفية مزخرفة في مسعدة** : يذكر عسدد من الكتاب العرب في العصر الايوبي موقع اشعلة وهو في جنوب غربي اعزاز ومشهور بمجال بساينه كما قال ابن شداد كما

انه معروف كمكان للزيارة لوجود قبر احد اخوة النبي داود . وقد زرنا هذا الموقع وتأكدنا من وجود المزار بمشاهدة كتابة اثرية تدل على ذلك . ففي قمة تلة تشرف على وادي عفرين وعلى بساتين مشعلة التي اخذ الناس يطلقون عليها اسم كفر جنة يوجد بناء متواضع تعلوه قبة وفي داخله محراب . واسم المزار الحالي الشيخ منان وفوق مدخله كتابة كوفية هذا نصها : « ما عمره الحسن بن ابراهيم رحمه الله ورضي عنه وعن والديه » . وليس هنالك تاريخ كما ان الشخص المذكور لا يعرف عنه شيء غير انه يستدل من نوع الكتابة انها من القرن السادس الهجري ومن منطقة حلب وتشبه الكتابة الانيقة في بعض مباني حلب كذلك التي تحيط بمأذنة الجامع الكبير كما انها تشبه الكتابة على قبر بلق الارطقي الذي ارسل بعض جيوشه حسب قول ابن العديم الى منطقة مشعلة . وقد يكون الحسن بن ابراهيم احد ضباطه وهذا ما جعل الكتابة متفقة مع التقاليد التي عرفها تطور الكتابة الكوفية الحلبية .

٥ - مرسوم جبرير من عهده المماليك في قلعة حلب : وجد هذا القرار في قلعة حلب فوق باب الحيات ولم يكن معروفاً منه عندما ذكره زوبرنهايم في ١٩٢٦ سوى قسم من آية قرآنية وتاريخ . ومع ذلك فان بعض سطورہ بقيت غامضة وغير مقرؤة . واليك الكتابة التي امكن قراءتها : « ... المقر العالي المولوي الملكي السني مصر باي الناصري عين مقدمي الالوف بالديار المصرية ونائب القلعة الحلبية المحروسة اعز الله انصاره بإبطال ما كان يجدهم وعلى الفقراء والمساكين من القيام سبع مائة درهم في كل . . . نائب القلعة . . . فمن بدله بعدما سمعه فان اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم » في ثامن رجب سنة ثلاث وتسع مائة . وقد تمكنا من معرفة اسم نائب القلعة بالرجوع الى تاريخ ابن اياس الذي تولى النيابة في عام ٩٠٠ هـ وتوفي عام ٩٠٣ هـ . أما موضوع المرسوم فلا يمكن معرفته بالتأكيـد غير انه غالباً يضع حداً لسوء التصرف بواردات خصصت لتنفق على اصحاب الطرق وغيرهم .

٦ - بعض ايضاامات تتعلق بكتابات جامع الباب من عهده المماليك : يرجع جامع الباب كما يبدو الى عهد المماليك بالرغم من الترميمات التي حصلت في العهد العثماني . وفيه مأذنة مربعة الشكل تشبه المآذن المجاورة في تادف وبزاعة المؤرخة في ٧٥٥ و ٧٥٦ هـ . وهنالك بابان
(١٧)آ

عليها كتابات بحالة سيئة على اننا لم نتمكن من مشاهدة ما ذكره فان برشم وفون اوبنهايم عن وجود باب شمالي وباب غربي عليها كتابات لأن الابواب الحالية تتجه نحو الغرب ونحو الجنوب ولذلك رأينا ان نعطي لائحة هذه الكتابات بموجب الترتيب التالي : اولاً كتابات الباب الغربي وهي غير واضحة ولا يمكن ان نقرأ منها سوى بضع كلمات تتعلق بتاريخها وهو ٨٥٣ هـ وتفيد انها كتبت في عهد قانباي الظاهري الذي كان حاكم مقاطعة حلب بين ٨٥٢ و٨٥٨ هـ في عهد الملك الظاهر جقمق واخبار هذا الحاكم المذكورة في تاريخ ابن تغري بردي . ثانياً كتابات الباب الجنوبي معظمها غير واضح غير ان الكتابة الكائنة الى جهة اليمين امكن قراءة قسم منها وقد جاء فيها : « بسملة بتاريخ العشر الآخر من رمضان المعظم سنة خمس وسبعين وسبعمائة حل الركاب الكريم العالي المولوي ملك الامراء ... المالكي المخدومي السيفي سيد الملوك والساطين سيف امير المؤمنين يدمر الخوارزمي الاشرفي كافل المالك الشريفة الحلبيّة المحروسة ملائ الله تم صحائفه بالاجور ورفع ... الباب المعمورة وزاعا الى مسامحه الكريمة ... » يتعلق هذا المرسوم غالباً بتخفيف اعباء الضرائب عن احدى المناطق من قبل الحاكم الذي مر فيها بناء على طلب سكانها . ولا شك ان القسم الذي تمذرت قراءته يحوي تفاصيل هذه التدابير المتعلقة بتخفيف الضرائب . على ان من أهم فوائد هذا النص انه يذكر الحاكم يدمر الخوارزمي الذي كان يقوم بحولة في منطقة حكمه . ويستفاد من تاريخ هذا المرسوم ومن معلوماتنا الاخرى ان يدمر حكم حلب للمرة الثانية اربعة شهور . وعما يستلفت النظر استعمال تعبير « سيف امير المؤمنين » بدلاً من « قسم امير المؤمنين » وهذه العبارة الاخيرة كانت يستعملها السلاطين فقط .

وهناك كتابة على الجهة اليسرى تقع في سبعة سطور ولكنها زالت تقريباً ولم يبق الا ذكر تاريخ ٨٩٠ هـ . وعلى الجانب الايمن نقش في سبعة سطور ناقصة جاء فيها : « رسم بالامر العالي اعلاه الله تع ... اعز الله انصاره ... لعنة الله على ... اعز الله انصاره بان لا ... التاسع عشر من شهر شوال سنة ثمان وخمسين وثمانمائة ... الامر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري السيفي اينال ... » ويبدو من لغة القسم الأول من هذا النص وورود ذكر « الامر العالي » ان المرسوم قد اصدره حاكم الباب ولا ندري اسمه ، ولكن

العبارات الواردة فيما بعد تذكر امراً سلطانياً مما يحملنا على الظن بأن مرسوم الحاكم المحلي قد وضع بناء على اوامرات من القاهرة وعملاً بها .

ومن جهة اليمين ايضاً نشاهد سنة سطور كتبت بحروف كبيرة ولكن الكاس يغطي قسماً منها . وقد جاء فيها « امر بإبطال ... مولانا السلطان الملك المؤيد شيخ اعز الله انصاره ومولانا ملك الامراء ... وهو ابطال ... وذلك في سنة ست عشر و ٥٠٠٠٠ » . ان تاريخ هذا النص هو ٨١٦ هـ لأنه من عهد السلطان الملك المؤيد شيخ الذي حكم بين ٨١٥ و ٨٢٤ هـ . أما الأمر الذي اراد هذا النص ابطاله من قبل سلطة مزدوجة فهذا نجمله .

ان هذه المراسيم بالرغم من صعوبة قراءتها وعدم وضوح جميع تفاصيلها تعطينا فكرة عن أهمية مركز الباب الادارية في عهد المماليك . وقد استمرت كتابة المراسيم والقرارات على ابواب الجامع الكبير مدة قرن كامل واليك ترتيبها التاريخي :

٧٧٥ تداير بيدمر حاكم حلب عند مروره في منطقة الباب

٨١٦ مرسوم السلطان مؤيد شيخ وحاكم محلي .

٨٤٠ ؟

٨٥٣ نص باسم قانباي حاكم حلب وهو مرسوم بناء .

٨٥٨ مرسوم حاكم محلي تنفيذاً لأمر سلطاني .

٧ - تاريخ بناء مأذنة بالاس : لقد وصف فان برشم بعض الكتابات الموجودة على مأذنة بالاس

القديمة قرب مسكنة وتقع في اربع حواش كتابية . ويدل اسم السلطان الابوي المذكور في اول كتابة من الاسفل ان تاريخ بناء المأذنة هو في عهد السلطان المذكور بين ٥٨٩ و ٦١٥ (١١٩٣ - ١٢١٨) . وفي الواقع فان التاريخ الحقيقي قد نقش في الكتابة الثانية بالكوفية ولكن من عهد فان برشم لم يكن أحد قد قرأها وقد ذكر فيها « بسم الله الرحمن الرحيم جددت هذه المأذنة سنة سبع وست مائة » . ويمكن التأكيد الآن ان الملك العادل كان يحكم بالاس في عام ٦٠٧ وان الملك الظاهر غازي الذي كان يحكم حلب قد تخلى عن بالاس قبل موته في عام ٦١٣ . وترتيب الحواشي الكتابية في المأذنة هو كما يلي من الاسفل :

الكتابة ١ بالخط النسخي تحوي اسم السلطان والمعمار .

الكتابة ٢ بالكوفية على آجر وتحوي تاريخ البناء

الكتابة ٤ بالكوفية على الآجر وفيها مدائح وتعايير تبدو شيعية .

أما نص الكتابة الثالثة وهو بالكوفية المزخرفة فقد استحوذت قراءته فيما سوى نص البسملة . وما تمتاز به المأذنة انسجام اناقة هذه الزخرفة الكتابية المؤلفة من حواشي متتابعة مع شكل المأذنة المئمن المستقيم . وتمثل هذه المأذنة ومأذنة سنجار المعاصرة اسلوب بناء المآذن العراقية الذي كان شائعاً في القرن السابق تحت تأثير الفن الايراني السلجوقي ويمكننا ادراك التطور العظيم الذي حصل منذ بناء تلك المأذنة المستديرة في الرقة في جامع نور الدين . ويعطينا هذا الاتقان في العمارة والزخرفة فكرة عن أهمية بالس في تلك المصور . وقد دلت اعمال السبران جامع بالس كان مزداناً في القرن الخامس (الثاني عشر م) بزخارف نباتية وكتاتية والواح جميلة جداً . واننا نؤمل ان تنجح الابحاث الى هذا الموقع المهم للدراسة مراحل تطوره .



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم راسدي

قصر الديبراطور ديوقليسيان في انطاكية

بقلم : مهناجيل دوني

تصريب وتلخيص : جورج حداد

عندما بدأت حفريات ١٩٣٢ - ١٩٣٩ في انطاكية لم يكن بالامكان ان تشمل الحفريات المنطقة التي يقع فيها قصر ديوقليسيان . وتجبرنا النصوص الأدبية عن خصائص هذا البناء الرئيسية ولنا الأمل ان يثر الباحثون يوماً ما على بقايا هذا القصر وسنعرض الآن الى البراهين المتعلقة بالبناء خاصة وانه لا توجد دراسة تجمع النصوص الادبية التي تذكره .

اقد زار ديوقليسيان انطاكية مرات متعددة واقام فيها في ثلاث مناسبات على الأقل . وقد يجوز انه توقف في انطاكية اثناء رحلته الى المناطق الشرقية في ربيع وخريف ٢٨٦ وبعد اربع سنوات قام برحلة الى سورية في طريقه لمحاربة البدو ونعلم انه زار انطاكية في ٦ أيار ٢٩٠ كما انه كان في حمص في ١٠ ايار . وفي ٢٩٧ هاجم الملك الساساني نرسيس سورية وقهر القيصر غاليريوس واتى ديوقليسيان والتقى بغاليريوس في انطاكية في اواخر تلك السنة وقضى شتاء ٢٩٧ - ٢٩٨ فيها كما يبدو . وتمكن غاليريوس من قهر الفرس في ٢٩٨ واحتفل ديوقليسيان وغاليريوس بهذا الظفر في انطاكية ونقشت مشاهدته على قوس النصر الذي اقامه غاليريوس في تسالونيكا . وكما يبدو من مشاهد هذا القوس فان قصر ديوقليسيان في انطاكية كان قد بني في ذلك العهد . وقد بقي ديوقليسيان في انطاكية بمدد الفوز على الفرس وقضى فيها شتاء ٢٩٨ - ٢٩٩ وهناك منشور يظهر انه كان موجوداً في المدينة في ٥ شباط ٢٩٩ كما انه جعل انطاكية مركز عماله في عامي ٣٠٠ و ٣٠١ وتدل البراهين انه كان فيها في ١٢ شباط و ٢٦ آذار و ٢٥ حزيران عام ٣٠٠ وفي ٤ تموز ٣٠١ .

شيد ديوقليسيان عدداً من الابنية في انطاكية وأهمها القصر . وقد وصف ليبيانيوس خطيب انطاكية هذا القصر في خطبته الشهيرة التي امتدح فيها مدينته بمناسبة الالعب الاولمبية في عام ٣٦٠ . وذكر الجزيرة في العاصي التي كان يقوم عليها القصر ، وتكلم عن الغرف والاروقة والقاعات المتعددة وقال ان القصر يحتل قمماً كبيراً من الجزيرة . وأتى المؤرخ ملالاس على ذكر هذا القصر العظيم أيضاً ولكنه لم يتكلم عن موقعه ومخططه . ولا ندري اذا قام على انقاض قصر سابق للإباطرة كما اتنا لا نعلم شيئاً عن القصر الملكي الذي كان يقيم فيه الملوك السلوقيون . في انطاكية . والمؤرخ الكنسي تيودورث يذكر الرواق الكائن على الجهة الشمالية للقصر مقابل النهر ويقول انه كان ينتهي ببرجين في طرفيه وانه كان يوجد طريق بين القصر والنهر كما كان يمكن الذهاب من باب المدينة الى الضواحي بواسطة جسر على العاصي .

ويشاهد موقع القصر في مخطط المدينة المنشور هنا (شكل ١) ويقول ليبيانيوس انه كان يشغل المساحة الواقعة بين وسط الجزيرة وبين الفرع الغربي أو الخارجي للنهر . ويشهد ليبيانيوس وتيودورث ان القصر كان له رواق يطل على النهر والضواحي التي وراءه . وقد اظهرت الحفريات في القسم الجنوبي الغربي من الجزيرة ان القصر لم يكن هناك . والبقايا التي وجدت هي الحمامات والاغلب ان موقع القصر كان في الجهة الشمالية القريبة من الجزيرة حيث لم تجر حفريات حتى الآن . وقد امتلأ الفرع الداخلي أو الشرقي للنهر ويمكن مشاهدة بقايا الجسور التي كانت تربط المدينة بالجزيرة . والقسم الشمالي الغربي كان يمكن ان يحوي قصراً كبيراً يشبه بانساعه قصر سالونا ومقياسه نحو ١٧٩ × ٢١٦ متراً .

ومخطط القصر العام يمكن معرفته من وصف ليبيانيوس . والرواق المعمد الذي يذكر انه تجاه النهر يذكر بالرواق الذي يشرف على البحر في قصر سالونا . والقوس التذكاري الذي بناه غاليريوس في تسالونيكا يربنا (شكل ٣) ديوقليسيان وغاليريوس بقدمان الضحايا عند مذبح يقع أمام رواق معمد مؤلف من اعمدة لها اقواس تشبه تلك التي يحتويها قصر ديوقليسيان في سالونا . وبما ان انتصار غاليريوس في ٢٩٨ قد احتفل به في انطاكية فان من المحتمل ان يمثل الرواق المعمد الظاهر في قوس سالونا رواق قصر ديوقليسيان في انطاكية ويمكن تأريخ بناء قصر انطاكية على هذا الشكل في ٢٩٨ . وهناك ما يدل ان القصر قد بني على اسس

وضعها الامبراطور فاليريان في ٢٥٦ وكان هذا الامبراطور قد حدد بناء انطاكية بعد ان خربها
الفرس عقب احتلالهم لها في ٢٥٣ على انه من المستبعد ان يكون فاليريان قد استخدم وارداته
لبناء قصر في انطاكية في تلك الظروف وقد يكون اراد بناء حصن على الجزيرة فلما
اتى ديوقليسيان ورأى البناء في بدئه شيد قصراً وكانت النتيجة تشييد بناء من النوع الموجود
في سالونا .

ومن الامور الهامة ان القصر في انطاكية مجاور لمكان سباق الخيل الذي وجد على
الجزيرة منذ القرن الاول ق.م وهذا يشبه ترتيب الابنية في القسطنطينية حيث بنى قسطنطين
قصره قرب ميدان السباق الذي شيده سبتيموس سيفيروس وفي تسالونيكا حيث بنى غاليريوس
عندما اصبح امبرطوراً في عام ٣٠٥ قصراً مجاوراً لميدان السباق وفي طرفه الغربي كما في انطاكية .
وكانت الحفلات والمشاهد في ميدان السباق تلعب دوراً هاماً في حياة الامبراطور السياسية والرسمة
حتى انه كان من الضروري ان يكون القصر والميدان مجتمعين . والبراهين تجعل من المحتمل
ان يكون قصر سالونا قد بني حسب اسلوب قصر انطاكية . على انه من جهة اخرى يمكن
القول ان اسلوب بناء القصرين كان شاملاً بحيث انه ليس من الضروري ان يكون اثر اسلوب
الواحد على الآخر . فالتقاليد الحربية التي كانت تحيط بديوقليسيان حملته على بناء قصور من
هذا النوع بصورة طبيعية .

ومن الاهمية بمكان ان نذكر ان هنالك اختلافاً في الرأي حول ما اذا كان البناء الذي يشبه
المعسكر في تدمر هو معسكر دائم او قصر ديوقليسيان . وقد وجدت كتابة اثرية تشير الى
البناء باسم « كاسترا » وفسرت هذه الكلمة انها تعني معسكراً دائماً بالرغم من ان « كاسترا »
تعني كل مكان استخدمه الامبراطور للسكن بصورة مؤقتة . ومما يكن فانه يبدو ان ديوقليسيان
لم يهتم بتشيد قصر في تدمر باعتبار ان الوقت القصير الذي يقضيه هو او حلفاؤه هناك لم يستوجب
بناء مثل هذا القصر وتشير الدلائل الاثرية الى ان البناء كان معسكراً وكان تاريخ بنائه بين
٢٩٢ و ٣٠٤ .

لقد ذكرت الطرق المؤدية الى القصر في انطاكية مرات عديدة . فالخطيب ليانيوس يذكر
شارعاً معمداً بين مركز الجزيرة والقصر . والامبراطور يوليانيوس المرتد (٣٦١ - ٣٦٣ م)

نشر كتابه ضد سكان انطاكية عند « باب الفيلة » قرب « الشارع الملكي » الذي كان يدخل منه الى القصر . وكان يعلو الباب المؤلف من اربعة اقواس تمثل على ما يبدو وتظهر فيه الفيلة تجر عربة نصر . ويستعمل ملاس تعبير « ريجيا » ليعني به الشارع القصير الممعد المؤدي الى القصر وربما كان باب الفيلة واقفاً عند ملتقى طرق الشوارع الاربعة في الجزيرة واحداها الشارع الملكي . ويصف رحلة صيني في كلامه عن انطاكية الابواب الثلاثة المتتابة للقصر كما يصف الساعة المائية في أعلى الباب الثاني . كذلك لدينا ما يمثل هذا القصر في حاشية الفسيفساء المشهورة التي وجدت في ضاحية دفنة ونحوي وصفاً طبوغرافياً للمدينة وهي الآن في متحف انطاكية (شكل ٤) . وهذه الحاشية الطبوغرافية المصنوعة من الفسيفساء والمؤرخة في اواخر القرن الخامس م هي مرجع هام لطبوغرافية انطاكية القديمة لانها تشرح لنا ما يجده المسافر في سيره من القسم الشمالي من انطاكية الى منابع دفنة . وفي قسم من الحاشية سلسلة من المباني رأى فيها أحد العلماء تمثيلاً للجزيرة . ومن جملة هذه المباني واجهة القصر المؤلفة من رواق معمد على طابقين . وكذلك كنيسة قسطنطين الثمينة وميدان خاص للسباق . وقرب القصر حي توريانا وفيه تمثال ينتصب على عامود . وعلى ذلك فان واجهة القصر قد حفظت لنا مع سائر المباني الموجودة في انطاكية القديمة .

حفريات رأس شجرة - (اروغازيت)

الموسم السابع عشر (١٩٥٣)

للكنور ف . أ . سيفر

عضو المجمع العلمي الافرنسي ومدير حفريات رأس شجرة

تلخيص وتعليق س . ع

انقضى الموسم السابع عشر لحفريات رأس شجرة بين شهري ايلول ونشرين الثاني للعام ١٩٥٣ وجرت أعمالنا تحت رعاية الحكومة السورية السامية . وكانت معظم هذه الاعمال تستهدف التنقيب في قصر المدينة الملوكي ، وتنفيذ في القسم الاوسط منه بعناية فائقة ، وحذر شديد ، بسبب تبعثر الاشياء الاثرية الصغيرة ، وخاصة اللوحات الفخارية المسماة ، بين الانقاض (١) .

وقد وصفنا في بحثنا السابق (٢) المدخل الرئيسي للقصر ، وقاعاته الواقعة في جناحه الشمالي ، اعتباراً من قاعات السجلات الواقعة في الزاوية الشمالية الشرقية إلى المدفن الملكي المنسوب الواقع تحت قاعتين متصلتين في وسط هذا الجناح . وظهر لنا منذ بداية التنقيب في هذا القصر أن أبعاده ضخمة ، إلا أننا لم نكن نتوقع أبداً أن سعته ستبلغ مقدار ما كشفنا منه ، إذ أننا أظهرنا حتى الآن منه (٦٧) غرفة وقاعة منتظمة حول خمس باحات داخلية ، تقع احداها بالقرب من المدخل الكبير الغربي . وقد أسميناها باحة الشرف ، وهي مبلطة بالأحجار المنجوتة . كما وجدنا أيضاً سبعة مداخل من مداخل القصر ، وهي مجهزة بالاروقة المحمول كل منها على اسطوانتين ، وأحد عشر درجاً تؤدي الى طابق القصر الاول الذي زال اليوم تماماً .

ويبلغ طول أقسام القصر المكتشفة ما عدا مدخله الشرقي الحصين (١٢٠ متراً) من الشرق

(١) انظر صور الآثار للوضوعة في هذا البحث في القسم الغربي من المجلة .

(٢) المنشور في المجلد الثاني من هذه المجلة .

الى الغرب ، و (٨٥ متراً) من الشمال الى الجنوب . وتمتد هذه الاقسام على مساحة تزيد على (١٠ آلاف متر مربع) ، ولم نصل بعد الى نهايتيه الجنوبية والشرقية ، وما تزال أقسام أخرى منه تحت الانقاض . وقد تجلّى لنا أن واجهاته الخارجية مبنية من الاحجار الكبيرة المنحوتة ، ومجزة بدعائم مربعة ، ويوجد بين المدماك الثاني والمدماك الثالث من مداميكها عوارض خشبية ضخمة ، يشاهد مثيلاتها في تركيب كل جدران القصر الداخلية ودعائم هذه الجدران .

ولا نعرف من مخطط القسم الشرقي للقصر الا بعض العناصر الناقصة . فقد اكتشفنا في الجهة الجنوبية الشرقية ، قاعة مربعة في مدخلها عمودان ، كما أظهرنا في الجنوب باحة ثلاثية أوسع من سابقتها . أما في الجهة الغربية فقد تبين لنا مجموعة من الفاعات الفسيحة المجموعة حول باحة صغيرة ، لها مدخل محمول على عمودين في شرقها . ووجدنا في هذا المدخل ، والباحة ، وفي قاعة غربية لوحات فخارية كثيرة تؤلف جزءاً من السجلات المركزية (١) .

وفي جنوبي هذا القسم من القصر بدأنا باظهار الباحة الخامسة في الزاوية الشمالية الشرقية . ومنها يتفرع ممر يؤدي الى جناح منفصل عن القصر ، ويظهر أن هذا الجناح أضيف فيما بعد ، وفيه قاعة يظن انها مخزن كان مملوءاً بالجرار الكبيرة ، تحطم معظمها لدى تهدم القصر .

ووجدنا في القسم الشرقي من القصر عدداً من اللوحات الفخارية المسماة أضفناء الى السجلات الشرقية . وكانت هذه الوثائق محفوظة في أربع غرف ضيقة واقعة قرب مدخل القصر الشرقي ، مثلما كانت السجلات الغربية واقعة بالقرب من المدخل الغربي للقصر . وقد تأثرت اللوحات كثيراً من الحريق الذي أصاب المكان ، وامتزجت بالاحجار الكلسية ، فتحوّلت الى كتلة صلبة تعذر تفتيتها لولا مهارة السيدين شفيق الامام ، وفوير .

وقدّمت لنا هذه الوثائق معلومات كثيرة عن علاقات اوغاريت والعالم الايجي وخاصة جزيرة قبرص . إذ أن احداها وجدت مكتوبة بالخط القبرصي - المينوي . ويشبه شكل هذه اللوحة أشكال اللوحات التي وجدت في مدينة (أنكومي - ألأزيا) من قبرص . إلا أن اشاراتها أكبر حجماً ، وأكثر اتقاناً ، وأحسن رسماً من الاشارات المستعملة في الخط القبرصي ، وكما هو الامر في لوحات جزيرة كريت وبلاد اليونان . وتفصل الكلمات عن بعضها فيها بخطوط صغيرة شاقولية منتبهة بنقاط كأنها اشارات تعجب . ثم ان الكلام يدور بصورة شاقولية حول اللوحة شأن الخط المساري ، ويلاحظ فيه نفس الاشارات المستعملة على الأواني المينوية القبرصية والتي استخدمها كتاب لوحات انكومي ، كما أنه يمكن أن يشاهد بينها اشارات مشابهة

(١) يرجى الرجوع الى مخطط القسم المكتشف من القصر المنشور مع أصل هذا المقال في القسم الغربي .

للوحدات المينوية التي وجدت في كريت أو اللوحات المينوية التي وجدت في بلاد اليونان . إلا أن لوحة رأس شجرة شأن لوحات انكومي لا تحوي أية إشارة ذات شكل خاص أو هيروغليفي من الاشارات الشائعة في الخط الخطي المينوي أو الميسيني . ويجعلنا هذا الاختلاف نفترض أن لغة لوحة رأس شجرة لم تكن نفس لغة لوحات كريت و (ييلوس) و (ميسين) . ويظن أنها لغة قبرصية على اكبر تقدير . وعلى هذا فإن عدد الخطوط التي كانت مستعملة في اوغاريت القديمة بلغ الى الآن خمسة خطوط ، وهي : الخط المسماري ، والخط البابلي ، والمسماري الانجدي أو الاوغاريتي ، والهيروغليفي الحثي ، والخط القبرصي .

ومن الأشياء الاثرية التي عثرنا عليها في الموسم الماضي والتي تدل على علاقات اوغاريت بمصر عدد كبير من الاواني المصنوعة من الالباثر . ويحمل بعضها رموز الفراعنة الذين حالفوا ملوك اوغاريت وهم : تحوتمس الثالث (١٥٠٤ - ١٤٥٠) ، وأمينوفيس الثالث (١٤٠٨ - ١٣٧٢) وأخناتون أو أمينوفيس الرابع (١٣٧٢ - ١٣٥٤) والملكة نفرتيتي ، وحورح (١٣٥٤ - ١٣١٤) ورعمسيس الثاني (١٣٠١ - ١١٢٥ أو ١٢٩٠ - ١٢٢٤) . وشوهد على بطن أحد الاواني التي وجدت سنة ١٩٥٢ كتابة هيروغليفية ، ومشهد فسرناه تفسيراً إذا قيل لسان ذا أهمية كبرى في ابضاح العلاقات بين مصر وأوغاريت .

إذ تذكر هذه الكتابة اسم الملك نقادو على الشكل الآتي : (كبير بلاد أوغاريت) . كما أن المشهد يمثل الملك (جسده مفقود بسبب كسر الإناء) جالساً تحت سدة وأمامه امرأة تقدم له ماء ومنشفة . وتلبس المرأة قميصاً شفافاً وعلى رأسها تاج محظيات الفراعنة في عصر تل العمارنة . وقد فسرنا هذا المشهد بأنه يمثل زواج الملك اوغاريت نقادو بإحدى الاميرات المصريات مما يدل على رغبة فرعون مصر بتميز العلاقات مع بلاد أوغاريت التي هي آخر البلاد السورية نحو الشمال التي تأثرت بالنفوذ المصري . ويلاحظ أنها سوف تغير سياستها منذ عهد أمينوفيس الثالث وأخناتون تبعاً لبعض الفوائد أو شيء من الضغط نلقته من الحثيين ، وتنضم الى تحالف البلاد الحثية المعادية لمصر .

ولا يمكن إلا أن يكون الملك نقادو الثاني هو الممثل هنا ، لأنه كان معاصراً للملك الحثي شوبيلوليوما ولامينوفيس الرابع . وتذكر تحارير تل العمارنة أن انحيازها إلى التحالف المصري كان تاماً على الرغم من أنه اضطر لدفع الجزية إلى ملك الحثيين حسب ما تذكره سجلات أوغاريت .

وتبين لنا أيضاً من وثائق أوغاريت أن سياسة التوازن الموقت تطلبت من خلفاء تقادمو أن يتابعوا اللعب السياسي المزدوج بمهارة ، وأن يميزوا ذلك بخطط الزواج السياسي كما كان ذلك في زواج (أميسترو) حفيد تقادو الثاني بالأميرة (أحت - ميلكو) العمورية .

وتؤلف الوثائق السياسية والاقتصادية والكتب المتبادلة بين أوغاريت والبلاد الشمالية والشمالية الشرقية وخاصة مع الامبراطورية الحثية ، سجلات خاصة في قصر أوغاريت متميزة عن بقية السجلات . وقد كانت محفوظة في غرفتين واقعتين في النهاية الجنوبية من جناح القصر الجنوبي الذي كشفناه في موسم سنة ١٩٥٣ . لهذا فاننا أطلقنا عليها اسم السجلات الجنوبية ، وعددها ٢٠٠ لوحة ، ويختلف شكلها ومادتها عن لوحات بقية السجلات ، وعلى وجه عدد منها تشاهد مطبوعة أختام كبيرة عدسية الشكل مكتوب عليها بلهيووغليفيه الحثية والمهارية كتابات تتعلق بملوك الحثيين شوبيلويوما (نحو ١٣٩٥ - ١٣٥٥) ومورسيل الثاني (نحو ١٣٥٣ - ١٣٥٦) وخاتوسيل الثالث (نحو ١٢٩٠ - ١٢٦٦) وتودخاليا الرابع (نحو ١٢٦٥ - ١٢٣٦) .

وتتجلى هذه الفاعلية السياسية والدبلوماسية التي تصرف في أزمان شوبيلويوما وخلفائه ، وكان موضوعها التنافس المصري - الحثي على سورية الشمالية ، في هذه الوثائق الجديدة وتزيد معلوماتنا عن تاريخ هذه البلاد الى آخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد أي الى زمن امبراطورية الحثيين وتهدم أوغاريت الذي يقابل نهاية عصر البرونز في الشرق الأدنى . كما أدلت لنا خاصة هذه الوثائق الاصلية المعاصرة بمعلومات مهمة للغاية عن أوغاريت والحثيين وخلفائهم وأتباعهم في سورية الشمالية .

وتمت هذه المعلومات ما ظهر في تل العمارنة ، وقدمت لتاريخ سورية في الالف الثاني قبل الميلاد فوائد كثيرة جداً . إذ صار بالامكان أن تقابل ما وصل اليها من المعلومات بواسطة الوثائق السورية والمصرية بالمعلومات الحثية ، وان نصحح استنتاجاتنا الاثرية . وقد تأكد لنا بعد عشرين سنة من التحريات في رأس شمرة وعلى أثر سلسلة من مواسم التنقيبات في الاناضول التي سمحت لنا أن نتعرض بالآثار والوثائق التاريخية الحثية ، أن أوغاريت لم تحتل خلال تاريخها المتحرك والصعب ، ولم تفقد سيادتها على أيدي جيرانها الشماليين . ولم تعطنا مواسم الحفر السبعة التي أجريتها في أوغاريت أي أثر يستدل منه على احتلال الحثيين لها . ولا ريب أن ذلك صحيح لكل المناطق الساحلية السورية اعتباراً من جبل الأقرع (جبل كازيوس) ، إلى الجنوب . وكذلك فانه لا يوجد بين وثائق تل العمارنة ما يسمح لنا ان نستنتج خلاف هذا الرأي .

وتؤكد النصوص التي عثرنا عليها في شهر تشرين الاول من سنة ١٩٥٣ في السجلات الجنوبية من الجناح الجنوبي للقصر ، أن ملوك اوغاريت كانوا مستقلين في بلادهم على الرغم من تأديتهم بعض الجزية إلى ملوك الحثيين ، واعترافهم بشيء من سلطتهم السياسية والعسكرية . وذلك منذ حكم شوبيلوليوما . وتدل خلال هذه النصوص قوائم الملوك الذين تعاقبوا على حكم اوغاريت في القرنين الرابع عشر والثالث عشر على استقرار حكمهم . كما أنه يجب الشك فيما يدليه الحثيون من سلطات على اوغاريت ، إذ أن لوحة من السجلات الجنوبية تحوي ما يبين أن الملك شوبيلوليوما يرجو حلف وصدقة وثقة تقادو الثاني ، ويعدده بمساعدته اذا هاجمته جيوش أعدائه . إلا أنه لا يتردد أن يطلق فيها على نفسه لقب سيد ملك اوغاريت ، والظاهر أنه يجب أن يفهم من ذلك أن شوبيلوليوما حاول أن يجعل نفسه مكان فرعون مصر الذي كان الحامي التقليدي لأوغاريت ، والذي مازال حاميا إلى ذلك الوقت . وإليكم نص هذه الوثيقة المهمة التي قرأها وترجمها المسيو نوغايول :

« هكذا قال الشمس ، الملك الأكبر . . . إلى تقادو : « وان كانت بلاد نخاصة وموكيص معادية لي . فلا تخف يا تقادو منها ، وثق بنفسك ، وكما كان أجدادك سابقاً أصدقاء لا أعداء لبلاد الحثيين ، فكن يا تقادو عدواً لعدوي ، وصديقاً لصديقي . وإذا وعيت يا تقادو وصايا الملك الأكبر سيدك ، وإذا اتبعتها ، وأقت على ذلك البرهان لرأيت ما يبدو من الملك الأكبر سيدك عن أعمال حسنة لإزاءك . »

حافظ اذن يا تقادو على مخالفة وصدقة البلاد الحثية ! وسترى فيما بعد كيف سيعامل الملك الأكبر ملوك نخاصة وموكيص الذين تركوا مخالفة وصدقة البلاد الحثية ، وأصبحوا أعداء الملك الأكبر سيدهم . وعندئذ ستثق يا تقادو بكلام الملك الأكبر سيدك .

وإذا أرسل هؤلاء الملوك جيشاً لفتح بلادك ، فلا تخف يا تقادو منهم . وابعث برسولك الي . وإذا تمكنت بجيشك من هزيمة جيش نخاصة أو جيش موكيص ، فلن ينتزعهم أحد من يدك ، أي إذا زال جيش نخاصة ، وجيش موكيص ، ونفذ الهاربون إلى داخل بلادك فلن يخلصهم أحد من يدك . وكذلك إذا ثارت بعض بلاد حدودك عليك مثلاً ، وإذا حاربتها وتغلبت عليها فلن يخلصها في المستقبل أحد من يدك ، وإذا تغلب الملك الأكبر في المستقبل على هؤلاء الملوك ، فإن الملك الأكبر سينحك لوحة موقعة بالتحالف . »

وكان شوبيلوليوما يخشى من أن يغري ملك اوغاريت بالانحياز إلى ملوك نخاصة وموكيص أعدائه . لهذا فانه ذكره بأن أسلافه كانوا دوماً أصدقاء بلاد الحثيين ، وأوصاه أن يهاجم ملوك نخاصة وموكيص ، ووعدته أن يدهه يتمتع بالغنيمة لوحده إذا انتصر ، وعرض عليه التحالف معه . وليس هذا كلام سيد الى أتباعه .

وقد قرر تقادو أن يبقى على الحياد . فقال التحالف الذي وعده به شوبيلوليوما . إلا أن أعداء الحثيين غزوا بلاده . وإليكم تفصيل ما جرى حسب ما تذكره وثيقتان ظهرتا بين وثائق السجلات الجنوبية خلال موسم ١٩٥٣ ، وهما موقعتان من شوبيلوليوما .

« عندما صار ملوك نخاصة وملك موكيص أعداء الشمس الملك الاكبر سيدهم ، كان تقادو ملك بلاد اوغاريت صديقاً لا عدواً للشمس الملك الاكبر سيده . وقد ألح ملوك نخاصة وموكيص على تقادو ملك بلاد اوغاريت بقولهم : « ألا تصبح معنا عدواً للشمس ؟ » . ان تقادو لم يرض أن يصبح عدواً للشمس الملك الاكبر سيده ، وعلم الشمس الملك الاكبر ، ملك بلاد الحثيين باخلاص تقادو ، فتحالف معه على الشكل الآتي » . ويلاحظ أن ملك الحثيين يعلن في هذه الوثيقة أنه سيد ملوك نخاصة وموكيص الذين كان بإمكانهم أن يحاربوه ، والواقع أن لفظ (سيد) في فم ملك بوغازكوي لم يكن له من معنى إلا أنه من شكلية البروتوكول ، ولا يمكن أن يعتد به .

واليسكم الثمن الذي حمل ملك اوغاريت على دفعه جزاءً على موقفه الحيادي : « هكذا يقول شوبيلوليوما الشمس الملك الاكبر ملك بلاد الحثيين ، البطل : لا حاول (ايثاردو) ملك موكيص ، و (ادونياري) ملك نخاصة (واجيتستوب) ملك نيمي أن يتخلصوا من سلطة الشمس الملك الاكبر سيدهم ، أقاموا تحالفاً بين بلادهم وجيوشهم ، وهاجموا بلاد اوغاريت ، ونهبوا تقادو ملكها ، وهدموها ، وعندئذ طلب تقادو ملك اوغاريت من شوبيلوليوما الملك الاكبر ما يلي : « أيها الشمس ، الملك الاكبر ، سيدي خلصني من أيدي العدو اتي خادم الشمس ، الملك الاكبر ، سيدي ! اتي أصبحت عدواً لعدو سيدي ، وصديقاً لصديق سيدي ! ان هؤلاء الملوك يضغطون علينا » .

ويلاحظ أن الكلام عن لسان ملك الحثيين الذي يظهر انه كان يبالغ بوصف الموقف الناشئ عن الهجوم على اوغاريت ، لان تقادو الذي يستجير به لم يقل له عن ملوك موكيص ونخاصة ونيمي المتحالفين ، الا أنهم يضغطون عليه .

ثم يعاود شوبيلوليوما قصته فيقول : « ان الملك الاكبر سمع هذا الكلام من تقادو ، فعجل بإرسال أبنائه وكبار رجال دولته بجنود وعربات نحو بلاد اوغاريت ، فأرجعوا الى تقادو الغنائم التي استعادوها ، وعندئذ قدم تقادو ملك بلاد اوغاريت خضوعه الى أبناء الملك وكبار رجال دولته ، وأنعم عليهم بالفضة والذهب والنحاس ... وسار الى (الألاخ) حيث مثل أمام الملك الأكبر سيده »

ويبدو لي ان الملك الحثي اذا قنع بأن يتلقى خضوع حليفه في مقره في الألاخ وعدل عن التوجه الى أوغاريت التي كان يمكنه أن يبلغها بعد مسير ثلاثة أيام ، كان يتوخى مصانعة تقادو ، أو أنه ما كان يجسر على أن يتقدم الى الجنوب نحو منطقة النفوذ المصري التي تؤلف اوغاريت حدها الشمالي . ويدل اكتشافنا خلال حفريات الموسم الاخير لاثنتين كبيرين محطمين من الالباتر يحملان كتابة باسم الفرعون حورحوب (نحو ١٣٥٤ - ١٣١٥) ، على أن ملوك اوغاريت حافظوا على علاقاتهم مع المصريين خلال عهود شوبيلوليوما مورسيل الثاني ابنه (نحو ١٣٥٣ - ١٣٢٦) ومواتالو حفيده (نحو ١٣٢٥ - ١٢٩٨) ، على الرغم من ارادة الحثيين . وتدعم هذا الرأي دراسة النصوص المعاصرة لهذا العهد التي أخرجتها أرض رأس شجرة . وتوجد بين هذه النصوص معاهدة تحالف بين مورسيل الثاني ونقميا . وفي مقدمة هذه المعاهدة التاريخية حسب ما يقول المسيو نوغارول اشارة إلى ان ملك أوغاريت (أرهاب) لم يخلص لملك بوغاز كوي . والظاهر أنه أبعد عن العرش لهذا السبب ، وتولى بدلاً عنه أخوه (نقميا) . الا أن هذا الاخير حسب المصدر المذكور لم يكن متحمساً أيضاً لصداقة الحثيين .

وأخيراً يجدر بنا ايضاح طبيعة العلاقات بين ملك اوغاريت وملك بوغاز كوي خلال الزمن الذي اشتد فيه الصراع بين مصر والحثيين ، عندما كانت اوغاريت بعيدة عن تلقي نجيدات الفراعنة فاضطرت لتعاقد مع الحثيين ، وارسال فرقة من جنودها إلى جيش التحالف الذي وجهه مواتالو لمحاربة رعمسيس الثاني في معركة قادش .

ويدل اكتشاف عدة آنية من الالباتر مطبوعة برموز رعمسيس الثاني ، في أطلال قصر أوغاريت ، على أن هذه المدينة عادت الى تحالفها التقليدي مع مصر بعد ان خف الضغط الحثي عليها على أثر عقد معاهدة التحالف المصري - الحثي نحو سنة ١٢٧٦ . وتعلمنا لوحة وجدت حديثاً في السجلات الجنوبية من القصر على أن أوغاريت اضطرت لدفع غرامة ثقيلة في زمن توتاليا الرابع (نحو ١٢٦٥ - ١٢٣٦) ، لأنها لم ترسل نجدة الى الجيش الحثي الذي توجه لمقاتلة الآشوريين في بلادهم .

ويستنتج من كل ذلك على أن ملوك أوغاريت لم يقبلوا بالتحالف مع الملوك الحثيين إلا مرغمين حتى يخلصوا من تهديدهم لهم واحتلال الجيش الحثي لبلادهم . وتؤكد النصوص التي اكتشفت في السجلات الجنوبية خلال العام ١٩٥٣ نجاح هذه السياسة ، سياسة التقرب المزدوج من الحثيين والمصريين على السواء . ولم يترك ملوك أوغاريت خلال كل عهود حكمهم منذ منتصف القرن الخامس عشر أي منذ الثورة التي قضى عليها أمينوفيس الرابع نحو سنة ١٤٤٤ ، تحالفهم التقليدي مع مصر ، هذا التحالف الذي كانت تمليه عليهم مصالحهم الاقتصادية ، على اعتبار أن أوغاريت كانت قاعدة للتجارة البحرية والبرية في سورية الشمالية ، كما تمليه أيضاً مصالحهم في تأمين الدفاع عن بلادهم .

ولا يمكننا إلى الآن تحديد مدى المساعدة التي قدمتها أقوام (آهياوا) البحرية إلى أوغاريت وخاصة فيما يتعلق بالأسطول ، لأنه كما يعلم اكتشفت منشآت ميسينية مهمة خلال حفريات رأس شمرة السابقة ، إلا أن عدداً من نصوص بوزاز كوي تشير إلى رغبة الحثيين في احترام منافع هذه الأقوام البحرية التي لا تستطيع الجيوش الحثية البرية شتاء إزائها .

ومن هذا لا يجوز اليوم أن نقلل أيضاً من أهمية الوسائل الدفاعية التي اتخذتها أوغاريت ولان أهمية تنظيماتها العسكرية ، إذا أخذنا بعين الاعتبار قوائم توزيعات الأسلحة ، والعربات والخيول ، والاقواس والحلج . . . التي وجدت في رأس شمرة . كما يجب التنويه بأهمية الحصن الحصين المكتشف في حدود القصر والذي يملك سوراً قطره (١٦ م) ومنحدرًا مبنياً من الحجر المقطوع ، وبرجاً مربعاً تفوق أبعاده الحصون العسكرية التي عرفها الألف الثاني قبل الميلاد . ويبين كل ذلك على أن ملوك أوغاريت لم يهتموا بالاهتمام بتأمين الدفاع عن عاصمتهم . وقد احرزوا انتصارات تدل عليها الصور الممثلة على اللوحات العاجية التي كانت جزءاً من عرش أحداهم ، والتي وجدناها سنة ١٩٥٢ . وبما يجدر ذكره في هذا المقام أيضاً أن الألواح التذكارية التي تركها أمينوفيس الثاني (١٤٥٠ - ١٤٢٥) في الكرنك وفي منفيس ، تلح إلى جيش أوغاريت وتطلق على هذه المدينة اسم « قلعة الملك » .

ولاشك أن إيضاح هذه النقاط مفيد كل الفائدة لأن المؤرخين جروا على اعتبار أوغاريت كبلاد ليست لها أهمية عسكرية وتحت رحمة الحثيين وأتباعهم جيرانها الشماليين ، لانهم لم يعرفوا لمملكتها حدوداً واضحة .

ويجدر أخيراً ملاحظة أنه لم يعثر في اوغاريت على أية آثار يستدل منها على التأثيرات الحثية . وتدل كل الدلائل على أن ملوكها استخدموا أشياء وحلى وأثاثاً ينم اسلوب صنعها على أنها كانت تحاكي بعض النماذج المصرية . وقد اكتشفنا خلال موسم سنة ١٩٥٣ ما يؤيد هذا الرأي . إذ أننا عثرنا الى جانب قطع العاج التي تحدثنا عنها على صحيفة مستديرة عاجية لمنضدة مدورة ، قدمت لنا لوحة كاسية مكتشفة في سنة ١٩٣٥ صورة عما يماثلها . على أن المنضدة المذكورة قد سحقت بسبب انهيار البناء ، وتجزأت الى آلاف من القطع ، ويلاحظ أن الركيزة التي كانت تقوم عليها ، تنتهي إلى الأعلى بتاج مؤلف من عدة أوراق نباتية . ولم يبق شيء من جذع هذه الركيزة . إلا أن قوائمها كانت على شكل قوائم الأسد ، ويبلغ قطرها (٧ د م) ويقسم سطحها بقضبان عاجية إلى أربع مناطق مستديرة متداخلة حول زخرفة متوسطة على شكل وردة باثني عشر تويجة . وعرض المنطقة الخارجية (٧ - ٨ سم) ، وهي من العاج الفليظ ، وتزين طرفها أفواس صغيرة محفورة منزل فيها أحجار الاليس لازولي ، والزجاج الملون . ويظهر أن صحيفة العاج هذه كانت محمولة على صفيحة خشبية زالت ولم يبق لها أثر . كما أن القسم المتوسط من هذه الصفيحة كانت ملبسة بأوراق ذهبية زالت هي الأخرى تاركة بعض القطع الصغيرة بين فتات العاج .

ولا يمكننا بعد أن نصف مناطق الزخارف في الصحيفة العاجية ، لأن وجه هذه الزخارف انطبق على التراب ، فاضطررنا لانتزاع قطعها الكثيرة واحدة واحدة وإصاقها على أوراق من الحرير بما فيها من التراب ، وتحفيها تدريجياً حتى لا تتلف وتتحول الى ذرات صغيرة من الغبار . وهكذا فأننا لن نتمكن من دراستها حتى ينتهي السيد رفيف الحافظ من تقويتها وجمعها وإعادة تركيبها بعد مضي شهور طويلة . ومما يكن فإن مناطقها الثلاث تمثل حيوانات خرافية ، وعصافير وآباء هول ، وآساداً ، وغريفونات مجنحة ، ونباتات ، وأغصان متشابكة مختلفة . وما أشبه هذه الزخارف بزخارف الكأس الذهبية التي عثرنا عليها سنة ١٩٣٣ ، في الاطلال الواقعة جنوبى معبد بل في أوغاريت .

وعثرنا أيضاً على قطع عاجية أخرى من بقايا أدوات أخرى . ومنها صحيفة مستديرة محفورة تمثل مشهد صيد ، كانت جزءاً من صندوق صغير . وأكبر الظن أننا سننثر على بقية الأجزاء الأخرى في موسم التنقيب خلال العام القادم .

وكنا عثرنا في آخر الموسم السادس عشر ، في شهر تشرين الثاني لعام ١٩٥٢ بالقرب

من الباحة الثالثة الكبرى على غلب فيل منحوت ، فنقلناه الى متحف دمشق ليحف ببطء في مستودع هذا المتحف ، ولكي يعالجه السيد رثيف الحافظ بخبرته الفنية . وتبين بعد ذلك انه بوق منحوت نحتاً جيداً ، ويبلغ طوله الحالي ستين سنتيمتراً . وترى على وجهه الخارجي ربة ذات جسم جميل ورشيق ، ويداه موضوعتان تحت ثديها ، وشعرها مصفف ، يلتف حول فم البوق ، ثم ينحدر بمجذبة غليظة . والى كل جانب منها أبو هول ضخيم ، واقفاً ، وأجنحته مبسوطة كأنه يحرسها . وبقية جسم هذه الأداة محروق ولا يميز فيه غير حيوانين آخرين . وكان البوق معروفاً منذ أقدم الأزمنة ، وكان يتخذ من قرن أحد الحيوانات ، كما كان يستعمل في المناسبات الدينية خلال الأعياد وتقديم الأضاحي ، وخاصة لدى فتح أبواب المعابد ، ودعوة أفراد الشعب للاجتماع ولإعلان الاخبار الهامة للحرب . وكانت الابواق المصنوعة من العاج والمنحوتة ، خاصة بالملوك ، وترمز إلى هيبتهم ، وليس لدينا أقدم من بوق اوغاريت ، ويعود عهده الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

وبدأنا في سنة ١٩٤٣ بالتحري في حي يبعد عن جدار القصر الشرقي بمسافة (٤٥ م) ويتألف من مساكن خاصة ، ويقطعه شارعان متوازيان في الاتجاه الشمالي الغربي - الجنوبي الشرقي ، ويتعدان عن بعضها بمسافة (٢٠ م) ويبلغ عرض كل منها (٥٠٠ م) ، وتقوم بينها مساكن ذات ابعاد ضخمة ، والكل منها مدفون ارضي ، وباحة حاوية على بئر وحوض للاستسقاء . وقد تمكنا حتى الآن من إظهار ثلاث عشرة غرفة من أحدهذه المساكن . وعثرنا في إحدى هذه الغرف على اللوحة الفخارية القبرصية المينوية التي تقدم ذكرها ، وعلى تسع وثلاثين لوحة لإحدى كتبت سبع منها باللغة الاوغاريتية ، واثنان وثلاثون باللغة المسهرية البابلية . واطلعنا قراءتها على معلومات مهمة وتختلفة . وتدل الدلائل الاثرية المختلفة على ان هذا المسكن ظل مستخدماً الى آخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

والى جانب المسكن المتقدم الذكر مسكن آخر واسع لم نعث فيه على لوحات فخارية ، بل عثرنا على أشياء برونزية لها أهميتها في تاريخ اوغاريت . إذ أننا اكتشفنا في مخبأ من الباحة الداخلية رمحاً طوله (٦٥ سم) وخنجرأ ذا قبضة خشبية ، ورأس سهم أو رمح ، وسيفاً طوله (٧٥ سم) وعليه اسم فرعون مصر (منفتاح) الذي قهر أقوام الليبيين .

وقدنا أيضاً في نهاية التل الشمالية الشرقية بسرين خلال هذا الموسم لتحقيق وإتمام المعلومات المنوطة لدى إجراء الحفريات العمودية في سنة (١٩٣٤) ، وقد أرضنا النتائج التي وصلنا

عليها ، وجعلتنا نؤمن أننا ملاقون هنا الطبقتين (٣ و ٥) في تعاقبها الستراتيغرافي في أوغاريت إذا وسعنا أبحاثنا . وفي الواقع إننا بلغنا خلال السبر رقم (١) الذي بدأناه في غربي معبد بعل ، قاعدة الطبقة الثانية على عمق (٣ م) تحت سوية الصفر من جانب الحفرية . وكذلك فأننا عثرنا في الزاوية الجنوبية الشرقية من هذه السبر على قسم من التربة يحوي كسراً فخارية غليظة ورؤوس رماح ودبابيس وحببات من البرونز . ونشبه هذه الأشياء البرونزية ما كنا استخرجناه من القبور الواقعة في الطبقة الثانية ، والتي نسبت الى قوم أطلقنا عليه اسم (حملة الأطواق) ، وذكرنا أنه أقام في أوغاريت في فاتحة الألف الثاني أو نهاية الألف الثالث . ويتحتم علينا توسيع هذا السبر لنتمكن من معرفة طبيعة هذه الأشياء التي هي من الطبقة الثانية وإيضاح تداخلها مع الأقسام العلوية من الطبقة الثالثة .

ومما يمكن أن الفاصل بين هاتين الطبقتين يقع على عمق (٣ م) حيث تصبح التربة الرمادية الدقيقة والكثيفة ، رخوة . كما يوجد على عمق (٢٠ ، ٣٠ م) فراش من الرماد الذي يدل على أرض عاش عليها الإنسان . وقد وجدنا فيه جرة جنازية حاوية على هيكل عظمي لوليد صغير . واثبتنا كسراً فخارية ملونة ذات خطوط سوداء وأساس أحمر من عهد الطبقة الثالثة . ثم شاهدنا بعد ذلك نحو الأسفل عدة صفوف من التراب يدل على حدوث حرائق مختلفة ، وفيها عظام حيوانات أهلية . ورأينا بعد عمق (٤ م) أدوات مختلفة حجرية وأوبسيدية مقطوعة .

وظهر على عمق (٢٥ ، ٤٠ م) فراش من الطوب ذي اللون الأصفر الفاتح مؤلفاً قبة محدبة قليلاً . ووجدنا تحت ذلك دعائم خشبية متفحمة خلال كتل من الآجر يظهر أنها كانت مساكن خاصة . ثم أصبحت قطع الفخار الملونة بعد عمق (٤٥) نادرة حتى عمق (٥٠، ٢٥) حيث وصلت حالياً أعمال السبر .

وأجري سبر آخر في الشمال الغربي من معبد بعل ، وأدى الى جمع معلومات مهمة لدراسة الاقسام المتوسطة والسفلى من الطبقة الثانية . وقد وجدنا خاصة فئة من الفخار الملون بلون واحد ، وهو رقيق وذو جدران دقيقة شأن الفخار المعروف باسم الفخار المينوي المتوسط ، ويشبه بعض القطع الفخارية التي ظهرت في وادي العاصي من فاتحة الألف الثاني قبل الميلاد ، وفي الاناضول وبلاد فارس والقوقاز . وسنوسع خلال الموسم القادم أعمال هذا السبر .

كلود سيفر .

مذابح تدمرية مكتشفة

قرب نبع آفقا

بقلم الأُمير جعفر الحسيني والأب جان سناركي

تقريب وتلخيص : الدكتور جورج صداد

يكاد لا يمضي شهر بدون أن تضاف كتابات أثرية جديدة الى مجموعة الكتابات التدمرية . والكتابات التي نوردها في هذا المقال قد اكتشفت جميعها في عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ على مقربة من نبع آفقا الذي يروي واحة تدمر، وكلها . مكرسة للآله المجهول . وقد سمحت لنا هذه النصوص بالاضافة الى دراسة المسكان الذي وجدت فيه بالتوصل الى استنتاجات عامة عن عبادة الآله المجهول وعلاقته بالنبع . وسنضع بين يدي القاري الكتابات الاثرية أولاً ثم نأتي على وصف مدخل النبع كما يبدو لنا اليوم ، كما أننا سنصف سلسلة من القواعد المركزة على منحدر التل المشرف على النبع .

١ - المذابح الصغيرة للآله المجهول :

وجدت مجموعة من المذابح الصغيرة بحالة جيدة ومعظمها كانت تغطي القسم الغربي من مخرج النبع أي المغارة الرابعة والمساحة الواقعة بينها وبين الصخر المنحوت بشكل عامود . وكذلك وجدت مذابح أخرى جنوبي النبع ولكنها لم تكن في مكانها الأصلي . وسنشر كتاباتها حسب ترتيب تواريخها وهذا يساعد على متابعة تطور الكتابة في الاطواح المطبوعة هنا على أن معظم الكتابات من المرحلة الأخيرة ذات الأشكال المكسورة . وقد وضعت المذابح بجانب مجموعة الآثار الموجودة في تدمر . وعلى احداها وجدت الكتابة التالية : « الى الذي اسمه مبارك الى الأبد ، أقامه لأجل الشكر مقيمون بن أوطقا (افتيخس) لحياته وحياة أبنائه وأخيه في سنة ٥٠٢ » . وبما أن ٥٠٢ هي اعتباراً من ابتداء العصر السلوقي فيكون التاريخ في عام ١٩٠ م . ويلاحظ هنا أن كلمة « للشكر » هي تعبير غامض لا يستفاد منها اذا كان العمل وفاءً لنذر . وهذا التعبير يظهر في نهاية حكم ماركوس أورليوس أي في العصر الذي تتكاثر فيه المذابح

المكرسة للآله المجهول . وأسلوب الكتابة هو أقرب الى أسلوب بدء العصر الكلاسيكي أي نحو عام ١٠٠ منه الى نهايته أو عام ٢٠٠ . وأما اسم او طقا فانه يقابل الاسم اليوناني (Eutychès) .

وهناك كتابة أخرى جاء فيها « ليتبارك اسمه الى الأبد الرحمن أقامه لأجل الشكر تيمرسو بن حيراث بن زيدا لحياته وحياة أبنائه في شهر آذار عام ٥١٧ » أي ٢٠٦ م . والكتابة على هذا الاثر غير معتنى بها وهي متوسطة بين نوع الكتابة على الآثار وبين الكتابة العادية . وهذا التعبير « ليتبارك اسمه » قد ظهر في القرن الثاني . أما اسم « الرحمن » فانه ظهر هنا لوحده بينما في كتابات أخرى نرى معه « الصالح » أو الطيب . وعلى مذبح آخر نشاهد الكتابة التالية : « ليتبارك اسمه الى الأبد الصالح الرحمن أقامه لأجل الشكر ملك وديماس أخوه وأهل بيته كلهم في سنة ٥٢٩ » أي ٢١٧ م . والاسماء الواردة هنا هي أسماء جديدة . فاسم ملك هو الشكل الذي يقابل « ملكو » في النبطية والتدمرية . وأما اسم « ديماس » فلا يمكن أن يكون سوى الاسم اليوناني ديماس أو ديماس . وتعبير « وبني بيته » يشير الى عبادة الآله المجهول بشكل خاص . واسم الآله « الصالح » رافق آلهة أخرى عادة بينما « الرحمن » نراه مخصصاً للاله بل شمين وللاله المجهول وهذا التعبير « الصالح والرحمن » الذي يأذن بظهور العبارة القرآنية « الرحمن الرحيم » يظهر في الوقت « الذي تظهر فيه عبادة » الذي اسمه مبارك الى الأبد ، على مذبح يرجع الى عام ١٢٥ . وهناك كتابة على مذبح آخر هذا نصها : « في آذار سنة ٥٢٩ (أي ٢١٨ م) ليتبارك اسمه الى الأبد الصالح والرحمن أقامه لأجل الشكر مالا بن عوجا بن نساء الكبير » . وبما أن التاريخ لا يوضع عادة في أول الكتابة فلا بد أنه قد أضيف إضافة في المكان الفارغ في رأس المكان المخصص للكتابة .

وقد وردت على مذبح آخر الكتابة التالية : « ليتبارك اسمه الى الأبد ، الصالح والرحمن أقامه لأجل الشكر تيمرسوبن بريكاي لحياته وحياة أخيه في شهر آب سنة ٥٣٠ » أي ٢١٩ م . وبما أنه ورد في كتابة مدفن يرحاي الموجود في متحف دمشق ذكر والد يرحاي وهو بريكاي بن تيمرسو فقد يكون تيمرسو الموجود في نقشنا من سلالة ذلك الذي ذكر في مدفن يرحاي . كذلك وردت على أحد المذابح العبارة التالية « ليتبارك اسمه الى الأبد الصالح والمعطي لأجل الشكر أقامه ... ابن ابن رجال لحياته وحياة بنيه في شهر تشرين سنة ٥٣٥ » أي ٢٢٣ م . يلاحظ في هذا النص أن الآله المجهول قد سمي « المعطي » بدلاً من « الرحمن » وهذه هي المرة الوحيدة التي

أنت فيها تسميته على هذا الشكل ، وقد يكون الاله المجهول الذي أتى بعد الاله بعل شمين قد اتخذ التسمية المستعملة له وهي « المعطي » أو قد يجوز ان الذي أقام هذا المذبح هو من أصل عربي فاستعمل تسمية مستعملة في البداية كثيراً وهي « المعطي » .

وفي مذبح آخر قرأنا الكتابة التالية : « أقامه لأجل الشكر زبيدة بن وهب اللاث بن بيذا اعباي للذي اسمه مبارك الى الأبد الصالح والرحمن لحياته وحياته أخيه الى الأبد في تشرين الاول سنة ٥٣٧ » (أي ٢٢٥ م) . ويبدو اسم جديد في هذه الكتابة وهو « اعباي » . وهناك شيء جديد في نص الكتابة التالية التي وجدناها على مذبح آخر : « سنة ٥٥١ (أي ٢٣٩ م) للذي اسمه مبارك أقامه لأجل الشكر للرحمن لأنه رجاء فاستجاب له يرحاي بن شلمو لحياته وحياته أبيه وأخيه وحباً » . ويلاحظ هنا أن عبارة « الى الأبد » محذوفة من « الذي اسمه مبارك » . أما اسم شلمو فقد وجد على نصب جنائزي أيضاً وهو شكل نبطي للاسم مثل « تيمو » بينما الشكل التدمري هو « شلما » . واسم « حبشاً » نراه أحياناً مذكراً وأحياناً للمؤنث . أما عبارة « الرحمن » فانها تبدو كأنها اسم علم مع وجود حرف اللام . ونجد عبارة « رجاء فاستجاب له » على نحو عشرين مذبحاً للاله المجهول . وفي كتابة أخرى نرى اسم الذي قدم المذبح يرحيولا بن مقيمو بن يعلا ، وعويده ابنه ونشاهد رسم الاثنين على الجانب الايمن للمذبح وفي مؤخرة المذبح نرى رسم حيران عم يرحيولا مع أحد أنسابه رافعين يديهما . ونجد مثل هذا الوضع في ثلاثة مذابح أخرى أحدها في متحف الجامعة الاميركية في بيروت . ويلبس صاحب مذبح يرحيولا الحلة الكهنوتية بينما يلبس حيران ونسييه التاج .

وهناك مذبح تاريخه ٢٥٠ م ورد عليه اسم زوجة صاحب المذبح وهو « عدا » ولم يرد في مكان آخر في تدمر . وقد ورد في التوراة اسم « عده » ويمكن مقارنته بالاسم المعيني « عده » وأصل الكلمة « عدد » أي « أصبح صديقاً » ومنه أتى الاسم المعروف عند الساميين الجنوبيين « عدايل » وفي الكتابات الصفوية اسم « عد » . ولكن أهم ما في كتابة هذا المذبح تسمية الاله المجهول « بالرحمن وتيارا » أي الرحمن والحنون أو الرحيم . وهذه الصفة الثانية « تيارا » أصلها من البابلية . أما صفة الرحمن فاننا نجد في اللغات السامية الاخرى وخاصة الاكادية حيث يسمى الاله مردوخ « رمينو » ونجد أيضاً في أوصاف مردوخ وكذلك الالهين سين ونيبو صفة « تيارو رمينو » ومعنى تيارو ان الاله يلتفت الى المؤمن الذي يتضرع إليه (من فعل تارو أي التفت) . وهاتان الصفتان تشبهان الصفتين الواردتين في التوراة .

« الحنون والرحمن » وهي مقدمة للتعبير القرآني « الرحمن الرحيم » . ثم هنالك تعبیر له أهميته في نهاية الكتابة حيث يقول أصحاب المذبح « أقاموه للشكر . . . لأنهم رجوه في الضيق فاستجاب لنا ووضعنا في الرحب » . وقد وجد هذا التعبير في كتابة أخرى واستلفت نظر الأب شابو Chabot الذي قارنه بما ورد في الآية الخامسة من المزمور ١١٨ في التوراة « من الضيق دعوت الرب فأجابني من الرحب » . ومع أن التدمريين الذين أقاموا المذبح لم يكونوا من اليهود ولا من النصاري الا ان هنالك تأثيراً لا ينكر مصدره التوراة . ويميل الأب شابو الى كون أصحاب المذبح يهوداً ومن جهة أخرى فان تدمر كان فيها نصارى على الأغلب في هذا العصر وكان من المحتمل استعمال ترجمة سريانية لسفر المزامير . ومما يمكن فان أتقياء التدمريين كانوا مستعدين في هذا العصر أن يتذوقوا ويتخذوا تعبيراً من هذا النوع من التوراة .

ومن الاسماء التي وردت في مذبح آخر « يرحاي بن عجيلو بن سكاياي » وهذا الاسم الاخير ورد في مكان آخر بحرف الشين « شكايي » وهو اسم أحد الاخوة الأربعة الذين بنوا البرج الجنائزي المعروف ببرج الـهبل وهو اسم الأخ الأول . كذلك ورد الاسم بدون القسم الاخير أي بشكل « شكي » والاسمان هما اختصار « شكيل » وأصل الكلمة سكي أي رأى أو تأمل . ومنه أتت اللفظة السريانية سَكَيَا أي أمد . ومعنى الاسم اذاً « الاله بل أمني » .

ينبع

تحريرات أثرية في منطقة عمريت

للاستاذ موريس دونان

تلخيص وتعريب س . ع

عندما سنحت لي الفرصة بالعودة إلى سورية للقيام بتحريرات أثرية جديدة ، لم يكن بإمكانني مع المسؤوليات الكبرى التي تلقىها على عاتقي أعمالاً في جبيل ، أن افكر بموقع مثل تل عشتارة في جنوبي حوران ، أو قادش ، أو حماة ، أو تل حافظ ، أو تل رفعة ، أو إحدى مواقع وادي العاصي أو وادي الفرات السوري الأخرى التي يتطلب التنقيب فيها عشرات من السنين . وكان همي أن انطلق إلى المواقع الساحلية التي أجريت فيها تجاربي الخاصة . وكانت تغريني دوماً قضية موقع مدينة (سيميرا) التي تحدث عنها ألواح (تل العمارنة) ، والتي كانت مرتبطة بعلاقات مختلفة مع جبيل . ويدل كل ما وصلنا عنها بطريق الجغرافيين القدماء ، وحوليات تغلات فلازار الثالث ، وحملات تحوتمس الثالث ، على أنها كانت واقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين النهر الكبير المسمى قديماً (أولوتير Eleuthère) وبين ماراتوس التي هي عمريت . ولم تؤد التحريات الماضية عنها على كثرتها إلى أية نتيجة . إلا أنه نشأ عن هذه التحريات أننا تمكنا من تعيين التل الاصطناعي الذي تألف على اثر تهمدم مدينة ماراتوس . وكان ذلك لما زرت تلك المنطقة سنة (١٩٣٥) ، وبني أن أجد المدينة التي أنشأ أهلها المعبد المنحوت في الصخر ، والملعب الذي نقبت درجاته على شاطئ نهر عمريت المقابل ، والقبور الضخمة التي تبرز أشكالها إلى الجنوب . فلاحظت كسراً من الفخار ملقاة في غرب المعبد المذكور ، وتجلى أمام عيني أن ذلك المسكان مرتفع عن غيره من الاماكن المجاورة ، كما تأكد لي صغر مساحته وقد كان مزروعاً ببعض الجبوب ، وتحيط به بعض الحقول . فذهبت الى أنه يمكن أن يحوي المنشآت المتعاقبة التي استخدمها كهنة المعبد والاشخاص الذين كانوا يعملون فيه .

وعدت اليه مرة ثالثة برقعة الماين مك ايوان وبريدود (١) . وكان هذان لا يرغبان التنقيب في موقع تدل كسر الفخار المتناثرة على سطحه أنه من العصر الهلنستي أو أنه من عصر الحديد . ولم تكن حدوده واضحة تماماً . وأخيراً رجعت الى عمريت في سنة ١٩٥١ وجعلت أطوف في المستنقع الراكد شمالي المبد . ومن هناك شاهدت ارتفاع التل بوضوح مع منحدراته القائمة ، وسطحه المستوي . فكان أن تبادر الى ذهني انه ترقد هنا ملحقات المبد الذي الى جانبه ، وصرت استغرب كيف أنه لم يهتد إليه أحد حتى ذلك التاريخ . ثم تسلفت التل وعلوت سطحه ، وأخذت أتفحص قطع الفخار التي عليه ، وشاهدت بين هذه بعض قطع حجرية بازلتية ، ومنها طرف لنصب مكسور ، ويظهر أنه كان منقوشاً على هذا النصب بالخط الهيروغليفي المصري أو الهيروغليفي المستعمل في جبيل .

وتدل التماثيل اليونانية التي اكتشفناها في سنة (١٩٢٦) غربي المبد على أن ديانة هذا المبد كانت قائمة خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد . كما ان نصباً أقدم من هذه التماثيل اكتشف في تلك المنطقة الساحلية نحو سنة (١٨٨٠) . وهذا النصب من الحجر الكلسي ويمثل آلهة قائماً على أسد ، وماسكاً هراوة بيده اليمنى . وإلى جانبه كتابة فينيقية من القرن الرابع قبل الميلاد . وقد قيل ان هذا النصب التقط من مصب نهر الأبرش الذي يجري بعد ستة عشر كيلو متراً جنوبي (عمريت) إلا أنه لا يوجد في مصب هذا النهر موقع اثري مهم . وأكبر الظن أن هذا النصب من منطقة عمريت نفسها .

وأخيراً يرى في أسفل السفح الشمالي للتل الذي تحدتنا عنه جدول اعتادت نساء قرية عمريت أن يأتين فيأخذن الماء منه ، ويسمينه (نبع التل) . وهو ماء مارأتوس وماء آلهة المبد . وقد تحدثت عنه إلى فلاح كان يصطاد فيه بعض الاسماك بواسطة قصبه وأشخاص مسطحة طول كل منها نحو (١٥ — ٢٠ سم) . وذكرتي هذه الاشخاص بما اسماء هيرودوت (تينيا) التي كان الصيادون يستخدمونها في صيدهم في مياه أنهار جبيل (الكازيوس) الاقارع .

ويتم علينا الآن بعد كل ماذكرنا عن الدلائل الأثرية عن (مارأتوس — عمريت) أن نلخص ما نعرفه عن تاريخها . ورد في قصة حملات نحو خمس ائناث اسم موقع (قرط عمروت)

(١) وهما اميركيان من جامعة هيكغو ، وقد كانا من جلة الباحثين عن موقع مدينة « سبيرا »
آ (٢٠)

ولا يخفى أن الشطر الاول من هذا الاسم يعني (مدينة) باللغة الفينيقية ويتبعه اسم خاص عادة مثل (قرطاجه وقرطاجنه) . وليس يوجد شيء عن عمريت في التوراة ولا في حوليات الملوك الآشوريين . ولا تذكر هذه المصادر إلا (ارواد) . ونعثر أيضاً في زمن حملات الاسكندر على ذكر عمريت تحت اسم يوناني لها هو (ماراتوس) ، مع ما يدل على انها كانت مدينة كبيرة وجميلة . وقد جمع (هولتمان) جميع هذه المصادر عنها ، ونحن نحيل القارئ الى بحثه القيم . وما يجدر ذكره ان الاسكندر وداريوس تبادلوا رسائل مفاوضاتها الدبلوماسية فيها على اثر غزوة الماكدونيين لسورية الشمالية ، كما ان ان الاسكندر اطعم فيها ايضاً على الفئام التي نهبا جيشه من دمشق .

ويجدر إعادة النظر في تصنيف النقود التي ضربتها معامل هذه المدينة ، وتوفيقها مع الدراسات الحديثة التي تتمم وتصحح بمض النتائج التي انتهى اليها المختصون في علم النقود للندن الفينيقية . ثم ان التشابه بين عمريت ، وعامورو ، والعاموريين واضح كما يظهر . ولا يمكن إيجاد أي فرق بينها . كما ان (سيميرا) التي هي مدينة ساحلية كما ذكرنا كانت أرضاً من عامورو وهو اسم كان يطلق على تلال تمتد حتى جبيل في زمن تل المارنة .

تلك هي بإيجاز الاسباب التي حدثت بي الى إجراء عدة أسبار في عمريت لما دعيتي الحكومة السورية الى القيام بتنقيبات أثرية في أراضيها .

١ — إن تل ماراتوس صغير وغير واسع وهو متصل بالمعبد المنقوب في الصخر . ويظهر أنه يمثل قسماً من المنشآت التي كانت لازمة لحياة هذا المعبد . ويمكن ان يوجد فيه ما يدل على ذلك .

٢ — ولا يظهر أن سوية المعبد كانت غير ما هي عليه في وقتنا هذا . كما لا يتصور ان الذين بنوه ، جعلوا هذه السوية تحت المستوى اللازم . أي انهم جعلوا باحته منقوبة حذاء أرض وادي نهر ماراتياس . واستنتج من ذلك أن الماء كان يحيط بقاعة العبادة خلال معظم أوقات السنة ، وأن الهدايا والتمائم وغيرها التي كانت تقدم إلى المعبد ما كانت تجمل في هذه الباحة ، بل في ملحق من ملحقات المعبد الذي يمكن ان نجده في بطن التل نفسه .

٣ — وإذا تقبنا في ملحقات المعبد لأمكننا أن نعر على وثائق من العهد الهلنستي ، ومن العهد الفارسي ، ومن عصر الحديد ، لأن ارتفاع التل يبلغ نحو عشرة أمتار . ولا يخفى أن الحفريات التي جرت في الأراضي السورية الساحلية لم تعط إلى الآن ، الا وثائق عن عصر النحاس ، وانه ليس لدينا أية دلائل عن القرون التي مرت بين القرنين الثاني عشر والثالث قبل الميلاد . وما لا شك فيه أن هذا الزمن كان زمن استعلاء المدينة الفينيقية التي تحدث عنها المؤلفون الكلاسيكيون أمثال هوميروس ، والتوراة والوثائق الآشورية . كما انه كان الزمن الذي تولى فيه الفينيقيون المبادلات التجارية الدولية في أرجاء البحر الابيض المتوسط ، وأقاموا العلاقات بين بلاد اليونان الناشئة والمدنيات الشرقية . فنقلوا الى اليونانيين أفكار الشرقيين الفلسفية والدينية وطرقهم الفنية وكتاباتهم وصناعاتهم .

٤ — إن أسماء المدن الواقعة شمالي نهر (الأولوتير) وما نعرفه عن تاريخها ، يبين لنا أن هذه المنطقة كانت المنطقة الخاصة للاحتكاك مع بلاد اليونان منذ القرن السابع قبل الميلاد ومنها عصفت نفحات الفكر الشرقي الكبرى على بلاد اليونان الناشئة .

٥ — إن عمريت تؤلف الأساس اللازم لدراسة المنطقة غير المعروفة تماماً والممتدة بين البحر المتوسط والمعاصي .

إننا سنبحث في هذه المنطقة مرة أخرى أيضاً عن مدينة (سيميرا) ، وعن مدينة أخرى أنشأها في وادي الكبير رعمسيس الثاني لما زحف على مدينة قادش بعد ان حاذى ساحل البحر حتى خليج عكار .

موريس دونان

من
أعمال مديرة الآثار العامة
خلال العام الفائت

مركز تحقيقات كميوتير علوم إسلامي

نشاط المناحف السورية

معرض الزيتون في طرطوس عام ١٩٥٣

(الزيتون في التاريخ)

تلقت مديرية الآثار العامة دعوة من وزارة الزراعة للاشتراك بمعرض الزيتون الذي أقامته في السابع والعشرين من تشرين الثاني ١٩٥٣ في مدينة طرطوس [الجمعية التعاونية الزراعية لشجرة الزيتون في طرطوس وصافيتا] . فاستحسنت المديرية العامة الفكرة ، ووجدت أن الواجب يقضي أن تلبي الدعوة بالرغم من ضيق الوقت ، فعمدت لأحد موظفيها أن يقوم بدراسات لشجرة الزيتون في القديم وأن يستعين بفناني هذه المديرية لتهيء اللوحات اللازمة للمعرض .

إن فكرة إقامة معرض سنوي لمادة تعتبر ذات مورد حسن في اثروة القومية حالياً ، وكانت كذلك خلال العصور التاريخية السحيقة حتى أنها (وهي مادة الزيتون ومشتقاته) وسمت بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط أنها بلاد منتجة لها ... إن هذه الفكرة تدل على نضوج المواطنين المنتجين كما أنها تدل على وعي الدولة الاقتصادي والثقافي حينما تشجع على تحقيق الفكرة .

وإن النتائج التي تنبثق عن إقامة مثل هذه المعارض في الميدان الاقتصادي والفكري والاجتماعي اعظيمة جداً ، وخاصة إذا استمرت الدولة في سلوك هذه السياسة التوجيهية بإقامة المعارض الدورية في جميع منابع الانتاج الرئيسية لأكثر المواد التي تكون اثروة القومية .

لقد أقيم المعرض تحت إشراف وزارة الزراعة وبرئاسة الوجهة السيد رياض عبد الرزاق في بناء ضخم يملكه في طرطوس . ويمكن أن نقول : إن المعرض كان ناجحاً بالرغم من

بعض العوائق : كعدم اكتمال البناء ، ووقوع أزمة برد مفاجئة لم يكن يعدها الساحل في مثل ذلك الوقت . ويبدو أيضاً أن الوقت الذي حُدّد لاقامة المعرض والدعاية له كان ضيقاً : فلم توازر جميع الهيئات الرجال القائمين عليه ، ولم يحضر كثير من المدعوين حفلة الافتتاح ، كما لم يفكر المواطنون بالذهاب الى طرطوس بسبب رداءة الجو التي ألمعنا اليها .

لقد كان العارضون موقفين في إبراز أجنحتهم ، وكان هناك طرافة في بعض الأجنحة كتدفق الزيت باستمرار ، وسيلان الزيت على أنبوب زجاجي

أما جناح مديرية الآثار العامة فقد كان في الطابق الثاني في غرفة مساحتها ٦ م × ٥ م تقريباً عرضت فيه مصورات ورسوم وصور ولوحات وتحف أثرية نذكرها فيما يلي :

المصورات :

مصور تاريخي أثري لسورية يظُر فيه مناطق زراعة الزيتون ومعاصره والموانئ القديمة التي كانت تصدره .

مصور تاريخي أثري لحوض البحر الأبيض المتوسط يظهر فيه أيضاً مناطق انتاجه والموانئ المصدرة له والسفن الفينيقية واليونانية والرومانية التي كانت تتمخر عبابه في القديم وتجوب أطرافه .

الرسوم :

عرضت ست لوحات نقلت رسومها عن أوان أثرية يونانية تمثل قطف الزيتون ومعسه وعصره وبيعه . وتبرز أهمية شجرة الزيتون في القديم حتى أنها كانت تعتبر شجرة مقدسة يتوج بأغصانها رؤوس الفائزين في المسابقات الرياضية الأولمبية .

الصور :

عرضت عشر صور فوتوغرافية كبيرة تمثل استعمال الزيت قديماً : صور جرار قديمة ضخمة من مختلف العصور (محفوظة في المتحف الوطني بدمشق) ، مشكاة زجاجية ثمينة جداً (محفوظة أيضاً) ، صورة البطل اليوناني (أبوكسيموس) يكشط الزيت والوحل عن جسده بعد أن انتهى من الصراع ، صورة النبي صموئيل وهو يمسح رأس داود بالزيت المقدس ، صورة ميناء رأس شمرا (أوغاريت) وقد عثر فيه أثناء الحفريات الأخيرة عن كميات كبيرة من الجرار المعدة للتصدير حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، صورة الأطناف المحيطة بباحة معبد جوبيتر في بعلبك ، وصورة باب قصر الخير المعاد إنشاؤه في المتحف الوطني بدمشق وترى في كلا الصورتين التزيينات الزخرفية بشجرة الزيتون في كلا البناءين الروماني والإسلامي ، وصور أخرى ...

اللوحات :

عرضت ست لوحات كبيرة كتب فيها خلاصات تاريخية عن موطن الزيتون الأول ، وزراعته في القديم ، وصناعة الزيت والصابون ؛ وتجارة منتجات الزيت وفوائد الزيتون ومشتقاته واستعمالاتها . وتوَّجت هذه اللوحات بلوحة تضمنت الآيات الكرّمية الواردة في القرآن الكريم والمهد القديم والمهد الحديث .

وسنستطع فيما يلي بحثاً في هذه المواضيع أخذت منه تلك الخلاصات .

التحف الأثرية :

عرضت سرج فخارية ومعدنية وقناديل زجاجية ومعدنية وجرار وكثير من الأواني القديمة التي كانت تنفع في حفظ الزيت من مختلف العصور التاريخية . وكان نور السرج والقناديل القديمة الذي تلالاً في الجناح يعيد الى الذاكرة عصر التنوير بمادة الزيت النافعة .

* * *

الزيتون في التاريخ

الزيتون ^(١) في الوثائق القديمة :

لقد كانت شجرة الزيتون شجرة بريّة يخمن أن نبتها الأول كانت في آسيا الصغرى — حسب رأي النباتي السويسري كاندول Candolle — ثم انتقل هذا النبات الى البلاد المجاورة :

جزر بحر إيجه وسورية واليونان بواسطة الطيور التي حملت بزره اليها .

وقد دلت الحفريات الطبقة على وجود آثار شجرة الزيتون في طبقات الدور الثالث في طبقة الايوسين في إيكس Aix التي تبعد ٢٨ كم عن مرسيليا ، ووجدت أيضاً في طبقة الميوسين في مونفاردينو الإيطالية Mongardino القريبة من بولوني Bologne . ووجد نوى الزيتون في الفارسل El Garcel الأسبانية في طبقات العصر الحجري الحديث من الدور الرابع .

لقد عرفت الاقوام القديمة القاطنة في سورية وآسيا الصغرى واليونان ومصر وسائر شمالي افريقيا شجرة الزيتون ، واهتمت بزراعتها واستخرجت منها الزيت . وقد وجدت آثار تاريخية

(١) راجع كلمة Olea من : Edmond Laghio : Dictionnaire des antiquité

راجع بحث L'olivier من كتاب : Raymond Billiard : L'agriculture dans l'antiquité

في جميع أطراف حوض البحر الأبيض المتوسط تنطق عن مدى اهتمام البشر بهذه الزراعة المباركة حتى اعتبرت شجرته مقدسة في الأديان الوثنية القديمة وظلت لها تلك القدسية في الكتب السماوية .

شوهدت أغصان الزيتون في آثار السلالة التاسعة عشرة المصرية في المشاهد التي خللت انتصارات الفراعنة ، ووجدت أكاليل الزيتون مع مومياءات فراعنة الأسرتين الثانية والعشرين والخامسة والعشرين .

حدثتنا الأساطير (١) اليونانية أن الإلهة ليتو Leto وضعت في إيفيز تحت شجرة الزيتون الإلهين أبولون وآرتيمس ، فظلت تلك الشجرة مقدسة لدى اليونان . وذكرت المؤلفات اليونانية (٢) والرومانية (٣) في العهود التاريخية أهمية زراعة الزيتون وصناعة الزيت والصابون وتجارتها — كما سنذكر بعد قليل — .

أشارت الكتب المقدسة أيضاً الى وجود الزيتون البرّي والأهلي (المزروع) في سورية (٤) ثم أتت هذه الكتب على ذكر قدسية (٥) الزيت وبركته في الشفاء ، فكان المسح به طقساً دينياً عند بني إسرائيل ، وظل كذلك عند المسيحيين ، وأثنى القرآن الكريم على شجرة الزيتون المباركة وضرب المثل (٦) بصفاء الزيت ونوره .

- (١) جاءت هذه الأساطير في الإلياذة والأوديسة لهوميروس الشاعر اليوناني الذي عاش في القرن التاسع ق. م .
(٢) جاءت معلومات متفرقة في كتب التاريخ والفلسفة للكتاب اليونان امثال هيرودوت Herodote (حوالي ٤٨٠ - ٤٢٥ ق. م) ، ثيوفراست Théophraste (٣٧٢ - ٢٨٧ ق. م) ، ديودور Diodore (القرن الأول ق. م) .

(٣) 'عني الكتابات الرومان بالأمور الزراعية وألفوا كتباً في موضوعها نذكر أهمها مترجمة الى الفرنسية :

- Caton (234 - 184 av. J. - C.) L'agriculture .
Varron (116 - 27 av. J. - C.) L'économie rurale .
Virgile (71 - 19 av. J. - C.) Les Géorgiques .
Plin (23 - 79 J. - C.) Histoire naturelle .
Columelle (Ie. J. - C.) traité sur l'agriculture ,
Macrobe (V e. J. - C.) Sonnet de Scipion :

(٤) خلق العالم La Genèse

(٥) سفر الخروج ف (٣٠) الآية (٣١) .

سفر الأحبار الفصل (١٤) آ (١٥ و ١٦) .

العهد الجديد (رسالة القديس يعقوب) ف (٥) آ (١٤ و ١٥) .

(٦) القرآن الكريم - سورة النور - الآية (٢٣) .

زراعة الزيتون :

ينمو الزيتون في المنطقة المعتدلة ذات الفصليين المتفاوتين من حيث الحرارة والرطوبة كحوض البحر الأبيض المتوسط . لذا عرفت شجرة الزيتون منذ القديم حول هذه المنطقة بحيث لا تبعد كثيراً عن البحر . وقد قدّر تيوفراست مسافة المنطقة القابلة لزراعة الزيتون بما لا يبعد عن البحر أكثر من ٣٠٠ ستاد (أي حوالي ٥٧ كم) .

تتطلب شجرة الزيتون أرضاً غضارية مبنية أساساً من الرمل والحصى لنثبات الشجرة في الأرض طوال الأجيال . وقد ذكر القدماء أن شجرة الزيتون لا تعطي محصولاً حسناً قبل عشرين عاماً وهي تعمّر طويلاً : حتى أن شجرات الزيتون الهرمة في بستان (١) الزيتون المقدس الذي أوى إليه المسيح ما تزال موجودة من عهده . وبذكر شاتوبريان أن في حديقة شجرة الزيتون في فرنسا ثمانين شجرات عظيمة شهدن عهد الامبراطورية المتأخرة (عهد أخلاف شارلمان) ما زالت موجودة من عصر الكاتب . ويشاهد الآن في آسيا الصغرى وجزر الأرخيل الإيجي شجرات قديمة جليلة لا تزال تؤتي ثمرها الطيب .

تذكر الأسطورة اليونانية أن البطل الإله آرستيه Aristée هو الذي علّم البشر زراعة الزيتون وذلك في مسقط رأسه في سيرين Cyrène (في ليبيا) ثم نشر هذه الزراعة في حوض البحر الأبيض المتوسط . هذا ما جاء في الأسطورة ولكن التاريخ والآثار حفظت لنا معاهدات زراعية قديمة نستدل منها أن عاقدتي تلك المعاهدات كانوا يميزون بين أنواع الزيتون جميعاً ويعرفون خصائص كل نوع معرفة جيدة ويتقنون فن زراعته : معرفة نوع التربة اللازمة لكل نوع ، بذل العناية اللازمة له ، تقدير مدى الإنتاج ، كيفية زراعته وتطعيمه وتدريبه ... لقد فرّق الأوائل بين الزيتون البرّي والزيتون الأهلي وقد أسمى اللاتين النوع الأول Oleaster والنوع الثاني Olea ، وحسبوا أن الزيتون الأهلي المزروع نأثي من تحسين النوع بواسطة الزراعة ؛ لكن المحقق D'Aygalliers ينكر ذلك ويقول : « إن تينك الشجرتين نشأتا من نوعين مختلفين ؛ لأن الزراعة لا يمكن أن تغيّر النوع لكنها تحسن جنس الثمرة » .

يذكر المؤرخون والنباتيون القدماء أعداداً مختلفة عن أنواع الزيتون : كاتون يذكر منها

(١) توجد صورة خيالية تمثل بستان الزيتون المقدس من وضع الفنان الإيطالي بليني Bellini .

عشرة أنواع ، نارون يذكر تسعة ، كولوميل يذكر عشرة أيضاً ، بلين يذكر خمسة عشر نوعاً ، ماكروب أربعة عشر ، بالاديوس ستة ، فيرجيل ثلاثة فقط ...
لقد كانت بطبيعة الأمر أشكال الثمرات المتنوعة مختلفة وقد ذكر فيرجيل أشكالها وأسماءها وميز هذه الأنواع أيضاً بحسب استعمالها كزيتون المائدة وزيتون العصر ...

صناعة الزيت :

نذكر الأسطورة اليونانية القديمة التي سبق ذكرها أن البطل الآلهة أريسته Aristée هو الذي علّم البشر أيضاً صناعة عصر الزيتون ، فصنع لهم أول معصرة . لكن المعروف أن صانعي الزيت في القديم كانوا يقومون بعملين من أجل الحصول على الزيت : يمسكون الزيتون أولاً بمطحنة حجرية مؤلفة من حجرتين : الأسفل مقعر وفي مركزه محور ، والآخر محدب (وعلى الآخر كروي) مثقوب من الوسط ويركب على المحور ، ويدوّره شخصان أو دابة ؛ فيهرس الزيتون دون أن يكسر بزره . ثم تجمع عجينة الزيتون الحاصلة من تراكم اللب فتوضع في كيس من قماش خشن يرتكز بين جسمين صلبين ، ويضغظ من الأعلى بأية وسيلة فيسيل الزيت من المسند الأسفل في ميزاب يؤدي إلى إناء . (انظر الى الصورة في اللوحة الثانية)
يحفظ الزيت في جرار ضخمة ليركد وترقد الحماة في الأسفل ويحترق الزيت . ثم يباع بجرار صغيرة ذات عروتين قابلة للنقل تدعى Amphore ؛ ويوضع الزيت بظروف من جلد ليتفادي المنتجون خطر الكسر .

لقد وجدت في الطبقات العائدة الى عهود ما قبل التاريخ المباشر وعهد طلائع التاريخ أقدم معصرة زيت في اليونان مصنوعة من الحجر البركاني . كما وجدت المعاصر القديمة في شمالي إفريقيا (في منطقة الجزائر الحالية) . أما معاصر الزيت القديمة في بلادنا فيرجح أن تكون من العصر الروماني وقد وجد بعضها محطاً في جبل العرب .

صناعة الصابون^(١) :

اشتقت كلمة الصابون من كلمة Sapo اللاتينية . وهذه الكلمة وردت لأول مرة في كتاب التاريخ الطبي القديم للسكراتب الروماني Plinius . وكان يقصد بهذه الكلمة المادة التي كانت

(١) راجع كلمة Sapo من : Edmond Saglio : Dictionnaire des antiquités

يستخدمها الغاليون القدماء من أجل صبغ شعرهم بلون أحمر . وكانت تلك المادة تصنع من مستحلب الرماد مع خلاصة عصير نبات موجود في جرمانيا .

ذكر الشاعر مارسيل Martial أن الجرمن يصنعون مادة لها رغبة ينظفون بها شعورهم ويلمعونها ، فكانت تكسب شعرهم الأشقر صفاءً وصفرة فاقمة . أخذ اللاتين عن الجرمن هذه المادة فقد ذكر كاتون Caton أن النساء كنّ حريصات على استعمال تلك المادة لتجميل شعورهن وصبغها . وذكر أيضاً أن الرماد يدخل في تركيبها .

جاء في كتابة Dioscoride ذكر مادة لم يسمها Sapo لكنه ذكر أنها مركبة من مزيج من عدة أنواع من الرماد مع مادة دهنية أو زيت ، وأوضح أنه كان يستفاد من تلك المادة في تلوين الشعر بالشقرة .

لقد كان اليونان والرومان يستعملون مزيجاً من عدة مواد معدنية ونباتية للحصول على مادة Sapo لتنظيف الثياب والجسم . ونستطيع أن نقول ان الرومان صاروا يحضرون الصابون من القلي والزيت على نحو ما يصنع الآن منذ القرن الرابع الميلادي . وقد شوهدت في بومبي Pompei آثار مصنعين فيها مادة رمادية إذا بوشرت بالماء ظهر لها رغبة .

لا بد أن العرب اكتسبوا صناعة الصابون من السوريين الذين تعلموها من اليونان والرومان، لكن العرب رقّبوا هذه الصنعة كثيراً عندما فضجت المدينة العربية الإسلامية ؛ وصارت المعامل السورية إذ ذاك تنتج أنواعاً فاخرة من الصابون المعطر والممسك الذي كان من أهم مواد التصدير إلى جميع بلاد العالم المعروف . وانتقلت صناعة الصابون إلى أوروبا من جديد من العالم العربي وظلت سوريا حتى القرن السابع عشر شهيرة بإنتاج هذه المادة التي كان يقبل على شرائها تجار البندقية وسندكر أهمية ذلك في التجارة .

تجارة منتجات الزيتون :

عثر على وثائق تاريخية قديمة في رأس شمرا (١) (أوغاريت) من ضمنها قائمة بالبضائع المختلفة المصدرة : ذكر في القسم الأول منها (٤٠٠) سيكل من الزيت ، و (٦٠٠) سيكل من الزيت المعطر . وذكر في القسم الثاني أسماء أشجار متنوعة منها شجر الزيتون .

(١) مكتشفات سنة ١٩٤٠ - الرسائل VI - رقم الوثيقة ١١٧٩٩ من كتاب :

• Robert Langhe المؤلف Les textes de Ras Shamra T. I

(٢) السيكل : وزن و عملة سوربان قديمان اختلفت قيمتهما بين عصر وآخر وبين شعب وآخر .

وُجد في ميناء رأس شمرا (١) في المستودعات المطمورة عدد كبير من جرار الزيت كانت معدة للتصدير ، فحصل حادث مفاجئ أدى الى خراب الميناء وردم المستودع دون أن تصدر تلك الجرار ويقدر الدكتور كلود شيفر رئيس بعثة الحفريات وقوع الحادث في القرن الخامس عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد .

يستثم من دراسة الالياذة والاولديسة لهوميروس أن الزيت كان عزيزاً في اليونان في عصره (القرن التاسع ق.م) ، وكان يؤتى بالزيت إذ ذاك من الشرق (٢) ؛ ولكن تحسن إنتاجه في القرن السابع ق.م إذ أشار الى ذلك الفيلسوف والرياضي اليوناني تالس Thalès . ثم ارتفع الانتاج كثيراً في أثينا في عهد سولون (٣) إذ أنه انتهج سياسة اقتصادية موجهة لمنع تصدير كثير من المواد من أثينا ما خلا الزيت فانه سمح بتصديره بما يدل على سعة إنتاجه .

جاء في التاريخ الروماني أن قارطاجه (المدينة الفينيقية القديمة قرب تونس الحالية التي دخلت في الامبراطورية الرومانية بعد الحروب الإونية الثلاث قبل الميلاد وازدهرت - بعد خرابها - في القرون الأولى من بعد الميلاد) كانت تصدر القمح والزيتون (٤) والحجر والخشب في العهد الروماني .

يفهم من كل ذلك أن مادة الزيت تعتبر مادة حسنة في التصدير اشتهرت بها سوريا وآسيا الصغرى واليونان وجميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ؛ وكانت لأهميتها تعتبر من مصادر الثروة الرئيسية حتى أن أشراف أوروبا في العصور الوسطى كانوا يحتكرون المعاصر في جملة ما يحتكرون لأهمية الانتاج .

استمرت سوريا بصورة خاصة على إنتاج هذه المادة بوفرة فكانت تصدرها في عهود الامبراطورية العربية الاسلامية الى جميع البلاد المجاورة ، وظل الأمر كذلك حتى في العهد العثماني . وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر زاد إنتاج الزيت بسبب كثرة الاتصال مع التجار الأجانب وغلاء هذه المادة . لكن الحرب العالمية الأولى اضرّت بإنتاج الزيت لأن الجيوش المحتلة لجأت الى قطع أشجار الزيتون من أجل تسيير القطارات ، فبهط عدد أشجار الزيتون من (١٤٢٥) (٥) .

(١) Claude F. A. Schaeffer : Mission de Ras Shamra T. III Ugaritica

(٢) 'يختم من سوريا' .

(٣) القرن السادس ق.م (حياة سولون ٦٤٠ - ٥٥٨ ق.م) .

(٤) Auguste Audollent : Carthage romaine

(٥) تاريخ سوريا الاقتصادي - الدكتور الحسني .

مليون) شجرة سنة ١٩٠٩ الى (٩٥٥ ملايين) شجرة في الحرب العالمية الأولى ، ثم تبنى العدد أكثر من ذلك في نهاية الحرب . عاد الاهتمام من جديد بعد الحرب الأولى وكثر إنتاج الزيت بالتدريج .

أما الصابون فانه يعدّ أسهل تصديراً من الزيت ، وظلت سوريا ذات مكانة رفيعة في تصديره في العهود العريية الاسلامية . وما فتئت تصدره الى أوروبا حتى القرن الثامن عشر . ويكفي أن نعرف أن مدينة حلب وحدها باعت صابوناً الى البندقية (١) فقط خلال سنة واحدة في القرن السابع عشر ما قيمته ٢٠٠.٠٠٠ دوق (٢) ، لنقدّر أهمية إنتاج الصابون في سوريا .

استعمال الزيت والزيتون :

استعمل الزيت والزيتون طعاماً وأدماً لذيداً شهياً نافعاً مباركاً فيه ، كما استعمل الزيت علاجاً داخلياً ليقوم بعمل مسهل مدرّ للصفرء وتنظيف للكلى ، واستعمل خارجياً بأن يدهن الجسم والشعر به ليكتسب طراوة ونعومة .

لقد استعمل أبطال المصارعة اليونانيون قديماً الزيت في دهن أجسامهم قبل المصارعة ثم أصبح المسح بالزيت من الطقوس الدينية الوثنية والسهاوية .

لقد ذكرنا استعماله منذ القديم في صناعة الصابون ، وظل حتى الآن مستعملاً في هذا السبيل ، وخير الصابون ما صنع منه .

وكان يستعمل الزيت أيضاً في صناعة العطور فتضاف اليه الروائح الطيبة . ويبدو أن القدماء كانوا يحبون رائحة الزيت لذاتها يضيفون اليه روائح أخرى .

أما الاضاءة فقد كان استعمال الزيت فيها لأول مرة حدثاً هاماً في التاريخ . ويقال إن أول من استعمله في هذا السبيل الفينيقيون فقد صنعوا سرجاً من الفخار والبرونز . وقد نقلوا هذه الطريقة الى اليونان والمستعمرات الفينيقية في المتوسط . إلا أن رواية تاريخية تقول : « إن القديس كليمان (٣) الاسكندراني (من أهل القرن الثالث الميلادي) هو أول من اخترع السراج » .

(١) للمصدر نفسه .

(٢) الدوق : عملة البندقية وهي تساوي ٤١٤٨ فرنكاً ذهبياً في القرن السابع عشر .

(٣) راجع كلمة Lucerna من : Edmond Saglio : Dictionnaire des antiquités

على أي حال يعتبر استعمال الزيت في الإضاءة تقدماً عظيماً ، فقد تفنن الصناع بصنع السُرُج الفخارية والخزفية والبرونزية بأشكال مختلفة : لقد كان السراج الأول وعاءً مفتوحاً يضيق في أحد الأطراف لوضع القليل ، ثم تطور الى وعاء مغلق ذي ثقب واحد أو ثقبين (١) أو أكثر ليكون له منبع ضوئي واحد أو عدة منابع ضوئية .

لقد تفنن القدماء وخاصة العرب بصنع المشكاة الزجاجية اللطيفة كما أبدعوا بصنع القناديل والثرديات الفخمة حتى غدت تحفاً رائعة .

ولا بأس أن نذكر أخيراً بعض الاستعمالات الطريفة للزيت ، فقد قيل انه كان يستعمل في حفظ الثياب ولا سيما الصوفية منها ، فقد ذكر عن الاسكندر الماكدونى أنه وجد ثوباً قديماً في بلاد الرافدين مضى على صنعه مئة وتسعون سنة وكانت لا يزال بحالة حسنة جداً لأنه عولج بمزيج من الزيت والعسل بعد صنعه لحفظه على رونقه طوال تلك المدة .

أما خشب الزيتون فقد استعمل لمئاته في صنع مجاذيف السفن وقبضات الفؤوس . وكان الفنانون ولا سيما الرهبان المنزلون في الأديرة يصنعون من خشبه تماثيل مقدسة فنية . وظلت تلك الصناعة الفنية موجودة حتى وقتنا في الأديرة المسيحية في الديار المقدسة يقبل على شرائها الحجاج .

وأخيراً نختم بحثنا باستعمال لطيف لاغصان الزيتون المباركة التي كانت تعقد على شكل أكاليل تتوج بها هامات المعطاء لتكون شعاراً للحكمة وشارة للنصر وتعبيراً للسلام .

أبو الفرج العسّى

(١) الثقب هو الثقب أو الفوهة التي يوضع فيها القليل .

معرض الفنون الجميلة

لعام ١٩٥٣

للمستاذ منير سليمان

أمين المكتبة في مديرية الآثار العامة

جرت البلاد العريقة في الفن على اقامة معارض للفنون الجميلة من رسم ونحت . تعرض فيها صور الفنانين وتماثيلهم وما تبذره قرائحهم الخلاقة . والفأية من ذلك انشاء صلة قوية بين الفنان والناس وتعرفهم به واطلاهم على مايسنح في خاطره من الاشكال الفنية ، يصور بها جانباً من حياتهم ، والبيئة التي يحيون بها . ولولا هذه المعارض لظلت آثار الفنان مجهولة من الناس محتجبة في برجه الفني او في مكتبه ومعمله .

اما اذا عرف الناس هذه الآثار واطلموا على ناحية الابداع فيها . نشأت بينهم وبين الفنان رابطة قوية ، ورافقوا الفن في معارج رقيه وتقدمه . إذ الفن لا يجمد في مكانه بل يسير بالاصل الى امام ، اما ما كان بمعزل عن الحياة ظل جامداً في مكانه لا يرافق الحياة في تطورها وتقدمها .

وما اقبال الناس على الفن سوى حث الفنان على المضي بفنه الى امام ، وكيف ينجو الفنان من نوازع التقدم . ونور النقد يغمر فنه ؟ وليس هذا النور سوى وهج الحياة التي من طبيعتها ان تتبدل في كل يوم وساعة ولحظة .

كل شيء في الدنيا يتبدل ، والحياة تتبدل وتسير الى امام وبحكم هذه الضرورة ، تتبدل نظوتنا الى الاشياء وتتبدل مفاهيمنا المختلفة . بمعنى ان النقد نفسه يتبدل من يوم لآخر ولا بد للفنان الموهوب ان يجارى سنة التبدل فيتغير ، وتبدله هذا مرهون بصلته بالناس وصلته بالحياة ، ثم صلة الناس بآثاره الفنية . والسبيل الوحيدة لادراك هذه الغاية انما هي المعارض الفنية التي تقام من حين لآخر .

من هنا كانت فكرة المعارض الفنية في العالم ومن هنا كانت فكرة اقامة معارض فنية في المتحف الوطني بدمشق . في التاسع والعشرين من شهر تشرين الاول افتتحت مديرية الآثار العامة بدمشق المعرض الرابع للفنون الجميلة (الرسم والنحت) وكان اقبال الفنانين على الاشتراك به كبيراً مما يبشر بطلائع نهضة فنية في سوريا تسمى ان تواكب نهضة الفن في البلدان المتقدمة . ثم ان اهمية هذا المعرض انه جمع لوحات من مختلف مذاهب الرسم من الواقعية الى الانطباعية الى السريالية الى التركيبية . وهذا دليل واضح على ان الفنانين السوريين قد خبروا هذه المدارس واقتبسوا منها ، وتجلت هذه الخبرة فيما عرضوا من صور وتماثيل .

في أول المعرض بلفتك الفنان جمال جمعة بلوحاته (من وحي النيل ، وفلاح مصري ، وجنتي ، وفلاحة مصرية ، وطريق المعادي) فتلمح في هذه اللوحات جميعاً ريشة قوية ، والواناً منسجمة متسقة ، ودقة ومهارة في تحديد الاحجام ومراعاة النور والظل . ثم تلفتك بموضوعها القوي مثل لوحة النيل إذ تصور فلاحاً مصرياً يقامته القارعة ووجهه الأسمر وجسده العاري ، واقفاً على قارب صغير وهو يحذف ، وعائلته حوله وافرادها يمثلون أبناء الريف المصري وجانباً من حياة هؤلاء الناس الذين يجدون ويكدون وينفعون المجتمع بما يفيضون عليه من الخيرات . اما الوان هذه اللوحات فهي تميل الى اللون الكاكي .

ثم ترى الفنان مروان قصاب باشي ولوحاته تتميز بصفاء الالوان ولطفها ونعومة الفرشاة . وفي لوحاته حياة تنبض إذ تشعر بنسبات عليقة تهب في جنباتها ، وبالماء ينساب في جسداول رقراقة . اما الموضوع فإن لوحاته جميعها تقتصر على المناظر الطبيعية ولا تحتوي موضوعاً يدل على مغزى عميق .

ثم هناك الفنان ميشيل كرشه تطل لوحاته من صدر القاعة متميزة بريشة قوية تجزم انها في يد فنان ملهم ، ومتميزة بالوضوح والالوان المشرقة الوضيئة . وهو متأثر الى حد كبير بالمدرسة الانطباعية . ولوحاته أيضاً تقتصر على المناظر الطبيعية ، وتفتقر الى الموضوع والمعنى العميق . وتلفتك لوحات الفنان نصير شوري وهي (ابنة الساحل ، ومعلولا وابتهال وعين صاحب وقلمة جندل) . وجميعها تدل على اضاءة فنية وريشة قوية وخيال خصب . وقد تميزت لوحاته بالوانها الحارة القوية وتميزت بمواضيعها . إذ ترى لوحته ابتهال بلونها الاحمر يتنمعه لون اخضر وقد وفق الفنان جداً في الموضوع إذ ترى امرأة لشتمل حيوية ونشاطاً وراها تضيق بما يعتملج

في صدرها من امل واحلام ، وتريد ان تعبر عن هذه العواطف المكبوتة فيترسم ذلك بارادة حاسمة على قسبات وجهها ويشع من رؤوس اصابعها حتى يحيل لمن يشاهدها كأنه يسمع ضربات قلبها . وكأنه يشعر بحراره انفاسها تبعثها في الهواء .

وهناك الفنان محمود حماد فقد عرض لوحات (صيدنايا في الشتاء وجبال جبعدين وبستان وقلعة صهيون ويبروت - الساحل -) وأميز لوحاته بيروت من ناحية الالوان ولمسة الفرشاة الناعمة وألوانها المشرقة المضيئة . ثم هناك الفنان محمود جلال ويتميز بأنه رسام ومثال وله ثلاث لوحات هي غروب وعتاب وطبيعة صامنة وتميز بريشته القوية ومحافظته على نسبة الابعاد وتناسق الالوان وتوافقها . ويأتي بعد ذلك الفنان الفريد بخاش بلوحاته القربان وذات الشعر الوردى وفي الحديثة ، ويتميز الاستاذ بخاش بقدرته الفائقة على مزج الالوان واستخراج لون خلاب ساحر ثم يتميز بدقة ريشته ونعومتها حتى لتحسب الحرير في لوحته ذات الشعر الوردى ، كأنه يخفى كلما هبت النسيم . ثم ترى لوحات الفنان توبار صاغبان وهي لوحات مائية تمتاز بالوانها الطبيعية التي تحاكي لون الطبيعة في سوريا ، فلون خضرة الشجر في لوحاته اسمر يعيل قليلا الى الخضرة وهذا هو اللون الحقيقي لخضرة الاشجار في سوريا ولوحته في النيرب بلغ بها درجة عالية من الفن من ناحية نقله اللون الطبيعي للاشجار وللون الطبيعة . ومن ناحية النور الذي يمر خلال الاوراق والاغصان وهناك الفنان سامي برهان فقد تميزت لوحاته بالبساطة ودقة التعبير وباللون المفرحة . ويأتي بعد ذلك الفنان فاتح المدرس ويفرد عن جميع الفنانين انه ينتسب لمدرسة جديدة في الرسم هي المدرسة السريالية ، ومن مبادئها ان الفنان ينفذ الى اعماق بؤرة في الانسان ويمتج ما فيها من الغرائز ويسفحها على سطح الحياة . وقد تمتلكت فكرة الفنان في لوحته (الامل الاخير) وهي تمثل شجرة ترمز الى الانسانية المعذبة وقد جذت فروعها سوى غصن غض طري ينبت في ساقها هو امل الانسانية الاخير . والاستاذ فاتح المدرس لا يقتصر على هذه الطريقة في لوحاته بل ينحو ايضاً طريقة فان غوك . وقد عرض لوحتين من هذه المدرسة وهما الفيض وسهل الروح بجانب هؤلاء الفنانين السوريين عرض فريق من الفنانين الاجانب لوحات على سبيل العرض فحسب إذ انهم لا يشتركون في الجوائز التي تمنح للفنانين السوريين . ومن بين هؤلاء الفنانين نوفيكونوف وبوغلان . وعرض الفنانون جاك وردة وعدنان الرفاعي والفريد بخاش تماثيل من نحتهم تدل على تمكنهم في فن النحت وقد شهد هذا المعرض زوارا يعدون بالآلاف وشهد فنانين سوريين مجلن في فنههم . فكان ذلك دليلاً ، سواء من ناحية إقبال الناس ام ناحية الآثار الفنية على ان النهضة الفنية في سوريا باتت حقيقة ملموسة تراها بالعيان ونلمسها باليد .

منير سليمان

Les offrandes et les ex-votos ne devaient donc pas être déposés dans cette cour, mais dans quelques dépendances qui peuvent se trouver dans le tertre.

3. — En fouillant ces dépendances du sanctuaire on a quelque chance de rencontrer non seulement des documents de l'époque hellénistique, mais aussi du temps des Perses et de l'âge du fer, car le tell est haut d'une dizaine de mètres. Or, si les fouilles en Phénicie ont jusqu'ici donné beaucoup de documents des époques de l'âge du Bronze, nous n'avons rien ou à peu près rien entre le XII^e et le III^e s. avant notre ère. Ces neuf siècles représentent pour la Phénicie un temps de grande civilisation, celle dont parlent les auteurs classiques à commencer par Homère, la Bible et les documents assyriens. C'est la Phénicie du grand trafic en Méditerranée, des échanges de tous ordres, qui établit le contact entre la Grèce naissante et les civilisations de l'Orient sous leurs formes multiples: idées philosophiques et religieuses, formules d'art, écriture, techniques.

4. — L'onomastique des villes situées au nord de l'Eleuthère et ce que nous savons de leur histoire montrent cette région comme l'aire propre de la mouvance hellénique dès le VII^e s. avant notre ère. C'est par là que les grands souffles de la pensée orientale ont dû se répandre sur la Grèce naissante.

5. — Amrith constitue une base commode pour étudier la région encore assez peu connue qui s'étend de la Méditerranée à l'Oronte. Nous rechercherons une fois de plus la ville de Simyra et une autre ville fondée dans la vallée du Nahr el Kebir par Ramsès II lorsqu'il marcha sur Qadech après avoir longé la côte jusque dans la baie d'Akkar.

MAURICE DUNAND

Nous n'avons qu'à renvoyer le lecteur à cette importante notice. C'est à Marathus que Darius et Alexandre échangèrent leurs messages de négociations après l'invasion de la Syrie du Nord par les troupes macédoniennes (1). Là que leur chef eut connaissance de l'énorme butin ramassé à Damas par ses armées et qu'il se fit envoyer les ambassadeurs grecs capturés en même temps (2).

Le classement des monnaies émises par les ateliers de frappe de Marathus est à revoir d'après les études récentes qui complètent et rectifient sur certains points les conclusions des grands classiques de la numismatique des villes de Phénicie (3).

Le nom phénicien de Marathus nous est donné par les monnaies:

Le vocable actuel d'Amrith n'implique que la prothèse d'un *alef*. La relation de ce mot avec Amourou et les Amorites me paraît évidente, sans que l'on puisse préciser actuellement la valeur de cette relation. Ainsi que Simyra, cette portion de côte syrienne est terre d'Amourou (4). Au temps de Tell el-Amarna cette dénomination était valable jusque dans la région de Byblos.

Voici les raisons qui nous ont amené à effectuer des sondages à Amrith aussitôt que nous avons été invité par le Gouvernement Syrien à ouvrir un chantier de fouilles en Syrie.

1.— Le tertre de Marathus est de peu d'étendue et contigu au temple excisé dans le roc. Il doit représenter la partie de l'installation qui participait de la vie du sanctuaire. On peut donc y retrouver un reflet de la vie de celui-ci.

2.— Le sol du temple ne semble pas avoir été dans l'antiquité à un niveau autre que celui que nous voyons aujourd'hui. Il est inconcevable que l'on ait évidé le rocher plus bas qu'il ne fut utile. C'est volontairement que cette cour a été creusée au niveau du sol de la vallée du Marathias. J'en conclus que dans l'antiquité comme aujourd'hui l'eau entourait le naos pendant au moins la plus grande partie de l'année.

(1) RADET, *Notes critiques sur l'histoire d'Alexandre*, première série, 33.

(2) R. P. ABEL. *Loc. cit.*

(3) Voir H. SEYRIG dans *Antiquités Syriennes*, IV, p. 186 — 200.

(4) Tiglatphalasar III parti d'Aradus gagne par bateau la ville de Simyra «au pays d'Amourou».

jambes du dieu. La sculpture est de qualité et la forme des caractères phéniciens permet de l'attribuer au IV^e s. avant notre ère. On a dit que cette stèle provenait de l'embouchure du Nahr el Abrache, qui coule à 16 km. au sud d'Amrith. A l'embouchure de cette rivière il n'y a rien qui atteste un établissement ancien important. On y voit bien une Loursouflure du sol, mais elle est peu étendue et élevée seulement de deux ou trois mètres au-dessus du niveau des terrains d'alentour. En surface les fragments de poteries sont rares et inexpressifs. Il est tentant d'attribuer plutôt cette stèle à l'ensemble culturel d'Amrith, comme on l'écrit communément aujourd'hui.

Une source sourd au bas de la pente nord du tertre. C'est là que les femmes du village d'Amrith viennent puiser l'eau. Je me renseigne sur son nom: *nabah el-Tell*, la source du Tell. Rien de plus mais tout cela aussi. L'eau vive de Marathus, celle aussi des dieux du sanctuaire. Mon informateur est un fellah du voisinage. Il pêche avec un mauvais jonc dans l'eau moitié mouvante, moitié stagnante du nahr Amrith. Près de lui le produit de sa pêche: de petites anguilles plates, longues de 15 à 20 cm. au plus. Je pense aux *Teniai* que selon Strabon on pêchait dans les rivières de la région du Casius.

Résumons maintenant ce que nous savons de l'histoire de Marathus-Amrith.

Le récit des campagnes de Thoutmès III mentionne une localité du nom de *kart amrwta* (1). Le premier élément correspond au phénicien *qrt* (2) qui signifie ville et qui est toujours suivi d'un dénominatif: cf. *Carthage*, *Carthagène*. Cette identification due au regretté Père Abel (3) ne fait aucun doute à mon avis. Rien sur Amrith dans la Bible ni dans les Annales des rois d'Assyrie: ces sources ne mentionnent qu'Aradus. Il faut attendre jusqu'au temps des campagnes d'Alexandre pour voir de nouvelles mentions d'Amrith, sous la forme grécisée de Marathus, *une ville grande et belle*. Ces mentions ont déjà été réunies et commentées par Honigmann (4).

(1) H. Gauthier, *des noms géographiques contenus dans les textes hiéroglyphiques*, t. V, p. 191.

(2) Le changement du *Kaf* en *qof* ne fait pas de difficulté.

(3) *Rev. Bibl.* 1934, p. 540.

(4) Pauly-Wissowa *Encicl. s. v. Marathus*. Voir aussi E. Babelon, *Les Perses achéménides, Catal, des monnaies grecques de la Bibl. Nat.* Paris 1893, p. CLXIY.

de céréales et quelques champs de lentilles aux abords. Ces débris pouvaient recéler les installations successives du personnel du temple et de ses services.

En 1938, j'ai visité de nouveau ce site avec Mc Ewan et Braidwood. Mais il n'était pas dans leur propos d'exploiter un gisement qui, d'après les fragments épars en surface ne paraissait relever que des temps hellénistiques et peut-être de l'âge du fer. On en voyait d'ailleurs mal les limites. Il me fallut revenir à Amrith en 1951 et errer dans le marécage que forment au sud du *Ma'bed* les eaux stagnantes des sources d'Amrith pour apercevoir, nettement découpée, la silhouette d'un tertre régulier avec ses pentes bien marquées et sa plate-forme horizontale (fig. 1). La première impression fut que nous avions sur cet emplacement les décombres formés par les dépendances du sanctuaire. Le tertre lui est littéralement contigu. Je me demande comment il n'a pas été déjà repéré. Revenu sur sa plateforme les tessons y foisonnent, les fragments de basalte s'y multiplient, j'y recueille moi-même la partie inférieure gauche d'une stèle de basalte fin. Le champ y est en creux par rapport au tableau inférieur. Le fragment lavé, la partie du champ conservée livre des traits parallèles perpendiculaires à la base et séparés les uns des autres par un intervalle de cinq centimètres. Ce serait donc un fragment de stèle inscrite en colonnes verticales, comme il advient couramment dans l'écriture égyptienne et dans celle des pseudo-hiéroglyphes de Byblos. Aucun signe n'apparaît; on examine la pierre sous tous les jours, rien, aucune trace de ciseau. Mais c'est bien le fragment d'une stèle destinée à recevoir une inscription qui n'a pas été gravée ou qui ne s'est pas étendue jusqu'au bas du champ qui lui avait été préparé.

Les nombreuses statues et statuettes que nous avons nous-même exhumées à l'ouest du sanctuaire, en 1926, attestent l'activité intense du culte aux IV^e et III^e s. avant notre ère (1). Une stèle plus ancienne que ces sculptures a été découverte dans la région vers 1880 (2). C'est un monument splendide, en calcaire coquillier, représentant un dieu campé sur un lion parcourant la montagne. De la main droite il brandit une massue, de la gauche il tient un lion maîtrisé. Une dédicace est inscrite entre les

(1) Ci-dessus p. 166, note 1.

(2) CLERMONT-GANNEAU, *Recueil d'archéologie orientale*, IV, p. 325 — 347. Bonne reproduction dans DE RIDDER, *Catalogue de la collection de Clercq*.

nos circuits m'amènèrent au pied d'un autre site important. Si on a de bonne heure identifié Marathus avec Amrith pour des raisons philologiques et d'après les indications des géographes anciens, on n'avait pas encore repéré l'emplacement du tertre engendré par la ville. Moi-même j'avais campé quinze jours dans la région sans me préoccuper du problème, occupé que j'étais à exploiter la favissa du temple que m'avait révélée une trouvaille fortuite (1). Plus tard, vers 1935, parcourant une fois de plus la région avec le souci, cette fois, de retrouver les restes de l'agglomération qui avait donné vie au temple excisé dans le roc, au stade qui creuse ses gradins dans les rochers de la rive opposée du nahr Amrith, et pourvu au luxe des tombeaux monumentaux qui dressent leurs superstructures plus au sud, j'eus l'attention attirée par les nombreux éclats de poteries dont le sol est jonché à l'Est de ce sanctuaire. Je vis qu'il y avait là une épaisseur de terre plus forte qu'ailleurs où presque partout



fig. 1.

le roc en perce la couche mince. Cette masse de terre m'apparut d'une assez faible puissance et de peu d'étendue. En surface, de maigres cultures

se trouvait à la recherche d'un site nouveau en terre syrienne, je suggérais la fouille du tertre de Mantar. Des sondages y furent entrepris qui ne donnèrent rien de ce que nous attendions. (Voir ROBERT et L. BRAIDWOOD, *Report on two Sondages on the Coast of Syria, south Tartous*, dans *Syria*, XXI, 1940, p. 183-226).

(1) Voir *Bulletin du Musée de Beyrouth*, t. VII, 1944, 1945, p. 99 — 107 et pl. XIV — XXIX; t. VIII, 1946 — 1948, p. 81 — 107 et pl. XXX — XLII.

RECHERCHES ARCHÉOLOGIQUES

DANS LA RÉGION DE MARATHUS

NOTE PRÉLIMINAIRE

par

MAURICE DUNAND

Lorsque l'occasion me fut donnée d'envisager de nouvelles recherches archéologiques en Syrie, je n'hésitais guère dans le choix d'un site. Chargé déjà avec Byblos de tant de responsabilités, je ne pouvais songer un instant à un de ces grands tertres où toute une longue histoire attend toute une vie de fouilleur pour être dévidée: Tell Chihab, Tell Achtara dans le sud hauranais, Qadech, Hama, Tell Afis entre cette dernière ville et Alep, Tell Rifat, sans parler de tel site de la vallée l'Oronte ou de la Mésopotamie syrienne. Sur la côte méditerranéenne, qui est devenue le domaine de mes investigations personnelles, j'ai toujours été attiré par le problème du site de Simyra, cette ville tant de fois citée dans les tablettes de Tell-el Amarna et si fréquemment mise en relation avec Byblos. Les géographes de l'antiquité, les Annales de Tiglatphalasar III, les campagnes de Thoutmès III permettent sans doute aucun de chercher cette ville sur la côte méditerranéenne, entre l'embouchure du Nahr el-Kebir, le fleuve Eleuthère des Anciens, et Marathus, qui est représenté par Amrith. Jusqu'ici, ces recherches topographiques sont demeurées sans résultat (1). En revanche,

(1) A la suite de Dussaud (*Topographie hist.*, p. 118), j'avais songé à Mantar, à 9 km. au sud d'Amrith. Existence d'un tertre sur la rive, céramique de surface abondante, aménagement d'une jetée s'avancant en mer, voisinage du Nahr Symirian qui conserve le toponyme ancien, engageaient fort à y faire quelques sondages. Lorsque après la fin des fouilles de l'Oriental Institut of Chicago dans le Sandjak d'Alexandrette, l'équipe Mc Ewan et Braidwood

A 1178 (pl. III - 3 . 59 x 25 et 18; lettres 1,8).

'BD WMWD'	<i>A fait en action de grâces</i>
LRHMN' TB'	<i>au Miséricordieux, au Bon,</i>
YRHY BR 'GYLW	<i>Yarhai fils de Ogeilou</i>
BR SKYY DY QRYH	<i>fils de Sokayai, parce qu'il l'a invoqué</i>
W'NYH BYRH 'LWL	<i>et qu'il l'a exaucé, au mois d'Eloul</i>
DY ŠNT 5	<i>de l'an 5</i>
62	62 (septembre 251).

A la fin de la première ligne, le lapicide a commencé à graver un Y (peut-être la première lettre de YRHY). L'évolution de l'écriture se traduit pour notre texte par des R/D, des W et des N aux brisures très marquées; le jambage vertical du B s'incurve, le T a une première haste aussi haute que la seconde, le T ressemble à un Y ouvert à droite, le S débute par un arc de cercle et non par un simple trait. Par contre le H et le Š gardent des formes plus anciennes.

Le nom du grand-père du dédicant, SKYY, était connu, mais écrit avec un Š: Shokayai fils de Wahballât (en grec Sochaieis) est l'un des quatre fondateurs de la célèbre tour funéraire habituellement désignée par le premier des quatre frères, Elahbêl (1). Le même nom existe aussi sans la désinence — ay: ŠKY, Shokai, RTP 376 et *Inv.* VIII, 180) Les deux noms sont des abréviations de ŠKYBL (*CIS* II, 4238 et 4493; RTP 182). L'alternance S/Š suggère la racine š k y, voir, espérer, d'où le syriaque sūkaya. espérance. Le sens est donc "Bêl est mon espérance" (2).

(A SUIVRE)

DJA'FAR AL-HASSANI ET JEAN STARCKY

(1) Voir *CIS* II, p. 269. Le SKYY BR WHBLT nommé par deux tessères est sans doute le même personnage (RTP, 376 et 825).

(2) Voir RTP, *Comment. philol.* (A CAQUOT), à paraître.

‘N’, au lieu d’être à la troisième personne comme dans CIS II, 4100 (‘NNWN’) est curieusement à la première (‘NN’). On préférerait croire à une forme courte ‘anûn), d’ailleurs non attestée, ou à une négligence, n’était le LN (*à nous*) de la fin de la ligne, dont la lecture paraît certaine. Une construction analogue, quoique moins abrupte, se lit sur un pyrée daté de 263/264, où l’énumération des dédicants est suivie de la première personne: DY QRYNY W‘NN, *parce que nous l’avons invoqué et qu’il nous a exaucés*. (CIS II 4048).

L’Abbé Chabot à propos de CIS II, 4100, a fait les rapprochements voulus: il cite en particulier le psaume 118: *dans la détresse je l’ai invoqué, Seigneur; tu m’a exaucé en me mettant au large* (MRHB), *Seigneur* (verset 5). Pour la première partie du verset, le Targoum, c. à d. la traduction araméenne en usage chez les Juifs de l’époque, rend le mot hébreu ‘détresse’ (MSR) par ‘QT’, qui n’est autre que l’état emphatique de notre mot ‘Q’. Pour la seconde partie, le Targoum s’éloigne de notre texte palmyrénien: *tu a reçu ma prière* (en me mettant) *au large* (PTYH). La version syriaque par contre offre pour “le large” le même mot que notre pyrée et CIS II 4100: RWHT’, état emphatique de RWH’ (*rewaha*), tandis que pour ‘détresse’, elle a ‘WLSN’. D’autres passages analogues de la version syriaque portent RWHT’ (Psaume 18, v. 20; 31, v. 9; 119, v. 45), tandis que la traduction des targoumistes varie.

Les Palmyréniens qui ont offert les deux autels n’étaient ni juifs, ni chrétiens: les noms de notre dédicace n’ont rien de spécifiquement juif, et la lecture MRHS (W)N est trop incertaine pour être retenue ici; et d’ailleurs la mention de la Renommée dans le texte CIS II, 4100 exclut un dédicant israélite. Mais une influence biblique est ici indéniable: il est plus difficile de dire si elle est due à des Juifs ou à des Chrétiens. L’Abbé Chabot penche pour la première hypothèse (1); pourtant à cette date, il est très probable que la ville comptait des chrétiens, et on pouvait donc utiliser une version syriaque des Psaumes (2). Quoiqu’il en soit, il faut souligner qu’un palmyrénien pieux était préparé à goûter et à adopter un verset biblique de ce genre, car sa propre phraséologie religieuse rendait un son très semblable: ‘il l’a invoqué en tous lieux et il l’a exaucé’ dit une dédicace des environs de l’an 200 (CIS II, 4011), et une autre, de 263, reprend une formule connue par les dédicaces grecques: ‘parce qu’il l’a invoqué sur terre et sur mer, et qu’il l’a exaucé en tout ce qu’il lui a demandé’ (CIS II, 4047).

(1) *Rev. Bibl.* 1920, p. 377; cf. CIS II, 4180 et 4201. Voir aussi J. STARCKY, *Palmyre*, p. 67 et 100.

(2) On ne sait exactement à quelle époque l’Ancien Testament fut traduit en syriaque.

apparaît sur les pyrées à partir de 219 (*Tadm.* 22) et toujours précédé de TB' et de RHMN': ici *tāba* est absent. On sait que l'épithète TYR' est un emprunt au babylonien (1), qui s'ajoute à tous les autres constatés par ailleurs (2). L'adjectif RHMN' se retrouve dans les diverses langues sémitiques, mais il est particulièrement fréquent dans les tablettes accadiennes comme épithète divine: ainsi Mardouk est très souvent appelé *rēmēnu*. Parfois on a le couple *tayāru rēmēnu*, mais sans qu'il soit réservé à un dieu plutôt qu'à un autre: on l'applique à Mardouk, mais aussi à Sin et à Nébo (3). *Tayāru* exprime l'idée que la divinité *se retourne* vers le fidèle qui l'implore (*tāru*, *se retourner*), mais pratiquement, c'est un synonyme de *rēmēnu*, et ce couple d'épithètes est tout à fait comparable au groupe biblique HNWN et RHWM *hannûn* et *raḥḥûm*, gracieux et miséricordieux (4); davantage que *tāba weraḥmāna* (cf. A 1172), elle prélude à la formule coranique *al-rahman al-rahim* qui ouvre chaque sourate.

Plus inattendue est la formule qui exprime le motif de l'offrande: *parce qu'ils l'ont invoqué dans la détresse et qu'ils nous a mis au large*. A vrai dire, on la connaissait à Palmyre par un autel mutilé, dédié, semble-t-il, à la Bonne Renommée (TŠ' ' TB' WŠMY': sur l'estampage que lui avaient communiqué les P.P. Jaussen et Savignac, l'Abbé Chabot a encore pu lire: DY QRW LH B 'Q' W'NNWN BRWH' (la date est perdue) (5). Dans notre dédicace le suffixe du verbe

(1) Déjà P. JENSEN, *ZDMG.* 1894, p. 340, note 1, mais l'auteur pensait à tort que TYR' était un attribut du Bél palmyrénien, comme *tayāru* l'est du Bél Babylonien.

(2) Cf. H. Seyrig, *JRS.* 1950, p. 1ss.

(3) *CIS* II, 3981, commentaire de la 1.4; cet autel, dédié «au Miséricordieux, bon et compatissant» daterait de 188, mais nous avons pu examiner à Palmyre la pierre, qui est trop abîmée pour permettre d'affirmer que la date ne se poursuivait pas. Quant à l'écriture, elle est difficile à dater, car quoique très sinieuse, elle évite les brisures (cf. notre pyrée A 1207, de 219); la mouluration de la corniche est un cavet et un quart de rond (cf. notre pyrée A 1205, de 225); l'autel est reproduit, J. B. CHABOT, *Choix* . . . pl. XXIV, 1. Pour le couple «*tayāru rēmēnu*» voir aussi MUSS-ARNOLT, *Assyrisch-english-deutsches Wb.* p. 969; pour l'étude de chaque épithète: K. TALLQVIST, *Akkadische Götterepitheta*, Helsinki, 1938, p. 102, 241 et 371 (*tābu*, *bon*, n'est pas utilisé au sens moral, n'ayant en akkadien qu'un sens physique); MULLO-WEIR, *A Lexicon of Accadian Prayers in the Rituals of Expiation*, Oxford, 1934, p. 283 et 358.

(4) Voir la *Concordance* de MANDELKERN, p. 1087b.

(5) *CIS* II, 4100: nous avons revue ce pyrée à Palmyre (A 269), dont l'inscription ne garde plus que quelques lettres. On connaît un autel dédié à la *Bonne Epoque*, 'DN' TB' (*CIS* II, 3993 et *Tadm.* 14) en même temps qu'au *dieu non nommé*: il en allait peut-être de même pour *CIS* II, 4100. En fait, *dieu non nommé* et *Bonne Epoque* ne devaient être, pour le dédicant, qu'un double aspect de la même divinité.

(le *Kanoun* des Palmyréniens) à l'époque gréco-romaine: on ne le lit pas dans la Bible (qui a *Boul*), mais deux fois dans le Targoum, ainsi que dans les écrits contemporains (1).

Le reste du texte occupe toute la surface du corps, et le lapicide a été obligé de couper plusieurs fois le dernier mot de la ligne pour faire tenir toute la dédicace. L'écriture est assez grossière et ne permet guère de déductions pour l'évolution des formes. Notons pourtant que le H a pris l'aspect d'un X, que la partie gauche du T est très haute et légèrement recourbée vers l'extérieur (mais cf. déjà A 1171), et que le Š est très ouvert. Le N final n'est pas distingué (cf. A 1174). A la ligne 4, TYṬWYLW doit représenter le nom du grand-père du dédicant: seul le L est quelque peu douteux (cf. pourtant le L de QRW LH), et pourrait être lu K, ou à la rigueur S (*écriture fautive de Titius*).

Le nom du dédicant, N'RY, est à rapprocher du *Noaraios* de l'inscription bilingue CIS II, 3917 (= *Inv.* IX, 15), datée de novembre 108: malheureusement le texte palmyrénien est abîmé juste à cet endroit. Les éditeurs ont pensé à [NH] RY, [NḤ] RY ou [Nc] RY. Cette dernière restitution s'appuie sur les noms propres nabatéen NcRT et sabéen NcR (2); la racine sémitique N'R est bien développée (*rugir; secouer; garçon*), au contraire de la racine N' R, qui ne fournit pas de sens plausible pour un nom propre N' RY. Cette dernière forme pourrait donc n'être qu'un affaiblissement de N'RY, le passage de *ain* à *alef* étant connu par ailleurs (3).

L'épouse du dédicant porte le nom de °D', non attesté à Palmyre. Dans la Bible, °DH (Édah) est le nom de la femme de Lamech et de celle d'Esau, et on l'a rapproché du nom propre minéen °DT. La racine °DD, *être ami*, a donné le théophore sud-sémitique °D'L et ses dérivés, en particulier le safaïtique °D, *Idd* (4).

Mais l'intérêt principal de la dédicace réside dans les formules employées. Le dieu non nommé est qualifié de *rahmâna we tayâra*. Le second attribut

(1) Sur ce terme emprunté par les Juifs aux Babyloniens (= *erah šamna*, huitième mois) cf. le *Dict. de la Bible*, et le dict. rabbinique de M. JASTROW, p. 841.

(2) CANT. *Nab.* II, p. 121 et RYCKMANS, *Rép.* p. 397; cf. WUTHNOW, p. 152.

(3) Cf. CIS II, 4159 et 4432: T'QB pour °T'QB. Voir aussi PNO n° 4 et 55.

(4) RYCKMANS, *Rép.* p. 157, 241, 398; cf. nab. °DYW (CANT. *Nab.*, p. 127); pour les transcriptions, WUTHNOW, p. 155.

A 1206 (pl. III-1. 86 x 33 et 21; lettres 2).

BRYK ŠMH L'LM'	<i>Béni soit son Nom à jamais,</i>
TB' WRHMN' 'BD	<i>le Bon et le Rémunérateur, a fait</i>
WMWD' ML' BR	<i>en action de grâces Mala fils de</i>
[Y]HYB' 'NN (?) 'L	<i>Yehiba (fils de) Anan (?), pour</i>
HYWHY WHY' BNWHY	<i>son salut et le salut de son fils</i>
ŠNT 555	<i>l'an 555 (243/244).</i>

La restitution YHYB' est appuyée par les attestations maintenant assez nombreuses de ce nom: CIS II, 4030 et 4050, RTP 552, 798 et 813. Ce participe passif de YHB, *donner*, est un nom théophore apocopé identique au syriaque Yehiba (1). Quant au nom du grand-père, si notre lecture est correcte, il représente une variante non attestée en palmyrénien, mais connue en hébreu, de 'NNY ou 'NNW (voir CIS II, 3994).

A 1177 (pl. III-2. 57 x 25 et 18; lettres 1,7).

LBRYK ŠMH L'LM'	<i>A celui dont le Nom est béni à jamais,</i>
'RHMN' WTYR'	<i>le Miséricordieux et le Compatissant, (a fait)</i>
MWD' N'RY BR MQ-	<i>en action de grâces Noarai fils de Moqîmou</i>
YMW TYTWYLW W'D'	<i>TYTWYLW et Edda</i>
5 TTH WBNWH WB-	<i>sa femme et ses fils et tous les</i>
N' BYTH KLHWN	<i>gens de sa maison,</i>
DY QRW LH B'Q'	<i>parcequ'ils l'ont invoqué dans la détresse</i>
W'NN BRWH' LN	<i>et qu'il nous(?) a exaucés (en nous mettant) au large,</i>
ŠNT 562	<i>l'an 562 (250/251).</i>
BYRH .. YŠ.	<i>au mois de</i>

La dernière ligne a été ajoutée par une main inexperte sur la mouluration de la base; la lecture BYRH ne fait guère de doute, mais le *shin* du mot qui suit est trop loin pour être celui de TSRY, *octobre*. On est tenté de lire MRHŠ(W)N, *Marheshouan*, nom que les Juifs donnaient au mois de novembre

(1) WUTHNOW, p. 145, qui donne aussi les transcriptions grecques *Eibas*, et *Iacibas*, qui excluent pour YHYB' une vocalisation «Yoheiba» (diminutif).

Ici encore, l'écriture offre diverses singularités : les alef sont tournés à droite (1), les N finals ne sont pas distingués, les H sont insolites. Par ailleurs, les brisures correspondent à la date.

Les noms propres sont à noter: MLKY n'était attesté qu'une fois (2), et n'est sans doute qu'une variante de MLK', qui est lui-même la forme araméenne de MLKW: souvent l'aîné des petits-fils porte le nom du grand-père. Quant à ZWZY, ce peut être le nom de l'ancêtre (3). Le frère de Maika se nomme Atéai: c'est l'hypocoristique de Atéaqab, et nous le connaissons déjà par deux textes: CIS II, 4010 et 4598.

La forme 'BD n'est pas un pluriel, car MWD' est au singulier: il y a accord avec le sujet le plus proche (voir plus haut, A 1172).

A 1176 (pl. II - 4 et 4 bis. 58 x 30 et 20; lettres 1,5). Sur la face arrière, le dédicant et l'un de ses parents sont figurés en orants.

BRYK ŠMH L'LM'	<i>Béni soit son Nom à jamais,</i>
TB' WRHMN' 'BD	<i>le Bon et le Miséricordieux! A fait</i>
WMWD' HYRN BR YML'	<i>en action de grâces Hairan fils de Yamla</i>
MQYMW 'L HYWHY	<i>(fils de) Moqimou pour son salut</i>
5 WHY' 'BWHY WDDH	<i>et le salut de son père et de son oncle</i>
W'HWY Š (NT) 555	<i>et de son frère, l'an 555 (243/4),</i>

Le texte et l'écriture appellent peu de remarques. Il faut relever le mot *dâd*, nouveau à Palmyre, à moins que le *dôd* d'un texte archaïque mutilé ne représente le même mot avec passage de â à ô (voir *Tadm.* 24). Le mot *dâd* appartient au sémitique commun, et il présente le sens *d'oncle paternel* en araméen et en hébreu (4). On notera aussi l'abréviation de ŠNT en Š, dont on n'a pas d'autre exemple.

Pour la famille du dédicant et la face sculptée du pyrée, on se reportera plus haut, à A 1175.

(1) Même forme sur un pyrée de la Palmyrène du Nord-Ouest, daté de 238/9 (*PNO* no 42 et pl. XXVIII, 5).

(2) CIS II, 3905 (lecture maintenue par H. Ingholt, *Five Tombs*, p. 111: l'auteur donne également des références pour MLK').

(3) Les noms protoarabiques ne donnent pas de parallèles: ZWZY semble du même type que GWGW (*RTP* 81) ou GWG' (*RTP* 80 et 100).

(4) Pour le sudarabique, G. Ryckmans propose le sens de «grand-père maternel» (*R. B.*, 1953).

et son parent (1). Les quatre sont revêtus du chiton et de l'himation (2), particulièrement mis en relief pour les deux premiers. Entre les deux têtes, on distingue une couronne à médaillon posée sur un linge replié; sur le pyrée A 1176, elle est sculptée à gauche, avec moins de détails. Cet ornement avait déjà été signalé par H. Ingholt sur le pyrée de Beyrouth, où il est très schématisé, ainsi que sur la cuve du sarcophage de Maqqai, où ce personnage est figuré debout devant un autel sur lequel on a placé le modius à gauche et la couronne à médaillon à droite: ces deux objets ne reposent pas directement sur l'autel, mais sur un support que H. Ingholt interprète comme un coussin (3). En fait, l'étoffe présente des plis semblables à ceux qui apparaissent sur A 1175, et on les retrouve très distinctement figurés pour le linge qui porte (la couronne de Yedibêl fils de Bônna (notre fig. 1) (4); on serait tenté de prendre cette étoffe pour un «keffié», la couronne jouant le rôle de l'agal, on sait que c'est là le couvre-chef habituel des Bédouins). Mais certains monuments présentent le même linge replié sous le modius sacerdotal ceint de la couronne à médaillon (5), et la signification en reste donc énigmatique, ainsi que celle de la couronne qu'elle supporte. Sur notre autel A 1175, on pourrait mettre la couronne en relation avec le modius qui en est privé, mais sur le pyrée A 1176 et sur celui de Beyrouth, le modius a déjà sa propre couronne (sans médaillon, il est vrai).

A 1174 (pl. II - 3. 69 x 26 et 19; lettres 1, 8).

BRYK ŠMH L LM'

TB' WRHMN' BD

WMWD' MLK' W T Y

BNY HGGW BR MLKY

ZWZY L HYYHWN

WHY' BNYHWN

BYRH LWL ŠNT

552

Béni soit son Nom à jamais,

le Bon et le Miséricordieux, ont fait

en action de grâces Malka et Atéai,

les fils de Hagégou fils de Malkai

Zouzai, pour leur salut

et le salut de leur fils,

au mois d'Eloul de l'an.

552 (septembre 241).

(1) Sur le pyrée du Musée de Beyrouth, le modius à couronne est sculpté à gauche (*I and S.* 3, avec références). Sur l'autel de Strasbourg, il ne reste que les traces du modius.

(2) Comme sur les deux autels cités dans la note précédente.

(3) *Five Tombs. Atenatan*, p. 67 et pl. XXVII (le modius et la couronne sont arrachés et on ne fait que les deviner).

(4) Au Musée de l'Univ. Amér. de Beyrouth; *CIS* II, 4420 (pl. XLIII, à paraître).

(5) Un buste du Louvre (*CIS* II, 4381 et pl. LV, à paraître) et un autre à Léninograd (*I and S.* 21, II, p. 131 et pl. XLIX, 1).

du pyrée A 1176, (pl. II-4 bis) même figuration: Hairan, l'oncle de notre Yarhibôla et l'un de ses parents lèvent les deux mains, mais en les tenant moins écartées que ne le font nos deux dédicants. Cette attitude d'orant se retrouve sur trois autres pyrées au dieu non nommé: l'un, daté comme le nôtre de mai 240, est conservé au Musée de Strasbourg (1); le second, non daté, relève par l'écriture du milieu du troisième siècle (2); de même le troisième, actuellement au Musée de Beyrouth, malgré l'aspect plus archaïque de l'écriture (3). Par ailleurs, la représentation simplifiée du même sujet, où ne figurent que les deux mains, apparaît également à Palmyre, sur des pyrées ou sur des plaques votives (4).



Fig. 1. — Buste de Yedibêl (Musée de l'Université Américaine de Beyrouth).

Sur nos deux autels, les dédicants portent le *modius* sacerdotal: sans ornement pour Yarhibôla et Moqîmou, il est ceint de la couronne pour Hairan

(1) CIS II, 4037, et pour la face sculptée, AS 14, 8, pl. XXVI.

(2) CIS II, 4074 et pl. XVII (= J. B. CHABOT, *Choix d'Inscriptions de Palmyre*, pl. XXIII,4).

(3) *I and S*, 3 et pl. XVII, 2. Le bas est perdu.

(4) *I and S*, 7, avec références (notes 130 à 133).

4011) et QRH (après QR LH, *CIS* II, 4047), à moins que cette dernière forme ne soit une graphie archaïque pour QR', attesté par notre dédicace A 1173 (cf. *Cant. Gramm.* p. 53). Ailleurs, on a partout la particule L (voir *ibid.* p. 74), comme en syriaque. Il faut cependant noter que la tendance à utiliser un instrument grammatical apparaît déjà à l'époque perse, dans l'araméen d'empire (1), et s'affirmera en araméen palestinien et en christo-palestinien, mais sans supprimer la construction directe (2). Ajoutons que le cas de QR' présente une difficulté spéciale: la particule L pourrait être celle du datif ou de la direction (crier vers), car on la retrouve parfois en hébreu, où elle n'est pas suspecte de signifier l'accusatif (cf. dict. de Koehler, p. 850, QR' L et QR' 'L).

A 1175 (pl. II - 2, et 2 bis. 75 x 26 et 19. lettres 2). Sur la face droite, le dédicant et son fils sont figurés debout, les mains levées pour la prière.

LBRYK ŠMH L'LM'
 'LT' DNH DY 'BD
 WMWD' YRHBWL'
 BR MQYMW YML'
 W'WYD' BRH 'L
 HYWH WHY' BNWH
 W'HWB BYRH 'YR
 DY ŠNT 551

*A celui dont le Nom est béni à jamais
 cet autel est celui qu'a fait
 en action de grâces Yarhibôla
 fils de Moqîmou (fils de) Yamla
 et Aouïda son fils, pour
 son salut et le salut de son fils
 et de son frère, au mois d'Iyyar
 de l'an 551 (mai 240).*

Ici encore, rédaction maladroite. Par contre, texte bien gravé, d'une écriture semblable à celle de A 1205, et plutôt moins évoluée, malgré les quinze ans qui l'en séparent.

Le père du dédicant est connu: c'est lui qui a offert en 235 un autel «pour son salut et celui de son frère Hairan» (*CIS* II, 4032). A son tour, Hairan en offrira un en 243/244, comme nous le constaterons plus bas (A 1176). Ici, le fils du dédicant est associé à l'offrande, et ainsi, c'est toute une famille qui manifeste sa piété envers celui dont le Nom est béni à jamais.

Les deux dédicants sont représentés sur la face droite du pyrée, celui de gauche légèrement plus petit, sans doute parce que c'est le fils. A l'arrière

(1) ROSENTHAL, *Sprache*, p. 68, note 3.

(2) G. DALMAN, *Grammatik des jüdisch-palestinischen Aramäisch*, 2^e éd., p. 226; H. ODEBERG, *The aramaic portions of Bereshit Rabba*, I, p. 86; F. SCHULTESS, *Grammatik des christlich-palestinischen Aramäisch*, p. 80.

soit-il, ne comporte pas non plus cette addition, mais une influence juive est ici peu probable. Une rédaction plus correcte présenterait la succession suivante: lignes 3, 6, 2, 4 et 5, 7 à 9, 1. Pour les formes 'BYH et 'HYH, voir plus haut (A 1172).

Le dédicant est fils de Shalmou: ce nom propre se lit aussi sur une stèle funéraire inédite: ŠLMW BR TYMW LŠMS. (A 257). *Shalmou*, tout comme *Taimou*, est une forme nabatéenne. La forme palmyrénienne est ŠLM', mais on a aussi ŠLMWY (CIS II, 4326, 4334), dont la désinence est difficile à expliquer. Le nom de HB', qui termine d'une façon abrupte la dédicace, est tantôt masculin (*Inv.* VIII, 183, IX, 33s., CIS II, 4392, 4548 et très probablement 4373), tantôt féminin (CIS 4315, 4321, 4443, 4512s.).

Ici l'épithète RHMN', précédée de la particule L, a presque la valeur d'un nom propre. On comparera les dédicaces CIS II, 4047 et 4081, où LRHMN' suit la formule exclamative BRYK ŠMH L 'LM' et CIS II, 4025 (de 227/8), 4091, 4092, 4093, 4099 (nom datées), où la dénomination RHMN' (avec ou sans TB') subsiste seule (voir aussi plus bas, A 1178).

La formule «il l'a invoqué et il l'a exaucé» (ligne 5) se retrouve sur une vingtaine d'autels au dieu non nommé, et comme nous le constaterons plus bas (A 1177), elle ne se réduit pas toujours à ces deux verbes. Elle ne fait qu'explicitement le MWD' initial et ne permet pas davantage de conclure à un vœu du dédicant. Ici la graphie est réduite au minimum: QR et 'NY. Pour 'N' suivi du suffixe de la troisième personne du masculin singulier, on ne rencontre nulle par la forme attendue 'NHY (cf. BNHY, il l'a bâti, *Tadm.* 12 b), mais 'NH, avec chute de la voyelle finale (CIS II, 4047 et peut-être 4022 = *PNO* n° 73), et plus généralement *canâi*, écrit comme ici 'NY (plus bas A 1204, et CIS II, 4038 et 4092), ou avec un H curieusement placé après le Y: 'NYH (voir plus bas A 1178 et CIS II, 4011, 4034, 4051). Comme on l'a noté, la forme *canâi* correspond à celle du syriaque (1) et s'ajoute donc aux autres traits orientaux de l'araméen de Palmyre (2).

Faut-il en dire autant de l'expression QR LH, avec le complément introduit par la particule L, caractéristique de l'accusatif en syriaque? La forme sans L est rare à Palmyre: QRYH.... W 'NYH (plus bas, A 1178, et CIS II

(1) ROSENTHAL, *Sprache*, p. 72.

(2) Sur ce problème difficile, voir en dernier lieu, F. ROSENTHAL, *Die aramaistische Forschung*, Leyde, 1939, p. 100ss.

La répétition de l'expression «à jamais» se retrouve en A 1208 et CIS II, 4010, également après la formule «pour sont salut»; ce n'est pas une dittographie.

A 1208 (pl. I - 8. Partie inférieure d'un pyrée, largeur à la base 28, au corps 21, hauteur actuelle 28; lettres 2,1).

[... YR] Ḥ Ḳ Ḳ L HYH [WN]
[W] HY' BNYHWN L Ḳ LM [']
BYRH 'B DY ŠNT

542

[... Yar] hai pour [leur] salut
[et] le salut de leur fils, à jamais
au mois d'Ab de l'an

542 (août 231).

La lecture Yarhai est très probable (malgré les apparences, un M est exclu par le jambage qui précède, lequel ne peut être que celui d'un H); YRHY fait partie du patronyme du second dédicant. Ce texte n'a d'autre intérêt que de s'insérer par sa date dans la série de nos autels: l'écriture est moins évoluée que celle de la dédicace précédente et d'une gravure peu élégante. Même répétition de la formule «à jamais» (il est en effet très probable que notre autel était dédié à «celui dont le Nom est béni à jamais»).

A 1204 (pl. II - l. 50 x 19 et 13; lettres 1,5).

ŠNT 551

An 551 (239/240).

LBRYK ŠMH

A celui dont le Nom est béni,

°BD WMWD'

a fait en action de grâces

LRHMN' DY

au Miséricordieux, parce que

5 QR LH W °NY

il l'a invoqué et il l'a exaucé,

YRHY BR ŠLMW

Yarhai fils de Shalmou,

°L HYWH WHY'

pour son salut et le salut de son père

'BYH W'HYH

et de son frère (ou de ses frères)

WHB' vacat

et de Habba.

Ici comme en A 1209, la date occupe le listel. L'écriture présente des bizarreries: les *shin* s'ouvrent à gauche, et si le N de RHMN' est normal, celui de ŠNT et de °NY est à l'envers, se confondant ainsi avec W.

Le libellé de notre texte est également négligé. Après LBRYK ŠMH on attendrait L'LM', rarement omis(1). La formule chère au Judaïsme, «Le Saint béni

(1) Sauf erreur, seulement CIS II, 4042 et 4088.

Au bout de la ligne, l'arête de la brisure suggère une barre d'unité après le «5». Tous les R sont soigneusement pointés, ce qui serait étonnant si l'inscription était antérieure d'un siècle.

Au lieu de l'épithète RHMN', nous avons ici celle de SKR' : c'est le seul cas où le dieu non nommé soit qualifié de rémunérateur. Deux explications sont possibles: le dieu non nommé ayant pris la suite de Baalshamîn, a pu hériter de ses épithètes, or ce dernier est appelé deux fois ŠKR', sur des fragments d'entablement de son premier temple (*Inv.* I,4 et 5); ou bien le dédicant de notre pyrée est d'origine arabe, et aura choisi un qualificatif qu'on rencontre fréquemment pour les divinités du Désert: CIS II 3973, 3974, PNO n.º 4, 13, 37, etc. Les fragments sont bien antérieurs à notre texte (septembre 67), mais en Palmyrène du Nord-Ouest, un relief daté de 216 mentionne encore «BŠMN (sic) le bon et le rémunérateur» (PNO 61): il est donc difficile de choisir.

Pour «Abnergal», le nom du père du dédicant, voir CIS II. 4000 et *Mél. de l'Un. St. Joseph*, 1949/50, p. 49.

(A 1205 pl. I : 7. 70 x 34 et 23; lettres 2, 3).

MWD' ZBYD' BR WHBLT

En action de grâces (a fait) Zebida fils de

BYD' 'PY LBRYK ŠMH

Wahballât (fils de) Baida Aapâi à celui dont le

L'LM' TB' WRHMN' L

Nom est béni à jamais, le Bon et le Miséricor-

HYWHY WHY' BNWHY W'HW

dieux, pour son salut et le salut de son frère

HY L'LM' BŠRY ŠNT

(ou de ses frères), à jamais, en Tishri de l'an

537

537 (octobre 225).

Écriture très soignée aux cassures plus marquées que dans les textes précédents (noter celle du N, du Š et du T): le H affecte déjà la forme de notre X et le Y est tout à fait vertical (1).

On connaît un Zebida Asthôr Baida, dont le petit fils Zebida a été honoré d'une statue en avril 247 (2). Le nom de 'PY est nouveau et difficile à expliquer. Il est sans doute de forme 'a/ 'al, et comparable à 'BY (en transcription grecque *Aabeis*), dont l'étymologie n'est pas plus claire (voir CIS II, 3963).

(1) Cf. les dates constatées par J. Cantineau pour ces brisures: pour le H: p. 28 de sa *Gramm.*, pour le N et le T, p. 29 ("la hampe du T se brise à son extrémité à partir de 226").

(2) *Inv.* III, 21.

autre théophore. On a de même un MLKW RB' BR MLKW plusieurs fois nommé dans les inscriptions du tombeau de Malkou (son grand-père): RB' n'est jamais précédé de BR et n'est donc pas le nom du père (1). Notre Mala fils de Oga fils de Nésa est peut-être le frère de Nésa fils de Oga fils de Nésa, figuré sur un buste funéraire (CIS II, 4423, avec l'orthographe NS').

A 1207 (Pl. I - 5. 50 x 30 et 19; lettres, 1,6).

BRYK ŠMH L'LM'	<i>Béni soit son Nom à jamais,</i>
TB' WRHMN' °BD	<i>le Bon et le Miséricordieux! A fait</i>
MWD' TYMRŠW BR	<i>en action de grâces Taimarsou fils de</i>
BRYKY °L HYWHY WHY'	<i>Barikai pour son salut et le salut</i>
'HWHY BYRH' °B	<i>de son frère (ou de ses frères) au mois</i>
ŠNT 530	<i>de Ab de l'an 530 (août 219).</i>

Fort belle écriture, dont les formes sont bien de l'époque (ainsi le Y est presque vertical), mais d'un tracé souple qui évite les brisures disgracieuses.

Le dédicant est sans doute identique au «Taimarsou fils de Barikai» figuré sur un buste funéraire actuellement au Musée d'Istanbul (CIS II, 4534). Dans le texte de fondation de l'hypogée de Yarhai, le père du fondateur se nomme Barikai fils de Taimarsou, et notre Taimarsou en est peut-être le descendant (2). Nous vocalisons Barikai plutôt que Boreikai (forme diminutive) à cause de la transcription *Bareichein* accusatif attestée pour Palmyre (bilingue CIS II, 3931).

A 1184 (pl. I - 6. 73 x 30 et 20; lettres 1,7).

BRYK ŠMH L'LM'	<i>Béni soit son Nom à jamais, le Bon</i>
[T]B' WSKR' MWD'	<i>et le Rémunérateur, en action de grâces</i>
... M BR °BNRGL °L	<i>(a fait) ... fils d'Abnergat pour son salut</i>
[H]YWH WYH' BNWHY BYRH	<i>et le salut de ses fils au mois de</i>
[T]ŠRY DY ŠNT (5)35 ou 36	<i>Tishri de l'an (5)35 ou 36 (octobre 223 ou 224).</i>

Comme dans d'autres inscriptions, il faut restituer ici le chiffre des centaines pour la date: l'écriture, semblable à celle du texte précédent, impose 500.

(1) *Five Tombs*, p. 91ss.

(2) *Tadm.* 36a (avril 108).

Quant à l'écriture, elle répond aux formes à brisures déjà assez fortes qu'offrent les textes des environs de l'an 200: noter celle du W, du D et de l'R (partout pointé), qui se situe très bas sur la haste. De même le Y a la position oblique attendue. Le N final de KLHWN a une forme très évoluée.

A 1209 (pl. I - 4. Partie supérieure d'un pyrée, haut. actuelle 27, larg. du ccouronnement 28, larg. du corps 16; lettres sur le listel 2, sur le corps 1,5).

[B]DR ŠNT 529

En Adar de l'an 529 (mars 218).

BRYK ŠMH L'LM'

Béni soit son Nom à jamais,

T'B' WRHMN' 'BD

le Bon et le Miséricordieux. A fait

[W] MWD' ML' BR

en action de grâces Mala fils de

'G' NS' RB'

Oga (fils de) Nèsa le Grand

.....

.....

Il ne manque pas grand chose à notre texte: sans doute la formule «pour son salut et le salut de.....». La lecture de la date n'est pas tout à fait sûre: après le signe du «20» le lapicide a gravé une barre d'unité, puis le signe «5», suivi de trois barres d'unité. Il semble qu'après la première barre d'unité, il en ait d'abord gravé une seconde, et qu'il se soit alors aperçu qu'il avait oublié le signe du «5»: n'ayant plus la place suffisante pour transformer la première barre en «5», il a changé la seconde. Devant le nom du mois, Adar, on attendrait BYRH, *au mois de*, que le lapicide a sans doute omis faute de place (1). La date ne se met d'ailleurs pas au début de la dédicace (2) et ici elle aura été ajoutée après coup sur le listel, mais elle est de la même main que le reste. Quant à l'écriture, elle est assez peu soignée (ainsi le W de MWD' est écrit comme Y). Elle présente encore plusieurs cas de ligature: outre BR, où la liaison n'a rien d'anormal, signalons les groupes MH, M' , N' , L' , S'.

Les noms propres sont bien connus, mais l'orthographe NS' au lieu de NS' est rare (CIS II, 3916). Il vaut mieux comprendre RB' comme une épithète — le Grand — que comme un nom propre, dérivé de RB'L ou d'un

(1) Cf. plus bas, A 1205 (BTŠRY).

(2) Sur le pyrée A 1204 (voir plus bas), elle occupe aussi le listel. Date au début d'une dédicace: CIS II 3972 (Shadrafa), 3978 (Shamash), 3980 (Agliböl et Malakböl, mais pas sur les pyrées au dieu non nommé).

être que la transcription du grec *Dēmas* ou *Dēmēas* (1). L'absence de patronyme est curieuse et les deux frères ne sont peut-être pas d'origine palmyrénienne. Toute la maison participe à l'offrande: l'expression BNY BYTH, qui se lit sur plusieurs autels, souligne le caractère privé du culte au dieu non nommé (voir plus bas, A 1177, et CIS II, 4033, 4047, 4051 et 4054, tous du milieu du troisième siècle).

Nous avons ici le couple d'épithètes qui définit habituellement le dieu non nommé: TB' WRHMN'. Si la première accompagne d'autres divinités, en particulier dans l'expression TB' WSKR', *bon et rémunérateur*, la seconde, à une exception près (CIS II, 3974: Azizou), est réservée à Baalshamîn et au dieu non nommé, lequel en est la forme sublimée (2). Le couple «Bon et Miséricordieux», qui annonce la formule coranique «Miséricordieux et Compatissant» (voir plus bas, A 1177), apparaît presque en même temps que le culte de «celui dont le Nom est béni à jamais»: sur un autel daté de décembre 125 (CIS II 3996), le plus ancien remontant à mai 103 (3992, sans épithètes).

Du point de vue grammatical, il faut noter la forme 'HYH, avec Y au lieu de W: ce n'est pas une faute, car si le 'BYH de CIS II 3907, provenant des bords de la Mer Noire, pourrait être une incorrection, le 'BYH de CIS II 4036 B et de notre pyrée A 1204 (voir plus bas) est de bon aloi (3): Ces «ih» ont pu naître à l'analogie du suffixe «-eh» des noms finissant par une consonne (4).

Les formes 'BD et MWD' sont des singuliers, et s'accordent donc au sujet le plus proche, usage fréquent lorsque le verbe précède (cf. A 1174, 1175, 1177).

(1) Un texte nabatéen provenant de la région de Madaba nous fait connaître un DMS originaire de Amman (*Rev. Bibl.*, 1909, p. 567 ss).

(2) Cf. plus bas, à A 1167. Sur ce problème, voir AS, 13 et J. Starcky, *Palmyre*, p. 99. Sur Baalshamîn, on lira la synthèse D'OTTO EISSFELDT, *Ba'alsamêm und Jahwe*, ZATW, 1939, p. 1 ss. L'auteur constate que «ce dieu, Seigneur de l'Univers d'une part, et qui d'autre part a pitié de chaque homme, était moins lié que d'autres à des valeurs d'ordre politique: tribu, cité, nation.» (p. 14). A. VINCENT, dans sa «*Religion des Judéo-araméens d'Éléphantine*» (Paris, 1937), donne les textes concernant le «dieu du Ciel» (c. à d. Yahweh) et rassemble les données sur le Maître des Cieux chez les Sémites et les Perses (p. 100 à 143).

(3) La voyelle i se rencontre parfois devant le suffixe du féminin: ainsi dans la dédicace à *Shalmat et à son frère* ('HYH), publiée par J. Cantineau, *Syria*, 1931, p. 134, cf. *Tadm.* 35, II faut donc corriger, dans la *Gramm.* p. 67 «ses frères» en «son frère» à la référence CaC 14 (= *Syria*, 1931, p. 13). Le 'HYH de *Inv.* VI, 9, cité par l'auteur et celui de *Inscr. palm.* 74 (suffixe du masc.), peuvent également se traduire par «son frère».

(4) F. Rosenthal suggère d'y voir une assimilation vocalique: abûhi / abihî / abih (*Sprache*, p. 46).

NSMT' (1): RHMN' 'L NŠM', *miséricordieux pour l'âme*. Mais on ne sais alors que faire de la dernière lettre de notre ligne 2, qui semble bien être un H.

La formule laudative BRYK ŠMH, sans le L d'attribution, n'apparaît que vers la fin du second siècle (autel de la «porte de Damas» d'avril 175, voir *MUSJ* XXVIII, p. 51; *CIS* II, 4007 d'avril 190: texte très semblable au nôtre), et elle dénote une piété plus personnelle; comme on l'a dit, elle interdit de faire de BRYK ŠMH L'LM' une sorte de nom divin (*le Béni-soit-son-Nom-à-jamais*), analogue à l'appellation «le Saint-béni-soit-il», si fréquente dans la littérature juive de la même époque (HQDWŠ BRWK HW' et en araméen: QWDŠ' BRYK HW') (2). Avec ou sans le L d'attribution, la formule est à comprendre comme une véritable proposition. L'épithète RHMN' qui la suit fréquemment est normalement accompagnée de TB', *bon* et assez souvent de TYR' *compatisant* (voir plus bas, au n° A 1177). Ici, RHMN' apparaît seul, à moins que la fin de la ligne ne contienne la seconde épithète attendue. Quand à la formule 'BD WMWD', où le participe MWD' est curieusement relié par la conjonction W à l'indicatif 'BD, elle est bien attestée par d'autres dédicaces ('BD est bien un indicatif, cf. *CIS* II 4010: 'BDT WMWDY').

A 1172 (pl. I - 3. 56 x 24 et 18; lettres 1, 5).

BRYK ŠMH L'LM'	<i>Béni soit son Nom à jamais.</i>
[T] B' WRHMN' 'BD	<i>le Bon, le Miséricordieux! Ont fait</i>
[W] MWD' MLK WDMS	<i>en action de grâces Malik et Démas</i>
'HYH WBNY BYTH	<i>son frère et les gens de sa maison,</i>
KLHWN ŠNT 5	<i>eux tous, en l'an 5</i>
29	29 (217/8 ap. J. C.).

Les noms propres sont nouveaux à Palmyre: MLK est la forme proto-arabique correspondant à MLKW naba'ée¹ et palmyrénien (3), et DMS ne peut

(1) *I and S*, 7: nous avons pu revoir l'inscription au Musée de Beyrouth, et la première lettre de NSMT' n'est pas discernable (la photo de la pl. XIX donne l'état actuel de la pierre).

(2) Cf. STRACK et BILLERBECK, *Kommentar zum Neuen Testament*, II, p. 51 et 308 ss.

(3) RYKMANS, *Rép.*, p. 127. Un MLK est attesté par une inscription nabatéenne d'Oum-al-Djimal (*CIS* II, 192).

écriture penchée, ses brisures peu marquées — elles sont même absentes pour le N, le K et le D/R —, son M très distinct du Q, son *aleph* dont le jambage de gauche ne repose pas encore sur la ligne, et son Y horizontal, fait songer aux débuts de l'écriture classique (vers 100) plutôt qu'à sa phase finale (vers 200); celle-ci est marquée par un nouveau style, aux formes de plus en plus étranglées et brisées (c'est l'époque des Sévères, puis celle des Princes de Palmyre). Cet exemple nous montre qu'il faut éviter de serrer de trop près les critères définis par les auteurs, en particulier par J. Cantineau, pour la datation des inscriptions palmyréniennes: ainsi le Y horizontal se rencontre encore dans la seconde moitié du second siècle, sporadiquement il est vrai (CIS II, 3060 de mars 157, pl. XIII; CIS II, 4008 de juin 191, pl. XVIII) (1).

Notre dédicant n'est pas connu par ailleurs. La transcription 'WTK' pour *Eutuchês* rend correctement le *to* et le *chi* grecs: c'est elle que l'on trouve habituellement à Palmyre (2).

A 1179 (pl. I-2. 61 x 30 et 20; lettres l en moyenne).

BRYK ŠMH L'LM'

RHMN' ċL BM'H

[ċ]BD WMWD' TYMRŠW

[B]R HYRN ZBD' ċL

HYWHY WHY'

BNWHY BYRH 'DR

ŠNT 517

Béni soit son Nom à jamais.

le Miséricordieux . . .

A fait en action de grâces Taimarsou

fils de Hairan (fils de) Zabda, pour

son salut et le salut de

ses fils au mois d'Adar

de l'an 517 (mars 206).

Écriture assez négligée, d'un type mal défini, intermédiaire entre l'écriture monumentale et la cursive (3): ici les lettres H, L, M, *aleph* et *aïn* sont cursives. Nous n'avons pu déchiffrer la fin de la deuxième ligne: on croit reconnaître M'H, ce qui ne peut guère signifier que «cent». Le B qui précède doit peut-être se décomposer en N et Š, car on voit en haut un trait vertical semblable à celui du Š de ŠNT: on aurait alors le mot *souffle, âme*, que l'on a retrouvé sur une plaque votive au dieu non nommé sous la forme

(1) Mais le H est plus tardif. Pour la forme curieuse de l'R. cf. CIS II, 4011 (pl. XXIV) et déjà A 1168.

(2) Cf. PNO n° 38.

(3) Sur les différentes formes d'écriture. cf. CIS II, p. 1 et *Tadm* 16.

euchén (1), sans qu'on puisse affirmer pour autant qu'il s'agisse chaque fois de l'accomplissement d'un vœu (2). L'expression apparaît à la fin du règne de Marc-Aurèle (CIS II, 4004 ss), c. à d. à l'époque où les autels au « dieu non nommé » commencent à se multiplier à Palmyre. Le nôtre date du règne de son successeur Commode, et nous connaissons trois autres dédicaces contemporaines: CIS II, 4007 d'avril 190, CIS II, 4008 de juin 191, et CIS II, 4009 de 191 ou 192. Mais en se reportant aux planches du *Corpus* (XXIII et XVIII) on ne constate pas l'identité d'écriture attendue: notre inscription, avec son

I and S = H. INGHOLT, *Inscriptions and Sculptures from Palmyra*, nos 1 à 17, *Berytus*, II, 1936, p. 83ss; n°s 18 à 21 (hypogées), *Berytus*, V, 1938, p. 93ss.

Five Tombs, = H. INGHOLT, *Five dated Tombs from Palmyra*, *Berytus*, II, 1935.

AS = *Antiquités syriennes*: Articles publiés par H. SEYRIG, d'abord dans *Syria* (1 à 3 en 1931; 4 à 11 en 1932; 12 à 15 en 1933; 16 et 17 en 1934; 18 en 1935; 19 à 23 en 1937; 24 à 30 en 1939; 30a à 33 en 1940; 34 à 38 en 1941; 39 en 1944/45; 40 et 41 en 1949; 42 à 46 en 1950; 47 à 51 en 1951; 52 en 1952. Ils sont réunis en volumes (I: 1 — 15; II: 16 — 23; III: 24 — 38; 39 — 52).

PNO = D. SCHLUMBERGER, *La Palmyrène du Nord-Ouest*, suivie du *Recueil épigraphique* (par H. INGHOLT, J. STARCKY et G. RYCKMANS: *PNO* suivi d'un n° se réfère à ce recueil), Paris 1951.

RTP = H. INGHOLT, H. SEYRIG, J. STARCKY, *Recueil des Tesselles de Palmyre*, avec comm. philol. de A. CAQUIOT, à paraître en 1954.

Inv. Doura = DU MESNIL DU BUISSON, *Inventaire des Inscriptions palmyréniennes de Doura-Europos* 2e édit. Paris, 1939.

Dura = P. V. BAUR, M. J. ROSTOVITZ et leurs collaborateurs (pour les monuments palmyréniens surtout F. E. BROWN, C. HOPKINS et C. C. TORREY), I à IX, New-Haven, 1926 à 1946.

CUMONT, Doura = F. CUMONT, *Fouilles de Doura-Europos*, Paris, 1926.

Pour les ouvrages philologiques:

CANT. Gramm. = J. CANTINEAU, *Grammaire du palmyrénien épigraphique*, Le Caire, 1935.

ROSENTHAL, Sprache = F. ROSENTHAL, *Die Sprache der Palmyrenischen Inschriften*, Leipzig, 1936 (= *MVAG*, 41,1).

CANT. Nab. = J. CANTINEAU, *Le Nabatéen*, I, 1930; II, 1932, Paris.

RYCKMANS, Rép. = G. RYCKMANS, *Les Noms propres sud-sémitiques*, tome I, *Répertoire analytique*, Louvain, 1934.

WUTHNOW = H. WUTHNOW, *Die Semitischen Menschnamen in griechischen Inschriften und Papyri des vorderen Orients*, Leipzig, 1930 (= *Studien zur Epigraphik und Papyrskunde*, I, 4).

- (1) CIS II, 3994, 4090, 4091; AS 14, 3; *Tadm.* 21; *I and S.* 7. Plus rarement le verbe *eucharistein* (CIS II, 4066; AS, 14, 5).
- (2) Un seul autel, dédié en Palmyrène du Nord-Ouest aux « génies secourables » emploie le terme technique *nedar, promettre par vœu* (PNO n° 14); l'autel CIS II, 4058, malheureusement très mutilé, semble bien faire allusion à une maladie des membres, due à un mauvais esprit. Ailleurs, les motifs invoqués sont masqués par une phraséologie conventionnelle.

matériaux, la portion ouest de la sortie d'Elca (c. à d. la 4^{ème} grotte et l'espace entre elle et le roc taillé en forme de colonne); d'autres furent trouvés au sud de la source, dans un rayon d'un peu plus de 100m. , mais aucun, à ce qu'on nous dit, *in situ*. Nous les publions par ordre de date, ce qui permettra de suivre sur nos planches l'évolution de l'écriture, qui ici relève en général du dernier stade, aux formes très brisées (1). Le n° est celui du «Dépot des antiquités» à Palmyre, où les autels ont été recueillis; nous indiquons d'abord la hauteur en cm, puis la largeur de la corniche (la même que celle de la base), enfin celle du corps de l'autel. Sauf un, tous ces monuments sont en calcaire dur. (2)

A 1171 (pl. I - 1. 51 x 23 et 17; lettres haut 1,7).

LBRYK ŠMH L'LM'
MWD' MQYMW
BR 'WTK' 'L
HYWHY WHY'
5 BNWHY W'HWY
ŠNT 502

*A celui dont le Nom est béni à jamais
en action de grâces (a fait) Moqîmou
fils d'Eutychès pour
son salut et le salut de
ses fils et de son frère (ou ses frères)
l'an 502 (190/1 ap. J. C.).*

Nous avons ici la formule brève de dédicace au «dieu non nommé», sans mention des épithètes divines. Le motif n'est marqué que d'une façon vague: par MWD', *en action de grâces*, qui dans les bilingues correspond au grec

(1) L'évolution de l'écriture palmyrénienne comporte quatre étapes: l'écriture archaïque, mal calibrée (1^{er} siècle av. l'ère chrétienne); l'écriture à grands jambages arrondis (fin du 1^{er} siècle av. J. C. et deux premiers tiers du 1^{er} siècle après J. C.); l'écriture classique: de la fin du 1^{er} siècle à la fin du second siècle; écriture brisée: de la fin du second siècle à la fin du troisième. Les transitions sont très lentes, surtout de la 3^e à la 4^e période, et les brisures caractéristiques affectent certaines lettres bien avant d'autres. Pratiquement, notre division ne diffère pas essentiellement de celle établie par J. Cantineau (*Gramm.* p. 17ss), mais nous considérons que l'écriture classique, qui imite le canon grec, est déjà bien formée à l'époque d'Hadrien, où fut gravée la longue inscription du «tarif».

(2) Voici les abréviations utilisées pour les principaux recueils d'inscriptions palmyréniennes:

CIS II = *Corpus Inscriptionum Semiticarum*, pars secunda; les nos 3501 à 4624 de cette pars secunda représentent la section palmyrénienne, due à J. B. CHABOT (fasc. 1, Paris, 1936; fasc. 2, Paris, 1951).

Inv. I à IX = J. CANTINEAU, *Inventaire des Inscriptions de Palmyre*, I à IX. Damas, 1930 à 1936; *Inv.* X: idem, par J. STARCKY, 1949.

Tadm. = *Tadmorea*, titre général d'une suite de 46 articles ou notices publiées par J. CANTINEAU dans la revue *Syria*: I à 16, en 1933; 17 à 27, en 1936; 28 à 46, en 1938.

Inscr. palm. = J. CANTINEAU, *Inscriptions palmyréniennes*, Damas, 1930 (105 numéros, dont le 36 premiers avaient d'abord paru dans la *Rev. d'Assyr.* 1930, p. 27ss). —

AUTELS PALMYRÉNIENS DÉCOUVERTS

PRÈS DE LA SOURCE EFCA

PAR

DJA'FAR AL-HASSANI ET JEAN STARCKY

Il ne se passe guère de mois où l'épigraphie palmyrénienne ne s'enrichisse de quelques inscriptions nouvelles. Celles que nous présentons aujourd'hui aux lecteurs des "Annales" furent découvertes en 1947 et 1948, mais toutes aux abords de la source Efca qui irrigue l'oasis, et presque toutes sont des dédicaces au «dieu non nommé». Ces textes et l'examen des lieux nous ont permis quelques conclusions générales sur le culte du dieu anonyme et ses rapports avec la source. Nous donnons d'abord les inscriptions; elles seront suivies de la description de l'entrée de la source, telle qu'elle se présente aujourd'hui, et de celle d'une série de socles implantés sur la pente de la colline qui domine la source (1).

I — LES AUTELS

I — LES PETITS PYRÉES AU «DIEU NON NOMMÉ».

Voici un groupe de pyrées à cupule, de dimensions modestes, certains sont dans un remarquable état de conservation. La plupart bouchaient, avec d'autres

(1) L'un des auteurs du présent article avait surveillé les dégagements, en qualité de Directeur Général des Antiquités, et relevé une partie des textes. En novembre 52, nous avons passé ensemble quelques jours à Palmyre pour copier les autres textes et étudier les abords de la source. Notre travail et nos déplacements ont été grandement facilités par l'obligeance du Directeur actuel, Monsieur Sélim Abdul-Hak, qui a mis une voiture à notre disposition. Nous avons reçu le meilleur accueil auprès du Surveillant des ruines de Palmyre, Monsieur Obeid Taha.

élargissement du sondage sera nécessaire pour pouvoir identifier la nature de cette masse assez considérable de matériaux d'intrusion du début du second niveau dans les couches supérieures du niveau III.

La limite entre ces deux niveaux se situe vers 3 m. de profondeur ou la terre brune et fine fortement tassée devient progressivement plus molle. Un matelas de cendres marque l'existence, vers 3 m. 20 de profondeur, d'un sol d'habitation sous lequel apparaissait aussitôt une urne funéraire contenant le squelette d'un nouveau né. Au voisinage furent recueillis les premiers tessons de poterie peinte, parfois bichromes (lignes noires avec remplissage rouge) caractéristiques du niveau III. Plus bas, plusieurs couches d'incendies sont rencontrées contenant de nombreux ossements d'animaux domestiques (bovidés, capridés, porcins). A partir de — 4 m. les lames de silex et d'obsidienne taillées deviennent plus fréquentes.

Vers — 4 m. 25 apparaît un lit de briques crues de couleur beige clair de 12 cm. d'épaisseur formant une sorte de voûte faiblement cintrée. Un peu plus bas, des poutres de bois carbonisé se sont conservées imbriquées dans une masse compacte de briques de 20 cm. d'épaisseur, vestiges d'habitations modestes élevées sur des fondations en blocage d'une seule assise. A partir de — 4 m. 50, les fragments de céramiques peintes et monochromes deviennent plus rares, jusqu'à vers 5 m. 25, où le sondage I fut momentanément arrêté.

Immédiatement au Nord-Ouest du temple de Baal, sur un témoin stratigraphique conservé ici pendant nos fouilles d'avant 1939, un second sondage fut commencé qui a fourni d'intéressants renseignements pour l'étude des couches moyennes et inférieures du niveau II. Nous y trouvâmes, notamment, une catégorie de céramique monochrome, fine, à parois presque aussi minces que ceux de la fameuse «eggshell-ware» du Minoen Moyen. Sobres et élégantes, les formes rappellent certains vases provenant de sites du début du deuxième millénaire de la vallée de l'Oronte, et, pour ce qui est des types de bronze les rapprochements conduisent jusqu'en Anatolie, en Perse, et jusqu'au Caucase. Ce sondage aussi sera repris et approfondi pendant notre prochaine campagne.

C. F. A. SCHAEFFER

commencé à l'Ouest du temple de Baal, nous avons atteint la base du second niveau vers 3 m. de profondeur sous le niveau zéro du bord de la fouille (1). Dans l'angle sud-est du sondage, une poche de terre meuble descendant jusqu'à 4 m. de profondeur contenait de nombreux tessons de poteries grossières, ainsi que plusieurs têtes de lance à douille ou à soie et des épingles et perles biconiques en bronze. Ces bronzes sont analogues à ceux retirés des tombes à la base du niveau II attribuées à une population appelée les «porteurs de torques» installée à Ugarit au début du second millénaire et, probablement, dès la fin du troisième (2). Un



Fig. 16 — Commencement du sondage en profondeur sur l'extrémité N. E du tell de Ras-Shamra. La terre noire au fond, indique le niveau III. Au milieu, en haut, M. Courtois, membre de la Mission, prenant des mesures

- (1) Il faut ajouter selon les emplacements environ 1 m. à 1 m 50 pour obtenir la profondeur totale sur la surface ancienne du tell ici assez fortement en pente. Cf. aussi *Stratigraphie Comparée*, planche III montrant une coupe stratigraphique explorée en haut de la pente du tell.
- (2) Cf. nos *Ugaritica* II, p. 49 et suiv. et *Stratigraphie Comparée*, I, p. 15 et suiv.

75 cm. L'arme intacte est marquée à la base de la lame du cartouche de Mineptah, vainqueur des Libyens dont la gloire militaire, on le voit, avait brillé jusqu'à Ugarit (fig. 15) (1).



Fig. 15 — Le cartouche du pharaon Mineptah (XIX^e dynastie, fin du XIII^e s.) gravé sur la lame d'une épée trouvée à l'Est du plai d'Ugarit dans une maison privée.

Sur l'extrémité N-E du tell, nous avons commencé pendant cette campagne deux sondages pour vérifier et compléter les informations fournies par les fouilles en profondeur entreprises ici en 1934 (2). (fig. 16) Les premiers résultats obtenus sont satisfaisants et permettent d'espérer que nous rencontrerons ici les niveaux III à V dans leur position stratigraphique, quand nous aurons pu approfondir nos recherches. Dans le sondage I

(1) Cf. dans nos *Ugaritica* III, la description et l'étude de cette épée.

(2) Cf. *Syria*, XVI, 1935, p. 160 et suiv.

qu'un rituel magique suméro-accadien comprenant, dans son état actuel, pas moins de 98 lignes écrites avec soin sur une tablette d'une taille exceptionnelle. M. Nougayrol signale (1) que le texte mélange comme à plaisir les passages accadiens aux passages sumériens écrits phonétiquement et témoigne de confusions assez suprenantes. Ainsi sur cette copie ugarienne Asaluhi est désigné comme la fille au lieu le fils du dieu Ea.

A en juger d'après le contexte archéologique, cette habitation est restée en usage jusqu'à la fin du XIII^e siècle ayant restitué entre d'autres trouvailles de cette période plusieurs vases mycéniens de facture tardive.



Fig 14 — Commencement des fouilles dans le quartier d'habitations privées à l'Est du palais d'Ugarit. A gauche l'architecte de la mission; M. R. Kuss chargé des travaux dans ce secteur des fouilles.

Non moins spacieuse, l'habitation voisine ne contenait aucune tablette, mais a fourni une trouvaille très importante pour l'histoire d'Ugarit. Il s'agit d'un dépôt d'objets en bronze recueilli entre 1 m. 50 et 2 m. de profondeur dans l'angle de la cour intérieure, se composant d'un trident long de 65 cm., d'un poignard à manche incrusté de bois, d'une pointe de flèche ou de javelot, ainsi que d'une superbe épée à soie longue de

(1) Communication à l'Académie des Inscriptions, 29 janvier 1954.

laquelle on saisissait l'instrument. La surface de l'ivoire est ici lustrée par le maniement. Au delà de cette bande, la gravure a souffert par le feu et l'altération de l'ivoire. On ne reconnaît plus que deux félins croisés.

Faite d'une corne d'animal, la trompette primitive est connue dès la plus haute antiquité, son nom en hébreu «quérén», rappelle encore son origine. Elle servait alors d'instrument sacerdotal pour annoncer les fêtes ou pour accompagner l'offrande des sacrifices. On signalait par leur sonnerie l'ouverture des portes et convoquait le peuple pour annoncer des nouvelles ou la guerre. Le petit cor d'ivoire ou oliphant fut porté pendu en sautoir par les chasseurs de la cour et par l'homme d'armes du moyen-âge. La corne de grande dimension faite d'une défense d'éléphant entière, généralement sculptée, aux mains d'un suzerain, constituait la marque de sa dignité. L'oliphant du palais d'Ugarit nous fournit le prototype oriental, le plus ancien actuellement connu, de cet instrument. A en juger d'après le contexte archéologique, il doit remonter au XIV^e siècle av. n. è.

A environ 45 mètres au-delà du mur oriental du palais, nous avons commencé, en 1953, à explorer un quartier d'habitations privées, traversé par deux rues parallèles NO-SE, distantes de 20 m. l'une de l'autre et large de 5 m. et 3 m. respectivement (fig. 14). Entre ces deux rues s'étendent les habitations d'assez grandes dimensions pourvue chacune de son caveau de famille en pierres de taille, logé sous le sol d'une des pièces du rez-de-chaussée. Une courette contient le puits avec margelle et auge monolithe.

De l'une de ses vastes demeures (treize pièces du rez-de-chaussée ont déjà été déblayées) proviennent le fragment de la tablette chyprominoenne mentionnée plus haut, ainsi que trente-neuf autres tablettes ou fragments, dont sept en ugaritique et trente-deux en cunéiforme babylonien. Trois de ces derniers documents constituent des actes juridiques concernant un certain Maš-Maš-abu portant l'empreinte de son cylindre-sceau. Sur treize vocabulaires trouvés pendant cette campagne de fouilles, douze proviennent de cette même habitation. Il y avait aussi plusieurs actes passés devant témoins, une liste de marchandises provenant de diverses villes, une reconnaissance de dette ou de créance en argent, un texte hippiatric en ugaritique complétant le même traité trouvé en 1933 (1), ainsi

(1) Ch. Virolleaud, dans *Syria* XV, 1934, p. 75 et nos *Cuneiform texts from Ras Shamra-Ugarit*, p. 40.

défense d'éléphant sculptée, en partie brûlée, d'une extrême fragilité. Après préparation par M. Sheffik Imam et M. Forrer, elle fut enlevée avec son bloc de terre et transportée à Damas pour un lent séchage dans la cave du musée. Le dégagement et la restauration ont été entrepris par M. Raif Hafez (fig. 13). Il s'agit d'un cor d'ivoire ou oliphant superbement sculpté et gravé, de la taille d'une trompette, long actuellement de 60 cm. Sectionnée net, l'embouchure d'un diamètre extérieur de 4 cm. présente un canal régulièrement circulaire de 2 cm. de diamètre. Il s'évase progressivement vers l'extrémité opposée et incomplète de l'instrument, où le diamètre actuel atteint 11 cm.

La courbe interne de la défense est sculptée en haut relief d'une déesse nue, vue de face, au corps jeune et svelte, les mains appliquées sur la poitrine, un peu au-dessous des seins, fermes et pointus. Le sexe n'est pas marqué. Longueur totale de la figure 25 cm. Finement striée, la chevelure de la déesse fait le tour de l'embouchure de l'instrument et descend en une épaisse natte, gravée avec soin, au milieu de la courbe externe de l'oliphant. Noué, à l'extrémité, par quatre bandeaux, elle se termine par plusieurs glands.

De chaque côté de la déesse, un grand sphinx se tient debout, ailes dressées, dans l'attitude d'un gardien, une rosace gravée sur le flanc. La déesse avec la pointe des doigts de pied, les sphinx avec leurs pattes d'une ligne très élégante, posent sur un double bandeau légèrement en relief et rempli de godrons à base pointue. Il délimite la partie antérieure par



Fig. 13 — Photographie de l'oliphant en ivoire après restauration (non encore complète) dans l'atelier du Musée de Damas par M. Raif Hafez. On voit à droite, le profil de la déesse nue, et sur le côté l'un des sphinx aux ailes déployées qui gardent la déesse. Trouvé dans le Palais d'Ugarit.

finesse et d'une maîtrise exceptionnelle. Debout sur son char tiré par deux splendides coursiers, le chasseur est en train de décocher sa flèche en direction d'un lion dressé, un second lion déjà mortellement frappé est tombé sous les chevaux. Il est possible que cette plaquette faisait partie d'une sorte de grand coffret de forme rectangulaire long d'environ 80. cm, large de 50 cm. dont les montants et traverses en ivoire ont été identifiés au voisinage. Le dégagement en a cependant dû être différé à la prochaine campagne.

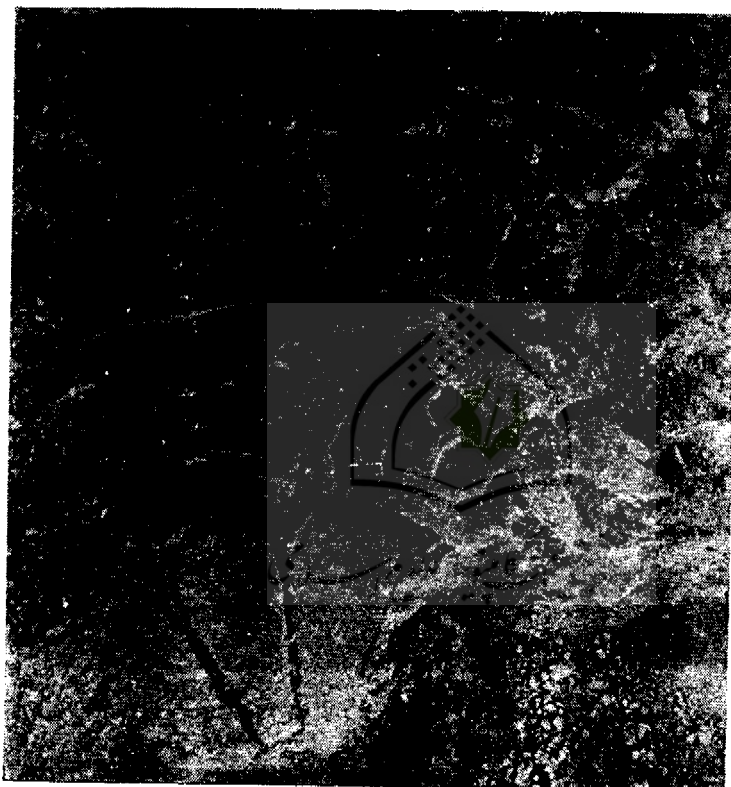


Fig.12 — Vue de détail du centre du plateau de la table en ivoire du palais d'Ugarit. On voit les pétales de la rosace au milieu du plateau et une section des deux zones intérieures du décor en ivoire découpé. Les figures sont vues de dos, la face plaquée contre la terre. On reconnaît au centre à gauche, les contours d'un arbre stylisé accosté de fauves, et à droite un griffon aux ailes déployées.

A la fin de notre seizième campagne de fouilles, en novembre 1952, nous avons trouvé près de la grande cour III, à 1 m. de profondeur une

zone médiane figure des groupes de sphinx ou lions ailés et dressés qui plantent leurs griffes dans le dos d'un fauve couché de part et d'autre de l'arbre sacré. Le décor de la zone extérieure, la plus proche du bord uni du plateau, se compose de plusieurs groupes de grands griffons aux ailes déployées gardant l'arbre sacré.

Le décor de notre guéridon en ivoire, présente donc le même arrangement en trois zones concentriques avec rosace centrale, que celui de la coupe repoussée et gravée en or retirée en 1933 des ruines d'un bâtiment au Sud du temple de Baal (1).

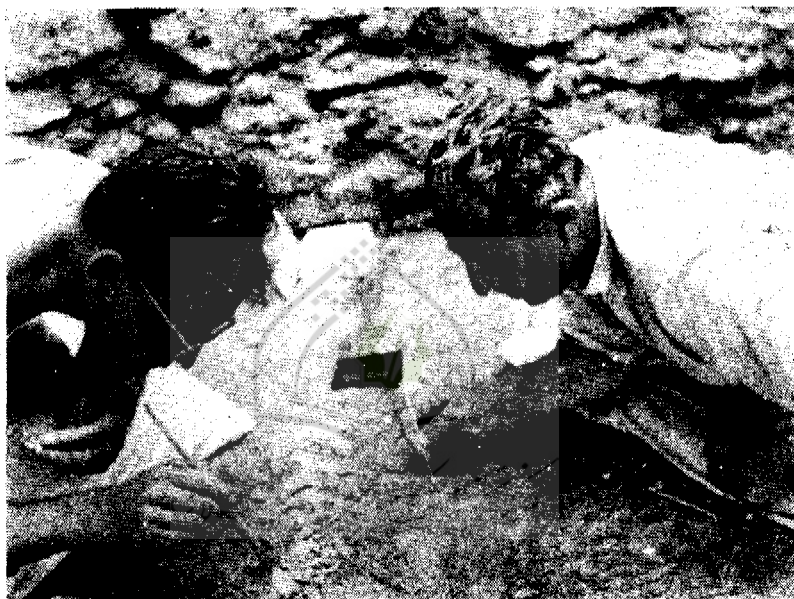


Fig. 11 — Dégagement du plateau de la table en ivoire trouvée dans le palais d'Ugarit. A gauche M. Forrer, à droite M. Halez occupés à enlever la terre qui recouvre les milliers de fragments retrouvés en place du placage de la table.

Parmi les pieds en forme de patte de lion faits d'ivoire retrouvés près du guéridon décrit ci-dessus, il y en a plusieurs qui appartiennent à des meubles non encore identifiés. De l'un d'eux, notamment, nous avons recueilli une plaquette rectangulaire gravée d'une scène de chasse. d'une

(1) Cf. l'annonce de la découverte dans *Syria*, XX, 1934, p. 121 et la publication définitive dans *Ugaritica* II, p. 23 et pl. II à V, VIII (développement).

Entre le support et la partie centrale et ajourée du placage était sans doute inséré un fond sur lequel devaient se détacher les figures découpées. De ce fond, bien entendu, rien n'a subsisté, à moins qu'il ne s'agissait d'une feuille en or laminé dont de minuscules fragments furent recueillis, à plusieurs endroits, parmi les ivoires.

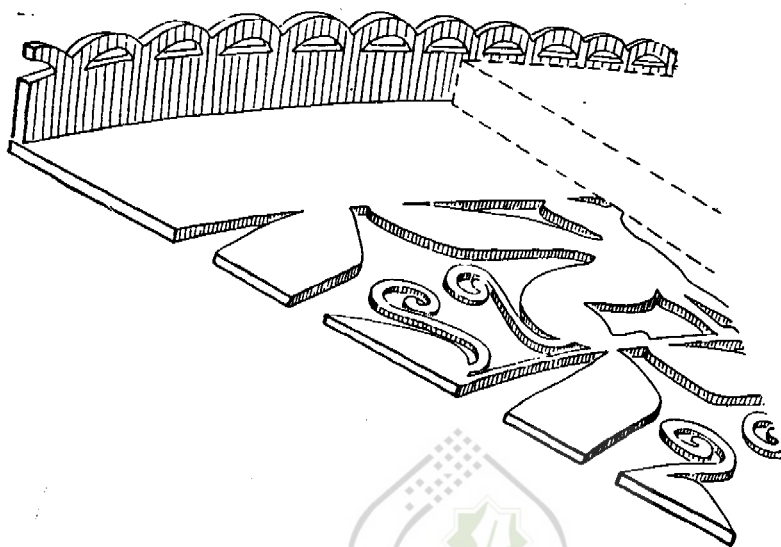


Fig. 10 — Un croquis représentant les quatre zones concentriques de la table en ivoire. Dessin de M. W. Forrer.

La description du décor découpé et gravé au centre du plateau est, à l'heure actuelle, rendue difficile par le fait que les nombreux fragments reposaient avec leur face gravée, enfoncés dans la terre. Il a fallu les détacher, un par un, dans cette position, avec la terre adhérente et placer dans le même ordre sur de petits plateaux aussitôt couverts de papier de soie et d'une mince couche de terre humide. Toute manipulation supplémentaire entraînant un séchage trop rapide risquait de faire tomber l'ivoire en poudre. Le dessus du plateau ne pourra donc être étudié qu'après la consolidation et l'assemblage des milliers de fragments, travail délicat qui occupera M. Hafez encore pendant plusieurs mois.

Comme les photographies faites des ivoires *in situ* le montrent, nous n'avons jusqu'ici pu examiner que le contour des figures découpées, vues de dos (fig. 12). Le décor de la zone intérieure, la plus proche de la rosace centrale, paraît être composé d'animaux fabuleux, d'oiseaux ou sphinx ailés, placés parmi des éléments floraux et des arbres stylisés. La

partie supérieure, le pied se développait en un élégant chapiteau orné de feuilles stylisées (fig. 9), qui reposait, couché sur le côté, au centre de la face inférieure du plateau. Mais du fût proprement dit, il n'y avait plus de traces identifiables. Il est cependant certain qu'il s'appuyait sur des pieds en forme de patte de lion également en ivoire dont plusieurs ont été retrouvés au même emplacement.

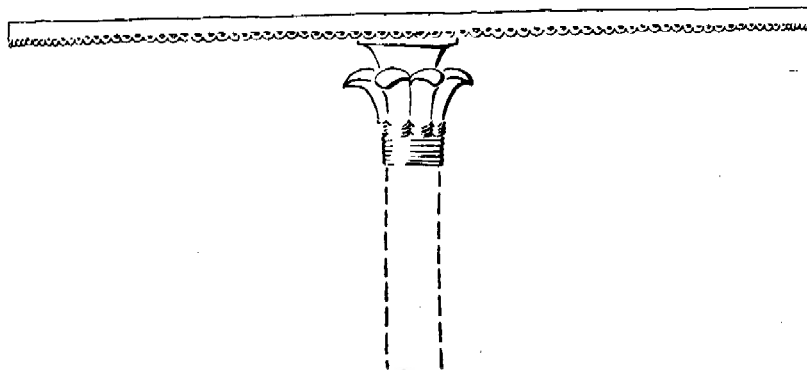


Fig. 9 — L'élégant chapiteau orné de feuilles stylisées, supportant le plateau circulaire. Dessin de M. W. Forrer.

D'un diamètre de 1 m. 07, le plateau est divisé par des baguettes en ivoire en quatre zones concentriques autour d'un motif central, une grande rosace à douze pétales. La zone extérieure d'environ 7 à 8 cm de largeur est en ivoire plein (fig. 10). Son bord est orné de petites arcades délicatement ajourées, simulant les festons retombant d'une nappe brodée. Dans les creux étaient incrustés des éléments en lapis-lazuli et en pâte de verre de différentes teintes. Scintillant de couleurs, ce bord haut de 2 cm. 5 environ, permettait de masquer la tranche du plateau, probablement en bois, sur lequel s'appliquait le placage en ivoire découpé du dessus de la table. Au moment du dégagement, aucune trace de ce support n'a pu être observée. Il était, cependant, indispensable pour donner de la solidité au placage, épais de 2 à 3 mm. seulement, ajouré au centre et fait d'un habile assemblage de plaquettes découpées dans des défenses d'éléphants.

les, le dégagement et le sauvetage de ce grand ivoire. Couché par terre, pendant près d'un mois ils ont disséqué les fragments extrêmement fragiles dans la terre, les ont préparé, puis enlevé après en avoir dressé un plan précis par triangulation qui seul permettra la reconstitution, le nombre des fragments dépassant vingt-mille.

bles est attesté par une petite stèle en calcaire trouvée pendant notre septième campagne de fouilles en 1935. On y voit deux personnages en train d'échanger un serment au-dessus de deux paquets de tablettes posés entre eux sur le plateau du guéridon (fig. 7), (1).

Ecrasé par la chute des pierres, le meuble gisait en milliers de fragments et d'éclats, la face du plateau circulaire par terre (2), (fig. 11) A sa



Fig. 8 — Emplacement où a été trouvée la table en ivoire dans la cour III du palais d'Ugarit. Pour éviter le desséchement des fragiles ivoires en cour de dégagement une tente a été construite au-dessus de l'emplacement des ivoires. Au fond à gauche M. Hafez et M. Forrer, à droite des ouvriers des fouilles qui emportent la terre.

(1) Cf. notre rapport dans *Syria*, XVII, 1936. pl. XIV et *The Cuneiform Texts of Ras Shamra-Ugarit*, Londres, 1939, pl. XXXII (2).

(2) Nous ne saurions trop remercier ici MM. Forrer et Raif Hafez de leur zèle et dévouement d'avoir entrepris, dans des conditions particulièrement diffici-

palais, avec son enceinte de 16 m de diamètre, son grand glacis revêtu de pierre et sa tour de garde carrée dont les dimensions dépassent les ouvrages similaires du second millénaire connus d'ailleurs, y compris ceux d'Anatolie (1). Les dynastes d'Ugarit n'avaient donc certes pas négligé d'assurer la sécurité de leur capitale, le succès remporté au cours d'une de leurs entreprises militaires est d'ailleurs décrit avec fierté sur le panneau en ivoire du lit de repos trouvé pendant nos fouilles de 1952, (cf. *Annales Arch. de Syrie*, II, 1952, p. VI). Rappelons aussi, que sur les stèles commémoratives d'Aménophis II (1450 à 1425) retrouvées à Karnak et à Memphis, il est fait allusion à la garnison d'Ugarit désignée comme la «forteresse du roi» (2).

Il est utile, il me semble, de préciser ces points, car comme nous ne connaissons pas encore les limites territoriales du royaume, l'on pourrait être tenté de considérer Ugarit comme un pays sans importance militaire qui aurait été à la merci de toutes les sautes d'humeur belliqueuses de la part des Hittites, ou de leurs vassaux dans le Nord.

Notons enfin, que dans le matériel archéologique on ne perçoit à Ugarit aucune influence hittite. Les rois d'Ugarit se sont, par contre, entourés d'objets, de bijoux et de meubles dont le style est souvent fidèlement emprunté à des modèles égyptiens. Une découverte faite pendant notre campagne de fouilles de 1953 en fournit une nouvelle démonstration.

Presque immédiatement à côté du panneau de lit auquel nous venons de faire allusion, nous avons trouvé le plateau circulaire en ivoire d'une table ronde supportée par un seul pied central. (fig.8) L'emploi à Ugarit de pareils meu-

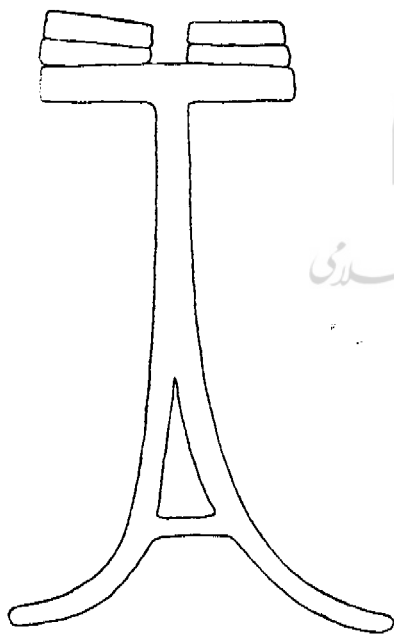


Fig. 7 — Un croquis du guéridon figurant, sur une petite stèle en calcaire trouvée en 1935 à Ras-Shamra.

(1) Cf. notre rapport dans *Syria*, XX, p. 288 et XXVIII, p. 4.

(2) Cf. les références dans *Stratigraphie Comparée et Chronologie de l'Asie Occidentale*, p. 10.

que la pression hittite diminuait, probablement, aussitôt après la signature du traité d'alliance égypto-hittite, vers 1276. Une tablette également trouvée récemment à Ras Shamra dans les Archives Sud du palais, nous apprend cependant, que encore du temps de Tuthaliya IV (env. 1265 à 1236), Ugarit fut contraint de payer une lourde amende pour avoir manqué de fournir un appoint à l'armée hittite pendant sa campagne contre Assur.

Ces indications suffisent à montrer que les rois d'Ugarit n'ont accepté qu'à contrecoeur l'alliance avec les rois du Hatti. Ils ne se sont soumis à leurs exigences que pour se soustraire aux menaces et à l'occupation de leur pays par l'armée hittite. Les textes tirés en 1953 des Archives Sud confirment le succès de cette politique d'atermoiement. D'autre part, les rois d'Ugarit, à aucun moment de leurs règnes successifs, depuis le milieu environ du XVe siècle, c'est-à-dire après l'insurrection (1) matée par Aménophis II vers 1444, ne semblent avoir volontairement abandonné leur traditionnelle alliance avec l'Égypte. Cette attitude leur était dictée par les intérêts économiques d'Ugarit en tant que métropole de commerce maritime et terrestre de la Syrie septentrionale, aussi bien que par le souci de leur sécurité.

Dans quelle mesure, d'autre part, les importantes installations mycéniennes révélées par nos fouilles à Ras Shamra ont pu amener les Ahiyawa à prêter leur appui à Ugarit, notamment, celui de leur flotte, il n'est pas encore possible de le préciser. En tous cas, certains textes de Boghazkeuy permettent de deviner le désir des Hittites de respecter les intérêts de cette puissance maritime sur laquelle leurs armées n'avaient d'ailleurs pas de prise (2).

Il n'est plus permis aujourd'hui de sous-estimer les moyens défensifs d'Ugarit et son organisation militaire apparemment très poussée, si l'on juge d'après les listes de distribution d'armes ou de fournitures de chars, de chevaux, d'arcs de frondes etc. retrouvées à Ras Shamra (3). Il convient de rappeler aussi l'importance de l'ouvrage fortifié, dégagé aux abords du

(1) Cf. *Ugaritica* I, p. 27 et *Stratigraphie Comparée* I, p. 10.

(2) Cf. aussi nos observations dans *Enkomi-Alasia*, I, p. 356.

(3) Voir F. Thureau-Dangio, *Une tablette bilingue de Ras Shamra*, dans *Revue d'Assyriologie*, 37, 1940; Ch. Virolleaud dans *Syria* XXIII, p. 49 et d'autres, récemment trouvés à Ras Shamra et en cours de publication.

don à Niqmadu du butin qu'ils avaient (repris). Alors, Niqmadu, roi du pays d'Ugarit, rendit hommage aux fils du roi et aux Grands, et il leur fit don de l'argent, de l'or, et du cuivre..., et il se rendit à Alalakh devant le Soleil Grand-roi son maître...».

Il me semble que si le roi hittite s'est contenté de recevoir l'hommage de son allié dans son quartier général à Alalakh et renonça à pousser jusqu'à Ugarit qu'il aurait pu atteindre dans trois journées de marche, c'est qu'il avait des raisons de ménager Niqmadu, ou qu'il n'osait pas s'aventurer davantage vers le Sud dans la sphère d'influence égyptienne dont Ugarit constituait la frontière septentrionale. La découverte pendant notre dernière campagne de fouilles de deux grands vases brisés en albâtre portant une inscription au nom du pharaon Horemheb (env. 1354 à 1315) prouve que même encore durant le règne des successeurs immédiats de Suppiluliuma, Muršil II, son fils, (env. 1353 à 1326) et Muwattali, son petit-fils (env. 1325 à 1298), les rois d'Ugarit avaient maintenu, probablement à l'insu des Hittites, leurs rapports avec l'Égypte. Cette conclusion est appuyée par l'étude des textes datant de cette période que le sol de Ras Shamra vient de nous léguer, parmi lesquels il y a aussi un traité d'alliance entre Muršil II et Niqmepa. Dans le préambule historique, selon M. Nougayrol (1), il est fait allusion à un manque de fidélité dont le roi Arhalbe se serait rendu coupable vis-à-vis du roi de Boghazkeuy. Est-ce pour cette raison qu'il fut écarté du trône d'Ugarit et remplacé par son frère Niqmepa? Cependant, celui-ci, d'après la même source, semble, lui aussi avoir manqué d'enthousiasme pour la cause hittite (2).

Enfin, quel fut en réalité l'état des relations ou le «climat» entre le roi d'Ugarit et son «suzerain» de Boghazkeuy pendant la période la plus critique de la lutte entre l'Égypte et le Hatti, lorsque Ugarit, loin du secours du Pharaon a dû pactiser avec le Hittite et joindre un contingent de soldats à l'armée de coalition opposée par Muwattalu à Ramsès II, dans la bataille de Kadesh?

La découverte à Ras Shamra, parmi les ruines du palais de plusieurs vases d'apparat en albâtre marqués du cartouche de Ramsès II, indique qu'Ugarit avait repris sa traditionnelle alliance avec l'Égypte dès

(1) Communication à l'Académie, 29 janvier 1951.

(2) J. Nougayrol, 1. c.

roulèrent les événements d'après deux autres textes retirés en 1953 des Archives Sud du palais signés du Suppiluliuma:

«Lorsque tous les rois de Nuhašše et le roi de Mukiš devinrent les ennemis du Soleil Grand-roi leur maître, Niqmadu, roi du pays d'Ugarit fut l'ami et non l'ennemi du Soleil Grand-roi, son maître. Les rois de Nuhašše et le roi de Mukiš pressèrent Niqmadu, roi du pays d'Ugarit, en ces termes: «Pourquoi ne deviens-tu pas avec nous l'ennemi du Soleil?» Mais Niqmadu n'accepta pas de devenir l'ennemi du Soleil Grand-roi son maître, et, le Soleil Grand-roi ayant vu la fidélité de Niqmadu, Suppiluliuma, le Grand-roi, le roi du pays hittite, fit une alliance pour Niqmadu, roi du pays d'Ugarit en ces termes».

Notons que le roi hittite se déclare dans ce document le maître des rois de Nuhašše et de Mukiš qui, au contraire, se sentent assez de force pour lui faire la guerre. En vérité, dans la bouche du roi de Boghazkeuy, l'expression n'a ici que la valeur d'une clause de style ou de protocole qu'il ne convient pas de prendre à la lettre.

Voici le prix qu'a dû payer le roi d'Ugarit pour son attitude neutraliste:

«Ainsi (parle) Suppiluliuma le Soleil Grand-roi, roi du pays hittite, le héros; lorsque Ituraddu, roi de Mukiš, Addunirari, roi de Nuhašše et Agitesub, roi de Ni'i, (se soustrayant) au pouvoir du Soleil Grand-roi leur maître coalisèrent leurs pays et leurs armées, ils prirent des villes du pays d'Ugarit, fondirent sur le pays d'Ugarit, pillèrent Niqmadu, roi du pays d'Ugarit, et détruisèrent le pays d'Ugarit, alors Niqmadu, roi du pays d'Ugarit manda ceci à Suppiluliuma, le Grand-roi: «O! Soleil Grand-roi mon maître, des mains de l'ennemi délivre-moi! Je suis le serviteur du Soleil Grand-roi mon maître! De l'ennemi de mon maître je suis devenu l'ennemi, de l'ami de mon maître l'ami! Ces rois nous pressent!»

Il faut remarquer que c'est ici une citation du roi hittite qui semble dramatiser la situation créée par l'invasion d'Ugarit, car Niqmadu, dans son appel de secours, se contente de dire simplement que les rois coalisés de Mukiš, Nuhašše et Ni'i le pressent.

Poursuivant son récit, Suppiluliuma déclare: «Le Grand-roi entendit ces paroles de Niqmadu. Le Grand-roi Suppiluliuma dépêcha donc fils de roi et Grands, avec des soldats et des (chars) vers le pays d'Ugarit, et ils chassèrent les armées ennemie de l'intérieur du pays d'Ugarit, et ils firent

«Ainsi (parle) le Soleil Grand-roi.... à Niqmadu, dis: Bien que le pays de Nuhašše et le pays de Mukiš soient (maintenant) mes ennemis, toi, Niqmadu, ne les crains pas. aie confiance en toi-même! De même que, jadis, tes ancêtres furent amis et non ennemis du pays hittite, toi, maintenant Niqmadu, sois l'ennemi de mon ennemi, et l'ami de mon ami. Et si toi, Niqmadu, tu fais cas de ces paroles du Grand-roi ton maître, et les gardes, alors, par des preuves tu verras l'effet des bontés que le Grand-roi ton maître aura pour toi.

Garde donc, O! Niqmadu, l'alliance et l'amitié du pays hittite, et tu verras ensuite comment le Grand-roi traite les rois de Nuhašše et le roi de Mukiš qui ont abandonné l'alliance et l'amitié du pays hittite et sont devenus les ennemis du Grand-roi leur maître. Alors, O! Niqmadu, dans l'avenir tu auras confiance dans les paroles du Grand-roi ton maître.

Et si tous ces rois lancent quelque armée à la conquête de ton pays, toi Niqmadu, ne les crains pas, mais dépêche aussitôt ton messenger vers moi!

Si toi (même), Niqmadu, par tes (propres) armes, tu défais l'armée de Nuhašše ou l'armée de Mukiš, en prenant les devants, que personne de tes mains ne les ôte! Si par exemple, l'armée de Nuhašše n'existant plus, celle de Mukiš, telle des fuyards, à l'intérieur de ton pays pénètre, personne de tes mains ne la reprendra. Si (encore), par exemple, certaines villes de tes confins font acte d'inimitié contre toi et tu engages le combat avec elles, et l'emportes, dans l'avenir que personne de tes mains ne les ôte! (Enfin), si, par exemple, dans l'avenir, le Grand-roi l'emporte sur ces rois, le Grand-roi t'accordera une tablette scellée d'alliance».

En fait, Suppiluliuma craignit que le roi d'Ugarit pouvait se laisser tenter de rallier le Nuhašše et Mukiš, alors ses ennemis. Il lui rappelle que ses prédécesseurs étaient toujours les amis du pays hittite et lui suggère de prendre les devants par une attaque contre l'armée du Nuhašše ou celle de Mukiš. Il promet à Niqmadu le butin en cas de victoire et lui offre une alliance en toute forme. Ce n'est certes pas là le langage d'un maître!

Niqmadu d'Ugarit s'est d'ailleurs décidé à rester neutre ce qui lui valait d'une part l'alliance promise de Suppiluliuma, mais aussi une invasion sur son territoire des ennemis des Hittites. Voici comment se dé-

Les textes tirés en octobre 1953 des Archives Sud découvertes dans l'aile méridionale du palais confirment que tout en payant des tributs aux rois hittites et en reconnaissant explicitement leur supériorité politique et militaire à partir du règne de Suppiluliuma, les rois d'Ugarit agissaient en tant que souverains de leur territoire. La longue liste dynastique, des XIV^e et XIII^e siècles maintenant révélée par nos textes atteste la stabilité de leur règne. Il faut se garder, d'accepter à la lettre certaines affirmations des rois hittites relatives à leur prétentions sur Ugarit. Ainsi sur une tablette des Archives Sud trouvée pendant notre dernière campagne de fouilles, le roi Suppiluliuma, tout en sollicitant l'alliance, l'amitié et la confiance de Niqmadu II et en lui promettant son appui en cas d'attaque par des armées ennemies, n'hésite pas à s'attribuer le titre de « maître » du roi d'Ugarit. Il faut sans doute comprendre que Suppiluliuma essayait de se substituer ainsi au Pharaon, jusque là le traditionnel protecteur d'Ugarit et qui, en réalité, le fut probablement encore à ce moment.

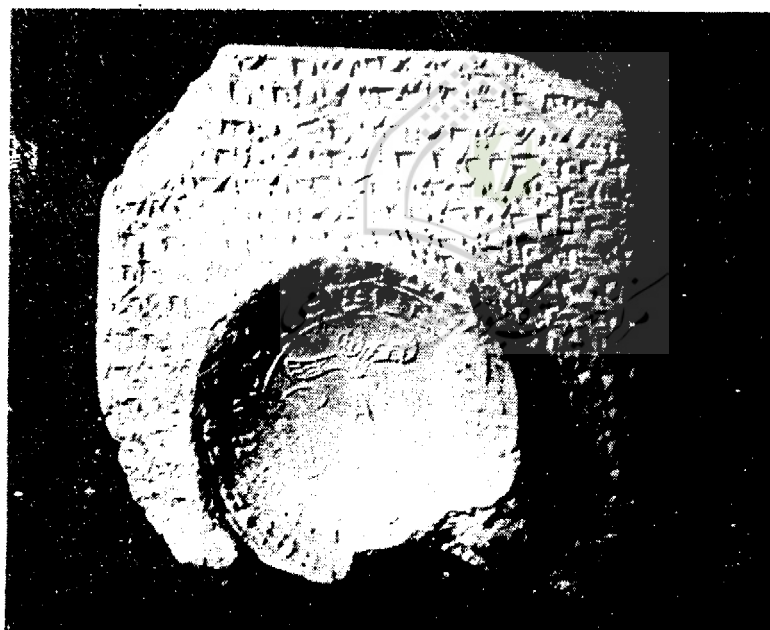


Fig. 6 — Fragment d'une tablette hittite des Archives Sud du Palais d'Ugarit constituant un accord convenant des frontières et portant le sceau bilingue du roi Moursil II (seconde moitié du XIII^e s.)

Voici la traduction que donne M. Nougayrol (1) de cet important document:

(1) Communication à l'Académie des Inscriptions, 29 janvier 1954,

de fouilles en Anatolie, où nous avons pu nous familiariser avec le matériel archéologique et la documentation historique hittite, nous avons admis qu'à aucun moment de son histoire mouvementée et souvent périlleuse, Ugarit n'a été occupée et réellement privée de sa souveraineté par son dangereux voisin du Nord. En dix-sept campagnes de fouilles Ras Shamra n'a produit aucun monument qui attesterait l'occupation territoriale par les Hittites (1). Et cette constatation vaut pour l'ensemble des sites archéologiques côtiers à partir du Djebel Akra (Mont Casius) vers le Sud, dans la mesure où les fouilles, les récoltes de surface et les trouvailles accidentelles, les ont fait connaître (2). D'autre part, aucun des textes d'El Amarna concernant la Syrie et Ugarit en particulier ne peut, objectivement, être interprété dans un autre sens (3).



Fig. 5 — Tablette des Archives Sud du Palais d'Ugarit portant l'empreinte du sceau du roi de Kargemish Talmite_{sub}.

(1) *Ugaritica* I, p. 37.

(2) Cf. *Stratigraphie Comparée et Chronologie de l'Asie Occidentale*, p. VII et p. 40 à 79.

(3) Dans son esquisse de l'histoire d'Ugarit servant d'introduction à sa thèse de doctorat: *La légende phénicienne de Danel*, Paris, 1936, au paragraphe Ugarit au temps d'El Amarna, p. 50, M. Virolleaud qui envisage pourtant, et à plusieurs reprises, la thèse de l'occupation de la ville par les Hittites, est obligé de reconnaître que rien ne permet, cependant, de l'assurer.

Toute cette intense activité politique et diplomatique depuis le règne de Suppiluliuma et pendant ceux de ses successeurs déclenchée par la compétition égypto-hittite à propos de la Syrie du Nord se reflète dans ces nouveaux textes qui étendent notre documentation jusqu'à la fin du XIII^e siècle av. notre ère, c'est-à-dire jusqu'à la disparition de l'Empire de Hatti et la chute d'Ugarit qui coïncident avec la fin de l'Âge du Bronze dans le Proche Orient en général. En particulier nous sommes renseignés par des documents authentiques et contemporains sur les rapports politiques et économiques entre Ugarit et les Hittites, ainsi que leurs vassaux ou alliés de la Syrie du Nord-Est.



Fig. 4 - Tablettes des Archives Sud du Palais d'Ugarit portant l'empreinte du sceau du roi de Kargemish Inliteshub en cunéiformes babyloniens avec indication de ses textes.

C'est là un complément aux informations fournies par les textes de Tell el Amarna, d'un intérêt exceptionnel pour l'histoire de la Syrie du second millénaire. Nous serons ainsi en mesure de confronter les renseignements de source syrienne et égyptienne avec ceux maintenant accessibles d'origine hittite et aussi de vérifier nos conclusions basées jusqu'ici principalement sur la documentation archéologique. En effet, après une vingtaine d'années de recherches à Ras Shamra et une série de campagnes

blottes des archives précédemment trouvées (fig. 4). D'autre part, de nombreuses tablettes portent imprimé sur la face fortement bombée (fig. 5), le grand sceau lentiforme à légende bilingue (hiéroglyphes hittites et cunéiformes babyloniens) des rois de Hatti: Suppiluliuma (env. 1395 à 1355), Mursil II (1), (fig. 6) Hattusil III (env. 1290 à 1266), Tudhaliya IV (env. 1265 à 1235).



Fig. 3 — La cour V du palais en cours de dégagement. Le mur du côté Est, visible à gauche, est dangereusement penché. Les Archives Sud contenant les textes diplomatiques et historiques ont été trouvées dans deux pièces au fond de la cour, à l'emplacement où travaillent deux ouvriers debout, en face desquels on voit M. Abdelkader Rihaoui, représentant du Service des Antiquités aux fouilles de Ras-Shamra, en 1953.

(1) L'empreinte du sceau de Mursil II (env. 1353 à 1356) sur les tablettes des Archives Sud ne correspond pas au sceau original trouvé à Ras Shamra dans la cour I, en 1950, cf. *Syria*, XXIX, p. 172.

Selon Madame Desroches-Noblecourt, à qui je dois l'explication de la scène, il s'agirait du mariage du roi Niqmadu d'Ugarit avec une dame ou une princesse du harem pharaonique. Cet honneur insigne marque évidemment le désir du roi d'Égypte de renforcer par des liens matrimoniaux ses rapports avec la cour du pays d'Ugarit, bastion le plus septentrional de son influence en Syrie. Ce fut, à partir du règne d'Aménophis III et de son successeur Akhenaton, que le roi d'Ugarit a reçu du Nord des avantages, puis des pressions pour le décider à adhérer à la coalition des pays hittites, hostiles à l'Égypte.

Ce Niqmadu II d'Ugarit qui est figuré sur notre vase égyptien du mariage, car il ne peut guère s'agir que de lui, était précisément un contemporain de Suppiluliuma et d'Aménophis IV au temps desquels, selon les lettres de Tell el Amarna, l'adhésion du roi d'Ugarit à la traditionnelle alliance avec l'Égypte était encore intacte, quoique des tributs dûssent déjà être servis aussi au roi hittite, comme les Archives d'Ugarit nous le révèlent.

Peu de temps après, nous l'apprenons par les mêmes sources, cet équilibre précaire nécessitait de la part des successeurs de Niqmadu le double jeu qu'ils pratiquaient d'ailleurs avec adresse (1) et qu'ils renforçaient par des mariages politiques opportuns, tel celui d'Ammistamru, petit fils de Niqmadu II avec la princesse amorite Ahat-milku.

Les textes politiques et économiques ainsi que les lettres concernant les relations entre Ugarit et les pays du Nord et Nord-Est, en particulier l'Empire Hittite, constituent un département spécial, topographiquement nettement distinct des archives du palais (fig. 3). Ils étaient conservés dans deux pièces contigües situées à l'extrémité sud de la cour V, dans l'aile méridionale du palais dégagée pendant notre campagne de fouilles de l'automne 1953. Le format et la terre des tablettes au nombre de plus de 200 jusqu'ici retirées des Archives Sud diffèrent par rapport aux ta-

(1) Ainsi la tablette 16.136 des Archives Centrales mentionnée par M. Nougayrol dans sa communication à l'Académie, le 6 février 1953, montre l'un des Ammistamru d'Ugarit en rapport diplomatique avec les Hittites, comblant de dons un certain Pa-abu, qualifié l' "homme d'Égypte". La formule "homme de tel pays" désigne souvent dans les tablettes de cette époque des personnages importants, parfois des princes ou même des rois régnants.

est gravée une inscription hiéroglyphique, ainsi qu'une scène dont l'interprétation nouvelle, si elle est admise, présente un grand intérêt pour l'histoire des relations entre l'Égypte et Ugarit.



Fig. 2 - Fragment de vase égyptien en albatre portant le cartouche du pharaon Aménophis III (1408 — 1372).

D'après une lecture due à M. Vandier, l'inscription mentionne le nom du roi Niqmaddu qualifié de "Grand du pays d'Ugarit". Au-dessus, l'on voit le roi (une brisure a fait disparaître le corps) probablement assis sous un triple baldaquin dressé selon le rituel égyptien pour les mariages à la cour. Il reçoit l'offrande de l'eau et de l'essuie-main de la part d'une jeune femme aux traits fins et distingués, vêtue d'une chemise transparente et coiffée de la couronne des favorites du Pharaon de l'époque de Tell el Amarna.

mycénien de Chypre (1) ou les boules en terre cuite (2) et dont se servaient aussi les scribes des tablettes d'Enkomi (3). D'autre part, des signes identiques peuvent être relevés sur les tablettes minoennes de Crète (4) et mycénienues de Grèce (5). L'écriture sur la tablette de Ras Shamra, comme celle des tablettes d'Enkomi ne contient cependant aucun de ces signes à forme caractérisée ou hiéroglyphe, si fréquents dans l'écriture linéaire minoenne et mycénienne. Cette différence permet de supposer que la langue de la tablette de Ras Shamra n'est pas la même que celle des tablettes de Crète, de Pylos et de Mycène (6). Il s'agit de Chypriote probablement. Le nombre des écritures en usage dans l'ancienne Ugarit est ainsi porté à cinq : cunéiforme babylonien, cunéiforme alphabétique ou ugaritique, hiéroglyphes hittites et maintenant le syllabaire probablement chypriote.

Parmi les trouvailles de la dernière campagne de fouilles concernant les relations entre l'Egypte et Ugarit, je voudrais signaler ici une grande quantité de vases ou fragments de vases en albâtre qui gisaient parmi les ruines du palais. Ils portent les cartouches des pharaons suivants (7) dont les dynastes d'Ugarit ont dû se considérer comme les alliés : Thoutmosis III (1504 à 1450), Aménophis III (1408 à 1372), (fig. 2) Akhenaton ou Aménophis IV (1372 à 1354), ainsi que la reine Nefertiti, Horemheb (env. 1354 à 1314), Ramsès II (1301 à 1235 ou 1290 à 1224).

Sur la panse de l'un des vases incomplets trouvé déjà en 1952 (8),

-
- (1) *Nos Missions en Chypre*, p. 119, fig. 50 (signes VIII, XVI), Casson, *Ancient Cyprus*, p. 97, 1, 29.
 - (2) Cf. R. Dussaud, *Civilisations Préhelléniques*, p. 429. — O. Masson, *Nouvelles inscriptions en caractères chypro-minoens* dans notre volume *Enkomi-Alasia*, p. 381, signes fig. 124 (2), 131 (1).
 - (3) M. Ventris, liste des signes dans *Antiquity*, 1953, p. 236, fig. 3; signes numéros 4, 5, 11, 17, 19, 57.
 - (4) Cf. Evans-Myres, *Scripta Minoa*, II, pl. I (4, 7); III (38).
 - (5) M. Ventris and J. Chadwick, dans *Journ off Hell. Studies*, 1953 p. 85, fig. 1, K I (3, 59).
 - (6) Voir déjà R. Dussaud, *Civilisations Préhelléniques*, p. 431. — La tablette de Ras Shamra sera publiée par M. O. Masson.
 - (7) Citées ici dans l'ordre chronologique, les dates indiquées sont celles proposées par MM. Drioton et Vandier ou Rowton, en ce qui concerne Ramsès II.
 - (8) Cf. *Annales Archéologiques de Syrie*, II, 1952, pl. IV.

Forrer, la plupart des textes ainsi compromis ont pu être sauvés,

La dix-septième campagne de fouilles de Ras Shamra nous a fourni un précieux document significatif pour les rapports entre Ugarit et le monde égéen ou, plus précisément, sa partie orientale, la région chypro-minoenne. Une ouvrière des fouilles a recueilli en surface, immédiatement à l'Est du palais, la moitié d'une petite tablette de section lentiforme en terre cuite couleur brun clair. Elle porte sur les deux faces un texte gravé avec soin composé de signes ressemblant à l'écriture appelée chypro-minoenne (1) et dont la parenté avec l'écriture dite linéaire B de Crète et de Mycènes est évidente (2).

Ductus et aspect général de l'écriture de la tablette de Ras Shamra rappellent celle des tablettes récemment trouvées à Enkomi-Alasia (3). Mais les signes sont plus grands, mieux tracés et posés sur des lignes, comme sur certaines tablettes de Crète (4) et de Grèce (5). Les mots sont séparés par de courts traits verticaux se terminant par un point, ressemblant à un point d'exclamation. L'écriture "tourne" verticalement autour de la tablette, comme dans l'écriture cunéiforme. On reconnaît immédiatement des signes identiques à ceux utilisés pour les marques sur les vases

(1) A. J. Evans, *Scripta minoa*, I, p. 68. — C. F. A. Schaeffer, *Missions en Chypre*, p. 119. — S. Casson *Ancient Cyprus*, p. 72. —

(2) A. J. Evans, I. c. et A. J. Evans et J. L. Myres, *Scripta Minoa*, II, Londres 1952. — R. Dussaud, *Les civilisations Préhelléniques dans le bassin de la Mer Egéenne*, p. 431. — M. Ventris and J. Chadwick, *Evidence for greek dialect in the Mycenaean Archives*, dans *Journ. of Hell Studies*, 1953, p. 48. — du même A *Note on Decipherment Methods*, dans *Antiquity*, 1953, p. 200.

(3) Deux fragments ont été trouvés dans le périmètre des fouilles du Département des Antiquités de Chypre (cf. P. Dikaios, *An inscribed tablet from Enkomi, Cyprus*, dans *Antiquity*, 1953, p. 103, pl. IV; du même A *second inscribed clay tablet from Enkomi*, *Antiquity*, 1935, p. 253, pl. IV-V, un troisième fragment vient d'être trouvé pendant notre campagne de fouilles de 1953 dans la région ouest du site. Il sera publié sous peu par M. A. Masson.

(4) A. J. Evans et J. L. Myres, *Scripta Minoa*, II, fig. 777 à 806; 831, 902, 911, 1515 etc. — R. Dussaud, *Civilisations Préhelléniques*, p. 423.

(5) E. L. Bennett, Jr, *The Phylos Tablets*, Princeton. 1951. — M. Ventris, I. c., *Antiquity*, 1953, fig. I. (tablette de Mycènes).

au jour une cinquième cour dans l'angle nord-est de laquelle, un passage donne accès à une aile nettement séparée du palais. D'une construction moins bien soignée, elle semble avoir été ajoutée au plan primitif. L'une des pièces constitue un magasin étant remplie de très grandes jarres, la plupart effondrées sur place lors de l'incendie du palais.

En poursuivant, en 1953, nos fouilles dans la région orientale du palais, nous trouvâmes un complément de textes en cunéiforme aux Archives Est. Les documents étaient jadis conservés dans quatre pièces étroites situées à l'entrée orientale du palais, situation qui rappelle celle des archives découvertes près de l'entrée ouest, à l'extrémité opposée du vaste bâtiment.

De nombreux textes des Archives Est avaient souffert de l'incendie du palais. Leur dégagement présentait de grandes difficultés. Sous l'action du feu, les pierres calcaires s'étaient transformées en chaux vive que l'eau de la pluie a changé en hydroxyde de calcium. Des coulées de cette chaux éteinte ont emprisonné dans une gangue dure et cassante de nombreuses tablettes (fig. 1). Grâce aux soins experts de MM. Chefik Imam et



Fig. 1 — Une chambre des Archives Est en cours de fouilles. Au fond un bloc de béton contenant des débris de tablettes.

appelée par nous cour d'honneur, est entièrement revêtue d'un dallage en pierres. Ont été retrouvées aussi sept entrées ou passages munis de portiques à deux colonnes et onze escaliers menant au premier étage aujourd'hui disparu.

La partie du palais jusqu'ici mise au jour, l'entrée fortifiée à l'Est non comprise, mesure 120 m. dans le sens est-ouest et 85 m. selon l'axe nord-sud. Elle couvre une superficie dépassant 10.000 mètres carrés. En direction est et sud, ses limites n'ont pas encore été atteintes; selon nos sondages et observations, une partie du bâtiment s'y trouve encore sous le sol. Élevées en belles pierres de tailles et munies de pilastres carrés servant de contreforts, les façades présentent entre la deuxième et la troisième assise un logement pour une forte poutre horizontale, caractéristique de tous les murs extérieurs et de beaucoup de murs et piliers intérieurs du palais (1).

Du plan de la partie orientale du palais, nous ne possédons encore que des éléments insuffisants pour une interprétation. Dans la région sud-est, nous avons dégagé une salle de plan rectangulaire. Flanquée de deux colonnes, son entrée principale a ensuite été rétrécie. A cette occasion, les bases de colonnes en pierre ont été noyées dans la maçonnerie des nouveaux jambages. Immédiatement au Sud, nous avons commencé à déblayer une troisième cour plus vaste que les précédentes. Elle comporte au centre une arène délimitée par un muret de faible hauteur. Le but de cette installation ne saurait être précisé à l'heure actuelle.

Plus à l'Ouest, nous avons mis au jour un ensemble de vastes pièces groupées autour d'une courette munie à l'Est d'une entrée large de 5 m. divisée par deux colonnes en trois passages. C'est dans cette entrée, dans la courette et dans une vaste salle (ou cour) encore incomplètement dégagée située immédiatement à l'Ouest que nous avons trouvé les nombreuses tablettes faisant partie des Archives Centrales.

Au sud de cette partie du palais, nous avons commencé à mettre

(1) Cf. *Syria*, XXVII 1951, p. 3. Les cales provisoires insérées dans ces fentes aujourd'hui remplies par la terre qu'entraînent les pluies d'hiver n'ont pas partout résisté à la pression ou à la poussée des murs. Pour prévenir les écroulements, il va falloir décider des restaurations plus importantes pour lesquelles nous espérons pouvoir compter sur le concours et l'expérience du Service des Antiquités de Syrie.

les architectes et topographes de nos travaux, auxquels s'est joint M. J. C. Courtois, assistant-archéologique.

Les représentants du Service des Antiquités à nos fouilles furent MM. Abdel Kader Rihaoui et Cheffik Imam. M. Imam nous fit profiter en outre de son exceptionnelle expérience pour la conservation des tablettes et des bronzes. En octobre 1953, Monsieur le Directeur Général des Antiquités nous a envoyé M. Raif Hafez, Chef du laboratoire du Musée de Damas, qui a conseillé et aidé M. Forrer au cours du sauvetage des fragiles ivoires mis au jour dans le palais. En novembre 1953, M. Jean Nougayrol, assyriologue, est revenu pour procéder, à Darras, au premier examen de la riche récolte épigraphique de notre XVII^e campagne. Grâce à ses lectures sur place, plusieurs tablettes en cunéiforme babylonien particulièrement éprouvées par l'incendie du bâtiment ont pu être sauvées. Comme par le passé, M. Ch. Virolleaud, membre de l'Institut, a assumé l'étude et la publication des textes en cunéiforme alphabétique.

Les fouilles de Ras Shamra étant devenues l'objet d'un vif et sympathique intérêt de la part du public cultivé syrien, la question de l'aménagement du site pour les visites va se poser (1). La majeure partie de la campagne de 1953 a été consacrée à l'exploration du palais d'Ugarit dont le dégagement a fait de satisfaisants progrès. Encore que les fouilles dans la région centrale du palais aient dû être exécutées à la piochette par des équipes sélectionnées, à cause de la fréquence parmi les décombres, de petits objets et, notamment, de tablettes en cunéiforme ou de fragments.

Dans notre précédent rapport (2), nous avons décrit l'entrée principale du palais ainsi que les pièces de la façade nord, depuis les archives administratives logées dans l'angle nord-ouest du bâtiment, jusqu'à la nécropole royale trouvée complètement pillée, sous le sol de deux pièces contigües occupant à peu près le milieu de cette façade. Dès le début du dégagement les dimensions du palais s'annonçaient remarquables. Mais, nos prévisions d'alors ont été, depuis, largement dépassées (Pl. I).

Sont dégagées à l'heure actuelle, 67 pièces ou salles disposées autour de cinq cours intérieures dont l'une, située près de la grande entrée ouest,

(1) Un Guide illustré rédigé par Monsieur G. Saadé, auteur lattaquiote, vient de paraître. Une édition arabe est en cours de préparation à Damas.

(2) *Annales Archéologiques de Syrie*, II, 1952, p. 5.

LES FOUILLES DE RAS SHAMRA-UGARIT

DIX-SEPTIÈME CAMPAGNE DE FOUILLES (1)

(1953)

par

CLAUDE F. A. SCHAEFFER

MEMBRE DE L'INSTITUT

Directeur des Fouilles de Ras Shamra

La dix-septième campagne de fouilles à Ras Shamra a eu lieu pendant les mois de Septembre à Novembre 1953. Nos travaux ont bénéficié de la haute protection du Gouvernement de Syrie.

Je voudrais exprimer mes remerciements en particulier au Docteur Selim Abdul-Hak, Directeur général des Antiquités, pour le concours qu'il a accordé à la Mission en toute circonstance. En dehors de l'appui dont nous avons ainsi bénéficié de la part des Autorités de Damas, je tiens à signaler le concours fourni par les Autorités civiles et militaires de Lattaquié.

La Mission était constituée de sept membres venus de France et de trois membres syriens que le Directeur Général des Antiquités a bien voulu nous adjoindre. Comme par le passé, Madame Schaeffer a bien voulu assurer l'organisation matérielle de notre installation à Minet-el-beida. M. Forrer aidé, cette année, par MM. Sarade-Loucheur et R. Kuss furent

(1) Cf. *Les Annales Archéologiques de Syrie*, tome I, 1951, p. 5, tome II, 1952, p. 3.

the section reproduced here) are the two-storied colonnaded facade of the palace, with at the right the octagonal church of Constantine the Great (identified by the effort to represent an octagon and by the figure in an attitude of prayer), and at the left by a small private race track or exercise track such as the grounds of the palace might very well have possessed. Near the palace was the Tauriana quarter, with a statue standing on a column; the remains of the Greek inscription which labelled this quarter, [TA TAY] PIANA, can be seen. Thus, in an abbreviated but none the less clear picture, the facade of the palace has been preserved for us among the similar characteristic pictures of the buildings of ancient Antioch.

G. DOWNEY



Constantine the Great, with a praying figure; 39-38, street scene and mutilated building; lost portion of mosaic, along rear wall of room; 36, bridge returning from island to main part of city; 35-30, street scenes and mutilated buildings; 29, colonnaded streets forming an angle at a square adorned with a tree and statues, presumably the main colonnaded street; 24-20, street scenes showing vendors of food, which suggest that the market area near the entrance to the city is represented; 19-15, road from Antioch to Daphne, represented by private villas and trees, as described by Libanius, *Orat.* XI, 234-236; 14-1, scenes in Daphne, including public bath (14), colonnaded promenade (12), Olympic stadium (9), private bath of Ardaburius, and finally (8-1) the springs of Daphne. I expect to treat this mosaic in greater detail in my history of Antioch which is in preparation.

in the topographical border of the celebrated mosaic found at Yakto (in Daphne, the suburb of Antioch), which is now in the Museum at Antioch (Fig. 4) (1). The border of this mosaic, which has been dated in the latter part of the fifth century after Christ, is, as is well known, a valuable source for the topography of ancient Antioch, since it evidently illustrates an itinerary of Antioch and Daphne, starting (as does the description of the city in Libanius' oration in praise of Antioch) at the northern part of the and ending at the springs of Daphne (2). One section of the border shows a series of monuments which seem certainly, as W. Eltester has pointed out (3), to represent the island; among these monuments (in the center of

-
- (1) The mosaic was originally published by J. Lassus, « La mosaïque de Yakto, » *Antioch-on-the-Orontes*, I, pp. 114—156; it was republished by Doro Levi, *Antioch Mosaic Pavements* (Princeton, 1947), I, pp. 323—345, with Plates LXXV—LXXX, and an extensive and valuable commentary on it has been provided by W. Eltester, « Die Kirchen Antiochias im IV. Jahrhundert, » *Zeitschrift fuer die Neutestamentliche Wissenschaft*, XXXVI (1937), pp. 251—286
- (2) Lassus and Eltester suppose that the itinerary begins in Daphne and finishes in Antioch. That the reverse is true is indicated, in my estimation, by two factors. The imaginary route followed by Libanius in his *Oration XI* begins with the northern part of the city (sec. 196), describes the city and the island, and comes to a climax with the springs of Daphne (sec. 240), just as the springs from their position on the border of the mosaic floor, must be either the beginning or the end of the itinerary. Again, if the route of the mosaic is from Daphne to Antioch, the scenes in the border have to be read from right to left, going counter clockwise round the room, whereas if the route is from Antioch to Daphne, the scenes are read from left to right, going clockwise around the room, which was the natural order of reading in the Greek speaking world.
- (3) *Op. cit.*, pp. 259—367. Eltester's and my reconstruction of the itinerary through the city follow different directions, but we agree as to which scenes represent the island, and there seems now to be little doubt as to these identifications. My reconstruction of the itinerary (using the numbers assigned to the scenes by Lassus) is as follows: Nos. 56—55, travellers entering Antioch through the monumental gate on the Beroea road; 54—51, street scenes, with mutilated buildings; 50, street scene, showing transverse street; 49—48, café and street scene; 47 monumental colonnaded building, perhaps representing a structure on the transverse street which led from the main street to the island (Libanius, *Orat. XI*, 202); 46, bridge leading to island; 44, building on island; 43, race track on island; 42, façade of palace and the Tauriana quarter, known to have been on island (Theophanes, a. 5878, p. 10.10—11 ed. De Boor); 41—40, octagonal Church of

Malalas (p. 328. 3-4 Bonn ed.) uses the term *Regia* (in Greek transliteration) to mean the short colonnaded street (*Regia* sc. *hodos*) mentioned by Libanius (*Oration* XI, 205, quoted above) which led to the palace and, as Libanius says, formed a sort of propylaea for it. Malalas uses the word *Regia* in the same sense to describe a similar colonnaded street which led to the palace at Constantinople (1). The Tetrapylon of the Elephants is not mentioned elsewhere and it is not certain from our reference to it whether or not it stood at the crossing of the four main streets of the island, one of which would have been the *Regia* leading to the palace, although this seems to be the most natural disposition architecturally.

An account of Antioch written by a Chinese visitor states that as one approached the palace there were three gates, presumably standing in succession along the approach, the second of which, on its " upper floor," possessed a clepsydra or water clock, consisting of a human figure and an arrangement of twelve spheres, one of which moved and struck each hour (2).

We come finally to the representation of the palace which appears

-
- (1) Malalas, p. 321.8 Bonn ed., cf. *Chronicon Paschale*, p. 528.19—21 Bonn ed. In Latin, *regia* would be used to denote the palace itself, as for example by Ammianus Marcellinus, XXV, 10, 2, who speaks of a statue in the palace at Antioch as being *in vestibulo regiae*. The use in Greek of *Regia* to describe a street or a portion of a street is illustrated by a number of references to the principal street at Constantinople, which is sometimes called *Regia*, sometimes *Mese*; see R. Guillard, « Autour du Livre des Cérémonies de Constantin VII Porphyrogénète, » *Actes du VIe Congrès international d'études byzantines, Paris, 1948* (Paris, 1951), I, pp. 171—182. C. O. Mueller, not being familiar with this usage, was unable to determine what the *Regia* in Malalas was (*Antiquitates Antiochenae*, Goettingen, 1839, p. 99).
- (2) The account, in F. Hirth, *China and the Roman Orient* (Leipzig and Shanghai, 1885, reprinted 1939), p. 213, is as follows: « Coming from outside to the royal residence there are three large gates beset with all kinds of rare and precious stones. On the upper floor of the second gate they have suspended a large golden scale; twelve golden balls are suspended from the scale stick by which the twelve hours of the day are shown. A human figure has been made all of gold of the size of a man standing upright, on whose side, whenever an hour has come, one of the balls will drop, the dingling sound of which makes known the divisions of the day without the slightest mistake. »

It is instructive to note that there has been difference of opinion as to whether the camp-like structure whose traces have been preserved at Palmyra was a permanent camp or a palace of Diocletian (1). A building inscription seems to refer to the structure as *castra*, and this has been taken to mean that it was a permanent camp, although the term *castra* was regularly used to denote whatever place the emperor was using for the time being as his residence (2). The scholars who have called the structure at Palmyra a palace do not seem to have reckoned with the question whether Diocletian supposed that he or his associates and successors would spend enough time in Palmyra to make the building of a palace there necessary or desirable. It seems unlikely that Diocletian, fond of building as he may have been, would have gone to the expense of constructing a palace at Palmyra, and the archeological evidence tends to show that the structure was a camp. Its construction is to be dated between A.D. 292 and 304, or between 293 and 303 (3).

The approaches to the palace at Antioch are mentioned several times. Libanius (quoted above) speaks of a short colonnaded street running from the center ("omphalos") of the island to the palace. Julian the Apostate (A. D. 361-363) published his *Misopogon*, or satire on the people of Antioch, at the "Tetrapylon of the Elephants," near the "Royal Street" which served as an entrance to the palace; this was presumably a tetrapylon surmounted by a statue showing elephants drawing a triumphal quadriga (4).

(1) See *Palmyra*, ed. by T. Wiegand (Berlin, 1932), pp. 85, 106-107; C. Watzinger, « Palmyra, » *Real-Encyclopaedie*, XVIII (1919), col. 270; Rodenwaldt, *loc. cit.* (above, n. 1); J. Starcky, *Palmyra* (Paris, 1952), pp. 66, 109-110.

(2) See Ensslin in *Cambridge Ancient History*, XII, p. 386, and in *Real-Encyclopaedie*, VII A, col. 2454.

(3) See *Palmyra*, ed. Wiegand, pp. 106-107.

(4) Malalas, p. 328.2-4 Bonn ed. In this instance « publication » presumably means that a copy was officially displayed at the Tetrapylon in such a way that anyone who wished could read it, or read it aloud to the bystanders. Elephants, being *par excellence* royal beasts, were sometimes used in triumphal processions to draw chariots; cf. Pliny, *Nat. Hist.*, VIII, 4, and *Scr. hist. Aug.*, *Elagabalus*, XXIII, 1, and see Wellmann, « El-fant, » *Real-Encyclopaedie*, V (1905), cols. 2248-2257 and H. Leclercq, « Éléphant, » *Dictionnaire d'archéologie chrétienne et de liturgie*, IV, cols. 2665-2666. Coins showing quadrigas of elephants are illustrated by Imhoof-Blumer and O. Keller, *Tier-und Pflanzenbilder auf Muenzen und Gemmen des klassischen Altertums* (Leipzig, 1889), Plate IV, n° 5, cf. Plate XIX, nos. 39, 41.

hippodrome which had been built by Septimius Severus, (1) and at Thessalonica, where Galerius, after becoming emperor in A. D. 305, built a palace adjacent to the hippodrome and on its west side (as at Antioch). (2) The ceremonies and spectacles in the hippodrome played an important part in the political and ceremonial life of the emperor, so that it was essential that palace and hippodrome be closely integrated (3).

The evidence, then, makes it possible to suppose (as some scholars do (4)) that the palace at Antioch served as a model for the palace which was later built at Salona, although a more cautious view would be that the two structures represent a type of plan which was so common that there would have been no necessary influence of the one on the other (5). The military tradition which surrounded Diocletian would naturally lead him to build palaces of this type (6).

- (1) On the construction of Constantine's palace at Constantinople, see C. Du Cange, *Constantinopolis Christiana* (Paris, 1680), part I, p. 113, and cf. R. Janin, *Constantinople byzantine* (Paris, 1950), p. 109. On the hippodrome of Septimius Severus, see E. Oberhummer and J. Miller, « Byzantium, » *Real-Encyclopaedie*, III, (1899), cols. 1125, 1140, and Janin, *op. cit.*, p. 178. The position of the hippodrome with relation to the palace at Constantinople is shown in the plan published by A. Vogt, *Constantin VII Porphyrogénète, Le Livre des Cérémonies, Commentaire*, I (Paris, 1935), folding plate at end of volume, and in *The Great Palace of the Byzantine Emperors, being a first report on the excavations carried out in Istanbul on behalf of the Walker Trust (the University of St. Andrews) 1935-1938* (Oxford, 1947), Plate 29. The plan of the palace at Constantinople resembled that of the palace at Salona; see K. Lehmann-Hartleben, « *Stadtebau*, » *Real-Encyclopaedie*, III A (1929), col. 2124.
- (2) See E. Oberhummer, « Thessalonike, » *Real-Encyclopaedie*, VI A (1937), col. 149; O. Tafrali, *Topographie de Thessalonique* (Paris, 1913), p. 131; E. Dyggve, « Kurzer, vorläufiger Bericht ueber die Ausgrabungen im Palastviertel von Thessaloniki, Fruhjahr 1939, » *Dissertationes Pannonicae*, ser. 2, no. XI (*Laureae Aquincenses*, II), 1941, pp. 63-71.
- (3) See J.B. Bury, *History of the Later Roman Empire* (London, 1923), I, pp. 81-86; F. Dvornik, « The Circus Parties in Byzantium, their Evolution and their Suppression, » *Byzantina Metabyzantina*, I, pt. 1 (1946), pp. 119-133.
- (4) See Wellbach, *op. cit.*, (above, n. 13).
- (5) See Lehmann-Hartleben in *Real-Encyclopaedie*, III, A, col. 2124; E. Dyggve, *History of Salonitan Christianity* (Oslo, 1951), p. 28, with n. 40 (on p. 42).
- (6) G. Rodenwaldt in *Cambridge Ancient History*, XII (1939), pp. 567-568.

tian's palace at Salona. Since Galerius' triumph in A. D. 298 was celebrated at Antioch, it seems reasonable to suppose that the arched colonnade shown in the scene on the arch at Salona is intended to represent the colonnade of the palace built by Diocletian at Antioch (1). Incidentally, the construction of the palace at Antioch would thus be dated before A.D. 293.

A further indication of the plan may be found in the evidence which records that the palace was built on foundations laid by Valerian, apparently in A. D. 256 (2). Valerian undertook the restoration of Antioch after the city had been damaged by the Persians when they captured it in A.D. 253. It seems highly unlikely that Valerian should have used his resources at this time in the construction of a palace at Antioch. On the other hand there would be good reason for him to begin the construction of a fortified *castrum* on the island, and if, when this project remained unfinished, Diocletian employed the foundations for a palace, the result would have been a structure of the same type as the palace at Salona.

A further point of interest is that the site of the palace at Antioch is adjacent to the hippodrome which had stood on the island since the first century B.C. (3) This recalls the arrangement adopted at Constantinople, where Constantine in building his palace chose a site alongside the

(1) See K.-F. Kinch, *L'arc de triomphe de Salonique* (Paris, 1890), p. 37; F. Weilbach, « Zur Rekonstruktion des Diocletians-Palastes, » *Strena Buliciana* (Zagreb-Split, 1924), p. 125; H. von Schoenebeck, « Die zyklische Ordnung der Triumphalreliefs am Galeriusbogen in Saloniki, » *Byzantinische Zeitschrift*, XXXVII (1937), pp. 361-371; and Ensslin, *op. cit.* (above n. 1 p. 81) col. 2445-2446.

(2) Malalas (p. 306.21-22) says that the foundations were laid by Gallienus, but the history of this emperor's reign, during which Antioch was controlled by Palmyra, makes it seem improbable that he did any such work at Antioch; he would hardly have wished to build a palace in the city when it was under Palmyrene domination. Malalas in other respects confuses Gallienus and Valerian and since it is known from Zosimus I, 32, 3 that Valerian undertook reconstruction work at Antioch, it seems reasonably certain that the foundations which served ultimately for the palace were laid by him.

(3) On the history of the hippodrome, see the report of its excavator, W. A. Campbell, in *Antioch-on-the-Orontes*, I, p. 40, and G. Downey, « The Occupation of Syria by the Romans, » *Transactions of the American Philological Association*, LXXXII (1951), pp. 149-163.

unlikely occurrence, of which there is no indication in the sources. Moreover, there seems to have been an east-west thoroughfare running before one of the large baths on the southwestern part of the island (*Antioch-on-the-Orontes* I, Princeton, 1934, pp. 20-21), whose presence would seem to preclude the existence of a palace in this area. The inner, or eastern, branch of the river has become filled in since antiquity, so that its course is now indicated (as is shown on the map in *Antioch-on-the-Orontes*, II, p. 215) by the contours of the ground and by the wall of the mainland part of the city which the river followed; there are also traces of the bridges which connected the island and the mainland. The ancient course of the river, and the position of the bridges, are shown on the restored plan of the city printed here (Fig. 1) (1). In view of all this evidence, the northwestern part of the island, where no excavations have as yet been made, seems certainly to have been the site of the palace; and it is not without interest to find that this quarter of the island would accommodate a palace of approximately the same size as Diocletian's palace at Salona, which measured 179.48 or 175.30 m. $\times$ 216 or 215.10 m., (2) or even one of greater size.

The general plan of the palace at Antioch can be determined with a fair degree of certainty from several types of evidence. First, Libanius' remark (quoted above) that the side of the palace which lay along the river had a pillared gallery, which overlooked the river and the suburbs, recalls the gallery overlooking the sea in the palace at Salona. Second, the triumphal arch of Galerius at Thessalonica, which records the Caesar's victory over the Persians, shows (Fig. 3) Diocletian and Galerius sacrificing at an altar which stands before a colonnade composed of pillars bearing arches of the same kind as those in the peristyle of Diocle-

(1) The area excavated on the island is shown on the map of the excavations in *Antioch-on-the-Orontes*, II (Princeton, 1938), p. 215, Plan I, and in *Antioch-on-the-Orontes*, I, (Princeton, 1934), Plate II, facing p. viii. The excavations are described in *Antioch-on-the-Orontes*, I, pp. 1-48, and in *Antioch-on-the-Orontes*, II, p. 1. The shape of the island is outlined on a photograph of the area taken from the top of Mount Silpius reproduced as Plate I in C. R. Morey's article cited in the preceding note; and a panoramic view of the northern part of the island area appears in *Antioch-on-the-Orontes*, III (Princeton, 1941), p. 6, fig. 5.

(2) Vulic, « Salona », *Real-Encyclopaedie*, I A (1920), col. 2005.

The gallery along the river side of the northern front of the palace is mentioned by the church historian Theodoret, who says that there were towers at either end of the portico, and that between the palace and the river there was a road which led from the city gate across the bridge to the suburbs. It was possible for a person in the portico to converse with a person in the road (1).

The position of the palace on the island can be determined with a fair degree of certainty; it is shown on the restored plan of the city printed here (Fig. 1) (2). Libanius says that the palace occupied space between the middle of the island and the outer branch of the river, by which he must mean the western branch, which was furthest away from the city. The same location is indicated by the testimony of Libanius and Theodoret that the palace had a gallery along the river from which there was a view of the suburbs. The excavations which were made on the southwestern part of the island indicate that the palace cannot have stood there. No traces of a palace were discovered, and the remains which were found (which happened to be baths) indicate that if a palace stood here it must have disappeared completely between A. D. 350 and 400, a most

for the use of the emperors. There may well have been such a building, which Diocletian's new palace replaced. However, if there were such an older palace, Libanius would certainly have chosen for description in his panegyric the imperial residence which, in his day, was the most prominent, and this would certainly have been the one built by Diocletian.

- (1) Theodoret, *Hist. eccl.*, IV, 26, 1-2, pp. 264-265 ed. Parmentier. The incident in connection with which Theodoret gives this information occurred during the reign of Valens (A. D. 364-378). Theodoret does not specifically mention the bridge, but its existence is to be inferred in his account. Whether the road between the palace and the river ran along the whole of the portico which faced the river, or along only a part of it, is not clear. E. S. Bouchier, *A Short History of Antioch* (Oxford, 1921), p. 160, states that the north wall of the palace was here carried across the road to the enclosing wall of the island on a series of arches. This is a possible interpretation of the passage in Theodoret but there is no specific evidence for it in the texts.
- (2) Fig. 1 is reproduced here by permission of the author and of the publisher, Longmans Green and Co. The same plan appears in C. Morey, « The Excavation of Antioch-on-the-Orontes, » *Proceedings of the American Philosophical Society*, LXXXVI (1936), p. 638.

the island in the Orontes on which it stood, as follows (*Oration XI*, 203 - 207) : « Such then is the form of the old city. The new city stands on the island which the division of the river formed... The form of this new city is round. It lies in the level part of the plain, the whole of it in an exact plan, and an unbroken wall surrounds it like a crown. From four arches which are joined to each other in the form of a rectangle, four pairs of stoas proceed as from an omphalos, stretched toward each quarter of the heaven, as in a statue of the four-handed Apollo. Three of these pairs, running as far as the wall, are joined to its circuit, while the fourth is shorter but is the more beautiful just in proportion as it is shorter, since it runs toward the palace which begins hard by and serves as an approach to it. This palace occupies so much of the island that it constitutes a fourth part of the whole. It reaches to the middle of the island, which we have called an omphalos, and extends to the outer branch of the river, so that where the wall has columns instead of battlements, there is a view worthy of the emperor, with the river flowing below and the suburbs feasting the eyes on all sides. A person who wished to describe this part carefully would have to make it the subject of a discourse, but it cannot be a part of a discourse on another subject. Nevertheless one should say at least that to the other palaces which exist in every part of the world, some of which are praised for their size and others for their beauty, it is in no way inferior; but it is far superior to many, nowhere surpassed in point of beauty, and in size surpassing all others, divided into so many chambers and stoas and halls that even those who are well accustomed to it become lost as they go from door to door. I believe that if this palace stood by itself in some insignificant city, such as are numerous in Thrace, where a few huts form the cities, it would give the one that possessed it good reason to claim a proud position in the catalogue of cities. » (1).

(1) Malalas (p. 206 21 22) merely mentions the construction of the « great palace » (as he calls it) and says nothing as to its location or plan. Libanius, it is true, does not say that the palace which he describes was built by Diocletian, but it seems certain that this must have been the case. We have no specific evidence for the Seleucid royal residence which must have existed at Antioch; possibly it became in time the residence of the Roman governor of Syria. There is no evidence whether before Diocletian's time there was also a palace reserved

capital (1). Four years later he made a hurried trip through Syria on his way to repel an invasion of the Saracens, and this time we know that he was in Antioch on 6 May A. D. 290 and in Emesa on 10 May (2). In A. D. 297 the Sassanian king Narses invaded Syria and defeated the Caesar Galerius, who had been called from Illyricum to deal with the attack. Diocletian, on his way north after suppressing a revolt in Egypt, met Galerius in Antioch, probably late in the year, and evidently spent the winter of A. D. 297/8 there. In A. D. 298 Galerius mounted a new offensive and defeated the Persians, capturing the king's wives and children, as well as a large amount of booty (3). Diocletian and Galerius celebrated a triumph in Antioch, which apparently is depicted on the triumphal arch which Galerius later erected in Thessalonica. By this time, Galerius' arch indicates, Diocletian's great palace at Antioch had been built (4).

Diocletian evidently remained in Antioch after the triumph over the Persians, and spent the winter of A. D. 298/9 there, for it was in Antioch, on 1 January A. D. 299, that he entered on his seventh consulship, and a rescript shows his presence in the city on 5 February A. D. 299 (5). So far as we can tell, he also made Antioch his headquarters in A. D. 300 and 301; he is known to have been in the city on 12 February, 26 March and 25 June A. D. 300, and on 4 July A. D. 301 (6).

The emperor erected many buildings in Antioch, of which the palace was the most prominent. Libanius, in his panegyric of Antioch, written for the local Olympic games of A. D. 360 (7), describes the palace, and

(1) See W. Ensslin, « Valerius (Diocletianus) », Pauly-Wissowa-Kroll etc., *Real-Encyclopaedie*, VII A (1948), col. 2427-2428.

(2) Ensslin, *op. cit.*, col. 2431.

(3) Malalas, p. 306.12-61, 308.6-14, in the pagination of the Bonn edition, cited from the text of A. Schenk von Stauffenberg, *Die roemische Kaisergeschichte bei Malalas* (Stuttgart, 1931); cf. Ensslin, *op. cit.*, col. 2442-2443. H. Mattingly, in the *Cambridge Ancient History*, XII (1939), p. 335, puts the original Persian invasion in the summer of A. D. 296, but Ensslin's argument that the invasion took place one year later seems convincing.

(4) Concerning the scene on the Arch of Galerius see further below.

(5) Ensslin, *op. cit.*, col. 2445.

(6) Ensslin, *op. cit.*, col. 2446.

(7) On the date, see the introduction to the oration in R. Foerster's edition of Libanius (Leipzig, Teubner, 1903 ff.), I, p. 412.

THE PALACE OF DIOCLETIAN AT ANTIOCH

by

G. DOWNEY

Harvard University, Dumbarton Oaks

When the excavations were conducted at Antioch in 1932-1939, it was not possible to include the area in which, it now seems reasonably certain from literary evidence, Diocletian's palace stood. The essential features of the structure can, however, be restored from literary texts, and there are two monuments, in mosaic and in sculpture, which seem to represent its facade. It is to be hoped that the remains of the palace may some day be found. In the meantime a survey of the evidence concerning the building may be of some use, especially since there does not seem, thus far, to have been any study of the subject which assembles all of the literary evidence.

Diocletian visited Antioch on a number of occasions, and remained in the city for substantial periods at least three times. He may have stopped at Antioch during the journey through the eastern provinces which he made in the spring and summer of A. D. 286; we happen to have no specific indication of his presence at Antioch on this tour, but Diocletian had then been emperor for a relatively short time and the tour was an important one, so that it would seem likely that he visited the Syrian

riode (1). Ces diverses données archéologiques sont sans doute trop minces pour qu'il soit utile de les mettre en rapport avec celles que fournissent d'autre part les chroniqueurs arabes sur l'histoire de la ville (2), mais il reste à souhaiter que des recherches ultérieures s'orientent un jour dans cette direction et permettent de restituer les étapes de l'évolution d'un site jusqu'à ce jour négligé.

JANINE ET DOMINIQUE SOURDEL



-
- (1) G. SALLES, *Les décors en stuc de Balis* in *Mémoires du III^e Congrès International d'Art et d'Archéologie Iranien* (Léningrad, 1935), 221-26, pl. 99-102; cf. *Répertoire*, nos. 2678 et 2712.
- (2) Un point serait sans doute intéressant à approfondir, le caractère chiite de la population de cette ville : nombreuses *ziyâra* liées à cette tradition, personnalité de Târiq al-Bâlisi qui procéda à Alep à la restauration de mashads chiites (al-HARAWI, *K. az-ziyârât*, 61; IBN SADDÂD, *Al-a'lâq al-hatîra*, fol. 30 a - 40 b); cf. la formule chiite relevée sur le minaret.

inscr. D (en coufique, briques de champ) eulogie et formule de
tendance chiite.

Le texte C, en coufique ornemental reste seul impossible à lire (1). Même à l'aide de jumelles on n'arrive point en effet à dissocier l'enchevêtrement complexe des caractères et du décor floral. C'est d'autant plus regrettable que l'on pourrait y trouver un excellent exemple de ce coufique ayyoubide en Syrie du nord que l'on connaît encore si mal (2).

L'élégance de cette ornementation épigraphique, au moyen de bandeaux faisant preuve chacun d'un style si différent, correspond d'ailleurs à la silhouette harmonieuse du minaret : fût droit à huit pans coupés, sobre décor obtenu par des jeux de briques à l'intérieur de bandeaux minces ou de petits panneaux, ouvertures étroites régulièrement disposées les unes au-dessus des autres. On y reconnaît l'aboutissement, comme dans le minaret contemporain de Sinjar (3), de la série de minarets mésopotamiens érigés pendant le siècle précédent sous l'influence de l'art seljoukide iranien (4) et l'on ne peut que mesurer le chemin parcouru depuis le gauche minaret rond qui accompagnait à Raqqa la mosquée de Nûr ad-dîn.

Cette perfection, tant épigraphique qu'architecturale, nous fournit également un indice non négligeable sur l'importance ancienne de Bâlis. Des sondages avaient déjà révélé qu'à la fin du Ve / XIIe siècle de riches décors en stuc, floraux et épigraphiques, garnissaient intérieurement la mosquée de Bâlis, qui nous documentent sur l'évolution de l'ornement pendant cette pé-

(1) A l'exception des deux panneaux contenant la *basmala*.

(2) Même un examen superficiel permet de remarquer les tressages compliqués des lettres et l'adjonction de hampes obliques à retour d'équerre, de rôle vraisemblablement ornemental. Noter également le fleuron qui s'insère entre les deux *lâm* du mot *allah*.

(3) 598 / 1201, minaret avec un haut socle octogonal : *Euphrat-und Tigris Gebiet*, I, 9-10; cf. *Répertoire*, n° 3544.

(4) Sur les minarets ronds iraniens, v. la liste donnée in *Syria*, XXX (1953), 131-36.

VII — LA DATE DE CONSTRUCTION DU MINARET DE BÂLIS.

Des quatre bandeaux inscrits qui se répartissent à différentes hauteurs du minaret de l'ancienne Bâlis, auprès du village actuel de Meskéné, on connaissait déjà la description, et pour certains d'entre eux la lecture, qu'en avait données M. van Berchem à la suite du passage sur le site de F. Sarre et E. Herzfeld (1). Le nom du souverain ayyoubide qui figurait dans le texte en écriture cursive, le plus lisible et le premier qui l'on rencontre en partant du bas, permettait d'en situer la construction entre les deux dates extrêmes de son règne, 589 / 1193 et 615 / 1218. En fait la date exacte à laquelle fut érigé ce minaret avait été inscrite dans le deuxième bandeau épigraphique, que personne n'avait alors déchiffré et qui se détache au-dessus du précédent : caractères coufiques à fort relief, exécutés au moyen de briques posées de champ. On y lit :

بسم الله | الرحمن الرحيم | حيم جد | دت هذه | المأذنة | في سنة | سبع و | ست مائة

Au nom de Dieu, le Clément, le Miséricordieux. Ce minaret fut érigé en l'année 607 / 1210-11.

Ainsi se trouve-t-on désormais en mesure d'affirmer qu'al-Malik al-Âdil, qui ne posséda Bâlis que pendant une période de son règne (2), en était maître en 607 et qu'al-Malik az-Zâhir Ġâzî d'Alep avait dû renoncer à cette ville bien avant sa mort en 613. On peut également préciser comme suit les données que l'on possède maintenant sur les inscriptions de ce minaret :

inscr. A (en naskhi) noms du souverain et du maître d'œuvre

inscr. B (en coufique, briques de champ) date de la construction

(1) M. van BERCHEM, *Arabische Inschriften in Archäologische Reise im Euphrat-und Tigris Gebiet* I (Berlin, 1911). 2-3 et *Répertoire*, n° 3828.

(2) Voir les résultats des recherches que M. van Berchem avait faites à ce sujet : *ibid.*, 2 n. 2.

- (1) أمر بإبطال . . . مولانا السلطان الملك
 (2) المويّد شيخ أعزّ الله أنصاره ومولانا ملك الـ [أمراء
 (3) وهو أبطال
 (4) ذلك في سنة ستّ عشر و

Ce texte peut être daté, d'après le nom du sultan al-Malik al-Mu'ayyad Sayh, qui régna de 815 à 824, de l'année (8) 16 H. Le formulaire utilisé paraît peu fréquent dans la langue des décrets, mais le contenu de l'abolition, ainsi authentifié par une double autorité, nous échappe ici encore.

Quelque incomplets que restent ces déchiffrements en l'état actuel des lieux, ils permettent de se faire une idée de l'importance du centre administratif de Bâb à l'époque mamelouke. On savait déjà que les deux petites villes voisines de Bâb et de Buzâ'a désignaient un district de la province d'Alep (1). On voit maintenant que pendant plus d'un siècle se poursuivit, aux portes de la grande mosquée de Bâb, l'affichage de décisions dont nous connaissons au moins l'échelonnement :

- en 775, mesures du gouverneur d'Alep Baydämür de passage dans le district;
 816, décret du sultan Mu'ayyad et d'un gouverneur local;
 84., décret (?);
 853, texte au nom du gouverneur d'Alep, Qânibây (décret ou texte de construction);
 858, décret d'un gouverneur local, sans doute en exécution d'un ordre sultanien.

(1) Cf. M. GAUDEFRY-DEMOMBYNES, *La Syrie à l'époque des Mamelouks*, 92

La première ligne de ce texte, daté du 19^v sawwâl 858 / 12 octobre 1454, semble indiquer que nous sommes en présence d'un décret pris par le gouverneur de Bâb, d'où l'expression *al-amr al-âli* qui s'applique à un fonction-

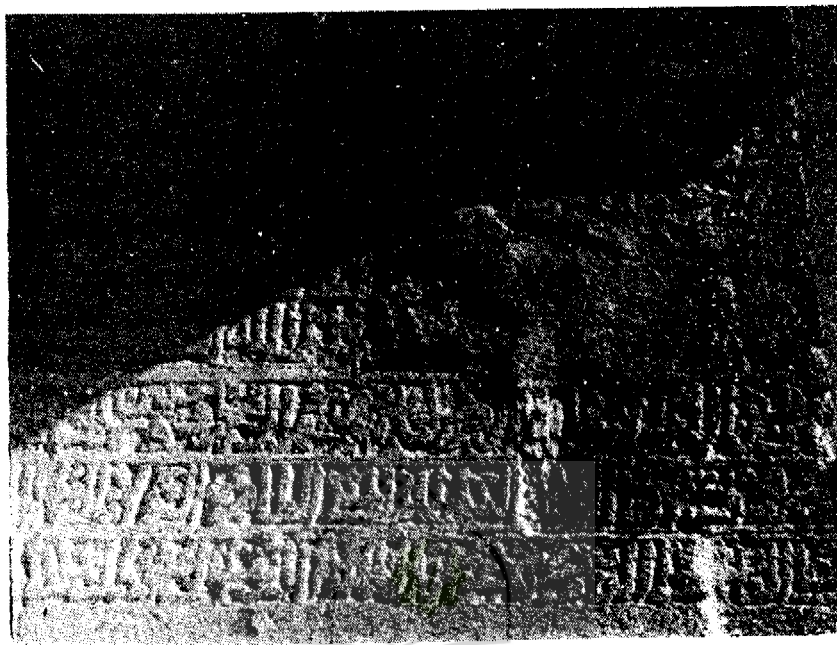


Fig. 5 — Décret de Bâb.

naire de rang peu élevé; son nom ne nous a pas été conservé par les chroniques et ne se déchiffre que difficilement sur la pierre. D'autre part la ligne 6, où il est fait mention d'un " ordre sultanien ", permet de supposer que la mesure du gouverneur local avait été prise après réception de l'avis du Caire et en conformité avec cette décision supérieure.

Inscription 4: plus bas sur le côté droit, 6 lignes au moins écrites en plus grands caractères, mais en partie recouvertes d'enduit. Il est à noter que les lignes 3 et 4 sont inscrites sur le même registre où il faut lire successivement, à l'encontre de ce que l'on fait d'ordinaire, les moitiés supérieure et inférieure (1):

(1) Cf. l'exemple de graphie comparable fourni par un décret de Divrigi en 891 / 1486-87 (J. SAUVAGET, *Bull. Et. Or.*, XIII, 53).

Damas où il arriva en sawwâl 775, venant alors d'Alep (1); d'autre part Isiq-tāmūr avait été précédemment gouverneur d'Alep jusqu'en rajab ou jumâdâ II de cette même année : le décret de Bâb nous garde donc précisément témoignage de la courte période de quatre mois pendant laquelle Baydāmūr gouverna pour la deuxième fois la province d'Alep. On ne peut manquer de s'étonner de la titulature qu'il arborait alors sur un texte officiel et que l'on ne retrouvera plus dans l'inscription à son nom datée de 780 (2); le titre califien en *sayf* (3), inférieur à celui de *qasim* porté par les sultans, n'en est pas moins assez rarement appliqué dans l'épigraphie aux gouverneurs de province et suffit à nous prouver l'importance qu'eut parfois Baydāmūr au cours de sa carrière mouvementée.

Inscription 2 : sur le côté gauche, 7 lignes environ presque complètement effacées; on relève cependant, à la fin de la ligne 4, les mots *واربعين وثمان مائة* qui permettent de lui attribuer une date approximative.

Inscription 3 (fig. 5) : sur le côté droit, 7 lignes incomplètes en caractères moyens qui comportaient, le début ne laisse aucun doute à ce sujet, le texte d'un décret. On lit encore :

رسم بالأمر العالي أعلاه الله تع... أعز الله أنصاره | (1 ligne)
 | لعنه الله على | أعز الله أنصاره بأن لا
 | التاسع عشر من شهر شوال سنة ثمان وخمسين وثمانمائة
 | الأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري السيفي اينال (٩) . | (1 ligne) . .

(1) Voir H. LAOUST, *Gouverneurs*, 13.

C'est par erreur que nous avons écrit précédemment que Mangak quitta Damas en sawwâl, alors qu'à cette date Isiq-tāmūr l'avait déjà remplacé depuis quatre mois au poste de gouverneur de la province de Damas.

(2) Cf. *Bull. Et. Or.*, XIII, 76-77 : inscription de Karak Nüh.

(3) Le titre *sayf amir al-mu'minin*, n'apparaît en effet, à notre connaissance, qu'une seule autre fois : dans une inscription de l'émir Ġaqmaq à Damas en 824/1421 (cf. L. A. MAYER, *Saracenic Heraldry*, 133).

Quant au titre en *al-mulūk was-salâtin*, il semble un peu plus fréquent puisque nous en avons relevé trois exemples : dans les titulatures d'Aydāmūr, de Tanbak et de Yūnus ad-dawādār (cf. L. A. MAYER, *Saracenic Heraldry*, 83, 216 et 257).

(3) الباب المعمورة وبزاعا إلى مسامحه الكريمة

Au nom A la date de la dernière décade du mois de ramadan le respecté de l'année 775 (mars 1374) s'arrêta l'étrier princier, élevé, de notre maître, le roi des émirs (?) notre maître souverain Sayf ad-dîn, seigneur des rois et des sultans, glaive du commandeur des croyants, Baydāmūr al-Hwārizmi al-Ašrafi, gouverneur-général de l'auguste province d'Alep, que Dieu garde ! — Dieu ajoute au compte de ses mérites — et élevèrent [les habitants] de Bāb — qu'elle soit toujours prospère ! — et de Buzā'a jusqu'à ses oreilles princières [leurs plaintes]

Ce n'est point là le texte d'un décret sultanien, mais la proclamation des mesures de dégrèvement prises, sur la demande des habitants, par un gouverneur de passage dans un des districts de la province qu'il administre. La formule *ḥalla'r-rikāb* est en effet bien connue de la langue des décrets (1) et c'est par comparaison avec les autres textes du même genre que l'on peut restituer sans hésitation, du moins pour le sens, le contenu de la fin, non déchiffrée, de la ligne 2. La suite de l'inscription devait détailler les mesures qui avaient été prises à cette occasion et que nous devons malheureusement renoncer à connaître.

Mais l'intérêt de ce texte réside surtout pour nous dans la mention du gouverneur qui faisait à cette époque une tournée dans ses états. Il nous permet en effet de préciser un point de la carrière de Baydāmūr al-Hwārizmi, que nous avons déjà eu l'occasion d'étudier ailleurs (2). Nous savions déjà par les chroniques que Baydāmūr avait succédé à Īsiqtāmūr comme gouverneur de

(1) Cf. les décrets de Damas et de Tripoli en 882 H. (SAUVAGET, n° 45 in *Bull. Et. Or.*, XII, 26 et *C. I. A. Tripoli* n° 58 = WIET n° 106) se rapportant au voyage du sultan Qāyrbāy, ainsi que le décret de Jablū en 883 (SAUVAGET, n° 61 = WIET 108 bis) faisant allusion au passage d'un gouverneur.

On rencontre également plusieurs fois dans les décrets de ce genre des expressions comportant le terme *masāmi'* : à Baalbek en 797 (M. SOBERNHEIM, *Baalbek*, n° 25 = WIET n° 9), à Damas en 878 (SAUVAGET, n° 44 = WIET n° 101 bis), à Hama en 904 (SAUVAGET, n° 26 = WIET n° 137) et à Tripoli en 909 (*C. I. A. Tripoli*, n° 34 = WIET n° 147).

(2) J. SOURDEL-THOMINE, *Bull. Et. Or.*, XIII (1949-50), 78.

comme pour l'autre portail, couvertes de traces d'inscriptions plus tardives, recouvertes d'enduit et sérieusement détériorées (1) (sur le côté gauche, inscription n° 2; sur le côté droit, inscriptions nos. 3 et 4).



Fig. 4 — Décret de Bâb.

L'inscription n° 1 (fig. 4), qui semble déborder notablement le cadre dans lequel elle est inscrite, n'a pu être lue qu'en partie, tant en raison de la hauteur à laquelle elle se trouve que du badigeon blanc qui lui ôte de sa netteté. Tout le début constitue néanmoins un ensemble cohérent et de déchiffrement à peu près sûr :

- (1) بسملة بتاريخ العشر الآخر من شهر رمضان المعظم سنة خم وسبعين وسبع مائة
جل الركاب الكريم العالي المولوي ملك
- (2) الأمراء (؟) ... المالكي الخدومي السيفي سيّد الملوك والسلاطين سيف أمير
المؤمنين يدمر الخوارزمي الأشرفي كافل الممالك الشريفة الحليّة المحروسة ملاّ الله تع
صجائفه بالأجور ورفع

(1) Quelques unes des assises sur lesquelles elles étaient gravées ont même été remplacées par de nouveaux blocs sans inscriptions.

et donner une nouvelle liste de ces inscriptions qui se répartissent de la manière suivante.

1 — Portail ouest.

Les inscriptions du portail ouest sont particulièrement mal conservées et l'on n'y déchiffre que quelques mots fournissant néanmoins des éléments de datation. Une inscription en grands caractères occupe la partie supérieure de la porte, cependant que sur les parois de droite et de gauche se distinguent des lignes trop effacées pour que l'on puisse savoir si elles appartiennent à une ou plusieurs inscriptions.

Au-dessus de la porte, 4 lignes :

.	بسمه أمر مولانا ملك الأمراء
. (2 mots) . .	محمد بن الظاهري

Côté gauche, 8 lignes complètement empâtées; on peut lire :

ligne 1 قانباي الظاهري أعز الله . .

et ligne 6 سنة ثلاث و مائه

Côté droit, 6 lignes on ne distingue que la dernière :

سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة

Quel que soit le nombre de ces inscriptions, elles semblent du moins toutes dater de l'époque de Qânibây, qui fut gouverneur de la province d'Alep de 852 à 858 H. (1) sous le sultan al-Malik az-Zâhir Gaqmaq, et dont la carrière nous est connue par Ibn Tagribirdî (2).

2 — Portail sud.

Il existe encore au-dessus de la porte une belle inscription de 3 lignes, en petits caractères, et plus bas, en dehors du cadre, une ligne de même style qui semble en être la suite. Deux lignes indistinctes et complètement empâtées occupent au-dessous le linteau de la porte. Les parois droite et gauche sont,

(1) En 858 il est remplacé par Gânim al-Asrafi : *The Chronicle of Ibn Iyas* (ed. Mohamed Mostafa, Caire, 1951), 24.

(2) Cf. G. WIET, *Manhal*, n° 1813.

VI — QUELQUES PRÉCISIONS SUR LES INSCRIPTIONS

MAMELOUKES DE LA MOSQUÉE DE BÂB

On savait déjà par M. van Berchem et M. F. von Oppenheim (1) qu'il existait à Bâb une mosquée ancienne pourvue de plusieurs inscriptions : sur la porte nord, texte de construction (n° 63) au nom d'un certain al-malik az-zâhir; sur la porte ouest, un autre texte de construction (n° 65) datant de 775; à l'intérieur, sur une colonne, un dernier texte (n° 64) relatif à l'érection d'une coupole en 704. J. Sauvaget de son côté citait dans une liste des décrets mamelouks de Syrie " plusieurs décrets mal écrits, couverts de badigeon et probablement fragmentaires au portail de la Grande-mosquée " de cette petite ville (2). Ayant eu l'occasion de contrôler sur place ces diverses assertions, nous avons pu, sinon aboutir à un déchiffrement satisfaisant de l'ensemble, ce qui aurait demandé un nettoyage et plus de temps que nous n'en disposions, du moins préciser utilement l'échelonnement chronologique de ces diverses inscriptions.

En dépit de réfections datant sans doute de l'époque ottomane, la mosquée de Bâb apparaît bien en tout cas comme un bâtiment mamelouk. On y remarque un minaret rectangulaire, comparable aux minarets voisins de Tadmor et Buzâ'a, datés respectivement par des inscriptions de 755 et 756 H. (3). Deux portails, à profond défoncement et semi-coupole sur alvéoles, portent effectivement des inscriptions en très mauvais état. Mais il est à noter d'abord que nous n'avons pu, ni y retrouver les deux inscriptions signalées par van Berchem d'après les copies de von Oppenheim, ni même identifier exactement ce qu'il appelait " portail nord " et " portail ouest " alors que les ouvertures actuelles sont orientées l'une vers l'ouest et l'autre vers le midi; il semblerait seulement que l'inscription n° 63 de van Berchem corresponde aux lignes informes qui, sur le portail ouest, rappellent le nom d'un gouverneur d'Alep, Qânibay az-Zâhirî, et que l'inscription n° 65 ne soit qu'une mauvaise et incomplète copie du décret de 775, placé au-dessus du linteau de la porte sud comme s'il s'agissait d'un texte de construction. On ne peut donc que négliger ces renseignements douteux

(1) M. van BERCHEM, *Arabische Inschriften* in M. F. von OPPENHEIM, *Inschriften aus Syrien, Mesopotamien und Kleinasien* (Beiträge zur Assyriologie VII, Leipzig, 1909), 55-56.

(2) *Bull. Et. Or.*, XII (1948-49), 60.

(3) M. van BERCHEM, *ibid.*, 56-57.

A demi illisible, le nom du gouverneur n'a pu être restitué que grâce aux données fournies par une chronique de l'époque : le mamelouk à la carrière peu brillante, qui remplissait alors la fonction de gouverneur de la citadelle d'Alep — fonction à bien distinguer de celle de gouverneur de la province d'Alep —, est en effet cité deux fois par Ibn Iyās : à la date de jumâdâ I 900 lorsqu'il prit possession de sa *niyâbat al-qal'a* et à celle de ramadan 903 lorsqu'il mourut, peu après avoir promulgué le décret qui nous intéresse et qui ne fut sans doute pas entièrement gravé pour cette raison même (1). Il semble ressortir du deuxième texte qu'avant sa mort il avait été destitué et ceci correspond assez bien à ce que nous savons par ailleurs des événements de l'année 903 : nomination à Damas du gouverneur d'Alep, Aynâl al-Faqîh, qui complota et fut proclamé ensuite rebelle, arrivée à Alep du nouveau gouverneur Ganbalât qui y avait été nommé au mois de rabî' II (2); le changement de gouverneur-général pourrait être à l'origine de la révocation de Misirbây. De la titulature de ce dernier, qui porte comme à l'ordinaire un nom an-Nâsirî formé sur celui du sultan régnant (3), il n'est à retenir que le titre de "commandant de mille désigné", peu fréquent dans les inscriptions (4).

Quant à la mesure de portée locale prise par Misirbây sans référence aucune à un décret sultanien, il est impossible de savoir quel était exactement son objet. Elle devait sans doute mettre fin à des pratiques abusives, qui détournaient de leur destination des revenus ou des aumônes distribués normalement à des soufis, mais les mots déchiffrés peuvent prêter à diverses interprétations selon le contexte dans lequel ils s'inscrivaient.

(1) Voir IEN IYÂS (éd. Bulâq), II, 286 et 341; (éd. Kahle), II, 381.

(2) Cf. H. LAOUST, *Les gouverneurs de Damas* (Damas, 1952), 39-41.

(3) Al-Malik an-Nâsir Muḥammad qui régna de 902 à 904.

(4) Il a déjà été commenté par M. Sobernheim à propos d'une inscription un peu plus tardive mentionnant un autre gouverneur de la citadelle, Abrak : *Der Islam*, XV (1926), 171-72. Aux exemples cités on peut ajouter : L. A. MAYER, *Saracenic Heraldry* (Oxford, 1933), 103, 138, 153 et 215.

servé rendent évidemment son déchiffrement hasardeux : la ligne 5, la plus importante pour le contenu, se situait à la jonction de deux blocs de pierre et a presque entièrement disparu. Mais il reste qu'un fragment, jusqu'alors considéré comme anonyme, peut être maintenant attribué à un gouverneur de la citadelle d'Alep et mérite de prendre place dans la liste toujours plus longue des décrets mamelouks de Syrie (1).

- (1) المقرّ العالي المولوي الملكي السيفي
- (2) [م] صر [باي] الناصري عين مقدّ [مي] الألوف
- (3) [ب] الديار المصريّة ونائب القلعة الحليّة المحروسة
- (4) [أعزّ الله] أنصاره بإبطال ما كان يحدّده
- (5)
- (6) وعلى الفقراء والمساكين من القيام (؟) سبع
- (7) [ما] ثمة درهم في كلّ نائب القلعة (؟)
- (8) [فمن بدّله]
- (9) بعدما سمعه فأنا إئمه على الذين
- (10) يبدّونه إن الله سميع عليم . في ثامن رجب
- (11) سنة ثلاث وتسع مائة

Son Altesse élevée, notre maître, le roi des émirs, Sayf ad-din Mişirbây an-Nâşiri, commandant de mille désigné dans la province d'Egypte et gouverneur de la citadelle d'Alep, Dieu la garde ! — Que Dieu lui apporte des secours puissants — . . . d'abolir ce qui a été abusivement institué au détriment des (une ligne effacée) et des pauvres et des misérables sept cents dirhems chaque par le gouvernement de la citadelle ? (une ligne effacée) [Quiconque, par conséquent, altèrera ces dispositions] après en avoir eu connaissance, commettra un crime qui retombera sur ceux qui l'imiteront » (2). Le 8 rajab 903 (2 mars 1498).

(1) Cf. la liste qu'en avait donnée G. WIET, *Répertoire des décrets mamelouks de Syrie* in *Mélanges Dussaud* II, 521-37, et qui avait été enrichie par J. SAUVAGET, *Bull. Et. Or.*, XII (1947-48), 56-60. Ce décret devratt y figurer sous le n° 131 bis.

(2) *Coran*, II, 177.

de la madrasa Šu'aybiya à Alep (1) : il lui manque les tressages de hampes et le traitement décoratif rigide des lettres à queues montantes, qui sont à noter sur la frise de la Šu'aybiya et connaîtront à l'époque ayyoubide une intense utilisation (2). On ne peut au contraire que souligner l'identité de style qui s'affirme entre notre élégante inscription (3) et l'épithaphe de l'Ortokide Balak, celui-là même qui, d'après la chronique d'Ibn al-'Adim, envoya certaines de ses troupes dans la région de Mašhala; al-Hasan b. Ibrâhîm, qui reconstruisit le mašhad, pourrait être un de ses lieutenants et l'on s'expliquerait alors que l'inscription commémorant cette pieuse initiative, n'ait point été l'œuvre d'un petit artisan de village, mais s'insère exactement dans le cadre d'évolution du coufique alépin.

V — UN NOUVEAU DECRET MAMELOUK DANS LA CITADELLE D'ALEP

Parmi les inscriptions d'Alep jadis publiées par M. Sobernheim figurait le texte d'un verset coranique d'usage bien connu dans l'épigraphie et accompagné seulement d'une date (4); l'auteur de l'article suggérait qu'il pouvait s'agir d'un décret d'abolition de taxe dont la fin seule nous aurait été conservée. Cette hypothèse s'est avérée d'autant plus juste que l'on a maintenant mis à découvert, sur la " Porte aux deux serpents " de la citadelle où se trouvait cette énigmatique inscription, le dessin à la mine de plomb des lignes précédentes : c'était l'ébauche préparatoire au travail de sculpture qui dut être abandonné en cours d'exécution (5). Les conditions dans lesquelles ce texte fut con-

(1) 545/1149 : E. HERZFELD in *Ars Islamica* X (1943), 30-31, fig. 45 et J. SAUVAGET in *Rev. Et. Isl.* V (1931), 76, n° 16, fig. 3 bis; cf. *Répertoire*, n° 3149.

(2) Cf. par exemple la place qu'ils tiennent dans les inscriptions en coufique ornemental du minaret de Bâlis.

(3) La raideur des *hâ* et *dâl* constitue le seul signe de gaucherie.

(4) *Die arabischen Inschriften von Aleppo*, in *Der Islam*, XV (1926), 185 n° 19 : Coran II, 177 et date du 8 rajab 903.

(5) Grâce à ce hasard nous avons la preuve que les décrets mamelouks étaient d'abord soigneusement dessinés avant d'être gravés; les traces à la mine de plomb ne nous ont été conservées ici que parce qu'il s'agissait d'une inscription située à l'intérieur et ainsi protégée des intempéries.

Voici ce qu'a restauré al-Hasan b. Ibrâhim — que Dieu ait pitié de lui et soit satisfait de lui et de ses parents — .

Il n'y a malheureusement rien de positif à tirer d'un texte de restauration aussi bref et aussi peu explicite : pas de date et nom d'un personnage inconnu par ailleurs. Mais le style de l'écriture suffit à fournir des éléments de datation non négligeables. On se trouve en effet en présence d'un type de coufique élaboré, caractéristique à la fois d'une période, le VI^e siècle H., et d'une région, celle d'Alep au sens géographique le plus étroit. En même temps que l'on remarque les signes d'évolution que constituent, d'une manière générale, le souci de variété dans le traitement de la ligne de base, la prolongation ornementale des extrémités et l'insertion de quelques lettres isolées, *wâ* et *râ* par exemple, à mi-hauteur de la partie inscrite, des rapprochements plus précis s'imposent avec quelques inscriptions d'Alep également réputées pour l'élégance de leur composition : bandeaux décoratifs, datant de 483/1090, qui entourent le minaret de la grande-mosquée (1), riches tombeaux comme celui de Balak en 518/1124 ou comme l'exemple anonyme conservé dans le cimetière des Sâlihîn (2).

Dans l'alphabet de ces divers spécimens on observe en effet les *alif* ou *lâm* à larges biseaux et les *bâ* de même style, les *dâl* décoratifs et anguleux, les queues recourbées et terminées en rinceaux feuillus des *râ*, *mîm*, *nûn*, *wâw* et *yâ* finaux, l'inflexion harmonieuse de la hampe du deuxième *lâm* de *allah*, le dessin pointu des *mîm* médians, les *hâ* médians à double cavité d'où s'élève une tige recourbée et le *hâ* final à hampe droite étirée vers le haut. Encore plus significatifs se révèlent peut-être les détails du décor floral enrichissant, ici comme là, chaque ligne d'écriture : non pas extrémités simplement fleuries comme dans le coufique fatimide ni rinceau indépendant des lettres comme dans les inscriptions ornementales damascaines, mais petits rameaux à tige mince d'où se détachent quelques fleurons trilobés ou asymétriques.

Ces rapprochements nous amènent donc à dater plus précisément du tout début du VI^e/XIII^e siècle l'inscription de Mashala et la même conclusion s'affirme lorsqu'on la compare à l'inscription plus tardive qui décore l'entablement

(1) V. E. HERZFELD in *Ars Islamica*, X (1943), 34-35, fig. 53 et J. SAUVAGET in *Rev. Et. Isl.*, V (1931), 73 et pl. II; cf. *Répertoire*, n° 2783.

(2) V. J. SAUVAGET. *La tombe de l'Ortokide Balak* in *Ars Islamica*, V (1933), 207-15; cf. *Répertoire*, nos. 3006 et 3042.

sanctuaire de campagne : salle carrée aux murs pleins, pourvue d'une porte comme seule ouverture et d'un petit mihrab semi-circulaire, recouverte d'une coupole grossièrement bâtie, et entourée d'une enceinte de pierres sèches. Son nom actuel de Šayh Mannân ne nous apprend rien sur l'ancienneté du lieu de pèlerinage, mais une belle inscription coufique, sculptée sur un seul bloc de pierre, est encastrée au-dessus du linteau de la porte (fig. 3). Même si, comme il est probable, ce n'est point là son emplacement originel (1), celle-ci devait tout au moins se rapporter à une construction antérieure.



Fig. 3 — Inscription coufique de Mes'alé.

Dans un cadre à motif géométrique simple, qu'interrompt à la partie supérieure une *basmala* en petits caractères, se lisent les trois lignes suivantes :

(1) ما عمره الح [س] ن بن إبر

(2) اهيم رحمه الله و

(3) رضي عنه وعن والديه

(1) Tout à côté se trouve en effet un texte épigraphique d'époque turque, récent et partiellement martelé.

que citent divers auteurs arabes de l'époque ayyoubide. Il s'appliquait à une localité du district de 'Azâz, située au sud-ouest de cette dernière ville et connue, ainsi que nous l'apprend Ibn Šaddâd (1), pour la beauté de ses jardins. C'était en même temps un célèbre lieu de pèlerinage où l'on vénérât la tombe d'un frère du prophète Dâwûd (2), et non, comme le veut Yâqût en altérant peut-être involontairement le texte d'al-Harawî sur lequel il se fonde, la tombe de Dâwûd lui-même (3).

Identifiant sans peine sous ce terme le vocable grec de *Machala* que l'on connaît par Théodoret, E. Honigmann en avait noté la persistance à l'époque actuelle (4) et l'on remarque de fait sur la carte au 50.000^e de la région le village de Meshale (sic), situé à peu près à mi-chemin entre 'Afrîn et 'Azâz. La visite qui nous permet de confirmer cette localisation ne mériterait même pas d'être signalée si elle n'avait permis de retrouver l'emplacement de l'ancienne ziyâra, encore authentifiée par une inscription.

Au sommet d'une colline qui domine la vallée du 'Afrîn et les jardins de Mes'alé (prononciation actuelle du toponyme auquel se substitue d'ailleurs de plus en plus celui de Kafer Jenné), l'on remarque en effet une petite construction assez pauvre, et répondant aux caractéristiques habituelles de tout

(1) *Al-a'lâq al-hatîra*, fol. 44 b.

La localité est également citée incidemment par Ibn al-'Adîm qui y relate, en safar 517, une défaite des Francs par des troupes turques envoyées par Balak : *Hist. Or. Crois.*, III, 641.

(2) AL-HARAWÎ, *K. az-ziyârât*, 6. Tradition reprise par IBN AL-'ADÎM, *Buġyat at-talab*, fol. 94; IBN ŠADDÂD, *Al-a'lâq al-hatîra*, fol. 44 b et IBN AŠ-ŠIHNA, *Ad-durr al-muntahab*, (Beyrouth, 1909), 97.

(3) *Mu'gam al-buldân*, IV, 537. Cette erreur de Yâqût explique seule que l'on ait voulu faire figurer Mashala au nombre des emplacements que la tradition islamique assigne à la tombe de David, liste donnée in *al-Machriq*, XII (1909), 898-202.

Même si l'on s'en tient aux données différentes fournies par al-Harawî et les principaux historiographes alépins, il reste que le souvenir de David semble avoir été évoqué avec une faveur particulière dans cette région où l'on connaît également, un peu plus au nord, la tombe de Uriya b. Hannân Nabî Uri : cf. *Annales Arch. de Syr.*, II (1952), 134-36.

(4) E. HONIGMANN, *Hist. Top. von Nordsyrien im Alt.*, 60 (n° 301). En revanche aucune localité de ce nom n'est signalée par R. DUSSAUD, *Topographie*; simple mention par Cl. CAHEN, *La Syrie du Nord à l'époque des Croisades* (Paris, 1940), 140 n. 14.

ce que l'on dit d'un prophète que son peuple aurait lapidé en ce lieu" (1).

Ibn al-'Adīm, qui fournit une information semblable sans doute utilisée par Ibn Saddād, ajoute un détail topographique important en situant la colline sur le contrefort oriental du Djebel Sam'ân (2).

Si l'on consulte la carte de la région de 'Anadân, on remarque, à l'ouest de cette localité, une éminence où serait située une *Ziaret Nabi Ramia* (sic) (3). Ayant voulu recueillir des informations sur ce petit sanctuaire, nous nous y sommes rendus et avons constaté qu'il existait bien dans une des salles que comporte le bâtiment actuel, assez ancien d'apparence mais dépourvu d'inscriptions, une fosse à laquelle on accède par un étroit escalier; on y reconnaîtra sans peine le sirdâb d'Ibn Saddād. En revanche, ni le nom ancien de la ziyâra maintenant identifiée, ni le nom qui figure sur la carte, ne semblent plus connus des habitants kurdes du village de 'Anadân et rien ne permet de savoir s'il existe un rapport quelconque entre ces deux appellations.

Mais il est difficile de ne pas reconnaître sous la terme *ar-ragam* la désignation d'un ancien lieu de culte sémitique où l'on pratiquait le rite de la lapidation en l'honneur d'une tombe (4) : *ragam* signifie en effet "amas de pierres" (ou de branches) sur une tombe. La tradition aurait ainsi, par le récit de la lapidation d'un prophète, transformé la signification d'un rite ancien, tout en laissant entendre qu'il s'agissait d'un souvenir de l'Anté-Islam : le thème du prophète, antérieur à Muhammad et rejeté par son peuple, est en effet fréquent dans le Coran.

IV — UNE INSCRIPTION EN COUFIQUE ORNEMENTAL

A MASHALA / MES'ALE

Le nom de Mashala figure parmi les toponymes des environs d'Alep,

(1) *Al-a'lâq al-hafira*, fol. 42 a.

(2) *Buḡyat at-talab*, fol. 97a. Il est à noter cependant que ce mashad n'est pas signalé par al-Harawī, *K. az-ziyârât*.

(3) Carte du Levant au 50.000e.

(4) Cf. H. LAMMENS, *Le culte des bétyles*, in *L'Arabie occidentale avant l'Hégire* (Beïrouth, 1928), 173-79.

d'al-Bakrî (m. 487/1094) (1), dont semble s'être inspiré Yâqût, le *Kitâb al-uyûn wa'l-ḥadâ'iq*, que l'on attribue généralement à la même époque, déclare que 'Umar, mort à Hunâsira, fut enterré à Dayr Sam'ân " dans le territoire de Ma'arra " (من ارض لامرة) (2). De même le plus ancien auteur, à notre connaissance, qui mentionne la tombe de 'Umar, est al-Mas'ûdî (m. 345 / 956) qui le fait mourir " à Dayr Sam'ân du district de Hims, dans la région qui touche au pays de Qinnasrîn " et ajoute : " Sa tombe est connue en cet endroit jusqu'à maintenant, vénérée et visitée par nombre de gens tant des villages que du désert " (3). Enfin al-Ya'qûbî, comme le fait remarquer lui-même H. Zayyat, raconte que 'Umar quitta Damas pour Hims, puis, étant tombé malade, voulut gagner Dayr Sam'ân où il possédait un terrain hérité de sa mère (4). Malgré leur manque de précision tous ces textes, auxquels s'ajoutent les mentions plus tardives de gens qui cherchèrent la tombe de 'Umar aux environs de Hims (5), tendent à exclure l'hypothèse de la mort et de l'inhumation de 'Umar dans un couvent des environs de Damas. Il semble donc que la confusion qui se fit ensuite autour du nom de Dayr Sam'ân, particulièrement fréquent en Syrie, ne constitue pas une raison suffisante pour mettre en doute la tradition recueillie par les historiographes alépins.

III — LE MASHAD AR-RAGAM DE 'ANADÂN

Ibn Šaddâd signale, parmi les lieux de pèlerinage proches d'Alep, un monument qu'il désigne en ces termes :

" Le mashad ar-ragam, dans le territoire d'Aral (?) au voisinage de 'Anadân, situé au sommet d'une colline qui domine le pays d'al-Artîq : il est visité et on en retire des bénédictions; il s'y trouve une cave (*sirdâb*), sépulture à

(1) *Mu'gam* (Caire, 1945-47), II, 585-86.

(2) Ed. de Goeje et de Jong (*Fragm. Hist. Arab.* I), 63.

(3) *Les prairies d'or* (ed. Barbier de Meynard), V, 416; *K. at-tanbih* (Leyde, 1894), 320.

Sur la position de Qinnasrîn, v. carte de Honigmann in *Zeitschr. für Semitistik*, I (1922), 33.

(4) *Historie* (ed. Houtsma), II, 368-70.

(5) Cf. IBN 'ASÂKIR, *Ta'riḥ Dimasq*, et an-NABULUSÎ, *Ar-riḥla al-ḥaqîqa*, passages cités par H. ZAYYAT. *ibid.*, 404-05.

de Qal'at al-Mudiq, où l'on sera tenté de situer le *Nāqirīa* proche d'Apamée signalé par une liste syriaque (1). Tout en continuant à distinguer, non seulement deux sites différents répondant au même nom comme le voulait E. Honigmann, mais encore trois comme il nous semble plutôt, on peut maintenant écarter définitivement les hypothèses respectives de E. Honigmann et de R. Dussaud en faveur de Jerâdê et Nugayir.

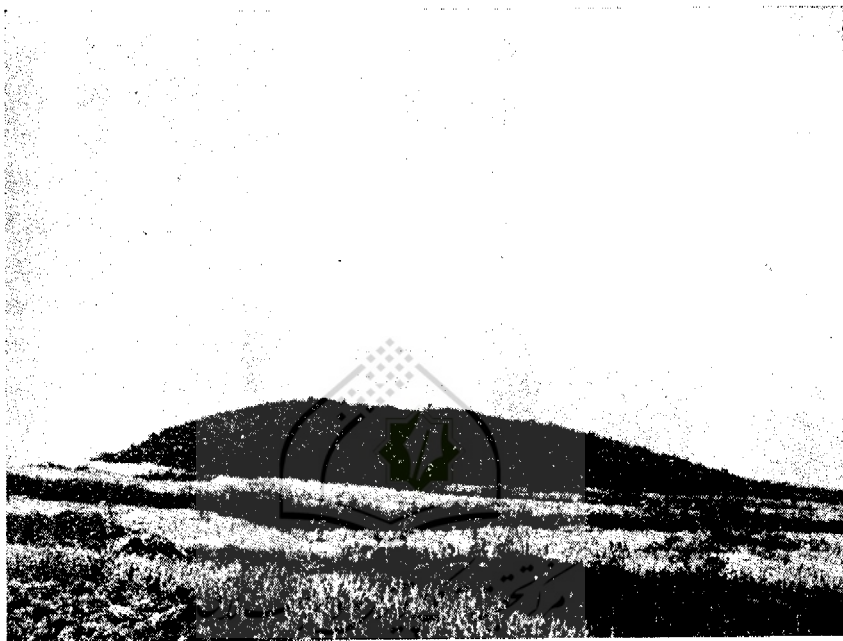


Fig. 2 — Tell Marrân.

Il reste alors à se demander si la tombe de 'Umar b. 'Abd al-'Azîz a été localisée avec quelques chances de vraisemblance à l'endroit que nous venons d'identifier comme le lieu de pèlerinage d'époque ayyoubide. La question a déjà été traitée avec attention par H. Zayyat qui pense que la tombe se trouvait à l'origine près de Damas, en un lieu également appelé Dayr Sam'ân (2); mais ses arguments ne nous paraissent pas toujours convaincants. Si milite en faveur d'une tradition damasquine, dont on ne saurait nier l'existence, un texte

(1) Cf. R. DUSSAUD, *Topographie historique*, 184 n. 7.

(2) *Les couvents de Damas et de ses environs* (no 16. Dayr Sam'ân) in *al-Machriq*, XLIII (1949), 403-11.

ments anciens (1). E. Honigmann a en outre identifié sans hésitation le *Naqira* de Ma'arra avec le *Nikertai* auprès duquel, selon Théodoret, un certain Agapêtos avait édifié le *phrontistêrion Symeônou* (2); ainsi s'expliquerait la liaison Naqira/Dayr Sam'ân dont les sources arabes nous gardent témoignage. E. Honigmann avait seulement fait erreur, comme le montre R. Dussaud, en voulant situer village antique et couvent en un endroit actuellement dénommé Jerâdé. La forme sous laquelle a pu se maintenir à l'époque moderne ce vocable grec nous est bien plutôt suggérée par les remarques de J. Sauvaget à propos de la localisation du *Nikeratôn kômê* que R. Hartmann avait déjà identifié avec le relais mamelouk d'Inqirata (3) : J. Sauvaget put en effet montrer qu'à cet Inqirata correspondait tout simplement l'actuel Enqerâté, ou Qerâté, voisin de Ma'arra Dibsi (4).

Or l'on remarque sur la carte, à peu de distance de Jerjenaz, un Qerrâté auprès duquel se signale une éminence appelée Tell 'Omran (5). Nous étant rendus sur les lieux, nous constatâmes que les habitants ne connaissaient pas ce dernier nom, mais celui de *Tell Marrân*, et que, du haut de la colline qui présente les vestiges d'une petite enceinte (fig. 2) on avait une large vue sur la plaine de Khân Shaykhûn et sur ce village lui-même. La réunion de ces divers indices permet donc d'identifier ce tell avec le Dayr Murrân ou Dayr Sam'ân des auteurs ayyoubides : ce serait l'emplacement du couvent fondé par Agapêtos, où les pèlerins visitèrent plus tard la tombe du calife umayyade. Une seule objection subsiste : Qerrâté se trouve situé à 12 ou 15 kms. de Ma'arra, donc à plus d'un parasange; mais Ibn Battûta, qui reste seul à fournir le dernier chiffre et qui ne semble pas avoir vu lui-même la tombe, a pu facilement faire une erreur de cet ordre.

Faut-il pour autant placer à Enqerâté, près de Ma'arra Dibsi, ou à Qerâté, près de Ma'arrat an-Nu'mân, tous les anciens *Nikerata* ou *Naqirta* connus par les textes ? Certes non; aussi bien d'autres toponymes de ce genre existent-ils encore dans la région. L'un en particulier désigne un village au nord-nord-ouest

(1) E. HONIGMANN. *Historische Topographie von Nordsyrien im Altertum* (Leipzig, 1923), 65 nos. 327 et 328.

(2) E. HONIGMANN. *Nordsyrische Klöster*, in *Zeitschr. für Semistik*, I (1922), 17.

(3) *Zeitschr. der deutschen Morgenl. Gesellschaft*. LXX (1916), 35.

(4) J. SAUVAGET. *La poste aux chevaux*, 90.

(5) Carte de Levant au 50.000e et J. LASSUS. *Inventaire archéologique de la région au nord-est de Hama*, I (Beyrouth, 1936), 17.

concorde les différentes traditions qu'il a recueillies. Dans un passage il dit en effet : " Dayr an-Naḡira, sur une éminence proche de Ma'arra : on dit que s'y trouvent la tombe de 'Umar b. 'Abd al-'Azīz, mais en réalité cette tombe est à Dayr Sam'ān comme nous l'avons dit, et celle du sayh abū Zakariyā' Yahyā al-Maḡribī, saint que l'on visitait de nos jours vers l'an 600 " (1). Ailleurs Yâqūt avait signalé la tombe de 'Umar à Dayr Sam'ān " dans la région de Damas " (2). Un peu plus loin il mentionne : " Dayr Murrān, sur une éminence dominant Kafartāb et près de Ma'arra : on prétend que s'y trouve la tombe de 'Umar b. 'Abd al-'Azīz, qui est en effet connue sous ce nom et visitée encore aujourd'hui " (3). Si donc il ne croit pas à l'authenticité de la tombe de Naḡira / Dayr Murrān, il reconnaît qu'elle était visitée de son temps comme celle du célèbre calife umayyade.

Enfin les auteurs de l'époque mamlouke localisent tous la tombe de 'Umar près de Ma'arra : al-Qalqaṣandī à Dayr Sam'ān (4), Halīl az-zāhirī à Dayr Murrān (5), al-'Umarī à al-Baqara (faute de copiste pour an-Naḡira) (6). Ibn Battūta " à un parasange " de Ma'arra, dans une région dominée par les Rafidites, où il ne semble pas avoir osé s'aventurer (7).

D'après ces divers témoignages la tombe du calife 'Umar que l'on visitait aux V / XIIe et VI / XIIIe siècles se trouvait donc près de Ma'arra, à un parasange de la ville environ, en un lieu appelé Dayr an-Naḡira ou Dayr Murrān ou Dayr Sam'ān (al-Harawī et Yâqūt étant seuls à lui refuser ce dernier nom) et situé sur une éminence dominant Kafartāb, c'est-à-dire l'actuel Khan Shaykhūn (8). Des divers toponymes ainsi utilisés, celui de Naḡira peut sembler le plus propre à orienter des recherches topographiques. On a depuis longtemps remarqué qu'il n'était pas d'origine arabe mais correspondait au grec *Nikertai* ou *Nikerata* à travers le syriaque *Naḡirta*, tous noms attestés par divers docu-

(1) *Muḡam al-buldān*, II, 704.

(2) *Ibid.*, II, 671.

(3) *Ibid.*, II, 697.

(4) Voir M. GAUDEFROY-DEMOMBYNES, *La Syrie à l'époque des mamlouks* (Paris, 1923), 109.

(5) *Zubda* (éd. Ravaïsse), 49 (correction des mss.).

(6) *Masālik al-absār* (Caire, 1342 H.), 251-53.

(7) *Voyages* (éd. Defrémery et Sanguinetti, Paris, 1926), I, 145.

(8) Cf. J. SAUVAGET, *La poste aux chevaux dans l'Empire des Mamelouks* (Paris, 1941), 90.

al-Magribî, ainsi que la tombe de 'Umar b. 'Abd al-'Azîz: puis il gagna Hama" (1). Une citation du même auteur, que l'on trouve chez Ibn al-Wardî, identifie précisément ce Dayr an-Naqîra avec le Dayr Sam'ân où la tradition voulait qu'ait été enterré le calife 'Umar: "Selon moi, dit Ibn Wâsil, Dayr Sam'ân est l'endroit aujourd'hui connu sous le nom de Dayr an-Naqîra, dans le district de Ma'arrat an-Nu'mân, et la tombe (de 'Umar) est la célèbre tombe qui s'y trouve"; Ibn al-Wardî, ajoutant à l'appui les renseignements qu'il a recueillis auprès des habitants ou chez des érudits de Ma'arra, déclare avoir également visité lui-même plusieurs fois la tombe et y avoir vu une inscription (*kilâb*) qui résumait la vie du calife umayyade et louait ses mérites (2).

Trois autres auteurs d'époque ayyoubide comptent la tombe de 'Umar au nombre des lieux de pèlerinage de la région d'Alep. Le premier est al-Harawî (m. 611/1214), qui la situe à Dayr an-Naqîra mais distingue cette tradition de celle qui mentionne Dayr Sam'ân: " Dayr Naqîra, dans la région d'al-Ma'arra: il s'y trouve la tombe de 'Umar b. 'Abd al-'Azîz et, auprès d'elle, celle du sayh abû Zakariyâ' al-Magribî, l'un des plus grands saints; l'on dit aussi que la tombe (de 'Umar) est à Dayr Sam'ân, mais c'est celle-ci la version la plus répandue " (3).

Un peu plus tard Ibn Šaddâd (m. 684/1285). copiant ici Ibn al-'Adîm (m. 660/1262), déclare: " A Dayr Sam'ân, village des environs de Ma'arra connu également sous le nom de Dayr an-Naqîra parce qu'il avoisine le village d'an-Naqîra, il y a, dans un petit enclos, la tombe de 'Umar b. 'Abd al-'Azîz et, par derrière, celle du sayh abû Zakariyâ' Yahyâ b. Mansûr, saint qui fit des miracles, resta jusqu'à sa mort servir Dieu dans la mosquée du village et fut enterré dans l'enclos " (4).

Au contraire Yâqût (m. 622 / 1229) n'arrive point à faire exactement

(1) *Mufarrag al-kurûb*, ms. Paris ar. 1702, fol. 83a. Le même renseignement se trouve dans ABÛ ŠAMA. *Kitâb al-rawḍatayn* (Caire, 1278 h.), 134.

(2) *Ta'rih*. I (Caire, 1285 h.), 181.

(3) *Kitâb az-ziyârât* (Damas, 1953), 7.

(4) *Al-a'lâq al-hatîra*, ms. Vatan ar. 730, fol. 45 b; cf. IBN AL-'ADIM, *Buġyat at-talab*, ms. Aya Sofya 3036, fol. 96.

Le style de l'écriture n'appelle que peu de remarques. On y retrouve les caractéristiques du coufique simple tel qu'il nous est déjà connu en Syrie depuis l'époque umayyade, archaïsme explicable puisqu'il s'agit d'une inscription de village, mais contrastant cependant curieusement avec le coufique décoratif "à rinceau ondulé" qui sera utilisé sur le même site un siècle plus tard. Les seuls signes d'évolution qui apparaissent ici tiennent à la forme cursive et inhabituelle des *dāl* ainsi qu'au contour trilobé des *ʿayn*.

Quant au contenu de l'inscription, il présente l'intérêt de tout texte de construction pourvu d'une date précise, celle-là même à laquelle se heurtaient, pour la possession de la Syrie du nord, les troupes des Ikhshidides et celles du hamdanide Nâsir ad-dawla (1). On ne sait malheureusement à quel monument l'attribuer et le nom du fondateur reste celui d'un personnage d'histoire locale, trop obscur pour que les chroniques le citent et nous aient ainsi permis de l'identifier.

II — DAYR AN-NAQĪRA ET LA LOCALISATION DE LA TOMBE DE ʿUMAR B. ʿABD AL-ʿAZĪZ.

De nombreux auteurs arabes de l'époque ayyoubide signalent la tombe du calife umayyade ʿUmar b. ʿAbd al-ʿAzīz dans une localité voisine de Maʿarrat an-Nuʿmān, qu'ils connaissent sous des noms différents et que l'on n'avait pas réussi jusqu'à présent à situer (2). Pourtant les précisions fournies, jointes à l'étude des toponymes conservés dans la région à laquelle appartenait cet endroit célèbre, permettent d'en proposer une identification quasi-certaine.

Si l'on passe en effet en revue les sources dont nous disposons, on trouve chez l'historien Ibn Wāsil (m. 697/1298) la localisation précise la plus ancienne de la tombe de ʿUmar dans un village nommé Dayr an-Naqīra, où il signale en 584/1188 le passage de Saladin : " Il (Saladin) se rendit d'Alep à Maʿarrat an-Nuʿmān et visita à Dayr an-Naqīra (المقرة s. p.) le sayh ascète abū Zakariyāʾ

(1) Voir M. CANARD. *Histoire de la dynastie des Hamdanides de Jazīra et de Syrie*, I (Alger, 1951), 494-98.

(2) R. DUSSAUD. *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale* (Paris, 1927), 184-85.

ébauché grossièrement par un simple trait. Les quatre lignes d'écriture coufique à lettres anguleuses trahissent le manque d'habileté du lapicide: il ne s'agit cependant pas d'un graffito, mais bien d'un texte de construction, pour lequel le sculpteur respecta autant qu'il le pouvait l'équilibre de la composition et l'horizontalité de la ligne de base (cf. fig. 1) (1).

أبى المسجد هشام بن محمد وذلك
 شهر رمضان سنة ثنتين وثلاثين
 وثلث مائة لك الألف هو والثواب
 بركة الله من سعا... وك [تبه] العمار بن أيوب

Fig. 1 — Inscription de Hâss (dessin).

- (1) أ [شأه] ذا المسجد هشام بن محمد وذلك
- (2) [في] شهر رمضان من [سنة] ثنتين وثلاثين
- (3) وثلث مائة لك الألف هو والثواب
- (4) بركة الله من سعا... وك [تبه] العمار بن أيوب

A fondé cette mosquée Hîšâm b. Muḥammad au mois de ramadan 332 (mai 944) Que Dieu ait pitié de celui qui a fait effort pour ... et de celui qui [?] a écrit (?), al-'Ammâr (?) b. Ayyûb.

On ne saurait proposer de restitution certaine pour les lacunes des deux dernières lignes. Sans doute une eulogie, terminée par *illâ huwa* (... que Lui), suivait directement la date, mais le dernier mot de la ligne, que l'on peut lire *al-tawâb* ou *at-tawwâb* ne s'y rattache pas sans difficultés. En revanche les mots qui manquent à la quatrième ligne ne laissent aucune hésitation sur le sens de la phrase par laquelle l'exécutant a signé son œuvre.

(1) Copie septembre 1950. Un estampage, fait par les soins de M. Kamil Shehadé, nous fut communiqué par le Service des Antiquités d'Alep, que nous saisissons l'occasion de remercier ici.

NOTES D'EPIGRAPHIE ET DE TOPOGRAPHIE SUR LA SYRIE DU NORD

par

JANINE ET DOMINIQUE SOURDEL

I — UNE NOUVELLE INSCRIPTION COUFIQUE A HÂSS.

Deux textes de construction datés de 456/1064 (1), ainsi que la présence d'une mosquée ancienne, attestaient déjà que le petit village de Hâss, situé dans le Djebel Zâwiya à quelques kilomètres au sud-ouest de Ma'arrat an-Nu'mân, existait à l'époque médiévale et dut connaître alors une relative importance (2). A ces quelques données épigraphiques ou archéologiques s'ajoute maintenant le texte d'une inscription arabe encore antérieure, qui n'avait sans doute pas été signalée à E. Littmann lors de son passage dans le pays.

Elle se trouve sur une pierre rectangulaire de grandes dimensions (0.75 x 1.50 env.), remployée à la base du mur extérieur d'un petit oratoire connu sous le nom de Sidi Ahmad. Assez bien conservée bien que l'incision des caractères soit peu profonde et que l'usure de la pierre ne laisse plus rien distinguer en quelques endroits, elle est entourée d'un cadre à queues d'aronde.

(1) E. LITTMANN, *Semitic Inscriptions*, in *Publ. of an Amer. Arch. Exp. to Syria in 1899-1900* (Part IV, New-York, 1908), 184-88, fig. 155-56; cf. *Répertoire*, nos. 2652 et 2653.

(2) Sur sa situation dans une région qui continua d'être habitée après l'occupation de la Syrie par les Arabes, v. G. TCHALENKO, *Villages antiques de la Syrie du nord* (Beyrouth, 1952) pl. 155 (Carte des vestiges médiévaux).

Celui-ci était particulièrement dense au point R. 28. Intact aussi parce que très pauvre (1). Dans le secteur L. 35. où l'on retrouve plusieurs installations l'une sur l'autre, nous avons poussé jusqu'à une profondeur de 6m 20, ce qui correspond sensiblement au niveau de la plaine. Nous espérions recueillir de nouvelles céramiques incisées. Cet espoir ne s'est pas réalisé et nous avons dû nous contenter de la céramique présargonique et de quelques bronzes médiocrement conservés. Comme dans la grande fosse de Shamash nous avons pu constater une fois encore l'épaisseur impressionnante du niveau présargonique. Il est évident que ce constat ne peut qu'influencer l'appréciation chronologique et l'idée que l'on se fait de la durée de la période qui s'insère entre la fin de Djemdet Nasr et les Agadéens.

* * *

Tels ont été les résultats de cette neuvième campagne. Celle-ci diffère totalement de celles qui l'ont précédée, démontrant, s'il était nécessaire, l'extrême diversité des richesses que chaque année nous réserve Mari. Moins riche que la précédente en pièces proprement artistiques, bien que celles-ci ne fassent pas défaut, elle l'emporte certainement quant à l'importance de la documentation religieuse et architecturale rassemblée.

Plusieurs temples présargoniques sont réapparus complets avec leurs aménagements actuels et rituels en place. Un bétyle est couché dans la cour de Nini-Zaza et Iahdunlim nous offre une page magnifique qui sera certainement digne de figurer un jour dans une anthologie de la littérature cunéiforme. Nous aurions vraiment mauvaise grâce de nous plaindre de cette neuvième campagne, qui s'achève vingt ans exactement après que furent donnés les premiers coups de pioches sur le site de Tell Hariri.

Mari, 14 décembre 1953

ANDRÉ PARROT

1) Nous avons déjà fait une constatation identique au cours de notre 7^e campagne, en décembre 1951, *AAS*, p. 195

en son niveau présargonique tout au moins. Ce sanctuaire touche au N. E. à celui de Shamash dont il n'est séparé que par un mur mitoyen. En 1938 nous avons fouillé dans ce secteur et reconnu plusieurs installations superposées, remontant de haut en bas, à l'époque du palais (début du II^{ème} millénaire av. J. C.); aux temps du III^{ème} dynastie d'Ur et, la plus ancienne, à la période présargonique (1). Nous avons cette année exploré la totalité de ce secteur, dans son niveau le plus ancien, qui est donc présargonique. Rarement nous avons trouvé une architecture plus malmenée. Seuls ont subsisté quelques arasements de murs, d'autant plus difficiles à reconnaître qu'ils sont souvent en boue et non en briques crues. Ceci est d'autant plus désolant que des installations rituelles en relativement bon état de conservation ont pu être dégagées. Le soin qui avait présidé à leur aménagement, permet de penser que le sanctuaire de Ninhursag ne le cédait pas en richesses à ses voisins, d'Ishtar, Nini-Zaza ou Shamash. En 1938 nous avons recueilli de la statuaire d'ailleurs, fracassée, des coquilles. Cette campagne, le butin fut beaucoup plus mince et il fallut se contenter de morceaux de kaunakès, de débris de statuettes en bitume. Cependant le sanctuaire n'a pas été complètement dégagé du côté Nord, où il semble s'enfoncer sous le temple de Dagan. A l'aplomb même de ce dernier sanctuaire, nous avons ramassé une feuille de peuplier en or, identique à celle que nous avons trouvées en 1938 dans les coffres de ce dernier temple (2). Celui-ci avait donc remplacé dans ses fondations, des reliques infiniment plus anciennes et qui provenaient, semble-t-il, du monument tout proche. La fin de la campagne nous ramenait ainsi à proximité des "temples anonymes" où nous avons porté cette saison nos premiers coups de pioche.

* * *

Depuis longtemps nous avons l'intention d'opérer quelques sondages en des secteurs du tell, demeurés jusqu'à présent intacts. Pendant une douzaine de jours, avec quelques hommes travaillant au jet de pelles, nous avons exploré quatre points différents correspondant à des lignes de crête.

En deux zones nous avons abouti à des constatations précieuses, en ce que nous avons reconnu une superposition de constructions correspondant aux différentes périodes de Mari : assyrienne, Babylone I et présargonique. Il faut ajouter la phase ultime de la ville, représentée par un cimetière séleucide.

1) *Syria*, XXI 1940, pp. 5-18.

2) *Syria*, XXI 1940, pl. X.

S'agirait-il d'une tombe royale antique, dont on aurait préservé l'emplacement en continuant à le vénérer? Ou encore n'aurions nous pas dégagé un *gigunu*, cette construction mystérieuse à propos de laquelle on n'a pas fini d'épiloguer? Pour le moment, il faut nous résoudre à signaler cet aménagement étrange, soigneusement enfoui et que rien en surface n'aurait permis de déceler.

Ce secteur nous réservait d'ailleurs une autre surprise. Comme nous cherchions à préciser la limite Nord de temple de Shamash, nous nous sommes heurtés à une nouvelle construction en briques crues, d'un tracé très soigné, enveloppée elle-même dans un bourrage de briques crues. Celui-ci était parfaitement en place et nous hésitâmes longtemps avant de savoir où était le monument à conserver et où il fallait porter la pioche afin d'y voir clair. C'est là un dilemme que pose souvent au fouilleur l'architecture en briques crues. Notre choix se trouva pleinement justifié, puisqu'en évacuant ce bourrage, nous vîmes apparaître un édifice presque carré (15m 30x14m 30) dont les façades sont toutes ornées de pilastres et de redans. L'ensemble a encore grande allure, avec des murs hauts de 1m 90 en moyenne. Chaque face est différente de sa voisine, mais, l'ensemble constitue un tout particulièrement harmonieux.

A nouveau, l'interprétation demeure incertaine, tout au moins, dans l'état actuel des travaux, Aucune porte n'est apparue nulle part. De tous côtés, le monument est impénétrable. Cependant, sur la face Sud-Ouest, on discerne nettement un blocage, aménagé en degrés et qui semble avoir été construit pour masquer un passage, actuellement rigoureusement muré. A l'intérieur du massif, nous avons pu repérer une chambre (5m 40x2m 30) n'ayant de même aucune issue. Nous l'avons vidée entièrement. Rien n'est apparu que quelques tessons, jusqu'à un sol en briques crues (-2m 30). Ce sol défoncé, recouvrait une terre assez meuble appartenant au niveau présargonique sur lequel reposait donc directement la construction " à redans ". D'après le module des briques, celle-ci semble pouvoir être datée de l'époque du Palais (début du IIème millénaire av. J. C.). Faute de texte, nous ne pouvons encore l'attribuer. Il faut espérer que des dépôts de fondation nous permettront ultérieurement de sortir de toutes ces imprécisions, en nous fournissant une explication de ce nouvel édifice, un des mieux conservés de l'ancienne Mari.

On ne saurait malheureusement en dire autant du temple de Ninhursag.

1951 (1). Cette diversité soulève une difficulté évidente, mais on peut l'écartier en estimant que le roi a réemployé dans sa construction, des dépôts provenant d'un monument plus ancien qu'il avait certainement voulu restaurer, sinon remplacer.

En effet, le temple de Shamash présargonique ne se composait pas que d'une seule cour (celle que nous avons appelée P. 25.), mais encore d'autres salles. Nous espérions les retrouver facilement. Il n'en a rien été. Tout ou presque, avait été saccagé antérieurement, mais nous avons recueilli des vestiges des ex-voto d'époque présargonique : sculptures toujours cassées, magnifiques plaquettes d'ivoire (avec entre autres une scène nouvelle à Mari, qui est la mise à mort du bélier), débris de vases de pierre.

Cependant la fouille allait nous placer devant une énigme. Sous le massif de Iahdunlim, est apparu un petit monument certainement bien antérieur, dont le sol avait été défoncé par une large fosse (3m 80 x 1m 80) remplie d'une terre étonnamment meuble, mêlée à du gravier. Le fond de la fosse a été atteint à 5m 90, sans que rien d'autre que des briques cassées et des tessons soit apparu. Nous avons pourtant poursuivi jusqu'à une profondeur de 7m 90, atteignant le sol vierge. Cet approfondissement eut tout au moins deux résultats appréciables : d'une part, nous permettre de constater l'épaisseur considérable du niveau présargonique à Mari (plus de 6 mètres); d'autre part de recueillir entre 7 m et 7m 90, des documents caractéristiques qui nous révèlent une période archaïque de la protohistoire mésopotamienne, jamais atteinte jusqu'ici à Mari. Plusieurs tessons peints et surtout deux petites céramiques grises, au décor incisé, identiques à celles sorties de Ninive (V) ou de Chagar Bazar, attestent une communauté de civilisation entre vallée du Khabur, Moyen-Euphrate et Haut-Tigre. .

La raison d'être de la fosse explorée demeure énigmatique. Il semble, si l'on tient compte des briques cassées et des tessons sortis, que ce trou a été comblé au temps des rois de Mari (dynastie du Palais). A-t-il été creusé à la même époque, nous ne le saurions dire. A quelle fin, nous ne le savons pas davantage. Nous constatons seulement que le roi Iahdunlim a recouvert cette fosse d'un énorme massif de briques crues et qu'il l'a entourée soigneusement de neuf dépôts de fondation sans compter ceux qu'il a réemployés, disposés tels des cierges autour d'un catafalque.

1) *Syria*, XVI (1935), p. 128; *AAS*, I, pl. II.

curieusement en éperon, nous ramassions une magnifique tête de femme, elle absolument intacte, on se demande à la suite de quel destin.

Confirmation de la plénitude d'un art, qui sait dans le réalisme de l'observation mettre toujours cette touche de finesse et d'aristocratique distinction, qui sont une des marques du génie des sculpteurs de Mari.

* * *

Le deuxième secteur où nous avons décidé de concentrer nos efforts était celui désigné l'an dernier avec une appellation topographique : P. 25 (1). Faute de documentation épigraphique explicite, l'identification du sanctuaire que nous avons repéré n'était demeurée qu'une hypothèse. Nous songions pourtant à Shamash. Cette possibilité est devenue une certitude grâce à la découverte dans la zone contigüe à la cour P. 25. d'une série de dépôts de fondation, *in situ*. En effet en démontant les superstructures d'un énorme massif en briques crues, nous avons mis au jour neuf briques inscrites avec un magnifique texte où M. Dossin put reconnaître immédiatement, non seulement le nom du roi de Mari, Iahdunlim (2), mais encore déchiffrer, en un temps record (une seule journée !), le long récit (157 lignes) où le monarque célébrait dans une langue d'une envolée poétique extraordinaire ses hauts-faits politiques et militaires, comme aussi la construction d'un sanctuaire voué par lui à Shamash. L'identification supposée en 1952, était donc devenue certitude.

A ces neuf briques se sont ajoutés six autres dépôts de fondation, anépigraphes et différents. Ce sont généralement des clous de bronze qui, perçant une plaque de même métal, s'enfoncent dans le sol. Toutefois si quatre de ces clous rappellent par leur forme ceux qui étaient apparus en 1938 aux angles du temple de Ninhursag et que nous avons pu dater grâce aux inscriptions du temps de la III^{ème} dynastie d'Ur, deux autres sont tout différents.

L'un d'eux, fiche énorme de cuivre était associé à une brique plate non inscrite, accompagnée de quelques perles (or et cornaline). L'autre était un clou planté dans un anneau plat et ceci rappelait tout à fait les dépôts présargoniques recueillis à la fois au temple d'Ishtar, en 1934-35 et au "massif rouge" en

1) AAS, II, p. 140.

2) Ce roi s'était déjà signalé à Mari par un disque inscrit retrouvé par nous dans le Palais, *Syria*, XVII (1936), p. 23, fig. 12. Le texte avait été déchiffré immédiatement par F. THUREAU-DANG'N, dans *RA*, XXXIII (1936), pp. 49-54.

mais deux sanctuaires, contigus mais rigoureusement séparés et indépendants l'un de l'autre. En effet, il n'y a aucune communication entre les deux complexes et toutes les statuettes inscrites retrouvées l'an passé ou cette année, indiquent formellement qu'ils sont consacrés, l'un au N. E., à Ishtarat, l'autre, au S. O., à la déesse Nini-Zaza. Il s'agit de deux déesses, vraisemblablement apparentées, l'une, la première, avec un nom sémitique, l'autre, la seconde, avec une appellation sumérienne.

Au terme de cette exploration, nous connaissons désormais l'architecture de deux sanctuaires présargoniques absolument complets. Tous deux sont aménagés suivant l'ordonnance d'une maison. Une seule porte sur la rue, permet par une pièce intermédiaire, d'arriver dans une cour d'où l'on accède à une *cella*. Quelques pièces s'y ajoutent qui tiennent lieu de cuisines et de communs. Malgré la destruction et l'incendie qui ont sévi, en particulier sur le mobilier cultuel et les ex-voto (statuettes, vases de pierre, panneaux en mosaïque de coquille), les chapelles et la cour du sanctuaire de Nini-Zaza ont permis, avec leurs installations rituelles relativement bien conservées, des constatations très précieuses. Bien plus, dans la cour du temple de Nini-Zaza, un bétyle a été ramassé, pièce dont l'importance ne saurait être assez soulignée. Pour la première fois dans le pays mésopotamien, on trouve un objet cultuel que l'on croyait réservé à la Phénicie ou à Canaan. Taillée dans du basalte, cette idole était donc offerte à la vénération des fidèles. Malheureusement, aucun socle ou piédestal n'a été retrouvé, qui puisse en fixer l'emplacement exact.

L'an passé le déblaiement de certaines des salles des deux sanctuaires avait permis la découverte d'un lot considérable de petites statues. Malgré l'acharnement dans la destruction qui avait mutilé de magnifiques œuvres d'art, il nous avait été possible de remonter un nombre important de ces sculptures. Nous avons eu moins de chance au cours de cette campagne. Nous avons constaté la même désolation, encore plus complète. Les débris recueillis appartenaient cependant à des ensembles tout aussi parfaits. Il s'agissait non seulement de statuettes, petites statues d'adorants, mais aussi de monuments de grandeur colossale, ainsi qu'en témoigne cette tête effroyablement mutilée, plus grande que nature, d'un adorant barbu, sans doute un roi, dont le masque fut sauvagement martelé. Des éléments de coquille nacrée attestaient aussi de grandes compositions en mosaïques, complètement déchiquetées et éparpillées tout autour. Rien qui ne fut dépecé, fracassé. Une seule exception pourtant : en fin de campagne, dans une des chambres de l'extrémité du temple de Nini-Zaza qui se termine

sur une datation sûre. Situés à un niveau supérieur à celui des temples "présargoniques" voisins, ils en reproduisent pourtant bien des traits, les autels à pilastres et rentrants, par exemple. Cependant cet aménagement a certainement persisté à travers les siècles (nous en avons la preuve à Mari) (1) et il ne peut tenir lieu d'argument. La démolition des murs demeurerait pour nous la seule façon d'aboutir à un résultat. En même temps cela préparait l'exploration future des niveaux inférieurs, impossible autrement.

Cette opération ne nous a pas donné les "dépôt de fondation" espérés, mais des objets, qui certainement avaient été voués au cours de la construction. Ces objets appartiennent sans doute à trois époques bien différentes. Ils ont pourtant été ramassés au même niveau et dans le même monument. Ce sont : un magnifique cylindre d'époque agadéenne (vers 2400 av. J. C.), une plaque d'ivoire représentant un guerrier casqué, de date présargonique (première moitié du III^{ème} millénaire av. J. C.) et une plaque de gypse que nous ne croyons pas antérieure à la fin du III^{ème} millénaire.

Ces trois pièces disparates laissent donc dans l'incertitude. Les deux premières risquent bien, d'être sensiblement antérieures à l'architecture qu'elles furent destinées à sanctifier. La troisième, par contre, nous semble contemporaine des monuments et des éléments en gypse recueillis précédemment dans des niveaux datés de la III^{ème} dynastie d'Ur, fourniraient une concordance précieuse. Nous pensons actuellement que les "temples anonymes" furent élevés par des souverains ou gouverneurs dépendants de la puissance sumérienne mais l'absence de textes nous interdit absolument toute attribution. De toute façon aussi, l'emploi de briques cuites plates dans les dallages, fournit une date plutôt basse et en tout état de cause postérieure aux temples présargoniques. Tel fut le premier résultat enregistré dans ce secteur.

Notre deuxième objectif était l'achèvement du déblaiement du temple d'Ishtar (2). Cette tâche nous a pris de longues semaines mais nous avons pu la mener à bonne fin. Cependant ce fut d'extrême justesse car la dernière journée de la fouille en vit tout juste l'achèvement. En ce secteur, des constatations minutieuses nous ont amené à une certitude importante. Il y a là non pas un,

1) On les retrouve par exemple au temple de Dagan, qui est du début du II^e millénaire, *Syria*, XIX (1938), p. 23.

2) *AAS*, II, p. 142.

cordée, sur la proposition du Directeur Général des Antiquités, par le gouvernement syrien.

Pour être à peu près complet, ajoutons que, comme entrée de jeu, le 9 Octobre 1953, nous avons admiré au Musée de Damas, la magnifique exposition "temporaire", où nous retrouvions dans la salle consacrée à Mari, les statues et statuettes découvertes au cours de notre huitième campagne.

Cette exposition due à l'initiative et réalisée sous la direction du Directeur Général des Antiquités, le Dr. Selim Abdulhak, nous a rempli d'admiration, non pas tant parce que nous y retrouvions des pièces bien connues... que par la qualité de la présentation qui en renouvelait pour nous la connaissance que nous pensions en avoir ! Le succès qui avait couronné cette exposition, dont on nous avait souvent parlé précédemment en France, était donc amplement mérité et récompensait largement le labeur acharné de celui qui avait tenu à l'organiser, le Dr. Selim Abdulhak.

* * *

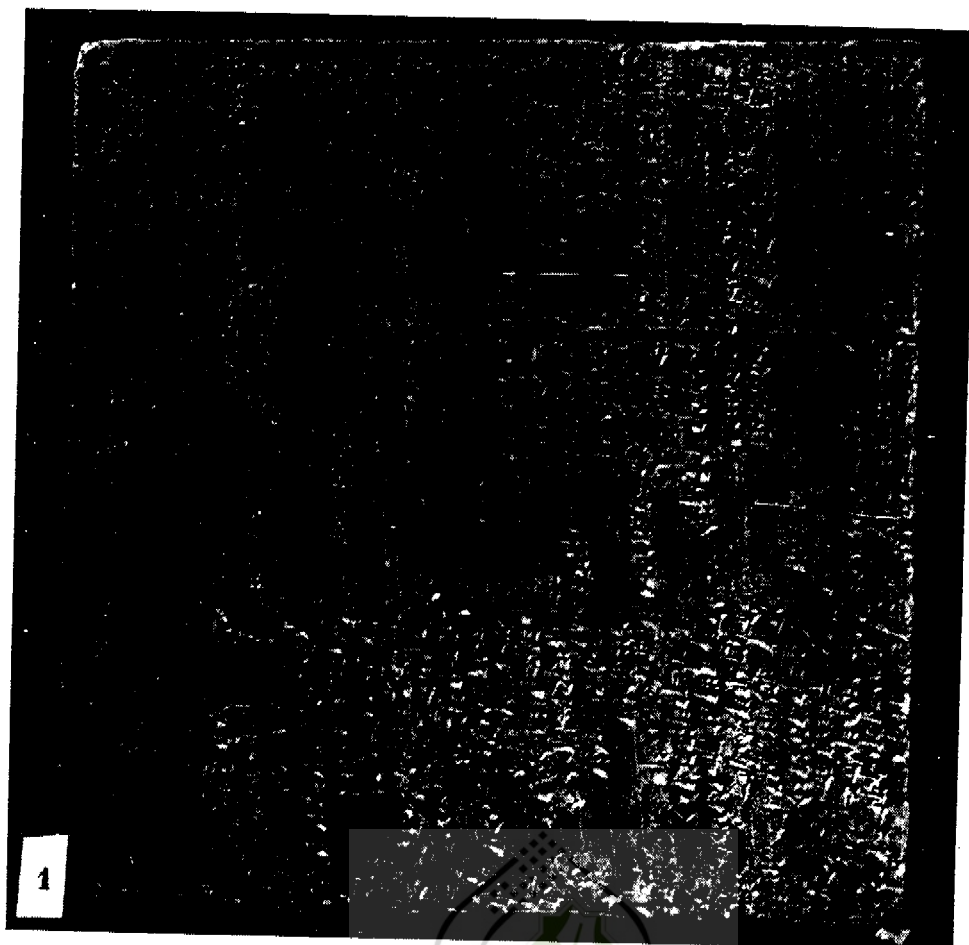
L'an passé, nous écrivions : « Il nous reste un labeur considérable. Nous aimerions pouvoir identifier les "temples anonymes" et ce ne sera possible que si nous pouvons mettre la main sur quelque dépôt de fondation. Il conviendra d'achever ensuite le déblaiement du temple présargonique d'Ishtar et enfin de préciser l'économie des temples superposés en P. 25, tout en les suivant dans une extension dont nous ne pouvons encore dire si elle sera considérable. » (1) Ce programme qui s'imposait à nous à l'issue de la huitième campagne a été intégralement rempli au cours de cette saison. Cela ne signifie pas que tous les problèmes aient été réglés. Bien au contraire, car des énigmes nombreuses se sont posées à nous dont la solution nous échappe encore. Le sol de l'ancienne Mari est si riche qu'on peut s'attendre sans cesse à de nouvelles surprises. Celles-ci n'ont pas fait défaut et nous allons les faire connaître successivement, en suivant le déroulement de l'exploration.

* * *

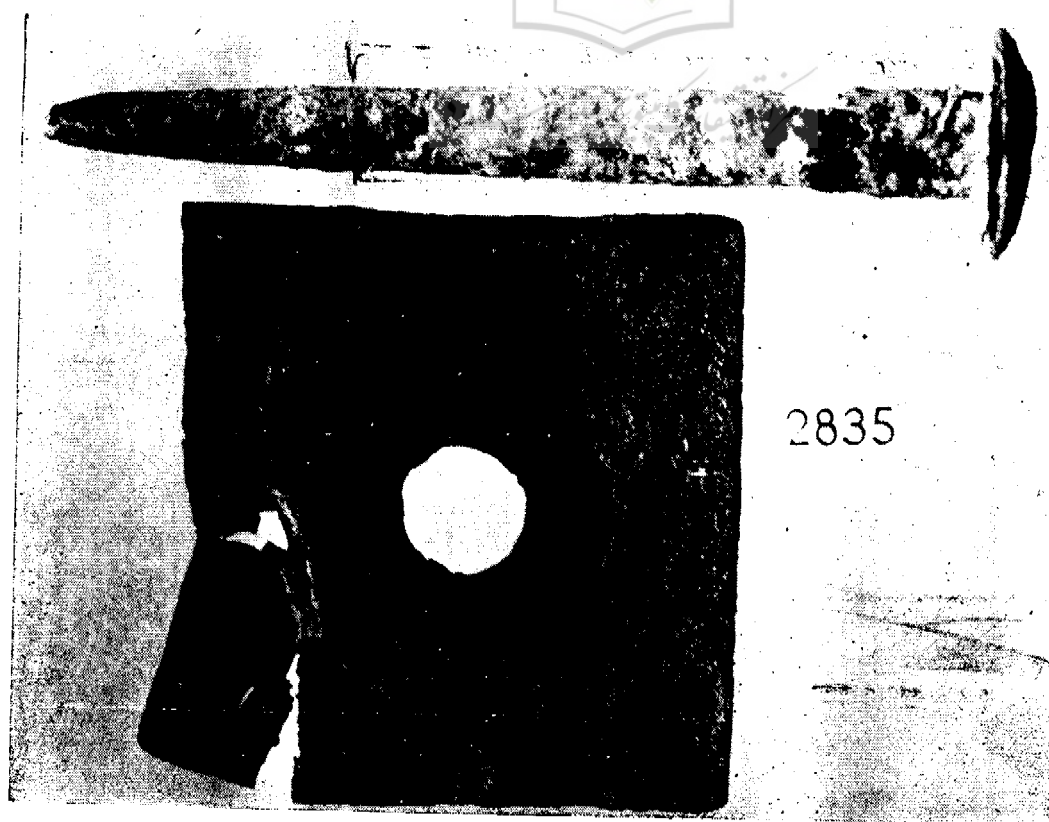
Dès la reprise de la campagne, deux équipes furent affectées au secteur des "temples anonymes". Depuis longtemps, cette zone pose un problème chronologique difficile. Les sanctuaires qui y sont apparus et que nous dégagions en 1938, (2) n'ont pas abandonné un seul texte permettant, avec l'identification, d'as-

1) *Annales Archéologiques de Syrie* (nous citons AAS), II (1952), pp. 147-148.

2) *Syria*, XXI (1940), p. 8.



Dépôt de fondation. Brique de Iahdunlim, roi de mari.



Dépôt de fondation d'époque d'Ur III.

LA NEUVIÈME CAMPAGNE DE FOUILLES A MARI

(OCTOBRE - DÉCEMBRE 1953)

par

ANDRÉ PARROT

Ainsi que nous l'avions projeté et espéré, une neuvième campagne de fouilles a eu lieu à Mari, d'octobre à décembre 1953. La mission se composait d'un certain nombre de membres des campagnes précédentes : le professeur G. Dossin, épigraphiste de l'expédition nous accompagnait une fois de plus, grâce à une subvention du fond National Belge de la Recherche Scientifique. M. Jean Brusson, architecte de notre mission depuis la reprise en 1951, M. G. Tellier notre chef de chantier depuis 1950, étaient toujours au poste.

Cette année nous avons deux collaborateurs nouveaux : le docteur F. Benezech à qui nous avons confié le travail photographique et M. B. Vincent chargé du dessin des objets. Ma fille Marion Parrot fut pour la première fois associée à nous et eut à s'occuper de la totalité de la marche de la maison, ce dont elle s'acquitta à la satisfaction unanime. Enfin, comme l'an passé, M. S. Mugdad représentait le gouvernement syrien et nous ne serions trop nous féliciter de son aide continue dans les domaines les plus divers et de l'appui précieux qu'il nous a apporté avec une bonne grâce et une amabilité toujours souriante.

A tous les membres de l'expédition nous exprimons la satisfaction qu'ils nous ont procurée par leur labeur acharné qui est pour une bonne part dans l'importance des résultats obtenus cette année encore sur le chantier de Tell Hariri.

Par les dispositions qu'elle contient, comme par la qualité des bénéficiaires, cette brève inscription mérite enfin d'être mise en rapport avec quelques autres, comparables et plus explicites. L'on connaît en effet plusieurs cas où des maisons, plus exactement les revenus d'immeubles locatifs, figuraient parmi les biens constitués waqf au profit d'édifices religieux. D'autre part l'épigraphie garde témoignages de libéralités à l'égard de *mugāwirin* : à la mosquée al-Azhar au Caire en 784 (1) et à l'époque de Qaytbay (2), en 797 / 1394 au sanctuaire de Nūh à Karak Nūh (3), en 84 / 1480 à Médine où ces libéralités devaient rappeler les pratiques en usage au haram d'Hébron (4). Le cas du petit oratoire de Ġawt ne saurait assurément être assimilé à celui des grands sanctuaires du Proche Orient où l'on faisait aux visiteurs ou résidents d'abondantes distributions sous forme de repas. Il s'agit plutôt ici, comme dans le deuxième waqf gravé à al-Azhar, d'un legs de peu d'importance en faveur d'étrangers éloignés de leur pays d'origine dans un dessein d'étude ou de sanctification; ce serait un nouveau témoignage des actes de générosité dont bénéficiaient, dans la société médiévale islamique, les Occidentaux arrivant en Orient et que nous connaissions déjà par les récits des voyageurs pèlerins Ibn Gubayr et Ibn Battūta.

JANINE SOURDEL - THOMINE

tation du Coran et étaient entretenus par la générosité des habitants de la ville.

- (1) *C. I. A. Eg.*, II, 115 : décret du sultan Barqūq réglant en faveur des étudiants *mugāwirin* dans cette mosquée les questions d'héritage pouvant survenir à la mort de l'un d'entre eux.
- (2) *C. I. A. Eg.*, II, 120 (n° 574) : waqf gravé sur une armoire de la mosquée en faveur des étudiants yéménites qui y résidaient.
- (3) J. SOURDEL-THOMINE, *Inscriptions arabes de Karak Nūh*, in *BEO*, XIII (1951), 83 : dispositions par décret royal de Barqūq en faveur du personnel du sanctuaire.
- (4) *C. I. A. Eg.*, I, 493 s. (nos. 324 et 325) : waqf du sultan Qaytbay, gravé au Caire en deux exemplaires et attribuant le revenu d'un immeuble locatif, nouvellement construit, aux besoins du sanctuaire et à l'entretien des « pauvres » de Médine.

que Zangi y avait fait déposer et que les voyageurs ou chroniqueurs d'époque ayyoubide ne manquent jamais de signaler parmi le but de pèlerinage de la ville (1); on a ainsi pu voir dans sa célébrité un effet de l'attitude religieuse des princes zenguides à l'égard des lieux de dévotion chiïtes qu'ils firent homologuer peu à peu par l'orthodoxie (2).

Sur la perpétuation de ce sanctuaire pendant la période mamelouke nous possédons maintenant quelques nouvelles données grâce à l'inscription de la Sultāniya. Il semble qu'à cette époque le personnage de Saiyidi Ġawt, auprès de qui se sont fixés de véritables « clients », en fût venu à prendre dans la vénération populaire une place que ne justifiait pas la brièveté des textes anciens à son sujet: Ibn al-'Adīm par exemple se contentait de rapprocher avec réserve le nom de Ġawt de celui d'un Ġawt b. Sulaymān, cadi de Misr, venu à Alep en compagnie de Ṣālih, arrière petit-fils d'al-'Abbās. On constate surtout que le masgid Ġawt, auparavant connu seulement comme lieu de pèlerinage, avait dû alors s'organiser comme une de ces nombreuses *zāwiya* qui se développèrent dans la ville mamelouke d'Alep et qui servaient de résidences à de petits groupes de soufis (3). Rien ne permet de savoir si les « pauvres » qui habitaient cet oratoire étaient tous d'origine maghrébine ou si les avantages du waqf étaient réservés à ceux d'entre eux qui arrivaient d'Occident. L'expression *fuqarā'* illustre bien en tout cas la définition qui a déjà été donnée, d'après le sens traditionnel et canonique du terme, des *mugāwirūn*, ceux « qui vivent dans un sanctuaire pour s'y vouer à la vie religieuse » sans qu'il s'agisse nécessairement d'étudiants (4).

(1) AL-HARAWĪ *K. az-ziyārāt* (ed. J. SOURDEL-THOMINE, Damas, 1953), 4; YĀQŪT, *Mu'gam al-buldān*, II, 308, et IBN AL-'ADĪM, *Buġya at-talab...* (ms. Aya Sofya 3036) fol. 88-89, sur l'autorité d'al-Harawī; cf. IBN ṢADDĀD et IBN AS-SIHNA, cités *supra*, p. 68 n. 4.

(2) J. SAUVAGET, *Alep*, 124-25.

(3) Sur les exemples comparables qui existaient alors à Alep, v. J. SAUVAGET, *Alep*, 178 et 259-63 (appendice où l'on trouve les dispositions détaillées d'un donateur en faveur des « pauvres » d'une *zāwiya*).

(4) M. VAN BERCHEM, *C. I. A. Eg.*, I, 498 n. 2 et G. WIET, *C. I. A. Eg.*, II, 116. Cf. la mention par Ibn Battūta (*Voyages*, I, 296) des *mugāwirūn* qui dans la grande mosquée de Damas, s'adonnaient à la prière, au *dhikr*, à la réci-

Incomplète et de déchiffrement difficile (v. fig.), elle se compose de trois courtes lignes, à moyens caractères de faible relief, sculptées dans une pierre d'angle à 2 mètres environ au-dessus du niveau actuel de la rue; le style de l'écriture, cursive et confuse, permet de la dater approximativement de la fin de l'époque mamlouke. La troisième ligne, plus courte que les autres et détériorée en son milieu, demeure impossible à lire et empêche de trouver un sens cohérent aux derniers mots de la ligne précédente; le texte du début de l'inscription, en dépit du caractère insolite de la deuxième phrase, paraît au contraire bien établi.

(1) هذ [ا] البيت وقف على الفقراء المغاربة المجاورين عند سيدي غوث

(2) وأن لا يؤخذ كراءه إلا (؟) من رمضان إلى رمضان و

Cette maison est constituée bien de main morte en faveur des "pauvres" originaires d'Occident et qui demeurent (*mugâwirûn*) auprès du seigneur *Ġawt*. Que l'on ne perçoive son loyer que chaque [année au] mois de *râ-madan* et...

La maison en question, disparue depuis lors, devait être sans doute contigüe à la madrasa Sultâniya (1). Le sanctuaire de *Ġawt*, auquel la rattachait l'acte de waqf, se trouvait précisément dans le voisinage, localisé par des auteurs anciens en dedans de Bâb al-'Irâq (2) et par une description récente « à l'est de la madrasa Sultâniya en tirant un peu vers le sud; entre elles deux, il n'y avait que la largeur du chemin... » (3). Construit d'après la tradition sur l'ordre de Zangi en 536 / 1141-42 pour un fragment de colonne miraculeuse apporté de Raqqa (4), il fut détruit par le gouvernement turc en 1332 / 1914. Au VII / XIII^e siècle son importance tenait surtout à la pierre-talisman, avec « inscription-autographe de 'Alî »,

(1) A l'époque mamelouke l'affichage de telles dispositions se faisait ordinairement de manière à ce que le texte en demeure gravé sous les yeux des intéressés, i.e. les habitants de l'immeuble constitué waqf.

(2) Sur l'emplacement de cette porte disparue, v. J. SAUVAGET, *Alep* (Paris, 1911), pl. 58.

(3) Kamil AL-ĠAZZI, *K. nahr ad-dohab fi ta'rîh Halab* (Alep, 1342 H.), II, 126.

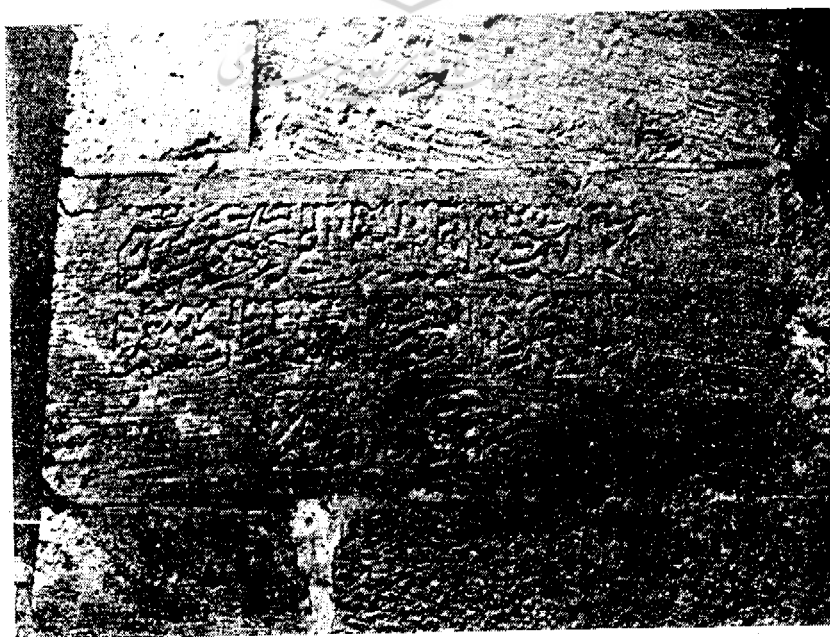
(4) IBN SADDAD, *Al - a'ldq al-halira...* (ms. Vat. 730), fol. 32 b — 33 a; cf *Nahr*, *ibid.* et J. SAUVAGET, « Les perles choisies » d'Ibn ach - Chihna (Beyrouth, 1933), 79.

UNE INSCRIPTION INÉDITE DE LA MADRASA SULTĀNIYA A ALEP

par

JANINE SOURDEL - THOMINE

Les dégagements opérés par M. Lauffray ont mis à jour, à l'angle nord-est de la madrasa Sultāniya, une inscription non connue jusqu'à présent. Sans rapports avec cette construction, elle fournit en revanche quelques précisions sur l'histoire d'un monument voisin qui n'est plus conservé de nos jours.



— qui peut être riche quand il le faut — sur les point remarquables du monument; respect du rôle fonctionnel des membres architecturaux; art réfléchi, soutenu par la volonté de défendre un ordre et une idée, la restauration de l'Islam orthodoxe. Dès que se manifestera avec les Mamelouks le souci orgueilleux d'étaler sa richesse et de se glorifier, cet art perdra sa maîtrise et sa pureté.

On remarquera que la construction de la Soultaniya a été commencée vingt ans avant celle de la madrasa al-Firdaws (1). Les mêmes ouvriers ont pu travailler sur les deux chantiers. Le plan plus élaboré du second de ces édifices, la répartition plus variée et plus monumentale de ses masses, la technique de sa construction, procèdent de la Soultaniya. La comparaison qui s'impose pour suivre le développement de l'école architecturale ayyoubide sera faite ici-même, à l'occasion de la publication de nos relevés du Firdaws.

Beyrouth, Octobre 1952.

J. LAUFFRAY



(1) Sur la date de construction du Firdaws voir : J. SAUVAGET, *Les Trésors d'or de Sibt Ibn Al-Ajami*, Beyrouth, 1950, p. 82.

une place à la madrasa syrienne qui fait exception à la règle des quatre iwans. Cette exception nous paraît due au fait que lorsque l'institution se développa en Syrie - Nord, elle y trouva une tradition architecturale très particulariste et sûre d'elle-même. Plutôt que de transposer en pierre les formes d'une maison étrangère, conçues en terre crue, elle préféra sans doute s'inspirer de sa conception personnelle de l'habitation, développant, à partir du type local de la maison privée, une conception architecturale de la madrasa qui lui est propre et qui évolua parallèlement au type à quatre iwans. Le plan de la Soultaniya suggère ce point de vue. Il nous paraît être l'adaptation à une collectivité du plan des maisons privées de la Syrie du Nord, elles-mêmes peut-être dérivées — J. Sauvaget a tenté de le montrer naguère, non sans se faire critiquer (1) — des maisons byzantines de la région. Ainsi s'expliquerait que l'on ne trouve pas d'autre iwan ouvert sur la cour, comme il s'en rencontre dans des exemples postérieurs.

La description que nous venons de présenter de la madrasa Soultaniya d'Alep, illustre et confirme les points de vue exposés naguère par J. Sauvaget dans son étude de la Revue des Arts Asiatiques sur l'Architecture Musulmane de la Syrie du Nord (2). Les caractères marquants de l'Art Ayyoubide dans ces régions sont les suivants : adaptation logique du plan à ses fins; clarté de son expression dans les élévations, sans vaine recherche de pittoresque; souci de demeurer à l'échelle de l'homme; survivance des traditions classiques gréco-romaines (3); dépouillement et même austérité des volumes laissant la pierre apparente; localisation du décor

(1) J. SAUVAGET, *Remarques sur l'Art Sassanide*, *Revue des Etudes Islamiques*, 1938, p. 113, LX 131. La découverte de maisons byzantines inédites dans le nord du Djebel Sam'an, nous paraît de nature à les confirmer. Nous reviendrons sur ce problème à l'occasion de leur publication.

(2) *Loc cit.*

(3) Il est intéressant de constater que les auteurs arabes eux-mêmes étaient conscients de cette survivance. SIBT IBN AL-'AJAMI, manuscrit du Caire, fol. 94 écrit à propos de la Soultaniya qu'elle est construite à la manière des édifices d'Héraclius (renseignement communiqué par M. S. Dahan).

travaux consistant en la construction des cellules qui permirent l'ouverture de la madrasa. Le mise en place du portail dès les premières étapes de construction prouve que le plan primitif prévoyait l'emplacement des cellules.

A l'époque mamlouke le monument avait déjà souffert. En effet l'inscription N° 150 datée 874 h. voue à l'exécration ceux qui transformeraient la Soultaniya; ce qui laisse supposer qu'à cette époque l'on avait ajouté à l'édifice des parties étrangères à sa destination première. Par la suite des restaurations maladroites achevèrent de le défigurer. Le minaret fut ajouté au-dessus du portail; les parties hautes des murs, refaites en petit appareil. Enfin, à l'époque turque, les baies du masjid ont été bouchées.

IV — REMARQUES SUR L'ORIGINE DU PLAN DE LA MADRASA SYRIENNE.

Un article récent de A. Godard (1) vient de renouveler la question si discutée de l'origine et du développement de la madrasa et plus spécialement de la madrasa à quatre iwans. Dans l'évolution qu'on nous présente, la place de la madrasa syrienne n'apparaît pas. L'auteur commence par rappeler un fait connu : les premières madrasas sont apparues dans le Khorassan où elles n'étaient tout d'abord que de simples maisons privées. Recherchant quelle était la disposition de ces maisons, A. Godard démontre que leur plan comporte systématiquement quatre iwans ouverts sur une cour, plan qui fut adopté par les premières madrasas. Les quatre iwans, on s'en doutait déjà pour d'autres raisons, n'ont donc rien à voir dès l'origine avec un enseignement des quatre rites dans un même monument. La madrasa, devenue institution officielle et se répandant hors de l'Iran, son plan originel à quatre iwans suivit tout naturellement cette expansion. Il s'implanta en Egypte, atteignit le Maghreb, s'imposant à de nombreuses mosquées et aux caravansérails. Ainsi la thèse de Creswell attribuant à la madrasa à quatre iwans une origine égyptienne, s'écroule (2) comme s'était écroulée auparavant celle de son origine syrienne soutenue par M. Van Berchem et par Saladin (3). Dans ce tableau, comment faire

(1) A. GODARD, *L'origine de la madrasa, de la mosquée et du caravansérail à quatre iwans*, *Ars Islamica*, t. XV—XVI, 1951, p. 1.

(2) K. CRESWELL, *loc. cit.*

(3) M. Van BERCHEM, *loc. cit.* et *Encyclopédie de l'Islam* sv. Architecture; SALADIN *Manuel d'art musulman*, t. I, p. 109.

est égale à la hauteur de l'assise courante. Une grille en fer forgé clôt la baie. Des logements pour les volets de bois sont prévus dans l'épaisseur du tableau.

III — LES ÉTAPES DE LA CONSTRUCTION.

L'analyse architecturale qui précède, la teneur et l'emplacement des diverses inscriptions indiquent que le monument a été construit en plusieurs étapes.

Le masjid fut élevé au cours d'une première étape. Le mausolée daterait d'une seconde. Cet ordre de succession ressort, nous l'avons indiqué plus haut (1), de la présence de portes bouchées et de raccords d'appareil entre la salle de prière et le mausolée. La modification du plan primitif au cours des travaux peut s'expliquer ainsi : al-malik az-Zahir s'étant déjà fait édifier un mausolée à l'extérieur des murs de la ville n'avait pas dû envisager tout d'abord de se faire inhumer dans la Sultaniya ; la Zahiriya *extra muros* lui assurait en effet en toute éventualité une sépulture. C'est sans doute seulement après l'achèvement de celle-ci qu'il souhaita, s'il mourrait à l'intérieur de la ville, pouvoir y demeurer dans son dernier sommeil. Il aurait alors, au cours d'une seconde étape de travaux, fait modifier le plan initial de la Soultaniya par l'adjonction d'un mausolée. Il est à remarquer que le texte des inscriptions funéraires N° 147, gravées sur les linteaux du mausolée, paraît postérieur à la construction. Il n'est pas daté et Herzfeld estime que la rédaction n'est pas celle de l'original d'un texte royal funéraire. Le texte aurait pu être rédigé sous la régence de Toghrul.

Le portail doit dater de l'une ou l'autre des deux premières étapes. La construction soignée en grand appareil présente toutes les caractéristiques des constructions ayyoubides et l'inscription N° 148 placée sur la corniche paraît, comme celle du mausolée, gravée après coup. Herzfeld juge cet emplacement inhabituel. Cette inscription étant datée de 620 h. (1225), le portail serait donc bien antérieur. L'inscription N° 149, placée au-dessus de la porte sur les trois faces intérieures du porche, chevauche le linteau. Elle semble, elle aussi, ajoutée. Le texte de ces deux inscriptions nous précise que, sous la régence de Toghrul, le monument, demeuré inachevé, a été complété et affecté à l'enseignement des deux écoles juridiques Hanafite et Chaéfite. Cet achèvement constituait donc une troisième étape de

(1) *Supra*, p. 55.

bandes qui s'entrecroisent orthogonalement suivant l'orientation des joints; les joints rayonnant des clavaux sont au contraire soulignés par un jeu de demi-cercles entrelacés dont le départ coïncide avec les faces d'assises; la répartition des valeurs et des taches colorées n'est pas moins habile.

Dans les parties supérieures, la polychromie des passementeries s'oppose à la sobriété de la voûte de l'abside. Celle-ci tire tout son effet plastique de l'étude précise de son appareil et de la simple alternance d'assises ocre clair et ocre foncé. Dans les parties inférieures, le contraste est inversé. Le jeu en camaïeu des horizontales de la voûte s'oppose avec l'alternance, dans le demi-cylindre de l'abside, de panneaux verticaux de marbres rouge et vert en légère saillie sur le fond ocre jaune. Ces panneaux rythment la paroi entre les deux colonnettes dont ils rappellent le volume. Panneaux et colonnes s'inscrivent dans une surface carrée encadrée sur ses quatre côtés par une moulure qui se retourne d'onglet dans les angles. Sa ligne haute forme corniche et sa ligne basse soubassement. Ce jeu très savant de poursuite et d'enlacement des thèmes évoque l'art de la symphonie et fait penser aux broderies musicales d'un intelligent contrapontiste. Le plus étonnant peut-être est que l'artiste ait su échapper à toute trace de mauvais goût, si difficile à éviter en de semblables recherches.

Il convient d'insérer ce mihrab dans une série de mihrabs alépins de même époque et de même style, parmi lesquels il faut citer en premier lieu celui de la madrasa *al-Firdaws* et de la mosquée *al-Roumi*. On rapprochera le style de leur décor de celui des grands panneaux d'entrelacs du machhad *al-Hosayn* antérieurs de 33 ans (1) et des portails de la *Sharafiya* d'Alep et du *Sahyoun* (2).

e) *Les fenêtres du mausolée* (pl. VII b et c).

Ouvertes vers l'extérieur, elles sont traitées dans un style plus monumental que les baies des cellules. Mais le principe structural demeure identique. Le tirant de bois est remplacé par un épais linteau de pierre portant les inscriptions N° 147 A, B, C. L'épaisseur de l'arc de décharge

(1) J. SAUVAGET, *Deux Sanctuaires Chiites d'Alep*, Syria IX, 1928, p. 231, fig. 6.

(2) M. ECOCHARD, *Notes d'Archéologie musulmane*, Bull. d'Etudes Orientales, VII-VIII, 1937-38, p. 108.

iwān a peu souffert. Il suffirait de la déboucher et de rétablir l'assise inférieure qui formait marche sur toute sa largeur. Au niveau de la septième assise (point 4 de la pl. II b.), un creux s'observe sous chacune des retombées de l'arc. Trop faible pour correspondre à une pierre manquante, il doit être l'emplacement de l'appui d'une poutre (1). Les baies latérales sont plus défigurées : celle de droite a perdu tous les claveaux de son arc; ceux de celle de gauche sont retailés sur la moitié de leur longueur. Tous les pieds-droits ont leur assises découpées irrégulièrement. Il conviendrait de remplacer les pierres manquantes ou abimées et de rétablir les deux tirants de bois dont l'engravement subsiste très net (point 2 pl. II b.).

On remarquera, au dessus des 12 premières assises (correspondant à une hauteur de 6 m. 50) un appareil plus petit. Ce n'est pas là le résultat d'une reprise. Ces assises moins hautes sont originales. Cette diminution de l'appareil dans les parties hautes s'observe également à la madrasa al-Firdaws. La corniche qui couronne la façade est moderne (5, pl II b.).

A l'intérieur, le mihrab qui fait la réputation de la madrasa est conservé intact (pl. V et IX a.). Les textes nous racontent comment l'habileté des Alépins en aurait évité le vol par Tamerlan (2). Tout l'effort de recherche décorative est concentré sur ce mihrab. La planche V en donne un relevé à grande échelle qui évite une description détaillée. On notera : a) la répartition des motifs décoratifs, bien différents suivant la structure qui les porte; b) la progression de leur richesse depuis la sobre plinthe inférieure jusqu'à l'encadrement de l'arc où s'étale un jeu de marqueterie de pierres et de marbres polychromes évoquant la passementerie; c) les volumes classiques des chapiteaux corinthiens qui, sous les retombées de l'arc, coiffent des fûts de marbre vert; d) le profil des moulures qui conserve lui aussi le souvenir de la modénature byzantine; e) le dessin des entrelacs qui reste clair et sans mièvrerie. Il s'inscrit à l'intérieur d'un rectangle qu'il remplit sans bavure extérieure. S'étalant sur le mur à la façon d'un riche tapis, il tient cependant compte du tracé de l'appareil : lorsque la structure impose des assises horizontales, on trouve un jeu de

(1) Je pense qu'il faut restituer au-dessus de cette poutre des claustras de bois comme le fait J. Sauvaget pour le *Dar al-Hadith* de Nour ad Din à Damas, *loc. cit.*

(2) ABOU DHARR, *op. cit.*, p. 395.

assises de 50 cm. d'épaisseur moyenne, mais sans refends. Carreaux et boutisses alternent assez régulièrement. A l'intérieur (pl. IV b), le plan impose une suite régulière de baies superposées, portes au rez-de-chaussée et fenêtres à l'étage.

Le rapport de proportion de ces baies nous est donné par la façade des cellules contigues à l'entrée (vers l'est) qui seules conservent un souvenir de la disposition originale, défigurée à vrai dire par des reprises nombreuses. Les assises du mur sont moins hautes que sur la façade extérieure : deux pour une. Les portes des cellules du rez-de-chaussée étaient couvertes par un linteau de bois surmonté d'un arc de décharge surbaissé dont les clavaux sont demeurés en place au dessus de la porte de la première des cellules orientales. De longueur décroissante, ils s'élèvent tous jusqu'à l'horizontale d'une assise supérieure. L'espace entre le linteau et l'arc servait à l'aération de la cellule. Ce linteau de bois, dont il subsiste l'extrémité des logements, a été remplacé récemment par un arc de pierre (1), tendu sous l'arc de décharge.

La fenêtre de la cellule du premier étage devait être conçue comme la porte du rez-de-chaussée. L'emplacement du linteau de bois est donné par une saignée bouchée se prolongeant au-delà de la fenêtre sur toute la partie de façade conservée. Ce long bois servait, selon un usage courant à cette époque, à la fois de linteau et de chaînage. L'arc de décharge a disparu. Cette méthode de construction des baies, générale dans les monuments ayyoubides d'Alep, est utilisée également pour les niches de la salle de prière (voir la coupe longitudinale pl. III a). En partant du plan et de ces données modestes, on pourrait restituer, sans risque d'erreurs notables, toute la façade sur cour des cellules.

d) *Le masjid.*

Il est signalé de loin par sa coupole toute simple qui domine les masses rectilignes du monument; la composition du plan et des élévations tend à diriger vers lui le regard et les pas.

Sa façade (pl. II b et VIII c) est défigurée par des murs d'époque turque qui bouchent les baies, mais un examen attentif permet d'établir une restitution qui serait réalisable à peu de frais. La baie axiale formant

(1) Sur les linteaux de bois dans les baies, J. SAUVAGET, *Monuments Ayyoubides de Damas*, t.I, *Dar al-Hadith de Nour ad-Din*, p. 18, fig. 8 et *Madrassa Adiliya II*, p. 81, fig. 44.

horizontaux des assises et ceux rayonnant des clavaux, technique déjà observée dans plusieurs autres monuments ayyoubides d'Alep (1). L'arc brisé du porche est légèrement surbaissé. Son ouverture plus faible que l'écartement des murs latéraux ménage un ressaut en soffite de quelques centimètres qui accuse la naissance de la voûte. Ce détail se retrouve à toutes les voûtes du monument. Il est exprimé dans les dessins, nous ne le signalerons plus par la suite. Les voussoirs, tous de même longueur, sont constitués alternativement par une pierre unique et deux pierres bout à bout. A l'intérieur du porche et au-dessus du linteau de la porte se développe l'inscription N° 149 qui se retourne sur les faces latérales.

Vers l'intérieur de la cour, le décor de la porte est constitué uniquement par les refends des joints d'assise et par deux cadrans solaires, placés de part et d'autre du porche, au-dessous des sommiers de l'arc.

b) *Le bassin d'ablution.*

Les blocs de sa margelle sont presque tous basculés. Ceux qui restent en place, permettent de restituer son emplacement au milieu de la cour, ses dimensions (carré de 7 m. 40 extérieur) et sa disposition. Les angles intérieurs, abattus en pans coupés, sont creusés en demi-cercle. Il faudrait dégager l'intérieur pour reconnaître les amenées d'eau. Les ouvertures de deux citernes s'observent le long des côtés nord et est. Un texte de Abou Dharr (2) nous parle d'un escalier qui permettait d'accéder au bassin. Nous n'en avons trouvé nulle trace, soit que le bassin actuel ne soit pas original, soit que la cour primitive ait été partiellement en contre-bas. Il conviendrait de faire une nouvelle fouille pour retrouver l'ancienne disposition.

c) *Les logements.*

Sauf aux abords de la porte, leur façade est presque totalement ruinée. A l'extérieur (pl. IVa), il ne subsiste que la partie inférieure des murs de façade originaux. Ils sont construits comme la porte en grandes

(1) La taille en biseau de l'angle vif des pierres est selon M. ECOCHARD particulière au XII^e siècle, *Notes d'Archéologie Musulmane, Bull. d'Etudes Orientales, Institut Français de Damas*, t. VII, 1937-38, p. 83. Elle demeure ici en usage, au XIII^e siècle.

(2) *Loc. cit.*

vait s'éclairer sur la cour, prenait jour par une fenêtre extérieure partiellement conservée.

Des arrachements dans le mur du corps de bâtiment sud (points 6 et 7 de la planche II-b) prouvent que l'étage, dont nous avons vu l'existence bien attestée au Nord, se prolongeait à l'Est et à l'Ouest. La distribution des cellules devait y être analogue à celle de l'étage inférieur. On peut donc estimer que chaque bloc de logement comprenait au rez-de-chaussée trois ou quatre chambres de professeur et six ou sept d'étudiant (sans compter les cellules obscures) et à l'étage au moins onze chambres d'étudiant, en tout deux fois 21, soit 42 chambres pour les deux rites. Quarante à cinquante personnes pouvaient donc loger facilement dans la madrasa.

II — LES ÉLÉVATIONS ET LE DÉCOR.

Le parti de composition du plan, sévère dans sa sobriété, s'exprime dans son élévation par des volumes strictement géométriques et par des façades austères ne comportant aucun ornement superflu. Les murs extérieurs, presque aveugles, au moins dans leur état primitif, n'évitent la pauvreté que par la précision de leur appareil (ne pas tenir compte des restaurations tardives en petites pierres). A l'intérieur de la cour cette nudité du mur met en valeur les rapports de proportions des diverses baies et le jeu des contrastes entre les grands arcs du masjid et les petites ouvertures toutes semblables des cellules. Le décor, localisé sur les points remarquables du monument (la porte d'entrée, les fenêtres du mausolée, le mihrab), demeure toujours soumis à la structure qu'il exprime sans la dissimuler. Discret sur la porte, il atteint le somptueux au mihrab. La sobriété de l'ensemble n'est pas incapacité, mais volonté délibérée.

a) *La porte d'entrée* (Pl. IIa, IVa, b, VIa, b, c, et VIIa, b,).

A l'extérieur, la masse du portail s'inscrit dans un rectangle de 5 m. 50 de largeur sur 7 m. 40 de hauteur. Un léger ressaut du nu du mur l'encadre latéralement et une corniche à gorge d'un profil très franc le surmonte. La belle inscription en naskhi ayyoubide N° 148 est sculptée sur toute la longueur de cette gorge.

L'ensemble est construit en grandes pierres d'un appareil très soigné. Les assises ont 50 cm. de moyenne. Un refend en biseau souligne les joints

cellules du 1er étage se superposent exactement à ceux du rez-de-chaussée. La largeur des chambres est donc identique, mais leur profondeur est diminuée à l'étage de la largeur du couloir qui se développait tout au long du mur d'enceinte. Un fragment de la voûte de ce couloir est conservé. Il devait s'éclairer par des trémies, comme on en voit dans d'autres monuments contemporains (1). L'accès à l'étage se faisait par des escaliers installés dans les angles NE et NO du monument, un pour chaque bloc de cellules. Les 4 marches inférieures et une partie du noyau de l'escalier NE subsistent. Il faut sans aucun doute en restituer un second symétriquement à l'Ouest ou peut-être à l'emplacement occupé par des latrines modernes, à moins que celles-ci n'aient succédé à de plus anciennes. Une fouille complémentaire serait nécessaire pour s'en assurer.

Les corps de bâtiment oriental et occidental ont respectivement une épaisseur de 8 m. 50 et de 8 m. Cette largeur, plus grande que celle de l'aile nord, a permis de placer en arrière des cellules les divers dégagements exprimés sur le plan. A l'Est, on observe une sorte de magasin divisé en deux parties par un mur de refend. A l'Ouest, une disposition analogue devait exister, ainsi qu'il est indiqué dans le schéma restitué de la figure 1. Mais cette disposition a été modifiée pour augmenter le nombre des chambres d'étudiant. On a diminué la profondeur des cellules s'ouvrant vers le cour et une seconde file de cellules a été installée le long du mur d'enceinte. On voit mal comment elles s'éclairaient. L'étage supérieur empêchait l'éclairage par trémie. Il faut supposer que le mur extérieur primitif, actuellement reconstruit en petites pierres, avait été percé d'étroites fenêtres vers l'extérieur, une au fond de chaque cellule. Cette solution est vraisemblable. Nous en possédons un exemple conservé : le cellule la plus orientale du groupe NE qui ne pou-

(1) Un étage de cellules s'observe dans deux autres madrasas d'Alep. A la *Zahiriya* hors les murs, les chambres d'étudiant de l'étage sont desservies comme à la *Soultaniya* par un couloir le long du mur d'enceinte éclairé par des trémies. Les chambres sont éclairées du côté de la cour chacune par une fenêtre. A la madrasa *Kamiliya*, les chambres se répartissent le long du mur d'enceinte. Le couloir, situé côté cour, est éclairé par des fenêtres axées sur la porte de chaque cellule. Dans les deux cas les murs de séparation se superposent à ceux du rez-de-chaussée. J. SAUVAGET, *Monuments Ayyoubides de Damas*, t. II, p. 80, note 173.

percée au fond de I met en relation le mausolée et le corps de logis oriental.

c) *La porte d'entrée* (Pl. VI a, b, c et VIII a, b.)

Elle se situe, nous l'avons indiqué, au centre du bâtiment nord (épais de 6 m. 20), face au *masjid*. Cette disposition axée passe auprès de G. Marçais pour avoir influencé tout un groupe de medersas maghrébines (1). La largeur du motif d'entrée correspond à celle de deux des cellules voisines, soit 5 mètres. Sa hauteur atteint 7 m. 50. Elle coupe les deux étages de logements et interrompt le couloir qui au premier étage dessert les chambres, ce qui a pour résultat d'isoler les logements en deux blocs symétriques. La porte proprement dite est précédée et suivie de deux niches L et M de même dimension et formant porches. Celui de l'intérieur M est couvert par un berceau brisé. Celui de l'extérieur L par une demi-voûte en arc de cloître ([Pl. VI c.]). Deux banquettes de pierre sont installées le long des murs. L'ensemble est actuellement surmonté par un minaret postérieur de plan octogonal. Sauvaget en demanda la suppression dans son inventaire pour rendre à l'édifice son unité. Nous avons jugé préférable de le conserver, après restauration, estimant qu'il faisait partie de l'histoire du monument.

d) *Les logements.*

Ils se répartissent en deux blocs indépendants séparés par le portail. Chaque bloc correspond peut-être à chacun des rites. Six cellules, situées dans le corps de bâtiment septentrional, sont les seules qui soient conservées à peu près intégralement. Le massif de la porte, plus solidement construit, épaulait leurs murs. Il les a préservés de l'écroulement. Au rez-de-chaussée il subsiste trois cellules vers l'Est, deux vers l'Ouest et, au premier étage, une cellule complète, le bas des murs de deux autres et quelques vestiges du couloir les desservant. Les cellules du rez-de-chaussée occupent toute l'épaisseur du bâtiment, ce qui leur donne une profondeur de 4 m. 20 sur 2 m. 10 de largeur intérieure. Ces dimensions, plus vastes que celles que nous observerons dans les autres corps de bâtiment, invitent peut-être à reconnaître des chambres de professeurs. Les murs des

(1) G. MARÇAIS, *Manuel d'Art Musulman*, t. II, p. 522.

d'origine. Il semble que l'on soit en présence d'une reprise qui augmente l'impression, exprimée plus haut, d'un découpage de tout l'angle SO du plan du monument. Une troisième observation confirme ce fait et témoigne d'une modification en cours de travaux du plan initialement prévu : le mur Est D' communique actuellement par une baie axiale avec le mausolée d'al-Malik az-Zahir mais cette porte a été percée postérieurement à la construction originale. Elle demeure encadrée par deux portes bouchées E' et F', symétriques de celles que nous avons vues à l'ouest de D (1) (pl. II a et X b.). Des irrégularités d'appareil dans l'épaisseur du mur séparant D' du mausolée et dans les murs des façades extérieures correspondantes achèvent d'imposer l'existence d'une reprise.

Il faut conclure que, dans le plan initialement conçu, deux pièces E' F' symétriques de E et F devaient se développer à l'Est et que le mausolée n'était pas prévu. La décision de le construire aurait amené leur suppression.

b) *Le mausolée* (pl. I, IIIa et VII a, b).

Il est constitué par une salle carrée de 4 m. 85, couverte par une coupole, presque de rigueur au dessus de la tombe d'un fondateur. Elle repose sur des glacis d'angle brisés, comme celle du masjid. Les quatre murs de cette salle sont percés en croix de défoncements rectangulaires H, I, J, K, couverts par des berceaux brisés. Des gaines d'aération (*bâd-henj*) débouchent latéralement au fond de I et de H. En L, un souterrain prend son départ. Selon une tradition orale, il devait conduire à la citadelle. Trois fenêtres s'ouvrent de J vers l'extérieur. Leurs linteaux portent chacun une inscription funéraire au nom d'al-Malik az-Zahir (2). Enfin une porte

(1) Cette disposition est apparue lors de l'enlèvement des enduits.

(2) CIA 147 a, b, c. Cette multiplication des fenêtres ouvertes vers l'extérieur, contrastant avec les murs aveugles des autres parties du bâtiment, est fréquente dans les mausolées, entre autres exemples : les madrasas *Adiliya* et *Dja harkasiya* à Damas. Selon J. SAUVAGET, *Les Monuments Ayyoubides de Damas*, I, p. 49, " cette coutume assure une meilleure visibilité de la tombe et par conséquent des chances supplémentaires d'interventions pieuses en faveur du défunt ", de même « la localisation sur la façade qui longe la voie publique des inscriptions rappelant les titres du personnage à la sollicitude de la communauté islamique », incite les passants à prier pour lui.

négale longueur. Celle du berceau septentrional C, correspond à l'épaisseur du mur de façade. Il s'ouvre de toute sa largeur (5 m. 90) sur la cour, formant une sorte d'iwan (1) (actuellement fermé par un mur d'époque turque percé d'une porte et de deux fenêtres). Son correspondant au Sud est de même largeur et profond de 2 m. 10. Il bute contre le mur de qibla où un somptueux mihrab est installé. L'ensemble fait saillie à l'extérieur du mur sud. Mais au lieu que cette saillie soit rectangulaire comme on s'y attendrait, elle paraît avoir été coupée au biseau. Les deux berceaux perpendiculaires à B et C, couvrent toute la largeur et la longueur de D et D'; ils vont s'amortir par des demi-voûtes en arc de cloître contre les murs extrêmes de la salle (voir la coupe pl. IIIa). Deux ouvertures en arc brisé, larges de 2 m. 15 éclairent D et D'. Elles encadrent la baie centrale, formant un motif typique du style architectural de Syrie (pl. II b). A l'opposé de ces deux baies, deux niches sont creusées dans le mur sud. Elles servaient sans doute de placards à livres (*khizâna*) (2).

En l'absence d'un iwan spécialement affecté à l'enseignement, il paraît probable que D et D' en tenaient lieu en été. Encore à l'heure actuelle, l'école coranique y installe ses élèves. Cette confusion des locaux d'enseignement et du masjid n'est pas rare. Elle facilite la prière en commun.

Le mur ouest de D est percé de deux portes. La plus septentrionale E donne accès à une salle qui sert actuellement de salle de classe en hiver. La plus méridionale F devrait théoriquement donner sur une salle similaire. Mais le découpage en biseau de cette partie du monument l'a pratiquement réduite à un débarras de 1 m. 60 sur 2 m. 20. Un tronçon de colonne, placé en poutre sur l'angle aigu de ce réduit, ne paraît pas

chez les Byzantins, p. 96. Sur l'usage de la coupole en avant du mihrab, M. VAN BERCHEM, *Matériaux pour un Corpus, Jérusalem «Haram»*, p. 384; L. HAUTECOEUR, *Les Mosquées du Caire*, p. 220.

(1) On ne peut considérer cette baie comme iwan que par rapport au berceau nord-sud C B dont il occupe toute la largeur, sans que l'arc de tête repose sur des pilastres en saillie sur les parois. Par rapport à A, il n'est qu'une simple baie. Sur la nature de l'Iwan, J. SAUVAGET, *Monuments Ayyoubides de Damas*, II, p. 54 n. 106, et *Remarques sur l'Art Sassanide*, *Revue Et. Islamiques*, 1938, p. 113 sq.

(2) A la madrasa 'Adiliya de Damas une niche servait de même de bibliothèque. J. SAUVAGET, *Monuments Ayyoubides de Damas*, II, p. 173.

l'influence du plan cruciforme égyptien, dont cependant il voulait prouver l'inexistence en Syrie, supposait l'existence au centre de chacun des corps de logis oriental et occidental d'un iwan destiné à l'enseignement de chacune des écoles se partageant le monument (1). Nos relevés ont montré que ces emplacements ne sont occupés que par les cellules. Il faut chercher ailleurs les salles de cours.

L'ensemble du monument s'inscrit dans un terrain carré de 40 m. de côté. La composition est centrée sur une cour (*sahn*) de 19 m. 70 d'Est en Ouest sur 16 m. 80 du Nord au Sud, avec bassin central rectangulaire pour les ablutions. Les quatre corps de bâtiment, qui bordent cette cour, sont d'épaisseur et de conception différentes. Celui du Sud, plus épais et traité dans un style monumental, utilise un grand appareil. Il inclut une vaste salle (dont le centre correspond au *masjid*), des salles de cours et le mausolée d'al-Malik az-Zahir qui fait légèrement saillie à l'extérieur vers l'Est. Les trois autres corps de bâtiment, construits en murs plus minces, sont occupés par deux groupes symétriques de logements répartis en deux étages de cellules de part et d'autre d'une porte d'entrée élevée en face du *masjid* et dans le même style monumental.

a) *Le masjid et les locaux d'enseignement* (Pl. I, II et IIIa).

Le corps de bâtiment sud est épais de 11 m. 30. Ses murs ont une largeur de 2 m. 50 à l'extérieur et de 2 m. 10 vers la cour. Toute la longueur de la façade sur cour correspond à une salle unique, large de 6 m. 60 et longue de 19 m. 80 (soit une suite de trois carrés A, D et D' de 6 m. 60 de côté). Le carré central A est couvert par une coupole. Elle repose sur les extrémités de quatre berceaux brisés se développant en croix. Le passage du plan carré au plan circulaire se fait par l'intermédiaire de glacis d'angle triangulaires et brisés suivant la diagonale du carré à couvrir, ce qui détermine un dodécagone (2). Les quatre berceaux en croix sont d'i-

(1) *Op. cit.*, p. 15 « I conclude that there were two great liwans, one on the east and the other on the west side of the *sahn* ».

(2) Ce procédé pour passer du plan carré au plan rond est caractéristique de l'école de Syrie - Nord. J. Sauvaget y voit une dégénérescence du pendentif sphérique byzantin; *L'architecture en Syrie*, *loc. cit.*, page 19 sq. et *Deux sanctuaires chiites d'Alep, Syria*, t. IV, 1928 p. 231; voir aussi CHOISY, *L'art de bâtir*

En considération de cette publication prochaine, nous ne les reproduirons pas (1). Nous utiliserons les numéros de référence à ce Corpus, qui nous ont été aimablement communiqués par M. Combe :

- CIA 148 sur la cimaise de la corniche du portail, texte de fondation, daté 620 (1225),
- CIA 149 au dessus du linteau du même portail, texte de fondation, daté 620 (1225),
- CIA 150 dans l'angle SE. de la cour sur la façade du *masjid*, décret daté 874,
- CIA 147 A, B, C, sur les linteaux des trois fenêtres du mausolée, même texte funéraire sans date.

Une septième inscription sur la face est d'une pierre de l'angle extérieur S. E. du mausolée n'a pas été remarquée par Herzfeld. Mme Sourdél en donne une lecture en appendice.

La destination du monument ressort nettement du texte de ces inscriptions : il s'agit d'une *madrassa funéraire* (CIA 147) destinée à deux écoles juridiques de rite Hanafite et Chaféite (CIA 149). Nous verrons qu'une modification du plan initialement prévu a été imposée à l'architecte aux cours des travaux, ce qui semble indiquer que le programme a été établi en deux étapes. A s'en tenir aux points de vue de K. Creswell et de J. Sauvaget, le programme d'une telle *madrassa* imposerait les éléments suivants : une cour; une salle de prière; des locaux d'enseignement consistant pour chacun des rites en un vaste iwan utilisable en été et des salles fermées pour les jours d'hiver; des locaux d'habitation, chambres de professeurs et d'étudiants; enfin le mausolée du fondateur.

I — LE PLAN, LES COUVERTURES ET LA STRUCTURE DES VOUTES

Le plan que nous donnons du monument, pl. I, montre comment sont répartis les divers éléments du programme, solution sobre et claire qui diffère de celle restituée par K. Creswell. Celui-ci, sans doute sous

(1) En attendant on consultera : BISCHOFF, *loc. cit.*; BLOCHET, *loc. cit.*; *Revue de l'Orient latin*, t. VI, p. 40, 45 et 46; *Répertoire chronologique d'Epigraphie arabe*, t. X, No. 3895.

Jusqu'en 1944, la madrasa Soultaniya était en contrebas du sol moderne. Les terres s'étaient accumulées en valonnements irréguliers, hauts de 2 à 4 mètres sur tout le pourtour du monument. Elles empêchaient d'étudier les façades extérieures. La partie haute des murs, grossièrement restaurée à une époque récente en petit appareil, était seule apparente. On accédait au monument par un escalier d'une quinzaine de marches installé dans une tranchée de même largeur que la porte. A l'intérieur, une masse de décombres, produite par écroulement des corps de bâtiment situés à l'Est et à l'Ouest de la cour intérieure, empêchait d'établir un plan d'ensemble complet. K. Creswell, réduit à des suppositions, en avait donné une interprétation qui s'est révélée inexacte et J. Sauvaget, dans son inventaire des monuments historiques d'Alep, avait dû se contenter de reproduire le plan partiel de K. Creswell.

A l'occasion de travaux de consolidation entrepris à partir de 1944, nous avons enlevé les décombres intérieurs et mis au jour les murs arasés et les sols des cellules d'étudiants. Au même moment, à la suite de travaux d'urbanisme qui entraînaient le déplacement du souq *aj-Joum'a*, se tenant en plein air chaque vendredi autour de la madrasa, la municipalité décida d'évacuer les terres extérieures jusqu'au niveau du sol primitif. Le vœu formulé par J. Sauvaget dans son inventaire (1) se trouva réalisé.

Les relevés que nous présentons, donnent l'état du monument après ces travaux. Ils permettent de mieux comprendre son économie générale, d'analyser ses transformations et de faire certaines remarques d'un intérêt général pour l'étude de l'architecture de la Syrie du Nord sous les Ayyoubides; mais il ne faut pas les considérer comme définitifs: des fouilles plus exhaustives et l'enlèvement des enduits qui peuvent cacher des baies bouchées permettraient certainement de mieux comprendre les dispositions primitives du monument.

Les textes relatifs au corps professoral de la madrasa et à son histoire anecdotique ont été publiés (voir la bibliographie ci-dessus). Nous n'y ferons allusion que dans la mesure où ils expliquent des transformations architecturales. Les inscriptions déjà connues et deux de celles dégagées par nos travaux doivent figurer dans le prochain tome du *Corpus des Inscriptions Arabes*. Ce volume, établi par E. Herzfeld, sera publié par les soins de l'Institut Français et de l'Institut Suisse du Caire.

(1) *Loc. cit.*

BIBLIOGRAPHIE SOMMAIRE :

- Ibn Chaddad ('Izz ad-Din), *Al-a'lâq al-khatira fi dhikri omarâ'i ach-Châm wal-djazira*, ms. aya Sofia 3084.
- Abou Dharr, dans M. Ragib at-Tabbakh, *I'lam an-noubalâ' fi ta'rikh Halab ach-Chahbâ' Alep*, 1923, t.IV, p. 395.
- Kamil al-Ghazzi, *Nahr ad-dhahab fi ta'rikh Halab*, Alep, 1926.
(Imprimerie maronite), II, p. 124 sq.
- Kamal ad-Din, *Tarikh Halab*, Traduction Blochet.
- Bischoff, *Tuhaf al-anba' fi tarikh Halab*, Beyrouth, 1880,
pp. 141-142.
- J. Sauvaget, *Les perles choisies d'Ibn Chihna*, Beyrouth, 1933, p.112.
- J. Sauvaget, *Les trésors d'or de Sibî Ibn al-Ajami*, Beyrouth,
1950, p. 69.
- J. Sauvaget, *Inventaire des Monuments Historiques de la ville d'Alep*,
Revue des Etudes Islamiques, 1931, p. 59 sq., N° 23.
- J. Sauvaget, *L'Architecture musulmane en Syrie*, *Revue des Arts
asiatiques*, 1934, p. 19 sq.
- K.A.C. Creswell, *Origin of the cruciform plan of Cairene Madrasas*,
Bulletin de l'Institut français d'Archéologie orientale,
t. XXI, 1933, p. 1-54.
- E. Diez, *Encyclopédie de l'Islam*, t. III, p. 433, sv. masjid.
- M. Van Berchem, *Matériaux pour un corpus, Egypte*, p. 253 sq.
- G. Marçais, *Manuel d'art musulman, L'architecture*, t. II p. 502
et 521 sq.
- D. Sourdel, *Les professeurs de madrasa à Alep*, *Bulletin d'Études
Orientales*, t. XIII, 1949-51, p. 88.

UNE MADRASA AYYOUBIDE DE LA SYRIE DU NORD

LA SOULTANIYA D'ALEP

ÉTUDE ARCHITECTURALE

par
J. LAUFFRAY

La madrasa Soultaniya, également désignée sous le nom de madrasa Zahiriya, s'élève face à la porte d'entrée de la citadelle d'Alep, à environ 60 mètres plus au Sud. Elle a été fondée par *al-Malik az-Zahir Ghazi*, fils de Saladin et premier souverain ayyoubide d'Alep qui s'y est fait inhumer. Elle était inachevée au moment de sa mort en 613 de l'hégire (1216 - 17). Les travaux ont été continués sur l'ordre de *Chihab ad-Din Toghrul*, atabeg d'al-Malik al-Aziz, fils d'az-Zahir Ghazi, et terminés en 620 h. (1223 - 24). Sa construction a duré 7 ans. Elle fut constituée wakf au profit des Hanafites et des Chaféites. Actuellement une petite école coranique y est installée.

Il ne faut pas la confondre avec la madrasa Zahiriya *extra-muros* construite par le même prince. C'était une coutume fréquente chez les princes de fonder deux madrasas funéraires : l'une *intra-muros*, l'autre *extra-muros*, afin de s'assurer une sépulture quel que soit le lieu de leur décès.

s'est servi de sa palette qui reste frappante. Ainsi on serait bien embarrassé le plus souvent pour définir la couleur des vêtements, tant est grand le nombre des teintes qui servent à en souligner plis et replis. Pour ne citer qu'un exemple, l'himation d'Aion paraît blanc autour des jambes, alors que le nœud en forme d'étoile posé sur l'épaule est de teinte sombre; partout, d'ailleurs, s'affirme ce contraste dans le traitement entre la partie inférieure et la partie supérieure du costume. De même, les nuances sont des plus variées dans le rendu des chairs, en-dehors de la distinction classique entre teinte foncée adoptée pour les corps masculins et teinte claire pour les femmes et les enfants. Deux procédés surtout méritent d'être signalés. D'un côté, la façon d'ombrer les corps de manière à en rendre sensible le relief ou le modelé; de larges coups de pinceau noirs, dirait-on, soulignent le contour de certaines figures ou des taches claires animent les visages. D'un autre côté, c'est le procédé qui consiste à placer une figure devant un fond dont la nature reste difficile à définir et dont la couleur est destinée à rehausser le personnage principal: ainsi le muret noir derrière Aion ou le panneau clair derrière Prométhée. Ces artifices sont la marque d'un style et d'un style qu'on peut appeler impressionniste, pour lequel la ligne compte moins que la couleur, pour lequel l'effet pittoresque est le but suprême. Tels sont bien les procédés et les tendances générales relevés par D. Levi dans son style sévérien (1). Et voilà qui autorise à placer notre mosaïque assez exactement vers le milieu du III^e siècle.

Ainsi ce grand tableau allégorique, sorti par une rare bonne fortune du sol de l'antique Philippopolis, nous fournit le résumé le plus saisissant de tout un monde d'idées dont la place dans la pensée d'un monde à son déclin se révèle comme primordiale. La mosaïque de Chahba nous offre le reflet le plus direct des compositions ambitieuses du genre de la *Tabula mundi* de Jean de Gaza, mais un reflet encore tout paré du charme des formes classiques. C'est dire assez l'intérêt de cette œuvre exceptionnelle. Mais ne faut-il pas ajouter que cette mosaïque, livrée par une région assez avare de créations de quelque valeur esthétique, peut passer pour le tableau le plus brillant consacré à la gloire du Hauran et de ses richesses, que la civilisation gréco-romaine nous ait légué?

ERNEST WILL

(1) Cf. *ll.*, p. 537, sur ces effets de coloris; p. 405, sur le « rainbow style ». Ce qui est absent dans notre mosaïque, c'est la violence du mouvement; là sans doute la modèle a modéré les tendances profondes de l'époque.

quem donc, mais dont la valeur est manifeste; une comparaison de la nouvelle mosaïque de Chahba avec celles qui furent découvertes sur le même site accusera sans peine l'aspect tardif de celles-ci, encore classique de celle-là (1). Compte tenu de cet aspect d'œuvre apparemment attardée, on n'hésitera pas à la placer tout près de la fondation de la ville et à la considérer désormais comme un repère important dans l'histoire de la mosaïque antique. Aux indices fournis par l'étude des types sur l'importance des modèles des temps passés, nous nous contenterons ici d'ajouter quelques remarques sur les signes de l'évolution propre au III^e siècle. L'étude signalée de D. Levi sur les mosaïques d'Antioche nous fournira quelques points de comparaison pour ce « style sévérien », auquel appartient encore nettement notre œuvre.

Voici d'abord un détail ornemental, le méandre qui encadre le tableau; le rendu si frappant de la perspective est précisément un signe de cette évolution (2). Pour le style des figures, rien ne saurait malheureusement remplacer la vue directe de l'original; car la reproduction photographique est des plus trompeuses. Faisant ressortir le canevas dessiné dont se servit notre artiste, elle cache ce qu'il y a d'original dans sa manière; elle permet en tout cas mieux de reconnaître les détails que le tableau lui-même, dont les couleurs chatoyantes laissent une grande impression d'agitation, sinon même de brouillé. Tout d'abord la gamme des couleurs est des plus larges avec un jeu varié de demi-teintes; noir, brun foncé, brun clair, orange, jaune, blanc, rouge, rose, bleu, vert, etc.... alternent tour à tour (3). Mais c'est la virtuosité avec laquelle l'artiste

(1) La maison à laquelle appartenait la mosaïque semble bien avoir été comprise dans le quadrillage antique, si bien que l'origine antérieure à la fondation de la ville par Philippe l'Arabe ne saurait être maintenue qu'au prix de l'hypothèse d'un réemploi. Il ne semble pas que les caractères des inscriptions soient d'un secours sérieux; on rencontre côte à côte formes carrées et lunaires pour sigma et epsilon; rondes et carrées pour omicron et mi; oméga en forme de W à pointes inférieures arrondies. Signalons le terme de *Protoplastos* qui ne paraît guère attesté en-dehors de la littérature judaïque ou chrétienne.

(2) Cf. D. Levi, *Antioch mosaic pavements*, p. 404 et 552; p. 451, pour les fresques de l'Hypogée des Trois Frères de Palmyre placées par l'auteur entre 241 et 259. On y retrouve le méandre en perspective, mais le style des figures paraît différent.

(3) La technique est simple; la mosaïque est composée à l'aide de deux sortes de cubes, plus grands dans la bordure, plus petits dans le tableau figuré.

Mais sur ce point le témoignage des sarcophages nous trahit.

Ainsi se trouve clairement posé le problème de l'originalité de notre artiste. Mais à l'indice du modèle suivi pour la Création de l'homme s'oppose l'apparente indépendance dans le traitement des figures d'Aion et des Saisons. Cependant la combinaison d'éléments divers est clairement révélée par un défaut de composition manifeste : le tableau manque de figure centrale; Gè, à qui revient ce rôle dans la conception de l'ensemble, est en fait réduite à une position subalterne selon un schéma bien attesté par ailleurs. Rien ne s'oppose ainsi à ce que l'artiste ait lui-même imaginé l'agencement de son tableau en se servant pour ses différentes figures d'un cahier de dessins. Toutefois, l'épisode de Prométhée, d'un côté, le personnage de Triptolème, de l'autre, et aussi une parenté assez étonnante entre les figures d'Aion, d'Hermès et de Prométhée (1), n'excluent pas l'hypothèse d'une suite de tableau dont l'auteur de la mosaïque se serait librement inspiré. Cette suite, on pourrait la chercher, selon des indices déjà notés, à Antioche même (2).

Dès lors, un dernier problème se pose, celui de la date de notre œuvre. Où placerons-nous son auteur, si proche encore de la grande tradition classique, apparemment si peu touché aussi par les tendances nouvelles qui animeront l'art du Bas-Empire, la « Spätantike » ? Car si la chronologie des mosaïques se refuse le plus souvent à l'établissement d'un système rigoureux, faute d'indices précis, elle peut dans notre cas se référer à une donnée exacte : la date de la fondation de Philippopolis par l'empereur arabe vers le milieu du III^e siècle. *Terminus post*

(1) Ces trois figures athlétiques rappellent évidemment certaines peintures du IV^e style pompéien de l'époque flavienne; mais il ne semble pas aller de chemin de là vers notre mosaïque. Cf. p. ex. L. Curtius, *Wandmalerei Pompejis*, p. 203, p. 300.

(2) La Création de l'homme forme évidemment un tableau complet; pour le reste, il peut sembler que l'auteur de la mosaïque n'a gardé d'une grande composition que les comparses en les groupant artificiellement autour de Gè.

Certaines parmi les autres figures du tableau dénotent la même liberté d'inspiration que les Saisons. Ainsi Georgia, qu'on voit dans la pose et dans l'attitude des fréquentes divinités topiques; il suffisait de la caractériser à l'aide du hoyau et du pétase. Ou encore les Drosoi; le thème des verseurs est ancien, cf. les Hyades d'un vase lucanien signé de Python, Furtwängler-Reichhold, 130. Mais nos deux figures rappellent autant les petits Eros tenant un médaillon des sarcophages de l'Empire.

semble être admise maintenant pour certains (1) : cette floraison tardive (on descend jusqu'à l'époque constantinienne) peut être de quelque importance pour l'histoire du thème, si l'on note la date également tardive de notre mosaïque. En tout cas, la version adoptée sur cette dernière, celle qui montre le Titan modelant l'homme et Hermès prêt à unir l'âme au corps, est elle-même le résultat d'une évolution (2). Pour ce thème principal, les sarcophages et la mosaïque sont manifestement apparentés. Mais deux remarques s'imposent aussitôt. On ne saurait manquer de constater d'abord la supériorité artistique évidente de notre composition sur celle des monuments funéraires. La différence est celle de la vigueur et de la vérité opposées à la fadeur et au conventionnel. Qu'on examine simplement la figure de Prométhée de part et d'autre. Sur la mosaïque, on voit une sorte de géant à la barbe inculte, à la chevelure hirsute, peu soucieux de son habillement, si entièrement à son travail qu'il tourne le dos au spectateur, et ne craignant pas de se salir les mains. Sur les sarcophages, au contraire, c'est un vieillard à la chevelure bouclée, à la barbe peignée, élégamment drapé, tenant son stylet parfois de façon précieuse, et un peu trop conscient du public auquel il offre autant que possible son beau côté (3). On n'hésitera pas à dire que le Titan de notre mosaïque est l'image la plus saisissante de Prométhée créant l'homme que l'antiquité nous ait léguée. On devine là, de façon plus nette que précédemment, l'influence de quelque grand modèle. Et de ce modèle on semble encore reconnaître l'indice fuyant, mais certain : les deux femmes anonymes qui assistent à l'opération semblent bien être les survivantes d'une composition plus vaste groupant tout un cercle de dieux autour de l'action principale (4).

(1) Cf. sur cette série, C. Robert, *Sarkophagreliefs*, III, 3, n° 341 s. Pour la date tardive, Gerke, *Die christl. Sarkophage der vorkonstant. Zeit* (*Studien zur spätant. Kunstgesch.*, XI) à propos des sarcophages, Robert n° 355, 356 et 357.

(2) Cf. là-dessus, Robert, *l. l.* ; dans une première version, c'est Athéna qui anime la figure modelée par Prométhée, et Hermès fait office de psychagogue venant chercher l'âme au terme de la vie (représentation d'un mort).

(3) Pour ces différences de style, cf. surtout les n° 351, 353, 355, et 356 de Robert.

(4) Les sarcophages groupent Prométhée Athéna (du moins certains), Hermès et les Parques : aucune de nos figures ne paraît répondre à la dernière catégorie. Le sarcophage de Naples, Robert, n° 357, réunit un grand concours de peuple, mais n'offre aucun rapport avec notre mosaïque. L'identification d'Aphrodite reste possible.

s'est servi notre artiste. Il n'en est rien cependant, et ce n'est pas un des moindres étonnements qu'offrira l'étude des principales figures déjà mentionnées. Ainsi pour les Saisons on aura beau feuilleter le magnifique ouvrage de G. Han'mann, on ne découvrira aucun type directement comparable. En réalité, ce que nous avons déjà dit sur les différentes formes qu'ont reçues les Saisons pouvait laisser prévoir ce résultat. Ces divinités nouvelles joignent aux attributions précises une diversité de représentation des plus grandes; d'ailleurs assez rarement groupées, elles jouent plus volontiers le rôle de figures ornementales (1) disposées à des places subordonnées dans une grande composition d'ensemble. Tout ce que l'on peut dire, c'est que le type de la Saison-femme remonte dans ses origines premières à l'époque hellénistique, même si les ailes ne lui sont conférées qu'au cours du II^e siècle de notre ère (2). A l'occasion, les Tropai apparaissent en groupe dans un tableau mythologique, ainsi en compagnie de Triptolème, de Phaéthon, ou encore de Prométhée, mais ces groupements n'offrent pas de pendant exact à notre mosaïque (3). Il en va de même pour Aion dont l'image est si peu certaine que ce personnage peut être ou enfant ou éphèbe ou vieillard ou homme d'âge mûr (4). Ne dirait-on pas que l'auteur de notre tableau a démarqué quelque figure d'Arès ou d'Hermès de la sculpture grecque du IV^e siècle ? C'est l'absence de modèles classiques stéréotypés, sans doute, qui explique dans tous ces cas cette liberté inattendue de l'iconographie.

Des conclusions un peu différentes résultent de l'examen de la partie droite du tableau représentant Prométhée, bien que nous disposions là de termes de comparaison plus précis. Le mythe de la Création de l'homme nous est connu essentiellement par une série de sarcophages dont la date basse

(1) Hanfmann, *l. l.*, 128, p. 136, sur les Saisons isolées dans l'art pompéien; p. 212, sur les bustes; p. 247, sur la disposition « radiale »; aussi Lehmann-Hartleben, *Art Bulletin*, 1945, p. 1 et 23.

(2) Hanfmann, *l. l.*, p. 136.

(3) Hanfmann, *l. l.*, p. 259 sur les Saisons dans les scènes mythologiques.

(4) A Antioche, Aion apparaît en homme d'âge mûr avec légère barbe; à l'Isola sacra, en vieillard barbu; ailleurs, sur la patère de Parabiago, à Hippone, à Sentinum, en enfant ou éphèbe, cf. D. Levi, *Hesperia*, 1944, fig. 1, 11, 12, 14 et 15.

le rôle des Saisons dans la vie du règne animal et végétal. Les Saisons sont ainsi des figures de calendrier non pas simplement allégoriques, mais efficaces, plutôt que des symboles, des numina secondaires, mais indispensables. Leur présence parut garantir à Hadrien l'action bienfaisante de *Tellus stabilita* (1). Les Tropai appartiennent ainsi à ce monde, de plus en plus développé, d'asseurs, de personnifications des qualités ou des fonctions de la divinité, dont l'image ne paraissait plus à elle seule ni assez précise, ni assez efficace (2).

Ainsi les Saisons se trouveront associées non pas seulement à Gè, mais à toutes les grandes figures qui régissent et garantissent l'ordre du monde : Zeus ou son représentant sur terre, l'empereur, Hélios (3), et enfin Aion, que nous rencontrons sur notre mosaïque. La présence de ce personnage sera considérée comme un des détails originaux de notre tableau; identifié par l'inscription, il rejoint une mosaïque déjà fameuse d'Antioche et une série d'autres documents dont l'interprétation exacte est parfois moins assurée (4). On voit là le génie du Temps tenant le cercle du zodiaque et souvent accompagné des Saisons; sur la mosaïque de l'Isola sacra d'Ostie ces dernières passent en dansant à travers la roue du Temps. Nous avons donc bien raison de dire que l'imagerie de notre tableau révélait un monde d'idées des plus communes à la date de sa création, un mélange de philosophie spéculative et pratique, une religiosité d'un genre nouveau dans laquelle les antiques divinités personnelles cèdent le pas aux dynamis personnifiées.

On pourrait ainsi s'attendre à découvrir sans peine les modèles dont

(1) Sur cette évolution cf. Hanfmann, *l. l.*, p. 148, p. 173; p. 178; p. 120, sur les Saisons et l'agriculture. Sur le caractère utilitaire des Saisons déjà défini ci-dessus, cf. les remarques analogues, p. 252 et 256.

(2) Cette tendance, dite « allégorique », de l'esprit antique apparaît dès le IV^e siècle, cf. p. ex. Picard, *Manuel*, III, 1, p. 9 et même sans doute avant; cf. exemples sur les vases du Ve s., H. Metzger, *Représentations dans la céramique attique du IV^e s.*, p. 18.

(3) Hanfmann, *l. l.*, p. 163; p. 246; Lehmann-Hartleben, *Art Bulletin*, 1945, p. 15 et 37, sur les Saisons supports du kosmos.

(4) Sur la mosaïque d'Antioche, cf. D. Levi, *Hesperia*, 1944, p. 266 et surtout 280 s., où l'on trouvera reproduits et discutés les monuments sur lesquels figure Aion; cf. aussi A. Levi, *Patara di Parabiago*, et Hanfmann, *l. l.*, p. 227 et 251.

ter les produits des saisons et donc aussi bien les saisons elles-mêmes ? Mais les voilà en compétition avec les Horai qui, au bout d'une assez longue évolution, groupées par quatre, étaient susceptibles de remplir le même rôle. Ainsi s'établit une rivalité qui restera d'ailleurs toujours dépourvue d'âpreté. On verra des putti, avec ou sans ailes, porteurs des instruments agricoles ou des fruits caractéristiques des grandes périodes de l'année, vêtus d'un costume « de saison » ; mais on verra aussi les Horai, bientôt devenues Tropai, munies d'attributs analogues, vêtues selon les mêmes principes, ailées ou non, en groupe ou isolées comme les précédents ; on verra enfin des putti grandis, de bébés devenus jeunes garçons, toujours avec le même attirail et dans le même équipage, représentant un essai de solution romaine, qui ne saura d'ailleurs évincer complètement les types antérieurs, en dépit de l'appui fourni par l'art officiel (1). Il restait toujours la possibilité de placer côte à côte, sans illogisme d'ailleurs, comme le fait notre mosaïque, Karpoi et Tropai ; comme le fera encore une œuvre de même inspiration, mais bien plus tardive, la fameuse *Tabula mundi* décrite par Jean de Gaza (2).

Le fait important n'est cependant pas là ; il réside au contraire dans les causes profondes du prestige sans cesse grandissant de la figure des Saisons. A la base on trouve une spéculation philosophique de caractère astronomique ou astrologique ; les Saisons sont liées au mouvement du kosmos ; elles sont les Tropai, les phases périodiques et permanentes par lesquelles passe le Temps dans son déroulement infini et répété ; cette spéculation était d'ailleurs susceptible de revêtir une valeur pratique par

(1) Sur l'origine et le développement des différents types de Saisons, cf. maintenant l'ouvrage fondamental de G. Hanfmann, *The Season sarcophagus in Dumbarton Oaks* (1951) ; sur l'origine hellénistique des Horai, p. 107 ; sur les différents types, p. 128 (le type se développe entre 150 avant et 100 après J. C ; la grande vogue de ces dames se place au I^{er} siècle de notre ère, cf. p. 136). Sur l'influence de l'art officiel, p. 163, 210, 219, 248 ; sur les ailes, p. 136 (cf. II, p. 37, n 79 : sans signification). Sur les putti, p. 136, p. 179 et p. 214. La combinaison Tellus-Saisons n'apparaîtrait pas avant Hadrien (p. 219), au contraire de Gè et des Karpoi.

(2) Sur Jean de Gaza, P. Friedländer, *Johannes von Gaza und Paulus Silentarius* (1912) ; du même, *Spätantiker Gemäldezyklus in Gaza (Studi e Testi, 89, 1939)* ; G. Krahmer, *De tabula mundi* (1920) ; Downey, *Antioch on the Orontes*, II, p. 205 ; Lehmann-Hartleben, *The Dome of Heaven* (*Art Bulletin*, [1945, p. 1 s.).

savait que Triptolème était vénéré sur le Casios par les habitants d'Antioche et il nous parle aussi, avec d'autres, de l'œuvre civilisatrice du héros dans la vallée de l'Oronte et dans la Cilicie voisine (1). Le modèle syrien de notre mosaïque, déjà suggéré par la figure de Tellus reprenant les traits d'Atargatis, deviendrait ainsi hautement probable.

Rien en tout cas ne permet de parler d'une inspiration éleusiniennne de notre tableau. La présence de Triptolème, comme celle de Georgia, sa voisine, s'éclaire par la figure de Gè, à laquelle l'un et l'autre servent d'assesseurs. C'est, en effet, en donnant la première place à la Terre qu'on comprend le mieux l'assemblée réunie dans notre tableau. Ainsi s'explique la représentation des phénomènes célestes, Vents et Rosées, agents indispensables de la croissance de la végétation; ainsi celle d'Aion et des Saisons, qui président à l'éclosion des fruits. Ainsi seulement l'on comprendra l'épisode, au premier abord surprenant, de la Création de l'homme : c'est avec de l'argile, de la terre, que Prométhée modèle son Protoplastos; l'homme est littéralement sorti des entrailles de la Terre. C'est donc une glorification de la Terre que voulait représenter l'auteur de la mosaïque; de la Terre, mère des fruits, entourée de ses servantes humbles, mais éternelles, les Saisons; de la Terre nourricière grâce au génie de l'Agriculture, de la Terre, mère des hommes enfin. *Alma mater Tellus*, c'est le titre, qui vient aux lèvres à la suite des poètes latins (2). Si l'on peut hésiter un moment, c'est bien la faute à notre artiste qui n'a pas donné à Gè la place d'honneur qui lui revenait; mais là intervient la question de son génie — nous y reviendrons encore.

C'est donc une inspiration bien profane, bien terre à terre, si l'on peut dire, qui parle dans cette grande composition. C'est un hymne aux puissances qui régissent et garantissent la vie matérielle de l'homme, un hymne d'actions de grâce à la fois et d'invocation. L'auteur de la commande plaçait ainsi sous ses yeux l'image plaisante des divinités qui assuraient la fertilité future. Ce sont bien là les sentiments que l'on peut attendre d'un de ces grands propriétaires qui tiraient des grasses terres du Hauran, un des greniers à blé de la Syrie, leur puissance et leur position.

(1) Pour la Syrie, cf. Schwenn, *l. l.*, 228; surtout Strabon, XII, 750.

(2) Cf. p. ex. Horace, *Carmen saeculare*, 29-31, ou Lucrèce, *De natura rerum*, II, 991 s. (avec une orientation différente toutefois).

à la grecque (1). La place conquise par la déesse éleusinienne et par ses acolytes dans l'Orient hellénisé reste de façon générale des plus obscures; elle soulève des discussions graves pour Alexandrie, où pourtant l'établissement du culte sous l'influence du sanctuaire attique ne paraît guère contestable. On sait que l'on propose de reconnaître la figure du jeune héros dans un contexte égyptien sur la célèbre coupe Farnèse de Naples, et l'image du « bon semeur » est sûre sur des monnaies d'Alexandrie du II^e siècle (2). C'est de ces modèles sans nul doute que s'inspira l'auteur d'un relief de Gharfin, près de Byblos, comme le montre clairement le linteau orné du disque ailé entouré d'une double rangée d'uraeus. Mais ce que l'on voit aussi sur ces œuvres tardives, c'est l'image traditionnelle de l'éphèbe partant pour sa mission civilisatrice sur le fameux char ailé. Quelle nouveauté, au contraire, sur notre mosaïque ! Ce n'est pas le semeur, mais le bouvier qui apparaît ici et encore dans un costume bien inattendu. Si la persistance de traditions éleusiniennes ne paraît pas viable sur les documents égyptiens ou égyptisants cités, notre tableau semble devoir orienter la recherche vers d'autres centres. On a émis l'hypothèse du rôle joué par l'œuvre d'un poète hellénistique, peut-être Callimaque, qui aurait fait d'abord de Triptolème le pasteur et le maître de la science du labour (3). Ne pourrait-on pas ajouter, dans le cas où cette suggestion trouverait crédit — elle pourrait se trouver corroborée par notre figure — que cette transformation du héros doit se rattacher à un centre autre qu'Alexandrie ? Et pourquoi ne chercherait-on pas ce centre en Syrie ? En tout cas, Strabon

(1) Déméter ne figure pas dans la liste des divinités réunies par D. Sourdel, *Les cultes du Hauran à l'époque romaine*.

(2) Sur Triptolème en général, Nilsson, *Gesch. griech. Religion*, II, p. 89 s.; Schwenn, dans Pauly-Wissowa, *Realenz. s.v.*, 228. Tazza Farnese : Furtwängler, *Antike Gemmen*, pl. 54; monnaies d'Alexandrie : *British Museum Coins, Alexandria*, pl. II, fig. 582, 1332; Strack, *Reichsprägung des 2. Jhdts*, III, pl. XXI, fig. 559; relief de Gharfin (au Louvre), Lenormant, *Gaz. arch.*, 1878, p. 97.

Sur l'image du bon semeur en Grèce, Dugas, *Mélanges de Rome*, 1940, p. 7. Sur Triptolème en Egypte, G. Cart, *Mélanges Picard*, I, p. 142; Picard, *Antiquité classique*, 1951, p. 351 (à propos de la patère d'Aquilée); A. Delatte, *Bulletin Acad. de Belgique*, XXXVIII, 1952, 4, p. 197; E. Visser, *Götter und Kulte*, p. 37 et 81.

(3) Schwenn, *l. l.*, 214 pour les rapports avec Bouzygès; 224, pour les Orphiques 226, pour les conceptions hellénistiques; aussi Roscher, *Myth. Lex. s.v. Triptolemos*, 1129 et 1133.

est la zone supérieure de la composition. De part et d'autre, un couple de têtes aux joues gonflées, semblant souffler de la fumée, sortent des nuées. Ce sont les Vents, *Notos* et *Euros* à gauche, *Zéphyre* et *Borée* à droite. Enfin deux petits bambins survolent le groupe central, en tenant des amphores dont s'échappe un filet d'eau; on doit reconnaître les génies de la rosée : *Drosoi*, dit l'inscription.

Cette composition chargée et ambitieuse reste exceptionnelle par le nombre et la qualité des personnages qu'elle réunit en un tableau de dimensions somme toute limitées; c'est tout un petit monde divin et semi-divin qui se trouve ainsi rassemblé, et le souci même qu'a eu l'auteur de la mosaïque d'identifier ses personnages révèle une conception d'ensemble raisonnée. Mais comment définirons-nous le sujet et l'inspiration de cette composition ?

Certains des personnages, comme tout le groupe de la Création de l'homme par Prométhée et la figure d'Aion, semblent à première vue dénoter une intention religieuse, et peut-être même mystique, à laquelle le Triptolème du centre pourrait conférer des origines éleusiniennes. Mais la question qui se pose est de savoir si Triptolème — qui est le seul personnage sûrement éleusinien de tout le tableau — est une figure centrale ou accessoire. Mais comment le jeune héros pourrait-il prétendre au premier rang, alors qu'il est si manifestement relégué au second plan, qu'il n'est même pas clairement présenté comme celui qui révéla la culture du blé à l'humanité ? C'est un jeune bouvier, solennel certes à en juger d'après son costume, que nous avons sous les yeux, conduisant le bœuf du labour, le double de ce Bouzygès dont il assume parfois les fonctions. Mais alors le jeune Eleusinien n'est-il pas plutôt la traduction mythique de la figure allégorique assise à ses côtés, rien de plus que le génie de l'Agriculture ?

Et d'ailleurs, on serait bien embarrassé pour expliquer la pénétration d'influences éleusiniennes dans ce coin réculé du Hauran au cours du III^e siècle de l'Empire. Jusqu'à ce jour, Déméter ne figure pas au nombre des divinités de cette région, où pour le reste, si nous la rencontrions jamais, elle ne recouvrirait sans doute qu'une figure locale accommodée



Fig 4 - Partie droite de la mosquée.

ses habits aux couleurs vives et déjà en train de quitter de lourds vêtements, porteuse du chevreau, représentera le Printemps, tandis que la dernière, au simple chiton, ne peut plus être que l'Été: ce qui expliquerait bien les épis tenus à la main.

Tournons-nous maintenant vers le groupe de droite (Fig. 4). dense lui aussi et toujours disposé selon les mêmes principes. A l'avant-plan, un homme encore, assis sur un rocher noir, de profil vers la droite: nu, à l'exception d'un himation enveloppant bras et jambe gauches, barbu et la chevelure embroussaillée, il est tout à son ouvrage. Il met, en effet, la dernière main au façonnage d'une figurine placée devant lui; de la gauche il tient une motte d'argile prise dans le panier placé à ses pieds, et de la droite il donne le dernier coup à son œuvre. C'est *Prométhée* créateur du premier Homme, du *Protoplastos*, comme dit l'inscription figurant sur une sorte de petit pilastre au fond. A l'arrière-plan et immédiatement au dessus du Titan, émerge une autre figure athlétique, assez semblable à l'Aion du groupe de gauche, *Hermès*, drapé d'un himation, la chevelure ceinte d'une bandelette et munie d'ailerons, le caducée à la main. A sa droite se tient une petite fille vêtue d'un chiton à rabat long, aux reflets blancs et orangés et à bande médiane verte; ses ailes de papillon ouvertes et dressées identifient l'Âme, *Psyche*, et le geste d'effroi qu'esquissent ses mains traduit sa crainte du sort que lui réserve l'union avec la matière; *Hermès* psychagogue s'apprête en effet à l'unir au corps modelé par *Prométhée*. A gauche du dieu, derrière le pilier du *Protoplastos*, apparaît le buste d'une femme drapée et voilée et qu'aucune inscription ne vient identifier. Et la même lacune fâcheuse se répète pour une autre femme qui se tient debout derrière *Prométhée*. Le buste, laissé nu par un himation aux reflets multicolores où dominant le rouge et le vert, la coiffure à grandes boucles frontales, l'attitude comme accoudée, rappellent un type d'*Aphrodite* du I^{er} siècle. Mais est-ce bien la déesse de l'Amour qui jette ainsi un regard presque inquiet sur l'œuvre de *Prométhée*? Et que représente la femme au maintien chaste et timide aux côtés d'*Hermès*? Dans l'un et l'autre cas, on songera volontiers à ces divinités spectatrices fréquentes dans les grands tableaux mythologiques de l'époque romaine. L'examen du thème de la Création de l'homme par *Prométhée* ne fournira cependant, pas de réponse définitive.

Il reste enfin quelques petits personnages accessoires dont le domaine

personnage est assis sur une sorte de siège cubique de couleur noire qui porte l'inscription ; le buste de face, mais les jambes placées vers la gauche, il tourne ses regards vers le centre : un himation clair aux reflets blancs et orangés, lâchement posé en un nœud informe sur l'épaule gauche, enveloppe sommairement les jambes ; une bandelette ceint la chevelure. Pour tout accessoire, ce bel athlète, juvenile et imberbe, maintient de la droite une sorte de grand cerceau ou cercle de couleur jaune-orange ; l'objet, cette roue sans rayons dont l'image n'étonne plus aujourd'hui, identifierait sans plus clairement le personnage comme *Aion*, le génie du Temps infini.

Au second plan, au-dessus d'un petit muret tout noir, se presse un groupe de quatre autres figures non moins allégoriques, les *Tropai*, d'après l'inscription : de fait, ces quatre dames ailées et diversement vêtues, qui apparaissent sur bien d'autres mosaïques, représentent bien les Saisons. La première, serrée contre le bord gauche du tableau, une couronne de fleurs dans les cheveux, vêtue d'un himation aux reflets verts et aux pans croisés sur la poitrine, tient dans un large pli de son habit une charge de petits fruits ronds. Suit une autre, le corps de profil et la tête de face, une couronne dans les cheveux, vêtue seulement d'un chiton clair qui a glissé sur l'épaule ; de la droite, elle tient un objet qui ressemble à un bâton, mais dans lequel il n'est pas défendu de reconnaître une poignée d'épis. De la troisième femme, qui se tient tout à fait à l'arrière-plan, on ne voit bien que la tête tout encapuchonnée de son manteau vert sombre. Enfin la quatrième, toute de face, porte un chiton aux teintes roses, doublé encore d'un himation aux reflets blancs drapant les jambes seulement ; la main droite levée se porte vers la couronne de fleurs et de fruits, et la main gauche tient un petit animal, un chevreau sans doute. Il est de tradition, en effet, que les saisons, qu'elles prennent l'apparence de petits bambins ou celle de femmes ailées, comme sur notre tableau, se distinguent et par leur costume et par les attributs qu'elles portent (1) : nos dames semblent bien respecter la règle générale, quoique les marques distinctives paraissent moins nettes que d'ordinaire. Toutefois, comment hésiter sur la signification hivernale de la figure emmitouflée et sombre ? Et la dame aux fruits, déjà drapée comme pour résister aux premiers frimas, serait-elle autre que l'Automne ? Dès lors l'opulente personne avec

(1) Cf. les indications ci-dessous, p. 42 n. 1.



Fig. 3 – Partie gauche de la mosaïque

nom. Ainsi le premier soulève de ses deux mains un large pan de draperie, sinon une corbeille, rempli d'une masse noire indistincte, parsemée de points blancs et jaunes ; le second présente à sa mère un petit panier sans doute, contenant quelques fruits ronds ; et, alors que le troisième reste les mains vides, le quatrième apporte l'offrande de sa corne chargée de deux pommes et d'un objet tronconique. On ne peut affirmer que ces fruits divers, qu'on ne saurait identifier avec exactitude, soient les fruits des saisons, que les bambins donc symbolisent ces dernières. Une telle assimilation n'est pas sans exemple dans la tradition iconographique de l'Empire, mais aussi sans rigueur : et d'ailleurs, nous rencontrerons encore les Saisons dans un autres coin du tableau.

Ce groupe familial et idyllique s'appuie en quelque sorte à une de ces rocailles dont l'art hellénistique dota définitivement le répertoire de l'artiste antique ; c'est sur cette masse, s'étagant comme en marches taillées, qu'est assise, sur la gauche, une des deux figures de l'arrière-plan. C'est une femme encore ; chaussée d'entromides, coiffée d'un pétase aux reflets verts, aux bords larges, et surmonté d'un petit bouton rond, vêtue d'un manteau sombre aux teintes brunes, rouges et orange, simplement noué sur l'épaule gauche et laissant le sein droit découvert, elle contemple, tournée vers la gauche, du haut de son siège rupestre, le groupe de la Terre et de ses enfants. De la droite, elle tient un hoyau à deux dents appuyé à l'épaule. On serait assez embarrassé pour identifier cette figure, n'était heureusement l'inscription explicative : c'est *Georgia*, l'Agriculture dont nous voyons ici la première, et encore unique, image.

A sa droite se tient, mais au niveau de la Terre, si bien qu'on ne le voit pas de pied en cap, un homme lourdement drapé ; une tunique à manches de teinte jaune-orange, aux revers verts, tenue par une ceinture de même couleur, est doublée d'un himation plus foncé où dominent le rouge et le brun ; enfin la coiffure est encore le large pétase de même forme que celui de *Georgia*. De la main gauche, le personnage conduit un bœuf dont on ne voit que l'avant-train ; dans la droite on distingue le bâton ou l'aiguillon. L'inscription nous met en présence de *Trip-tolème*, le génie éleusinien de l'Agriculture.

Passons au groupe de gauche (Fig. 3), qui offre le même étagement sur deux niveaux. L'avant-plan est occupé par une unique figure masculine, dont le corps musclé et bronzé s'offre largement aux regards. Le



Fig. 2 - Partie centrale de la mosaïque.

d'autre de deux groupes secondaires et surmonté de petites figures accessoires. C'est du moins l'ordre que nous allons suivre dans notre description.

Au premier plan, au centre (Fig. 2), on voit une femme nonchalamment étendue dans une pose banale et traditionnelle, entourée de quatre bambins. C'est la Terre (*Gè*), au milieu de ses enfants, les Fruits (*Karpoi*). Pour tout vêtement, la déesse porte un himation clair aux reflets jaunes et bleu clair qui, retenu sur les épaules, enveloppe les jambes, mais laisse le buste nu. Sur les boucles dorées de la chevelure, ceinte d'une couronne de petites fleurs rouges, repose un polos évasé, duquel retombe un voile blanc dans le dos. Dans le bras droit enfin est tenue une corne d'abondance mince et effilée, d'où pendent deux grappes de petits fruits ronds. C'est bien l'image traditionnelle que les monnaies et les mosaïques fournissent à foison de la Tellus romaine (1), de cette déesse maternelle qui emprunte ses traits à Junon ou à Vénus. Ne garde-t-elle pas de cette dernière la légèreté du costume et jusqu'au geste du bras gauche ramené sous les seins ? Mais le polos et le voile qu'il supporte ne manqueront pas de rappeler la compagne orientale des déesses gréco-romaines, Atargatis, la Déesse Syrienne par excellence, telle qu'on la voit sur une série de représentations (2). Ce sera d'ailleurs là, hâtons-nous de le dire, la seule marque locale sûre de tout le tableau.

Des petits acolytes, l'un n'arrive qu'à nous jeter un regard pardessus l'épaule gauche de sa mère; l'autre, accoudé sur le genou gauche de la déesse, montrant ses petites fesses roses, lance un œil curieux pardessus son épaule; les deux suivants apparaissent dans toute leur grandeur, l'un s'appuyant à l'épaule droite de sa mère et comme cherchant à voir ce que contient la corne d'abondance, le quatrième enfin s'approchant et peinant sous le poids d'une seconde corne lourdement chargée. Ils ne sont les uns et les autres, comme d'habitude, que légèrement vêtus; un linge ceint les reins ou enveloppe les jambes ou repose sur l'épaule, et une couronne de fleurs dans les cheveux complète cet appareil. Mais ils sont porteurs aussi des fruits dont ils tiennent leur

(1) Pour le type de Tellus, cf. E. Strong, *Journal. Roman stud.*, 1937, p. 114 et pl. IIIs.; Toynbee, *Hadrianic school*, p. 140; A. Levi, *Palera di Parabiago*, p. 11; aussi ci-dessous p. 41 n. 1.

(2) Pour Atargatis et son voile, cf. p. ex. H. Seyrig, *Syria*, 1929, p. 327 s., pl. LXXXII, 2 et LXXXIII, 3.



Fig. 1 — Détail de la bordure.

l'établissement des fondations de deux maisons en construction. Elles s'élèvent, l'une tout près de l'autre, dans le quartier Sud-Est de la ville, non loin de la porte orientale et un peu au Sud du Decumanus (1). De l'une (maison Harfouche) proviennent deux tableaux à sujet classique (Trois Grâces, Dionysos) et de date apparemment tardive; de l'autre (maison Aoua), une composition unique de sujet inédit et d'un intérêt exceptionnel. C'est à cette dernière que seront consacrées les lignes qui suivent.

La mosaïque (2) formait dans son état primitif un grand panneau rectangulaire de 3.37 x 2.76 mètres. Le tableau central (2.12 x 1.52) était entouré d'un cadre large de 64 centimètres et orné d'un motif géométrique simple; une grecque à ruban unique, succédant à une large bande blanche soulignée de rubans noirs, cernait directement le tableau figuré. Une gamme de teintes plutôt simples et même ternes, mais tout de même nuancées, allant du noir au blanc en passant par le brun, le jaune, le bleu et le vert (on notera l'absence de tonalités vives) donne, par une sorte de jeu de lumières et d'ombres, une apparence de relief très accusé au ruban croisé de la grecque et aux carrés intermédiaires (Fig. 1). Mais très évidemment tout le souci de l'auteur de la mosaïque s'est porté sur le tableau central infiniment plus subtil et complexe dans le choix des teintes multicolores et dans leur agencement.

La première impression que donne le panneau principal (Pl. I) est celle d'une foule grouillante de personnages, dans laquelle l'œil cherche vainement d'abord un centre d'attraction ou un principe de composition, et dans laquelle la bigarrure des couleurs accroît l'insécurité première. Un examen un peu plus approfondi, aidé des inscriptions placées à côté des figures, permet de reconnaître un vaste tableau allégorique qui réunit de façon artificielle et dans un cadre conventionnel, qu'il est bien souvent difficile de préciser, des personnages très divers. Toutefois, on peut dire en gros que la composition offre un groupe central, flanqué de part et

(1) Les mosaïques Dunand furent trouvées à peu près symétriquement au Nord du Decumanus. Sur Philippopolis, cf. Dussaud, *Syrie antique et médiévale*, p. 368; Brünnow-Domaszewski, *Provincia Arabia*, III, p. 145; Butler, *Amer. arch. exped. Syria*, II, p. 376, 419, 422 et *Princeton arch. exped. Syria*, II, A, p. 359.

(2) La mosaïque a été transférée au Musée de Damas; je n'ai pu la voir entièrement reconstituée, c'est-à-dire avec son cadre décoratif.

UNE NOUVELLE MOSAÏQUE DE CHAHBA-PHILIPPOPOLIS

par

ERNEST WILL

La grande révélation des fouilles d'Antioche fut la découverte des somptueuses mosaïques qui ornaient les maisons patriciennes de la grande métropole; elles sont accessibles aujourd'hui grâce à l'admirable publication de D. Levi (1). Mais ce luxe n'était pas l'apanage de la seule capitale de la Syrie romaine. Nous possédons dès à présent des indices suffisants pour apprécier mieux la place de l'art de la mosaïque dans une terre qui joua peut-être un rôle prépondérant dans son histoire (2). Des découvertes récentes et répétées signalent à l'attention une ville qui connut une gloire éphémère grâce à la carrière d'un de ses fils; nous voulons parler de Chahba-Philippopolis, patrie de l'empereur connu sous le nom de Philippe l'Arabe (244 - 249). Dans ce site encore grandiose, la construction des maisons modernes à l'intérieur du rempart romain amène périodiquement le dégagement de restes encore impressionnants de mosaïques antiques. Un premier lot important fut mis au jour et partiellement publié en 1926 (3). Plus récemment deux ensembles nouveaux apparurent lors de

(1) *Antioch mosaic pavements* (1945).

(2) On se souvient que les fouilles de Délos ont livré une mosaïque signée d'un artiste d'Arados, cf. Chamonard, *Délos*, VIII, *Quartier du théâtre*, p. 138, pl. LIII; Bulard, *Peintures et mosaïques*, p. 197, pl. XII-XIII.

(3) Mosaïque avec figures allégoriques de *Philosophia*, *Euthekneia* et *Dikaïosunè*, M. Dunand, *Syria*, 1926, p. 334, pl. LXVII, 1; S. et A. Abdul Hak, *Catalogue du Musée de Damas*, I, p. 67, no 5, pl. XXXIII, 1; -mosaïque avec les « Noces de Thétis et de Pélée », *Syria*, 1926, pl. LXVII, 2; mosaïque circulaire avec figures ailées dans les angles, *ibid.*, pl. LXVIII, 2.

l'autre le portrait de Moqîmû, — ces inscriptions étant conçues en termes identiques aux nôtres (1). Nous connaissons en outre une seconde image de Bat'ogê, sœur de nos défunts, aujourd'hui au Musée du Louvre (2), et le portrait de Zebîdâ, leur cousin, provenant sans doute du même tombeau et conservé à la Glyptothèque Ny-Carlsberg, à Copenhague (3).

Ainsi ce relief, assurément l'un des plus finement sculptés et des mieux conservés de tous ceux qui sont parvenus jusqu'à nous, est une addition fort bien venue aux portraits déjà publiés de cette famille palmyrénienne surtout connue par des inscriptions et que de nouvelles découvertes achèveront peut-être un jour d'enrichir et d'illustrer.

JOSEPH SABEH



- (1) SOBERNHEIM, *Palmyrenischen Inschriften*, in *Beiträge zur Assyriologie*, IV, 1900, pp. 207-209; *Rép. d'épigr. sem.*, nos. 25-26; LIDZBARSKI, *Ephem. für sem. Epigr.*, I, p. 197; *CIS*, 4358-4359. Ces reliefs, découverts par Sobernheim en 1899, ne figurent plus parmi les pièces composant la collection du Sheikh Fayâd et dont les textes ont été publiés par J. CANTINEAU, qui signale l'absence des premiers : J. CANTINEAU, *Inscriptions palmyréniennes*, pp. 4-6.
- (2) H. INGHOLT, *Studier*, PS 368 (buste classé dans le 1er groupe de sculptures palmyréniennes); *CIS*, 4621. L'inscription de ce relief, identique à celle du premier portrait, se lit comme suit : « Bat'ogê, fille de Haîrê, (fille de) Bêlsûr, hélas ! ».
- (3) J. - B. CHABOT, *Choix d'inscriptions de Palmyre*, p. 119, no. 6, pl. XXVIII, 3; H. INGHOLT, *op. cit.*, PS 177 (buste classé dans le IIème groupe de sculptures palmyréniennes); *CIS*, 4357. Inscription: « Zebîdâ, fils d'Eutychis aussi appelé Bôrrêphâ, (fils d') Akkaledî, hélas ! » — le nom Akkaledî n'étant pas attesté ailleurs que sur les reliefs des trois défunts (cf. H. INGHOLT, *Berytus*, I, 1934, p. 39 et n. 66).

frère, découvrant dans ce geste de consolation (1) une partie de la tunique qui apparaît garnie d'un clavus (2). La main droite des deux défunts est ramenée sur leur poitrine et tient une schedula portant inscrit le mot HBL, « hélas ! » (3); elle est ornée de deux bagues à châton passées l'une au haut de l'index (4) et l'autre à l'auriculaire.

Passant à la question de la date, nous remarquerons que ce double-buste s'apparente étroitement à un buste du Musée du Louvre, daté de 155 ap. J.-C. (5), par les caractères stylistiques qu'il présente : visages juvéniles imberbes; cheveux disposés en une calotte de mèches ondulées descendant bas sur le front — et ceints ici, comme ceux du portrait précédent, d'une couronne de laurier à rosette centrale; sourcils rendus plastiquement et yeux marqués d'un cercle pointé, pratiques appliquées à Palmyre à partir de la seconde moitié du II^e siècle ap. J.-C. (6); plis rectilignes ou en V de la draperie, — mais aussi semi-circulaires sur la partie supérieure du bras gauche, selon le style de cette période (7), à laquelle l'ensemble de ces considérations permet, en définitive, d'attribuer ce relief.

Notons, par ailleurs, que nos défunts étaient déjà connus par les inscriptions de deux autres reliefs de la collection du Sheikh Fayâd à Qaryatein, l'un représentant le double-buste de Bêlšûr et Bat'ogê, sa sœur,

-
- (1) Pour d'autres exemples du geste de consolation, — geste souvent accompli par une parente du mort figurée en porteuse d'offrandes ou en pleureuse —, voir H. SEYRIG, *Annales Arch. de Syrie*, I, 1951, p. 32 et n. 1.
- (2) Sur le port de la tunique à « clavi » à Palmyre, voir H. INGHOLT, *Studier*, pp. 49, 115 et 123, PS 26, 219 et 286; id., *Berytus*, I, 1934, p. 33 et n. 8.
- (3) Des schedulae inscrites apparaissent sur un petit nombre de bustes palmyréniens, l'épigraphie étant, soit le mot HBL, comme dans le cas de notre relief, soit une autre expression funéraire, telle que BT 'LM', « maison d'éternité », ou bien le nom même du défunt : H. INGHOLT, *Studier*, p. 24 et n. 9; id., *Berytus*, op. cit., p. 33 et n. 12.
- (4) L'usage — sans doute à valeur symbolique — de porter une bague au haut du doigt, quoique rare, n'est pas sans exemple à Palmyre : D. MACKAY, *Iraq*, XI, 1949, p. 181, pl. LVIII, 2.
- (5) H. INGHOLT, *Studier*, PS. 10, pl. III, 3.
- (6) *Ibid.*, loc. cit., et p. 90.
- (7) *Ibid.*, PS 16-18, et p. 90.

du style de la période précédente qui apparaissent ici à titre de survivances. Il est ainsi à ranger parmi un petit nombre de bustes virils offrant les mêmes caractères de transition et datant probablement très près du milieu du II^e siècle ap. J.-C. (1).

IV

Double-buste de Bêlsûr et Moqîmû. — De Qaryatein également, et par l'entremise du même antiquaire, a été acquis des fils du Sheikh Fayâd un très beau relief funéraire à deux bustes masculins juvéniles que ne déparent que quelques trous dus à la porosité de la pierre (pl. II, 2) (2). Les deux personnages qu'il représente sont figurés de face avec une légère torsion des visages et des bustes vers l'axe du relief, dont le fond est orné d'un dorsalium suspendu à trois rosettes qui maintiennent des palmes, la rosette du milieu reposant elle-même sur une petite amphore. Entre les têtes des deux défunts est gravée la double inscription palmyrénienne suivante :

A droite :	BLSWR	Bêlsûr,
	BR HYR'	fils de Haîrê,
	'KLDY	(fils d') Akkaledî,
	HBL	hélas !
	HY'	A vécu
	SNYN 19	19 ans.
A gauche :	MQYMW	Moqîmû,
	BR HYR'	fils de Haîrê,
	'KLDY	(fils d') Akkaledî,
	HBL	hélas !
	HY'	A vécu
	SNYN 16	16 ans.

Bêlsûr porte une tunique et un manteau qui enveloppe son bras droit et dont un pan retombe par-dessus son épaule gauche sur sa poitrine. Moqîmû, vêtu de même, a passé son bras droit autour des épaules de son

(1) Cf. H. INGHOLT, *Berytus*, I, 1934, p. 42 et n. 95.

(2) Inv. no. 15 023. Larg. 70 cm.; haut. 66 cm. Calcaire dur.

ap. J.-C. et qui survit au début de la période suivante (1). La main droite est ramenée sur la poitrine, les trois premiers doigts étendus et les deux derniers repliés; la gauche serre un glaive à poignée gemmée dont on aperçoit le haut du fourreau (2).

L'écriture, assez grossière, offre des particularités tardives — telles que hampes brisées et yod vertical. Des deux noms propres mentionnés dans l'inscription, le premier, 'HYNY, — composé avec 'HY-, « mon frère », et -NY, qui s'est déjà rencontré comme second élément dans BRNY (Barnai), sans doute hypocoristique de BRNBW (Barnabû), « fils de Nabû » (3), — paraît nouveau (4). Quant au patronymique, HTRY, il est connu à Palmyre (5).

L'ensemble des remarques qui précèdent permet d'attribuer ce relief à la seconde moitié du II^e siècle ap. J.-C., plus précisément aux décades qui suivent l'année 150 vu la présence de certains traits caractéristiques

-
- (1) Cf. *ibid.*, PS 9, 10 et 11, bustes datés de 154-155, 155 et 157 ap. J.-C.
- (2) Sur le glaive à poignée gemmée, — arme ancienne à Palmyre, — voir H. SEYRIG, *Syria*, XXII, 1941, pp. 40-41, pl. III et fig. 9; XXVI, 1949, pp. 30-31, pl. II.
- (3) CIS, 4542; J. STARCKY, *Syria*, XXVI, 1949, p. 39, no. 5. Sur le dieu babylonien Nabû, qui est attesté à Palmyre par de nombreux noms théophores et par plusieurs tessères, dont quelques-unes inédites conservées au Musée de Damas, voir J. FÉVRIER, *La religion des Palmyréniens*, p. 97 s.; H. SEYRIG, in *Mémorial Lagrange*, pp. 54-55, 58 et n.25; J. STARCKY et S. MUNAJJED, *Palmyre*, p. 26 et n. 1.
- (4) Comme nous l'a confirmé M. A. CAQUOT, de l'Institut Français d'Archéologie de Beyrouth, qui prépare sur l'onomastique palmyrénienne un important travail qui tient compte des inédits, — le seul parallèle à 'HYNY, 'HYNBW étant 'HYBL (?) (Abîbêl), « Bêl est mon frère », mentionné dans J. CANTINEAU, *Inv. des inscr. de Palmyre*, IV, no. 15, b.
- (5) CIS, 4483-4485. Peut-être notre Ahînai, fils de Hatrai, est-il apparenté à la famille désignée par ces inscriptions, — laquelle, comme le nom HTRY l'indique, devait être originaire de Hatra, aujourd'hui الحضر, Al-Hadr (*ibid.*, 4164), — si même il n'est pas le frère de la nommée Salê, fille de Hatrai, que mentionne la première de ces inscriptions, et dont le buste, conservé dans la maison des enfants du Sheikh Fayâd à Qaryatein (J. CANTINEAU, *Inscriptions palmyréniennes*, Damas, 1930, p. 4, A, 1), offre tous les caractères stylistiques du II^e groupe de sculptures palmyréniennes.

III

Buste funéraire d'Ahinai. — Dans les mêmes conditions que la kliné précédente a été acquis d'un habitant de Qaryatein le buste très bien conservé d'un Palmyrénien, atteint seulement à la tête de légères mutilations qui l'ont épauprée de part et d'autre du front en laissant intact le reste du visage (pl. II, 1) (1).

Derrière le buste se voit un dorsalium tendu entre deux rosettes qui maintiennent, comme de coutume, deux palmes. Au-dessus de l'épaule gauche du personnage est gravée sur trois lignes l'inscription palmyrénienne suivante :

HBL
'HYN
BR HTRY

Hélas !
Ahinai,
fils de Hatrai.

A la différence de Moqîmû (n° II), que son portrait représente imberbe, Ahinai porte une petite moustache et une barbe très courte, caractère qui permet d'assigner à ce buste une date postérieure à 150 ap. J.-C. (2). Les cheveux sont disposés en rangées horizontales de mèches sinueuses (3) et ceints d'une couronne de laurier ornée d'une rosette en son milieu (4). Les sourcils sont figurés par une incision, et les yeux, comme dans le double-buste précédent, marqués de deux cercles concentriques, traitement qui continue d'être appliqué de façon sporadique dans les années qui suivent le milieu du II^e siècle (5). Quant aux vêtements du défunt, ils consistent en une tunique et un manteau qui enveloppe l'épaule et le bras gauches, contourne le col et le dos jusqu'à la hanche droite, et de là est ramené sur la poitrine et enroulé autour du poignet gauche d'où il tombe en une masse de plis à partir de la base du relief. Les plis de la manche droite de la tunique sont légèrement cintrés, tandis que ceux du manteau sur le bras gauche convergent en faisceau vers le poignet, arrangement caractéristique du style palmyrénien de la période antérieure à 150

(1) Inv. no 15 027. Larg. 45 cm.; haut. 36 cm. Calcaire dur.

(2) H. INGHOLT, *Studier*, pp. 33 et 90.

(3) Sur cet arrangement de la chevelure, fréquent au cours des trois périodes de la sculpture palmyrénienne, cf. *ibid.*, p. 26 et PS 4-6, 13, 15, 25, 27 et 29.

(4) Cf. *ibid.*, PS 9, p. 33 et n. 6.

(5) Cf. *ibid.*, PS 9, 13 et 14, bustes datés de 154-155, 172 et 176 ap. J.-C.

une double tresse ondulée sur les épaules de la défunte, selon l'usage des femmes palmyréniennes de cette période. L'absence des sourcils et le traitement des yeux au moyen de deux cercles concentriques, que nous avons relevés chez Moqîmû, s'observent également chez Tadmor. Enfin il n'est pas sans intérêt de noter que les bustes des deux conjoints ont la forme des portraits romains de l'époque de Trajan et d'Hadrien.

Par sa date, très proche du milieu du II^e siècle, ce relief constitue un précieux jalon dans l'étude de la sculpture palmyrénienne. En outre, cette date permet de rectifier celle que porte un ancien portrait, conservé au Metropolitan Museum de New York, de la même Tadmor, femme de l'artisan Moqîmû, mais où une cassure a emporté les deux dernières barres du chiffre des unités, ce qui l'a fait dater de 146 au lieu de 148 ap. J.-C. (1). Ce dernier buste fait d'ailleurs lui-même partie de tout un groupe de reliefs inscrits, également conservés à New York, et offrant la généalogie de Moqîmû avec les portraits de ses descendants (2). Notre relief vient ainsi accroître de façon très heureuse cette importante galerie de portraits arrachés à un même tombeau que des recherches ultérieures permettront peut-être un jour d'identifier.

(1) J.-B. CHABOT, *Choix d'inscriptions de Palmyre*, p. 113, pl. XXVII, 2; H. INGHOLT, *Studier*, PS 37, pl. XI, 4; *CIS* = *Corpus Inscr. Semit.* II, 4258. Inscription : « Hélas ! Tadmor, femme de Moqîmû, fils de Nûrbêl, l'artisan. Est morte le 29^eme jour (du mois) de Siwân de l'année 457— ». Cette identité est prouvée moins par la comparaison des portraits que par celle des inscriptions, où nous relèverons, au point de vue onomastique, l'emploi, assez rare, du nom même de la ville TDMR comme nom propre féminin (F. ROSENTHAL, *Die Sprache der palmyrenischen Inschriften*, p. 14; *CIS*, 4252, et infra, n. 2), et celui du nom de métier 'MN', accad. ummânu, m. s. (F. ROSENTHAL, *op.cit.*, p. 90), attesté à Palmyre, semble-t-il, seulement en relation avec le nom de notre personnage, mais bien connu du Nabatéen du Haurân (J. CANTINEAU, *Le Nabatéen*, II, p. 64).

(2) J.-B. CHABOT, *op. cit.*, pp. 112-113, pl. XXVII, 1, 7, 8 et 11; H. INGHOLT, *Studier*, PS 13, 16, 67 et 420; *CIS*, 4259-4262. L'un de ces reliefs représente Zabdibôl, fils de Moqîmû, et ses enfants Tadmôr, Moqîmû et 'Aliyat, dans une scène de banquet sculptée sur une dalle cintrée aujourd'hui incomplète, de même hauteur que notre kliné à laquelle elle pourrait appartenir (largeur actuelle de la dalle 63, 2; hauteur 51, 4), et qui conviendrait, malgré ses dimensions modestes, au décor extérieur d'une tour funéraire: E. WILL, *Syria*, XXVIII, 1951, p. 89 et n. 1. Sur l'origine et l'évolution de la kliné funéraire, cf. *ibid*, p. 76 ss.

A gauche du buste féminin :	MYTT YWM 29 BSYWN SNT 459	Est morte le 29ème jour (du mois) de Sîwân del 'année 459.
-----------------------------	------------------------------------	---

Comme nous l'apprennent ces textes, le double-buste sculpté entre les pieds du lit représente un artisan du nom de Moqîmû et sa femme Tadmor, décédée le 29 Sîwân 459 de l'ère séleucide, qui correspond au 29 Juin de l'année 148 ap. J.-C. En l'absence de toute date, ses caractères stylistiques eussent d'ailleurs permis de l'attribuer à la première moitié du IIème siècle ap. J.-C. (1).

Moqîmû est vêtu d'une tunique et d'un manteau, qui retombe obliquement de l'épaule gauche sur la poitrine en formant sur le bras gauche un faisceau de plis rectilignes caractéristique du style palmyrénien de la période antérieure à 150 ap. J.-C. Son visage est imberbe, comme il est d'usage à Palmyre au cours de cette même période, et ses cheveux disposés en rangées de mèches sinueuses rappelant celles des portraits romains de l'époque d'Hadrien et des Antonins (2). Les sourcils ne sont pas indiqués, et les yeux sont marqués de deux cercles concentriques figurant l'iris et la pupille, traitement qui caractérise également le premier groupe de sculptures palmyréniennes.

Une règle portant des graduations — sans doute une coudée, — instrument nouveau dans la sculpture de Palmyre, est figurée derrière le buste de Moqîmû, à gauche, pour symboliser la fonction du personnage, artisan ou architecte de son métier.

Tadmor est vêtue de même et coiffée d'un turban en torsade noué au-dessus du front et recouvert du manteau, dont un pan est ramené sur sa poitrine et rejeté par dessus son épaule gauche. Sous le turban se voit la naissance des cheveux, séparés par une raie médiane et tombant en

(1) D'après les critères établis par M. H. INGHOLT pour ses trois groupes de sculptures palmyréniennes (Groupe I : ca. 50-150 ap. J.-C.; groupe II : ca. 150-200 ap. J.-C.; groupe III: ca. 200-272 ap. J.-C.) : H. INGHOLT, *Studier over palmyrensk Skulptur*, Copenhague 1928, notamment pp. 90-93 — cité *Studier*.

(2) Cf. un buste daté de 157 ap. J.-C., où les cheveux sont arrangés en mèches sinueuses semblables, mais assez librement disposées, ce qui convient bien au style plus tardif du relief : *ibid.*, PS 11, pl. IV, 1.

et en bas par un médaillon circulaire renfermant un buste masculin (pl. I, 2) (1). Ce lit, qui devait supporter une scène de banquet funéraire, est d'une conservation très satisfaisante dans l'ensemble, encore qu'il soit sectionné en deux fragments par le milieu et qu'il présente çà et là des traces d'usure. La face du cadre est ciselée à ses deux extrémités d'un long cartouche garni d'un rinceau de feuilles de lierre, suivi d'un cartouche carré contenant une rosace; sa section médiane est façonnée en tore et offre l'aspect d'une colonnette terminée de chaque côté par un astragale et un chapiteau corinthien. Sur le cadre est posé un matelas revêtu d'une étoffe plissée, rehaussée de trois bandes brodées disposées transversalement à intervalles réguliers: les bandes extrêmes comprennent un rinceau de feuilles de lierre encadré par des chiens-courants, et la bande centrale un rameau de chêne bordé de rangs de perles (2).

A l'intérieur du relief est gravée une bouble inscription palmyrénienne dont voici la transcription et la traduction:

A droite du buste masculin :	HBL MQYMW 'MN' BR NWRBL BR ZBD'	Hélas! Moqîmû, l'artisan, fils de Nûrbêl, fils de Zabdâ.
A droite du buste féminin :	HBL TDMR 'TT MQYMW BR NWRBL BR ZBD' 'MN'	Hélas! Tadmor, femme de Moqîmû, fils de Nûrbêl, fils de Zabdâ, l'artisan.

(1) Inv. no. 15 028. Larg. 77 cm.; haut. 51 cm. 4. Calcaire dur.

(2) L'ensemble de ces motifs fait partie du répertoire habituel de l'ornementation palmyrénienne, où le rang de perles, élément probablement d'origine iranienne, forme, seul ou associé au chien-courant, un des motifs de bordure traditionnels des bandes décoratives: H. SEYRIG, *Syria*, XVII, 1936, pp. 240-241, 250; XVIII, 1937, pp. 18-20; XXI, 1940, p. 303 s.

chargées d'un récipient à couvercle pointu qui doit être un brûle-parfum ou un coffret.

Par ses dimensions, sa matière, son sujet et son style, ce relief se rattache à un groupe de sculptures archaïques retirées de la fondation T, dans la cour du temple de Bél à Palmyre, et remontant à une époque antérieure à l'érection de ce sanctuaire en 32 ap. J. - C. (1). Même scène rituelle et mêmes attitudes, costumes et accessoires des personnages, dont on distingue, malgré l'usure de la pierre, les plis du manteau retombant en bourrelet épais par-dessus le poignet gauche, ainsi que le cou marqué de deux sillons profonds et les cheveux tombant en torsades rigides de la porteuse d'offrandes. Ces considérations établissent la provenance de notre relief, qui devait faire partie des débris de l'édifice disparu du temple de Bél remployés dans la fondation T et datant sans doute de la fin du 1^{er} siècle av. J. - C. ou du début du 1^{er} siècle ap. J. - C. (2).

Trait nouveau et digne de remarque; alors que sur les reliefs mentionnés les sacrificateurs sont figurés de face ou de profil, le célébrant apparaît ici tourné des trois quarts à côté de la porteuse d'offrandes représentée de profil, exemple le plus ancien encore connu à Palmyre de ce mode de figuration emprunté de l'hellénisme.

II

Kliné funéraire à double-buste datée de 148 ap. J.-C. — Cet important relief a été acquis d'un habitant de Palmyre par l'entremise d'un antiquaire de Damas sans que l'on connaisse les circonstances exactes de la trouvaille. C'est un lit de repos du type palmyrénien courant, à pieds tournés encadrant deux bustes sculptés en haut relief et de face, et à chevet orné de trois rosaces et terminé en haut par une tête de lion

(1) Id., *Syria*, XXII, 1941, pp. 31-33, fig. 1-2, pl. I, 1; p. 44, fig. 10-11.

(2) Ces débris comprenaient, en plus des reliefs mentionnés, des fragments de décor architectural et des inscriptions au nombre desquelles figurait la dédicace d'une statue par les prêtres de Bél datée de 44 av. J.-C. (id., *Syria*, XXI, 1940, p. 277 ss.; J. STARCKY et S. MUNAJJED, *Palmyre*, Damas 1948, p. 26). L'emploi de la même pierre tendre, très différente du calcaire dur utilisé dans les monuments palmyréniens à partir de la construction du temple de Bél, caractérise en outre les plus anciennes stèles funéraires de Palmyre (H. SEYRIG, *Berytus*, III, 2, 1936, pp. 139-140; id., *Syria*, op. cit., p. 281, n. 1).

SCULPTURES PALMYRÉNIENNES INÉDITES DU MUSÉE DE DAMAS

par

JOSEPH SABEH

Conservateur du Musée de Damas

La collection palmyrénienne du Musée National de Damas s'est enrichie au cours de ces dernières années d'un certain nombre de sculptures inédites acquises sur le marché des antiquités et que nous nous proposons de publier en raison de l'intérêt qu'elles nous paraissent offrir. Nous examinerons dans les pages qui suivent un lot de pièces récemment entrées au musée en les classant par ordre chronologique.

I

Relief palmyrénien archaïque. — La plus ancienne sculpture de ce lot est un petit relief rectangulaire en calcaire tendre, très érodé et écorné, représentant une scène rituelle (pl. I, 1) (1). A gauche, un homme vêtu d'une tunique à longues manches (2) et d'un manteau, est figuré dans l'attitude du prêtre sacrifiant: de la main droite il brûle l'encens sur un pyrée, aujourd'hui très mutilé, placé devant lui, tandis que de la gauche il tient une boîte à encens et une cruche à libations. Une femme, vêtue de même et coiffée d'un pan de son manteau, s'avance vers le célébrant les mains

(1) Inv. no. 15 019. Larg. 29 cm.; haut. 39 cm.; épais. 15 cm.

(2) C'est la tunique de type oriental, caractérisée par ses manches ajustées aux plis annelés, qui la distinguent de la tunique grecque, aux manches courtes et lâches, très fréquente sur les monuments palmyréniens. Sur les tuniques portées à Palmyre, voir H. SEYRIG, *Syria*, XVIII, 1937, p. 13 s.

le goût, la science, et le génie du pays qui le crée. Mais l'on peut stimuler tout cela chez les peuples jeunes qui veulent bien qu'on les aide au perfectionnement de leurs musées. Ainsi en Syrie, nous pensons sérieusement avant la constitution d'un nouveau musée archéologique à Alep mettre son projet de construction dans un concours international. Nous souhaitons aussi la participation de quelques spécialistes célèbres dans notre tâche de création de notre musée du folklore à Damas. Nous voulons bien profiter de l'expérience acquise, en vue d'éviter les erreurs commises, et de bénéficier des expériences les plus récentes, ceci nous amène à nous demander s'il serait possible que l'ICOM s'adjoigne de temps en temps un certain nombre de spécialistes muséographes et autres qui pourraient être mis pour quelques mois à la disposition du pays réclamant leurs services.

Mais avant de penser à former ce corps technique, il serait souhaitable de constituer, pour renforcer les rapports entre les musées du monde, un corps d'inspecteurs attachés à l'ICOM, qui visiteraient les différents musées, les étudieraient, s'enquerraient de leurs besoins, et conseilleraient amicalement leurs conservateurs à travailler dans un sens international, à perfectionner leurs méthodes de travail, et d'appliquer les innovations techniques muséographiques et autres.

En somme le travail en commun dans le domaine des musées d'histoire et d'archéologie est la première condition pour faire servir ces institutions à rapprocher les peuples et créer entre eux une sorte de compréhension internationale qui se base sur l'éclaircissement de leur interdépendance et de leurs rapports pacifiques qui ont eu lieu à toutes les époques. Les recherches scientifiques, la constitution des collections, leur préservation, et leur mise en valeur sont des problèmes qui se posent à tous les conservateurs et directeurs des musées, et de leur solution s'assure notre but qui consiste à sauvegarder et transmettre aux générations futures, le patrimoine de l'humanité.

SÉLIM ABDUL-HAK

aussi dans le domaine de la préservation des collections constituées. Car, la conservation des antiquités pose des problèmes très compliqués. Des fresques peintes, des mosaïques, des ivoires, des bronzes, des verres, des objets en fer, en argent et en bois extrêmement fragiles, sont exhumés tous les jours par les fouilleurs et présentent des documents de grande valeur. Il importe de les sauver et de leur prodiguer des soins sans lesquels ils seraient voués à la disparition. L'examen des causes chimiques de désagrégation de ces objets, leur corrosion récidivante, leur conservation, leur restauration, leur enlèvement et leur reconstitution exigent des connaissances techniques variées, une habileté consommée, et divers appareils ou matériaux, qui ne sont assurés que pour les grands musées et pour quelques pays où les fouilles battent leur plein. D'ailleurs la formation de techniciens habiles n'est pas chose aisée. La vocation, les circonstances heureuses des découvertes, le hasard si l'on peut dire y jouent un très grand rôle. Il serait intéressant d'aider chaque pays de civilisation ancienne à constituer un atelier où l'on pourrait effectuer le travail technique en question, et de lui fournir des renseignements variés sur les progrès qui se font chaque jour dans ce domaine, et sur les grands problèmes qui se posent aux réparateurs célèbres.

Il serait très recommandable aussi d'établir des listes contenant les noms de techniciens, les laboratoires et les ateliers dont ils disposent, et de les envoyer dans tous les musées du monde, en les engageant à faire connaître leurs préoccupations et leurs difficultés comme à profiter des expériences acquises.

4 — MISE EN VALEUR DES OBJETS DES MUSÉES.

Enfin l'organisation d'un musée nécessite aussi la mise en valeur des objets, leur exposition selon des méthodes qui ne sont pas faciles à délimiter et à expliquer. L'art muséographique d'aujourd'hui doit s'adapter à chaque cas. Former des collections, les exposer en tirant le meilleur parti possible de l'éclairage naturel ou artificiel dans un cadre qui pourrait évoquer le milieu historique ou humain de l'objet exposé, exigent non seulement des connaissances techniques mais aussi des expériences assez longues et surtout un goût sûr.

C'est pour toutes ces raisons que la création d'un musée doit être considéré comme un événement important. Elle doit décélérer sans doute

pays d'origine. Si l'on établit des règles judicieuses pour ces échanges cette solution pourrait dans une large mesure satisfaire les deux partis.

De toute façon, il faudrait tranquiliser les nouveaux Etats et les assurer que les antiquités et œuvres d'art les plus représentatives de leurs anciennes civilisations doivent rester chez eux. Si des antiquités d'importance secondaire partent au-delà de leurs frontières ce sera à titre documentaire, et dans le but de faire connaître leur passé dans monde.

Mais le problème essentiel est la découverte des nouvelles richesses archéologiques. Elle peut aplanir toutes les difficultés, et satisfaire tous les partis. La solution des missions internationales que j'ai déjà indiquée aide à établir un climat de confiance entre les anciens et les nouveaux musées.

Mais ceci ne signifie pas qu'il faudrait renoncer à la constitution de missions appartenant à une seule nationalité, ces missions ont rendu d'immenses services à la science archéologique, et ont plusieurs autres mérites comme l'homogénéité, la compréhension rapide, la camaraderie, etc.. De toute façon le grand problème est d'arriver à des arrangements à l'amiable pouvant intervenir entre les gouvernements des pays où s'exécutent les fouilles, et les missions de fouilleurs. Si ces gouvernements se montrent désireux de garder la totalité des antiquités découvertes, il est normal qu'ils participent dans les limites de leur possibilité aux frais de l'entreprise, à l'installation de la mission, à l'expropriation des terrains où se font les fouilles ou à l'indemnité à verser aux propriétaires de ces terrains comme à la publication des travaux, et l'aménagement des sites. Certes il faut prendre en considération l'état des mauvaises finances de ces nouveaux états. Les crédits qu'ils allouent pour ces travaux sont loin d'être satisfaisants. Mais il est possible de les inviter à faire de plus grands efforts puisque les sites de fouilles peuvent devenir des centres de rencontre pour tous les savants du monde et des foyers de propagation de la science internationale. De même les antiquités découvertes remplissant leurs musée et enrichissant leur patrimoine peuvent développer le tourisme chez eux et leur assurer des ressources nouvelles et très appréciables.

3 — PRÉSERVATION DES COLLECTIONS.

La coopération entre les musées en question peut se manifester

Ce principe de coopération internationale dans les recherches est tout-à-fait fructueux. On peut le développer et l'étendre à plusieurs sites archéologiques très importants qui attendent encore les pioches des fouilleurs. Car l'étude archéologique du Proche-Orient est en pleine évolution. Dans ce secteur où beaucoup de civilisations sont nées et mortes, des empires se sont constitués et effondrés, on peut coordonner les travaux des missions des fouilles, compléter leurs effectifs, alimenter leurs subventions, essayer de faire participer les pays où les fouilles ont lieu, et les associer à leurs résultats scientifiques, en accordant des bourses d'études et de séjours à leurs citoyens versés dans ces disciplines dans les pays qui exécutent ces fouilles.

2 — COLLECTIONS DES MUSÉES.

Nous pourrions également généraliser le travail en commun dans la constitution des collections muséographiques. Toutefois des difficultés de nature variée s'y opposent actuellement. En effet la création de grands musées dans les capitales des grandes puissances était un événement très important pour favoriser la diffusion des connaissances des civilisations disparues, et stimuler les études qui les concernent. Il est tout à fait utile, et désirable que ces musées continuent à prospérer, et à s'alimenter de nouvelles richesses pour le bienfait de la civilisation universelle. Mais la tendance actuelle de localiser chaque culture dans une région du monde qui l'a vu naître sur son sol, et le désir légitime des pays d'anciennes civilisations qui sont récemment arrivés à l'indépendance politique, de conserver la totalité ou la presque totalité des antiquités découvertes sur leurs sols invitent à réfléchir. Cette attitude a été dictée aux nouveaux états par le fait que des expéditions scientifiques dans un passé récent n'ont rien laissé des antiquités dans les pays où elles travaillaient.

Pour concilier tous les désirs, nous pouvons penser à des solutions comme celles-ci : les grands musées seront invités ou bien à renoncer à quelques antiquités qui ne déparent pas leurs collections au profit des pays spoliés, ou à envoyer dans les musées de ces derniers pays des répliques, et des maquettes des œuvres architecturales déplacées, avec toutes les publications qui les concernent. On peut imaginer aussi un système d'échanges librement consentis entre les collections des grands musées, et les antiquités récemment découvertes et conservées dans leurs

milieu ethnique et sa géographie et ceci durant une période qui peut s'étendre parfois sur plusieurs dizaines d'années, afin de pouvoir répondre aux nécessités scientifique, et satisfaire notre avidité toujours croissante de la connaissance du passé. Malheureusement il y a peu d'institutions et d'universités qui pourraient faire face au point de vue financier comme au point de vue technique, aux exigences de ces entreprises scientifiques.

C'est pour cette dernière raison, qu'il serait souhaitable d'organiser une collaboration entre deux ou plusieurs universités et institutions spécialisées pour l'accomplissement de ces travaux, et de les associer dans la composition des membres des missions, et dans la répartition des charges financières nécessaires à leur poursuite.

Déjà, nous avons vu des tentatives internationales fructueuses du même genre pour un travail en commun limité visant la conquête du passé. Je ne cite que quelques exemples tirés de l'histoire archéologique récente du Proche-Orient. Les fouilles de Doura-Europos sur l'Euphrate, en Syrie, qui durèrent plus de dix ans, furent commencées par le savant Belge Franz Cumont, et reprises par l'Université américaine de Yale, à laquelle s'associa l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres de France. La mission du français Maurice Dunand, et du Danois Harold Ingholt a travaillé à Palmyre en 1924. Ce dernier a travaillé également avec A. Gabriel dans le même site en 1925. La mission archéologique française présidée par M. André Parrot travaille depuis 1934 jusqu'à maintenant à Tell-Hariri en Syrie en s'attachant plusieurs spécialistes non-français dont M. Georges Dossin professeur à l'Université de Liège. De même la mission de l'Université d'Upsala présidée par A. Haldar qui opère actuellement dans le Tell-es-Salhieh auprès de Damas s'est attachée l'archéologue allemand Von Der Osten.

En Egypte un chantier du Service des Antiquités sous la direction de W. B. Emery fouille à Saqqarah avec les subventions de l'Egypt Exploration Society à Londres et en collaboration avec le Dr. Adolf Klaesens du musée des Antiquités à Leyde (Pays Bas). Dans le même pays s'effectuent également des travaux épigraphiques et photographiques dans les tombes inédites ou incomplètement publiées de la nécropole thébaine par une équipe comprenant les deux anglais le Dr. John Barns, Harry James, un hollandais Dr. Josef Janssen un Egyptien Arpag Mekhitarian, avec des subventions anglaises, belges, suédoises et égyptiennes.

sur la voie du progrès, à constituer ses musées, et grouper ce qui lui reste de documents et d'œuvres de son passé. Cela lui permettrait de s'intégrer à la communauté internationale, tout en l'aidant à retrouver sa place parmi les autres nations et en lui faisant comprendre ce qu'elle a donné au monde et ce qu'elle en a reçu.

Cette initiative serait aussi en conformité avec la révolution pacifique entreprise par l'UNESCO, tendant à faire bénéficier les pays insuffisamment développés, des applications de la science, dont l'histoire et l'archéologie.

Surtout cette sorte de collaboration entre les grands musées et les musées en voie de constitution, pourrait se faire par l'intermédiaire de l'ICOM et pourrait se manifester dans divers domaines dont les recherches scientifiques, la constitution des collections, et la mise en valeur des objets de musée.

1 — LES RECHERCHES SCIENTIFIQUES

Le travail en commun est extrêmement désirable dans le domaine des recherches scientifiques et culturelles dont le but est d'assurer une meilleure connaissance du passé. Les étapes variées du progrès réalisé dans les études historiques archéologiques et épigraphiques par les grandes institutions et les centres universitaires, incitent les spécialistes à se connaître et à se rapprocher pour confronter les résultats de leurs recherches. De cette confrontation résultait et résulte encore un grand profit pour les études égyptologiques, bibliques, syriennes, grecques, latines, byzantines, musulmanes etc... ce qui a rendu et rend par conséquent à l'archéologie et à l'histoire de grands services.

Il n'est pas possible à l'époque actuelle de ne pas tenir compte de ces expériences, car les pays les plus avancés scientifiquement ne peuvent pas renoncer aux apports étrangers. La science archéologique internationale a besoin pour se développer, du travail de la collaboration de tous les savants du monde.

Aussi une entreprise de fouilles parfaites exige-t-elle maintenant la coopération de plusieurs spécialistes, archéologues, architectes, épigraphistes, géographes, chimistes, dessinateurs, photographes, etc... qui travaillent ensemble dans un pays tout en connaissant son histoire, son

développer le chauvinisme, ou servir une propagande autre que celle de l'exaltation de la collaboration internationale.

De plus, il serait souhaitable, dans le but de développer l'amitié entre les peuples, de créer selon un plan conçu par une autorité internationale comme l'ICOM des expositions temporaires, que l'on pourrait faire circuler, d'un pays à l'autre et qui serviraient à montrer les plus belles réalisations de l'humanité ou les dettes réciproques entre les peuples, par exemple, nous pourrions présenter ce que nous devons à chacune des trois grandes divisions de l'histoire, l'Antiquité, le Moyen-Age et les Temps Modernes, ou à un siècle déterminé comme le XVIII^e ou le XIX^e siècles, ou à une civilisation quelconque, comme la civilisation égyptienne, la civilisation arabe, et autres, ou à un pays ou continent comme la Chine, ou l'Amérique du Nord.

En effet si ces manifestations se multipliaient la culture historique se diffuserait en rendant claire la solidarité du passé avec le présent, et la part active jouée par chaque nation dans l'élaboration de la civilisation internationale d'aujourd'hui.

Mais ceci n'est pas possible avant de créer une collaboration active entre les musées d'histoire et d'archéologie, d'harmoniser leurs rapports, de délimiter leur mission culturelle, et de coordonner les efforts de leurs dirigeants. Il faudrait trouver les principes généraux d'une muséographie, si l'on peut dire internationale, dont le but serait le choix et la présentation des œuvres et documents archéologiques et historiques éclairant les contacts pacifiques des pays, l'interdépendance des nations sur les plans culturel et matériel, et la diffusion des techniques, des industries, des inventions, des outils qui ont transformé les sociétés, ou servi à un moment donné à assurer le bien-être de l'homme.

Il n'est pas facile de trouver à priori les principes généraux de cette muséographie internationale, mais l'on pourrait y parvenir en travaillant en commun, et en essayant l'efficacité des idées que nous avons pour l'organisation de ce travail. Ce qui importe surtout est de créer ce travail, et de l'organiser. Il est d'ailleurs plus facile pour le moment, de l'engendrer entre les musées des pays développés et les musées des pays en voie de développement.

En effet, il serait très intéressant d'aider une nation peu fortunée animée de bonne volonté et désireuse de marcher par tous ses moyens

MUSÉES ET COMPRÉHENSION INTERNATIONALE

par

M. SÉLIM ABDUL-HAK

Directeur Général des Antiquités de Syrie

Bien qu'il se trouve des gens pour considérer l'histoire comme nocive par sa possibilité de fournir un aliment aux conflits internationaux, l'objectivité de cette science, son exactitude, sa tendance actuelle de réserver une large place à l'histoire des idées, des arts, des techniques, et de noyer les histoires nationales dans les histoires universelles, en font un moyen très efficace pour rapprocher les peuples, concrétiser leur interdépendance, et dégager le caractère de la civilisation qui est un vaste ensemble d'échanges et de services mutuels entre les nations.

Le rôle des musées d'archéologie et d'histoire est très important dans la réalisation de ces diverses tâches. En effet ces institutions pourraient rendre l'universalité de la civilisation comme une réalité tangible, puisqu'elles conservent, quoique d'une façon fragmentaire, et à des degrés variés, le legs du passé et les œuvres qui montrent les traces du progrès réalisé par l'homme à travers les siècles, son triomphe sur la matière, et sa confiance dans son destin. Il s'agit de faire valoir tout ce qui pourrait illustrer les conquêtes pacifiques de chaque peuple, et tout ce qui avait, dans ses traditions et mœurs, contribué à l'amélioration de la vie du monde.

C'est aux directeurs et conservateurs des musées historiques et autres de se montrer objectifs et animés d'un sens international, en organisant les institutions dont ils ont la charge, et en excluant tout ce qui pourrait

principales religions monothéistes. Cette vocation remonte aux Cananéens, si injustement décriés, qui avaient atteint de bonne heure un remarquable développement religieux et moral que résumera cette citation d'un texte de Ras Shamra (V AB, E, 38-39) :

Ta parole, (ô) El, est sagesse (*hkm*)

(et) ta sagesse (est fonction) de (ta) vie éternelle,

RENÉ DUSSAUD

Membre de l'Institut



Une vie commerciale intense entre l'Arabie méridionale et la Syrie amène nombre de nomades à se fixer en bordure des pays sédentaires. Ainsi, certains groupes ethniques se sédentarisent à l'exemple des Nabatéens et des Palmyréniens, tout en continuant leur négoce. On les voit même s'organiser en royaume. Palmyre faillit créer un véritable empire comprenant avec la Syrie, l'Égypte et l'Asie Mineure.

Dès le III^{ème} millénaire, les Cananéens étaient sédentaires dans le pays d'Edom, au Négeb et sur le territoire dit plus tard philistin. Les textes de Ras Shamra nous apprennent que vers le milieu du II^{ème} millénaire ils adoraient entr'autres divinités les dieux Elyôn et El qui leur étaient communs avec les Patriarches d'Israël. On ne peut guère expliquer ce fait qu'en supposant que ces grands dieux avaient été importés d'Arabie où on les retrouve sous la forme de dieu du ciel et de dieu El.

Dès le III^{ème} millénaire, quand ces Cananéens s'installèrent à Tyr, à Sidon, à Byblos et au Liban pour bientôt gagner Ras Shamra (Ugarit), ils adoptèrent Hadad qu'ils qualifièrent de Baal et qui régnait sur les hautes montagnes avec ses orages terrifiants et ses pluies abondantes. Dès lors le groupe cananéo-amorréen recouvrit toute la Syrie, fort de son unité linguistique et de l'unité de son culte.

L'extension de la population cananéo-amorréenne, soutenue par un constant apport arabe, recouvrit tout le pays syrien jusqu'à l'Euphrate et même, par instant, déborda en Mésopotamie. Cependant, diverses puissances limitèrent ce mouvement et les Assyriens mirent définitivement fin à cette expansion en refoulant les Cananéens vers l'Ouest. C'est alors, vers la fin du II^{ème} millénaire que l'excédent de population syrienne chercha un exutoire en Méditerranée et fonda des colonies à Malte, en Afrique du Nord et jusqu'en Espagne. A partir de ce moment l'introduction de nomades arabes en Syrie fut contrebalancée par l'émigration des Cananéens vers la Méditerranée occidentale.

Il résulte de cet aperçu trop rapide, qui demanderait un plus long développement, que les fouilles pratiquées en Syrie depuis une trentaine d'années ont complètement transformé les données historiques admises jusque-là; elles ont mis en honneur le rôle éminent joué par les populations arabo-syriennes, rôle qui a abouti à susciter sur leur sol les trois

dans l'ordre que conservera l'alphabet hébreu et par suite tous les alphabets encore en usage en Occident.

C'est aussi l'époque où les légendes phéniciennes pénètrent en Egypte et ont plus ou moins inspiré les conteurs égyptiens. Les fragments égyptiens de la légende d'Astarté éclairent un texte d'Ugarit.

...

Jusqu'ici on s'est adonné à l'étude des antiquités syriennes en les distinguant par matières et par pays. Il faut aborder maintenant le problème de synthèse et c'est précisément à quoi doivent servir les fouilles méthodiquement conduites.

La géologie et la géographie physique montrent que l'Arabie et la Syrie forment un seul et même plateau tabulaire bien isolé par les particularités qui le distinguent. Il constitue le domaine propre et exclusif des Sémites avec, naturellement, des frontières assez imprécises vers le nord. Cet immense territoire de 3.000 kilomètres dans un sens et de près 1.500 dans l'autre, est défendu par son caractère désertique. Le climat y est particulièrement sain, mais la vie y est dure, propre à former une race forte. Les nécessités de la transhumance obligent la population à de longs parcours saisonniers qui multiplient les rapports entre les tribus et obligent à un contact avec les sédentaires. Entre les deux derniers éléments s'établit un véritable lien de fraternité (*Khouwa*). Quand le pays sédentaire est doué d'un gouvernement fort, le nomade se plie aux règles que fixe cette autorité. Sinon, il tend à dominer et à s'installer à demeure.

Les rapports entre nomades et sédentaires, qui sont généralement eux-mêmes d'anciens nomades, se compliquent de tout un échange de produits, notamment celui qu'entraînait dans l'antiquité le trafic caravanier amenant sur la côte de la Méditerranée les produits de l'Arabie et des Indes.

Grâce aux quatre mille inscriptions monumentales sud-arabes découvertes surtout dans le Yémen, on arrive à suivre l'organisation que se donna cette population au cours du premier millénaire avant l'ère. Du système tribal, né de la vie nomade, on passe à l'institution des *mukarrib*, sortes de princes-prêtres, assez comparables aux « Juges » d'Israël, qui devait aboutir à la royauté.

Le gain historique, religieux et philologique apporté par ces textes est considérable ; il dépasse de beaucoup en intérêt la découverte des tablettes d'el-Amarna qui fit sensation à l'époque.

Pour n'en donner qu'un exemple, la question des Hyksos est définitivement tranchée. On avait imaginé, contrairement à l'avis formel de Manéthon et de ses successeurs, que les Hyksos auraient été des Hourrites qui, descendant de Mésopotamie, auraient traversé la Syrie, du nord au sud, pour envahir le Delta du Nil. On attribuait à ces Hourrites l'introduction en Egypte du char attelé de chevaux, ce qu'on a reconnu être faux, le cheval apparaissant plus tardivement en Egypte. On prétendait même que les Hourrites avaient constitué un vaste empire comprenant la Crète, l'Egypte, jusqu'y compris la Mésopotamie à travers toute la Syrie.

Il faut renoncer à ce fallacieux roman et revenir à la tradition manéthonienne, à savoir que les Hyksos étaient des Cananéens et des Arabes. En effet, aucune des dynasties hyksos ne porte un nom hourrite. Tous leurs noms sont égyptiens ou sémitiques. En dehors des divinités locales égyptiennes, ils ne vénèrent que des divinités cananéennes, El, Baal, Anat.

On possède d'autre part, antérieurement à l'arrivée des Hyksos (1730), des textes d'exécration égyptiens contre des princes syriens : tous les noms cités sont sémitiques. Ces textes attestent que les Cananéens étaient fort redoutés en Egypte ce qui explique la construction d'un mur barrant l'Isthme de Suez.

Les textes égyptiens déplorent naturellement cette occupation cananéenne, et les Sémites ne nous en ont transmis que les légendes concernant Joseph et Jacob. Mais l'événement s'est répercuté jusqu'en Grèce. En Crète, on a découvert un couvercle de vase au nom de Khyan, roi hyksos. Ce vase a dû faire l'objet d'un échange de présents. Récemment, M. Jean Bérard a relevé l'écho de tels rapports dans la légende grecque d'Io, fille du roi d'Argos, enlevée par un navire phénicien qui l'emmena non en Phénicie, mais en Egypte, ce qui se comprend puisqu'à cette époque le Delta était terre syrienne.

Loin d'être une ère d'Obscuratisme ces années d'occupation en Egypte sont marquées par un développement culturel remarquable puisqu'elles virent la constitution de l'alphabet phénicien qui, fut adopté aussi bien en Palestine et en Phénicie qu'à Ras Shamra. Car pour avoir adopté un système cunéiforme, les abécédaires de Ras Shamra sont rédigés

en son genre — on aboutit au classement céramique permettant de remonter au début de l'âge du Bronze. Les découvertes ultérieures firent apparaître une remarquable unité de civilisation. Ainsi nombre de vases de Ras Shamra (Ugarit) sont identiques à ceux de Palestine.

Enfin, en 1920, s'ouvrit l'ère féconde des fouilles en Syrie auxquelles les autorités locales prêtent le meilleur concours. Notre intention n'est pas d'en retracer le détail ni de signaler les maîtres de l'œuvre, mais de noter quelques importants résultats déjà acquis et de montrer les nouveaux faits historiques qui en résultent.

Les anciens historiens ne pouvant utiliser que la documentation fournie par l'Égypte et la Mésopotamie avaient tendance à tenir la Syrie comme une province secondaire entièrement dépendante de ces grands empires. L'originalité de la civilisation syrienne leur a complètement échappé.

Pour ne citer que les deux principaux sites méthodiquement exploités de Ras Shamra (Ugarit) et de Mari, les fouilles en ces points ont fait apparaître des installations singulièrement développées et des centres d'art remarquables. L'un et l'autre sites se sont signalés par la découverte de textes nombreux et de première importance. Chaque année, ils fournissent un nouveau contingent de documents essentiels. Comprenant leur devoir, les chefs de mission se hâtent de publier leurs découvertes, ce qui en décuple l'intérêt. La bonne fortune qui leur échoit est due au fait que les scribes de ces deux cités ont usé d'un matériel d'écriture impérissable, la tablette d'argile.

Des milliers de tablettes découvertes dans le palais de Mari nous rendent, dans le détail, la vie et les vicissitudes de cette importante cité dans la première moitié du II^e millénaire, et elles éclairent l'histoire des pays voisins.

Quant aux tablettes de Ras Shamra, elles nous ont restitué des pages entières de la littérature phénicienne. Un savant géographe n'avait-il pas assuré que la littérature phénicienne, cependant attestée par les auteurs anciens, n'avait jamais existé ? Nous en possédons maintenant les originaux du XI^e siècle, avec tout un matériel administratif, contrats, syllabaires en langues diverses, lettres royales, comptes divers et autres documents d'archives qui attestent un haut développement intellectuel.

DE L'INTÉRÊT DES RECHERCHES ARCHÉOLOGIQUES EN SYRIE

par

RENÉ DUSSAUD

Il suffirait pour mesurer cet intérêt de visiter les musées Syriens qui n'ont rien négligé pour parler à l'imagination non seulement en exposant les produits des fouilles syriennes, qui ont révélé les civilisations ayant fleuri dans le pays depuis quatre mille ans avant l'ère, mais aussi par d'heureuses restitutions monumentales. Aucun musée au monde, ne peut comme celui de Damas montrer des reconstitutions aussi spectaculaires. D'abord la superbe façade du palais omeyyade de Qasr-el-Heir, puis sous terre une partie du somptueux tombeau palmyrénien de Iarhai et jusqu'aux fresques inattendues de la synagogue de Doura-Europos. Mais pour ceux qui ne peuvent en juger par leurs propres yeux, quelques mots d'explication ne seront peut-être pas inutiles. D'ailleurs, les résultats des fouilles de Syrie ne sont pas seulement un sujet d'admiration esthétique, mais aussi une rare satisfaction pour l'esprit, celle que suscite l'intime compréhension d'une brillante évolution de civilisation.

Les archéologues ont d'abord été attirés par l'Égypte que l'expédition de Bonaparte avait révélée au monde occidental. Puis ce fut le tour de la Mésopotamie. Longtemps la Syrie ne put être que superficiellement prospectée. Les premiers coups de pioche donnés par la mission d'Ernest Renan (1860 - 1861) n'eurent pas de lendemain jusqu'à la venue de M. P. Montet.

La Palestine fut l'objet de soins plus attentifs et à défaut de documents épigraphiques — exception faite de la stèle de Méša, restée unique

LES ANNALES ARCHÉOLOGIQUES DE SYRIE

Revue d'archéologie et d'histoire syriennes, publiée par la Direction Générale des Antiquités de Syrie. Elle paraît deux fois par an, et se propose de contribuer au développement de la science archéologique, à la publication des fouilles, et de regrouper les amis et les spécialistes des Antiquités Syriennes.

♦ ♦ ♦

Elle publie des articles en arabe, français, anglais et allemand et elle pourra éventuellement faire l'objet d'un échange avec toutes les revues archéologiques et historiques du monde entier.

♦ ♦ ♦

La rédaction et la direction de la revue des Annales Archéologiques de Syrie sont assurées par :

M. Sélim Abdul-Hak, Directeur Général des Antiquités de Syrie.
M. George Haddad, Directeur de la Section d'Histoire à la Faculté des Lettres de Damas.
M. Mouti, Mourabet, Directeur des Affaires Administratives à la Direction Générale des Antiquités.
M. Fayçal Seirafi, Conservateur du Musée d'Alep.

♦ ♦ ♦

CONDITIONS D'ABONNEMENT

20 Livres Syriennes en Syrie.	par an.
50 Shillings ou l'équivalent en dollars et en francs à l'étranger.	» »
10 Livres Syriennes en Syrie.	Le prix de chaque numéro.
25 Shillings ou l'équivalent, à l'étranger	» » » » »

Les ouvrages dont on désire se procurer un compte rendu sont à adresser à la direction de la revue.

Le Conseil d'Administration de la Direction Générale des Antiquités est composé pour l'année 1954 de :

M. Sélim Abdul-Hak	Président
M. George Haddad	Membre
M. Rafiq Sioufi, Directeur du Service du Contrôle au Ministère des Finances	»
M. Nour el-dine Hatoum Professeur à Faculté des Lettres	»
M. Mouti Mourabet	»
Chef d'une section de la Direction Générale des Antiquités	

L'adresse : Revue des Annales Archéologiques de Syrie. Direction Générale des Antiquités — Damas, Syrie.

RÉPUBLIQUE SYRIENNE
DIRECTION GÉNÉRALE DES ANTIQUITÉS
LES ANNALES ARCHÉOLOGIQUES DE SYRIE
REVUE D'ARCHÉOLOGIE ET D'HISTOIRE SYRIENNES

Tome III

1953

N° 1 et 2

SOMMAIRE DU PREMIER ET DEUXIÈME NUMERO

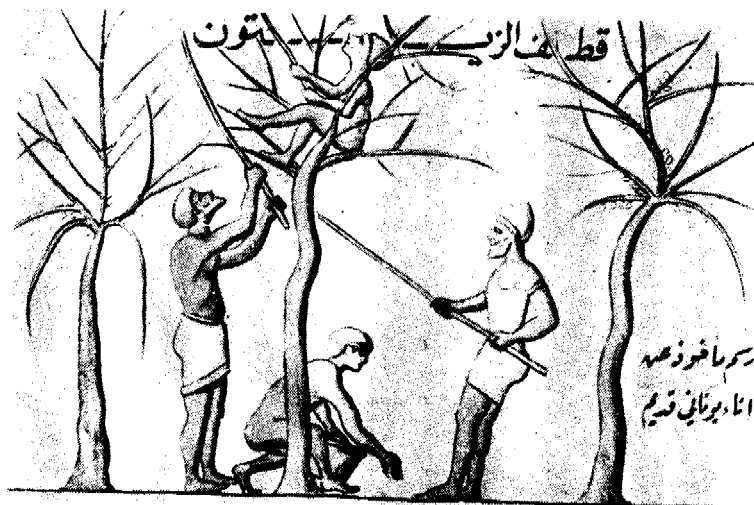
A) PARTIE OCCIDENTALE

1) M. René Dussaud	De l'intérêt des recherches archéologiques en Syrie	3
2) M. Selim Abdul-Hak	Musées et compréhension internationale	9
3) M. Joseph Sabeh	Sculptures palmyréniennes inédites	17
4) M. Ernest Will	Une nouvelle mosaïque de Chahba	27
5) M. J. Lauffray	Une madrassa Ayyoubide à Alep	49
6) Mme. Janine Sourdel-Thomine	Une inscription inédite de la madrassa Sultanya à Alep	67
7) M. André Parrot	La neuvième campagne de fouilles à Mari	71
8) Mme. Janine et M. Dominique Sourdel	Notes d'Epigraphie et de Topographie sur la Syrie du Nord	81
9) M. G. Downey	The palace of Diocletian at Antioche	106
10) M. Claude Schaeffer	Les Fouilles de Ras-Shamra-Ugarit	117
11) M. Dja'far al Hassani et J. Starcky	Autels palmyréniens découverts près de la source Efca	
12) M. Maurice Dunand	Recherches archéologiques dans la région de Marathus. Note Préliminaire	165

B) LISEZ DANS LA PARTIE ARABE

1) M. Selim Abdul-Hak	Le présent et l'avenir des musées syriens	3
2) M. George Haddad	La sagesse d'Ahikar	11
3) Aboul-Farag al-Ouch	Les anciennes maisons à Damas	47

اللوحة (١)



اللوحة (٢)

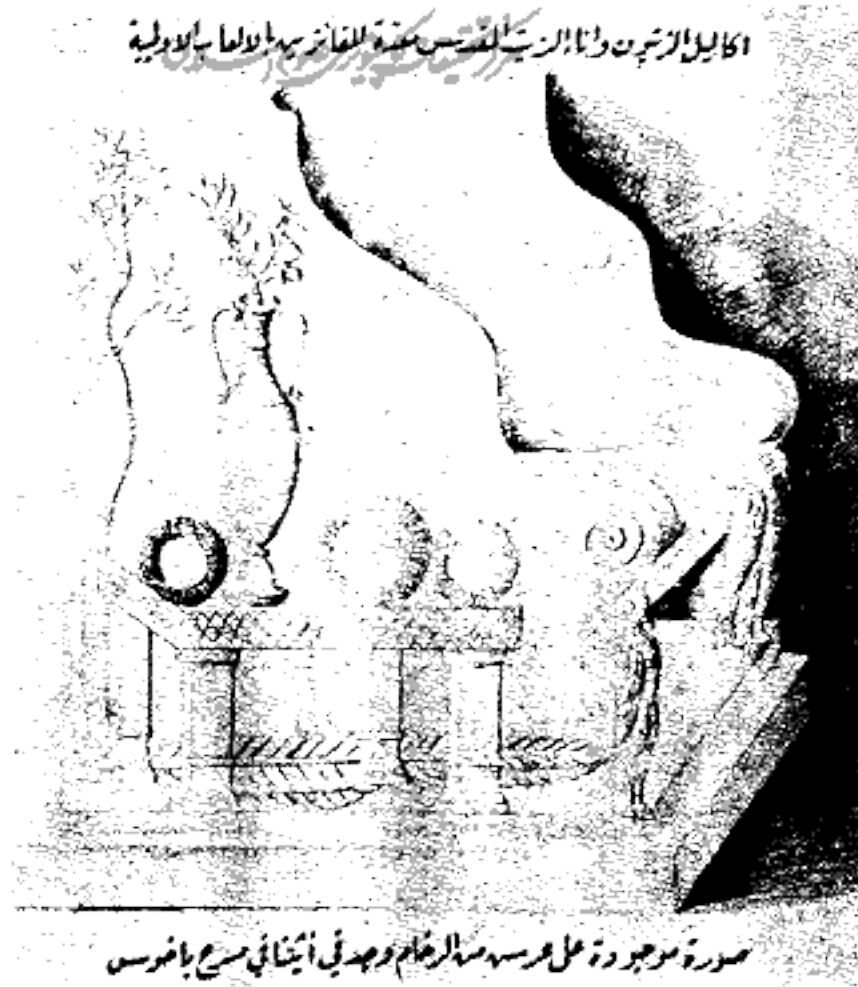


رسم مأخوذ عن تزيينات جرة زيت محفوظة في متحف الفاتيكان
وقد وجدت في كاري في منطقة إيتورريا، وهذا الرسم يمثل (بيع الزيت)

اللوحة (٣)



صورة الجرار السورية التي عثر عليها في أحد مخازن ميناء رأس شمرا (أوغاريت) وكانت معدة للتصدير في القرن ١٤ ق.م وحال دون تصديرها حادث مفاجئ فبقيت تحت التراب حتى عصرنا هذا - اكتشفها البعثة الفرنسية الأثرية تحت رئاسة الدكتور كلود شيفر



صورة موجودة على عرسه من الرخام وجدت في أيتنا في مرسع بأفروس

ال لوح (٤)

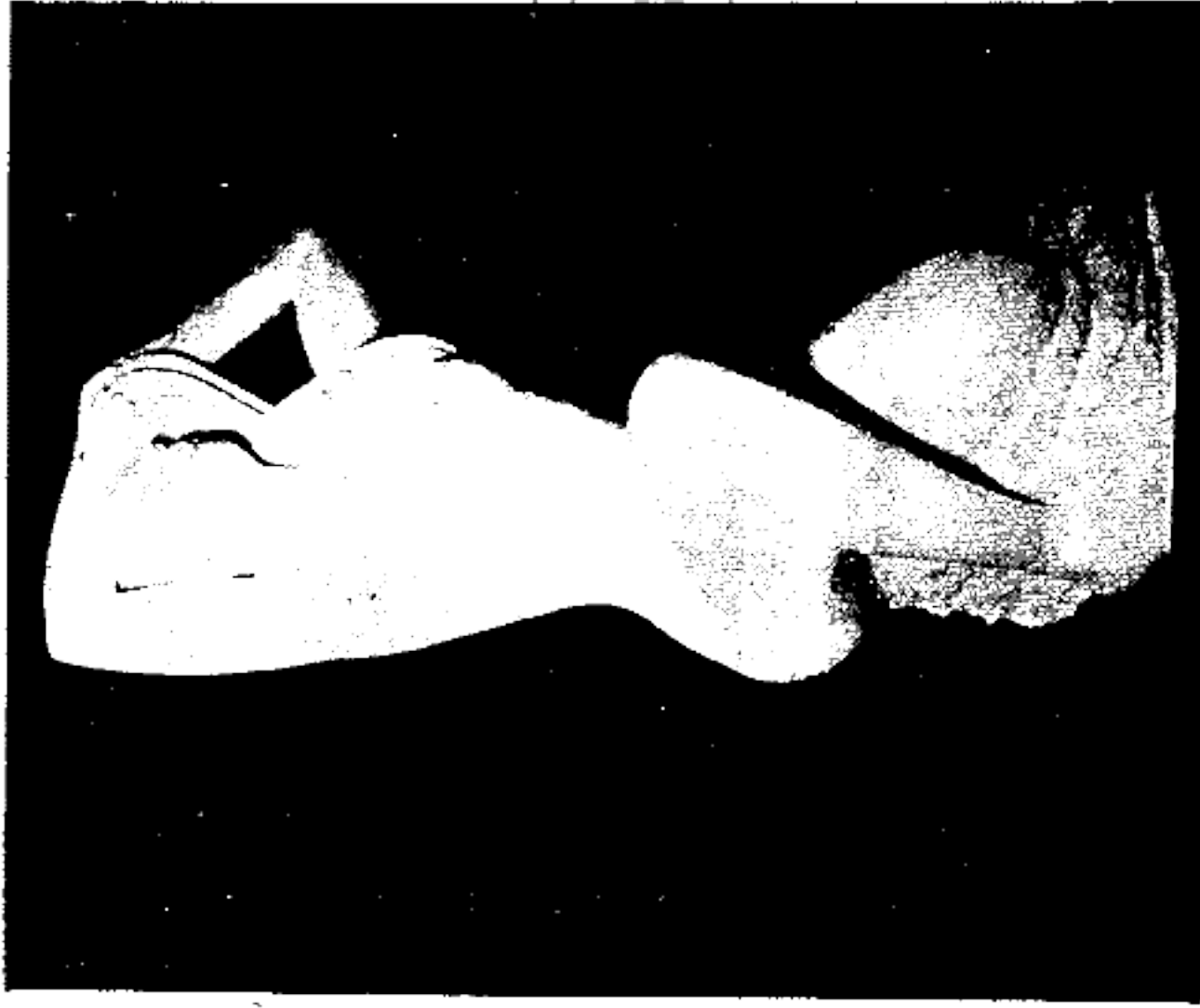


صورة البطل اليوناني (آبوك-يموس) يقشط الوحل المزدوج بالزيت بعد الانتهاء من الصراع



صورة النبي صموئيل وهو مسح رأس داود - الصورة مأخوذة من جدار الكنيس اليهودي الذي وجد في تل الصابية «دورا أوروبوس» وقد أعيد إنشاؤه في المتحف الوطني بدمشق

(اللوحة الأولى)

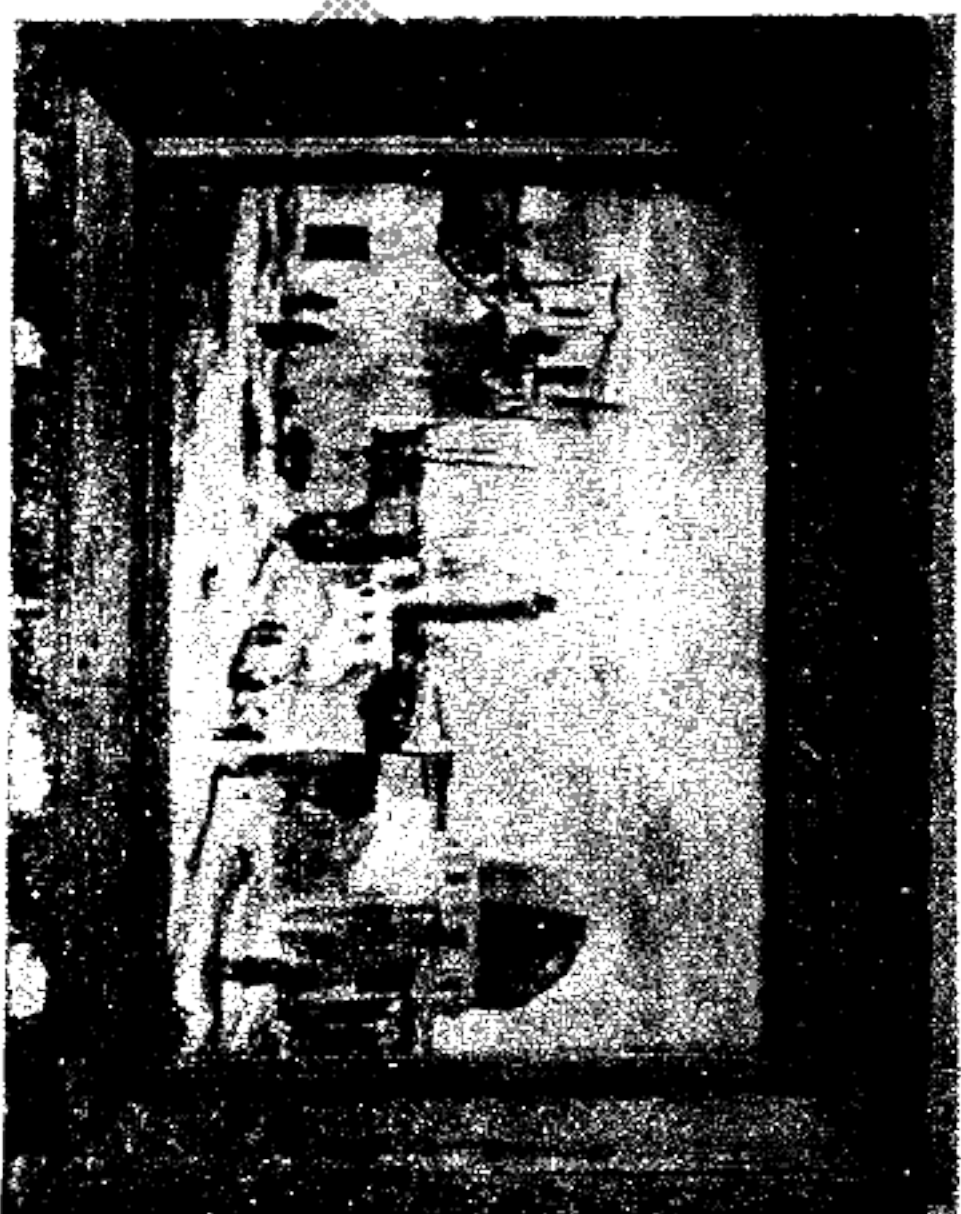


٢ - تمثال (البعوضة) للفنان جاك وردم

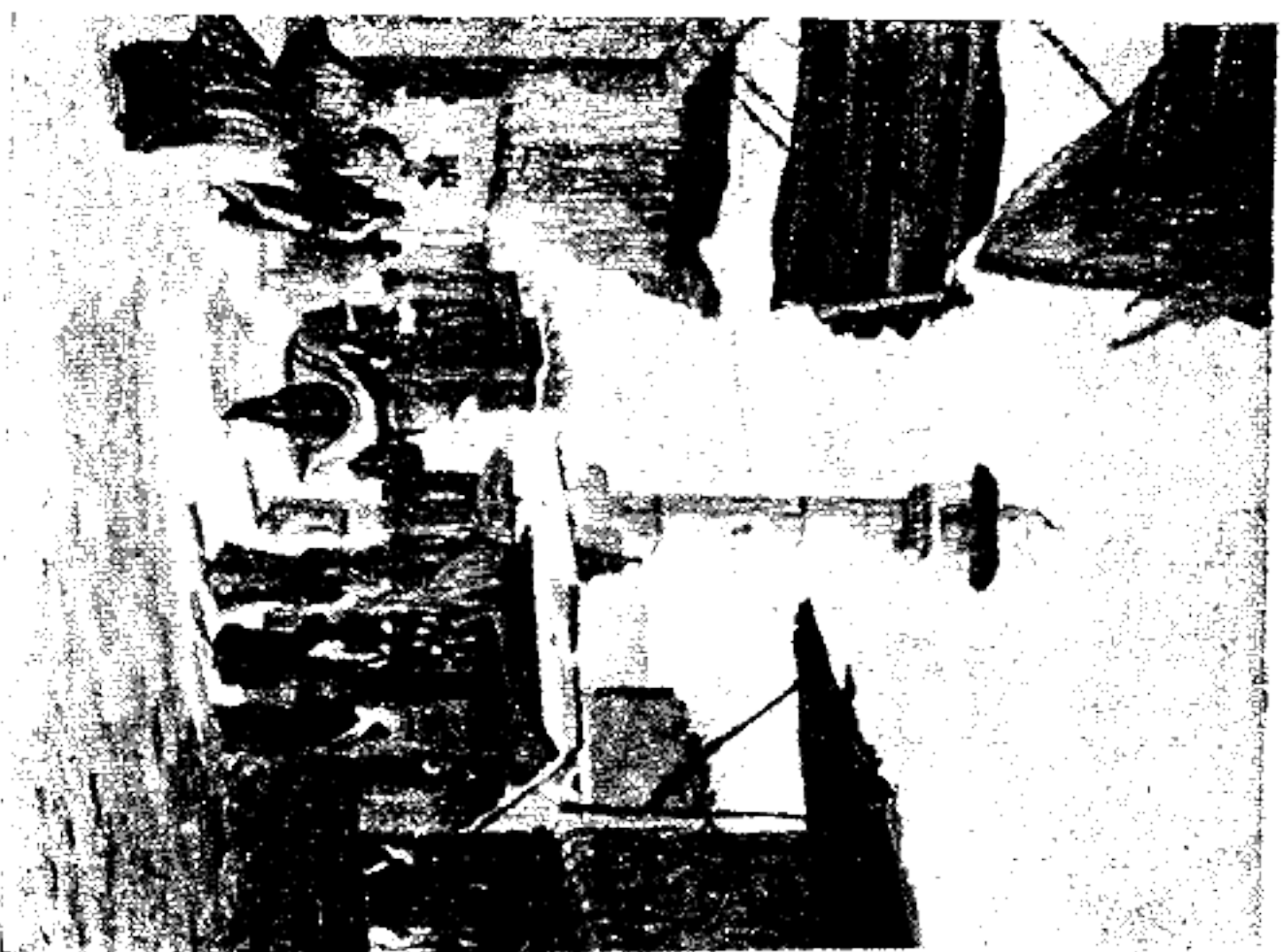


١ - صورة (ذات الشعر الوردي) للفنان الفريد بخاش

(الروح الثاني)



١ — صورة (بيلا) للفنان ميشيل كريشه



٢ — صورة (فانسي عمسكن) للفنان حزقيال طورروس

١ - منظر الفنان فاتح المدرس

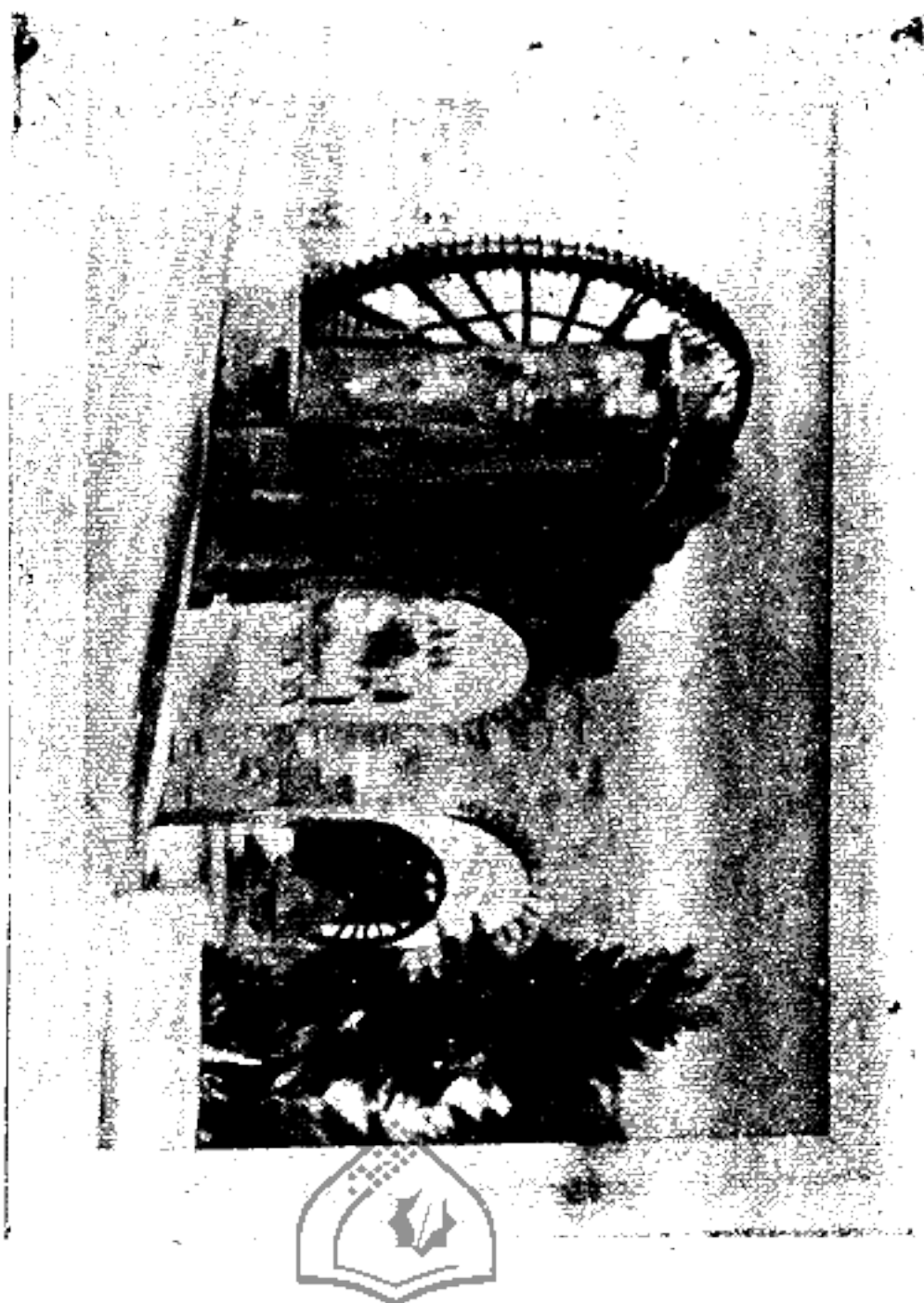


١ - منظر الفنان لصير شوري



(الوح الثالث)

(اللوح الرابع)



٢ — صورة (نواعير حماه) للفنان شريف الاورفلي



١ — منظر الفنان محمود حماد



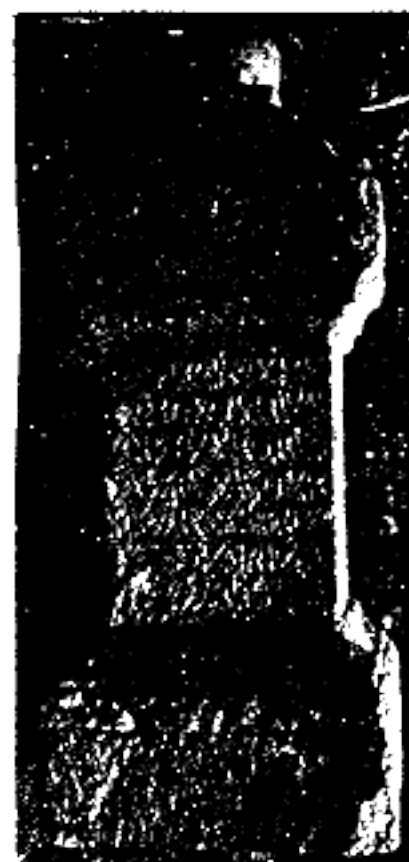
مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



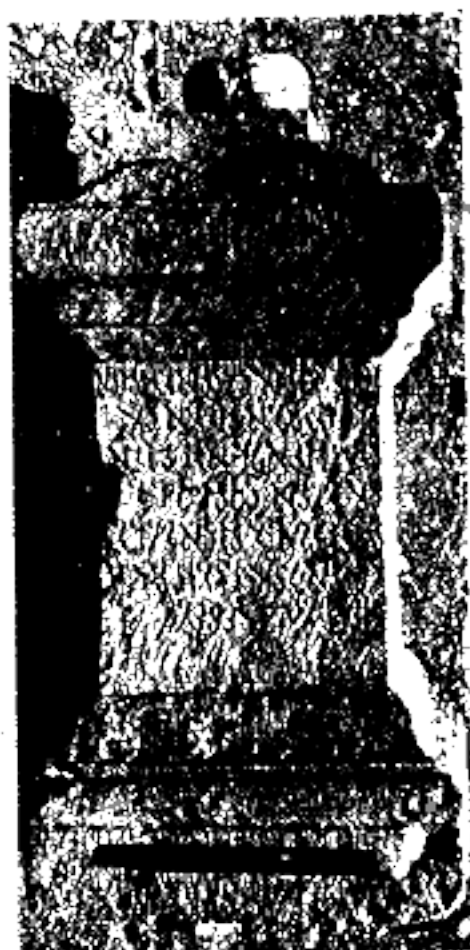
1



2



3



4



5



6



6 bis



2 bis

3

4

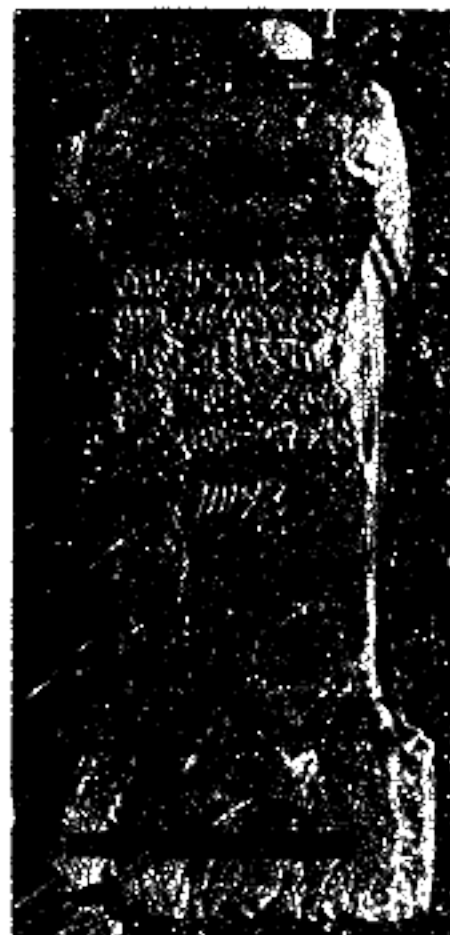
4 bis



1



2



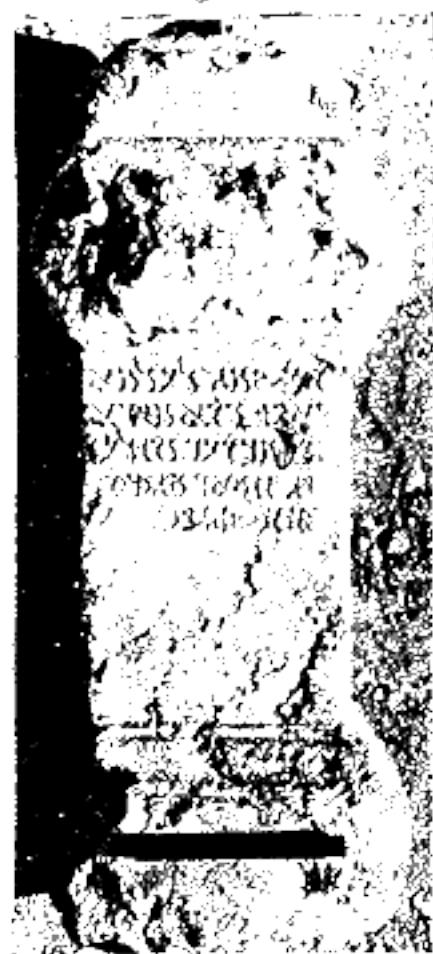
3



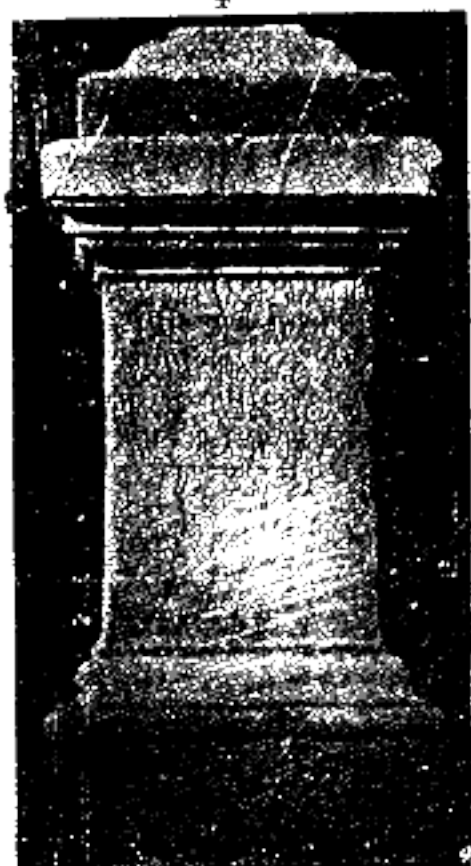
4



5



6



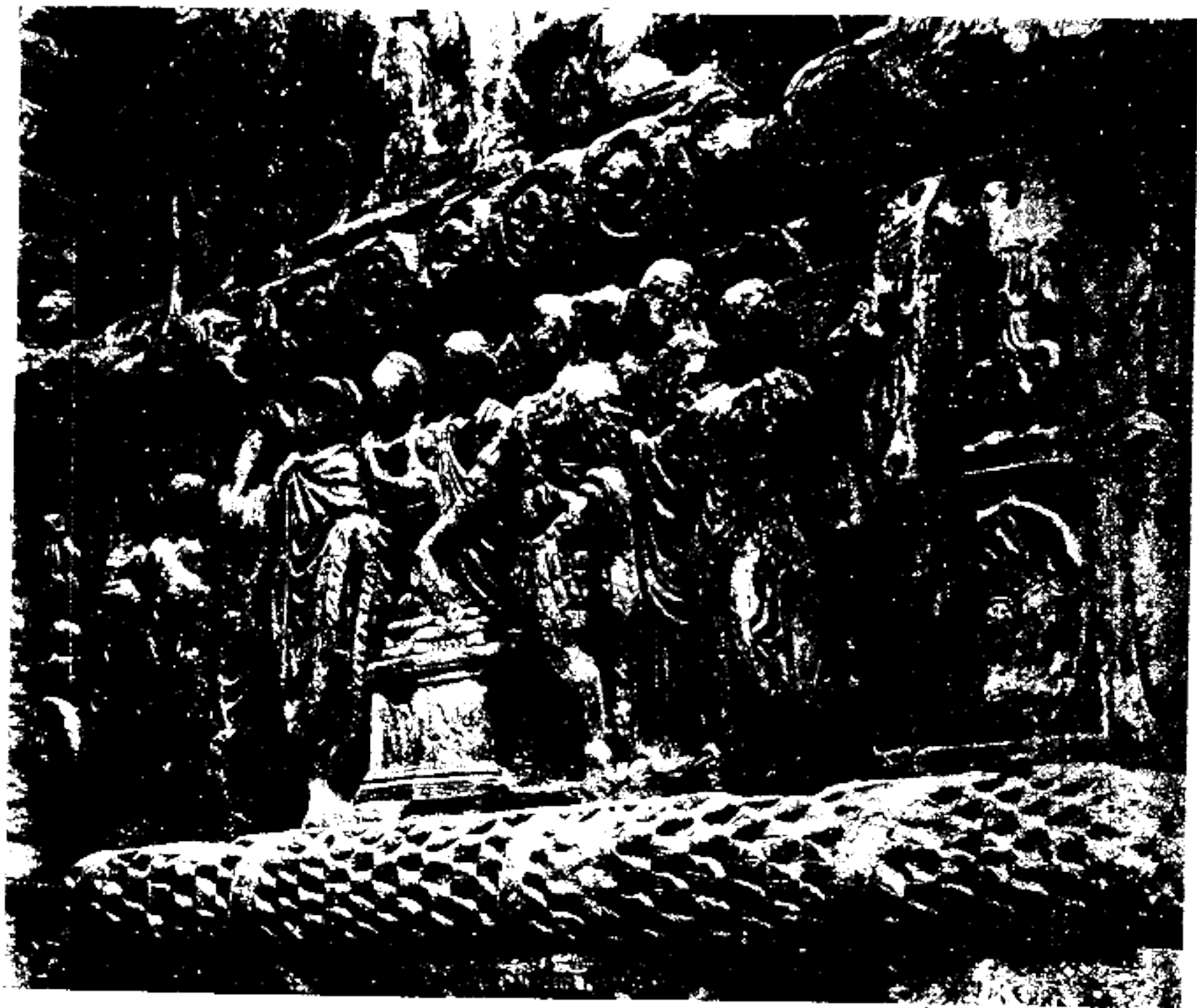
7



8



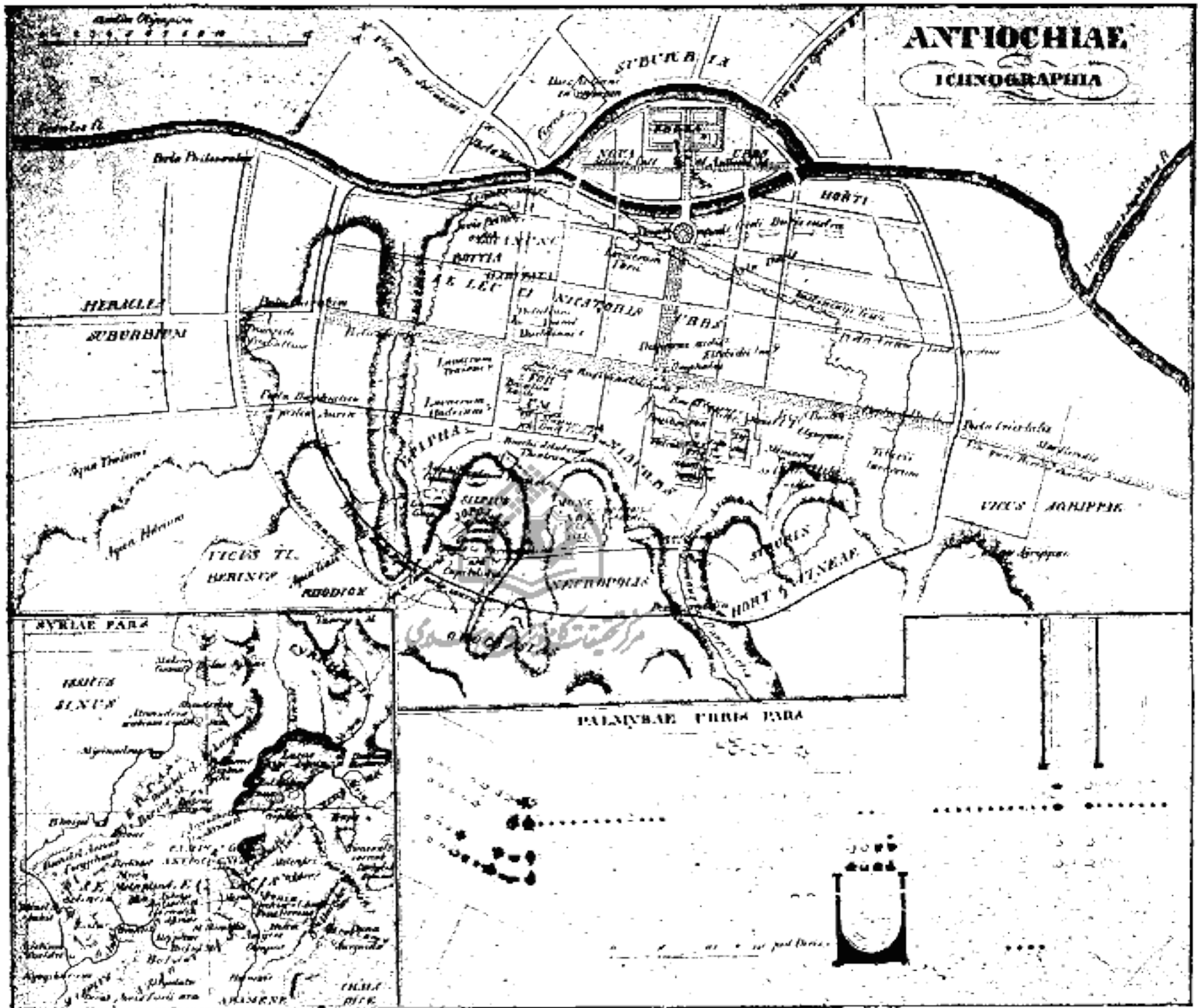
9



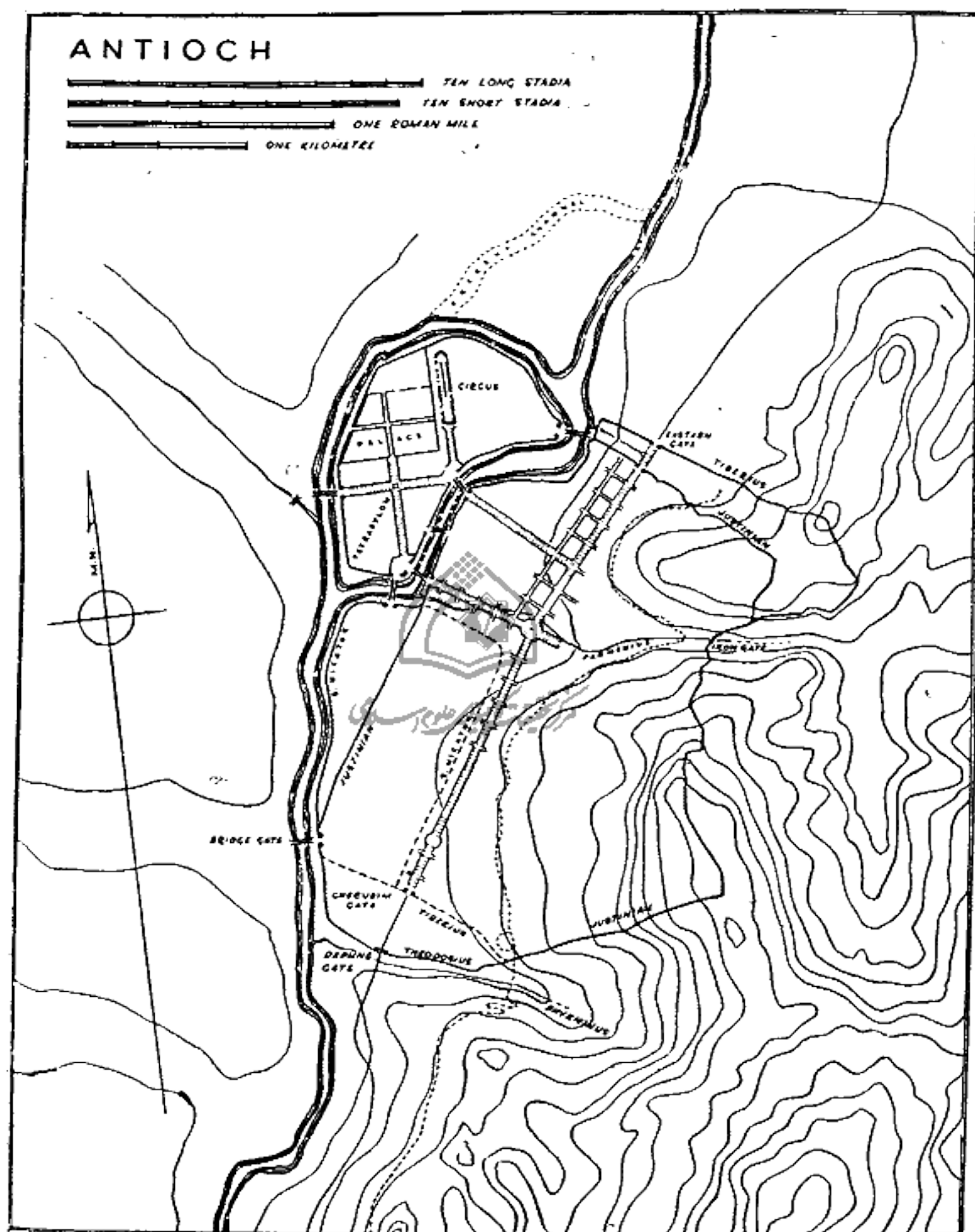
Detail from the topographical border of the mosaic of Megalopsychia from Daphne-Yakto,
from Doro Levi, *Antioch Mosaic Pavements* (Princeton, 1947), Plate LXXX, c.



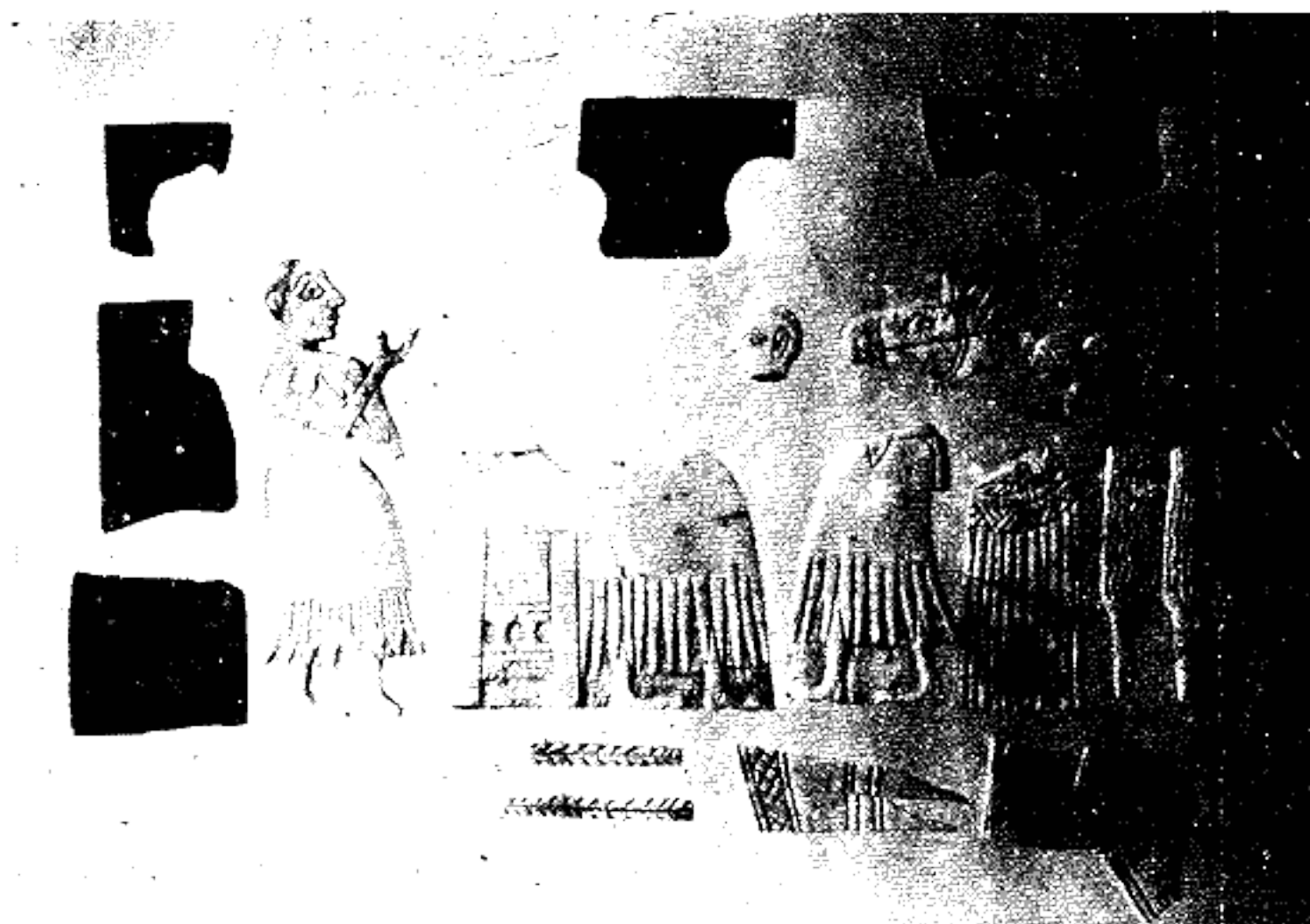
Scene of sacrifice on the Arch of Triumph of Galerius at Thessalonica.
from K. - F. Kinch, *L'arc de triomphe de Salonique* (Paris, 1890), Plate V.



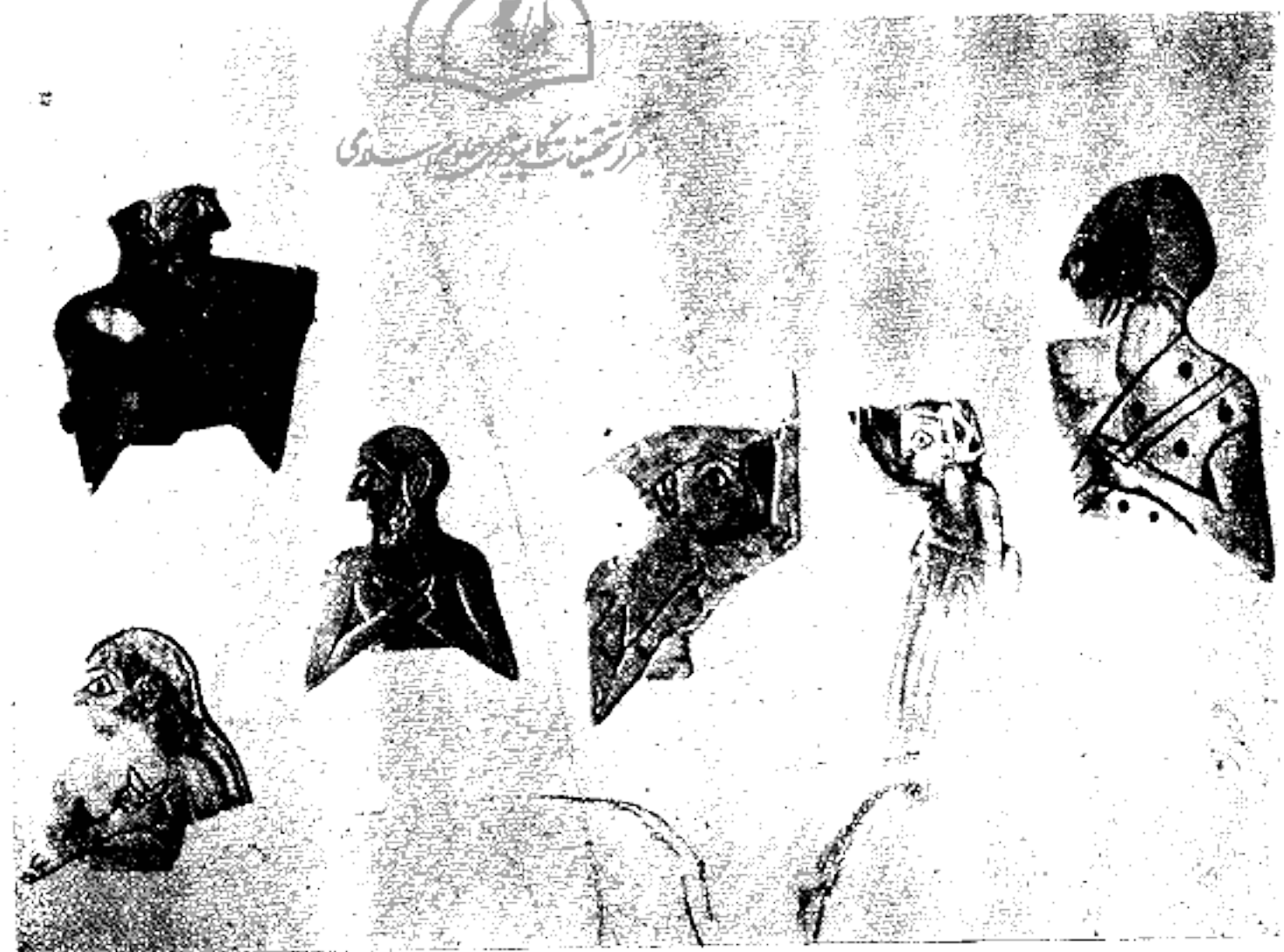
Restored plan of Antioch, based on literary texts and archaeological remains.
from C. R. Morey *The mosaics of Antioch* (New York, 1938). p. 17.



C. O. Mueller's hypothetical plan of Antioch, based entirely upon literary material, with no personal knowledge of the site: from his *Antiquitates Antiochenae* (Goettingen, 1839), Plate A.



Ivoires du temple de Shamash



Coquilles et ivoires. Hommes et femmes.



Tête d'adorant barbu



Tête de femme



a. Le mihrâb.



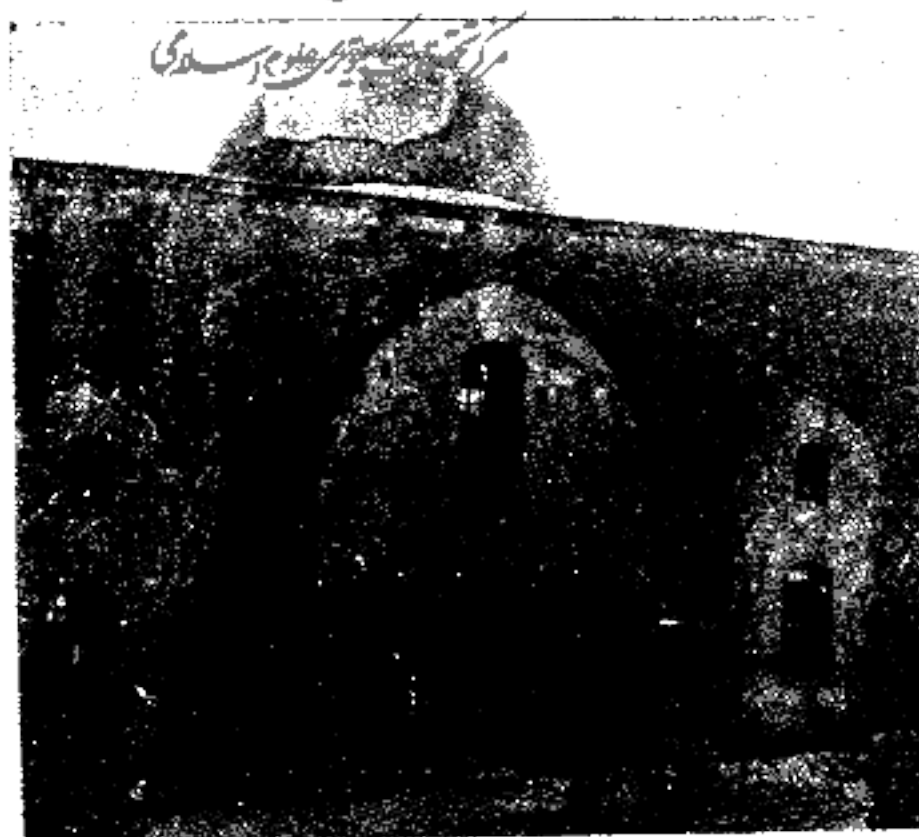
b. Le mur oriental de la salle de prière.



a. Le portail, façade intérieure

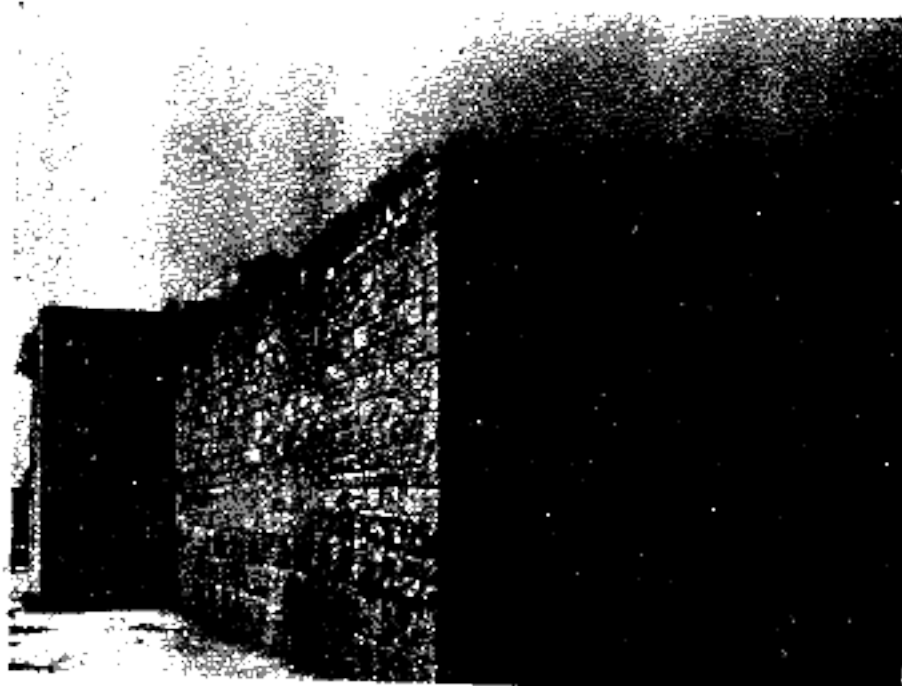


b. Le portail, façade intérieure



c. La façade septentrionale du *ru'jil*.

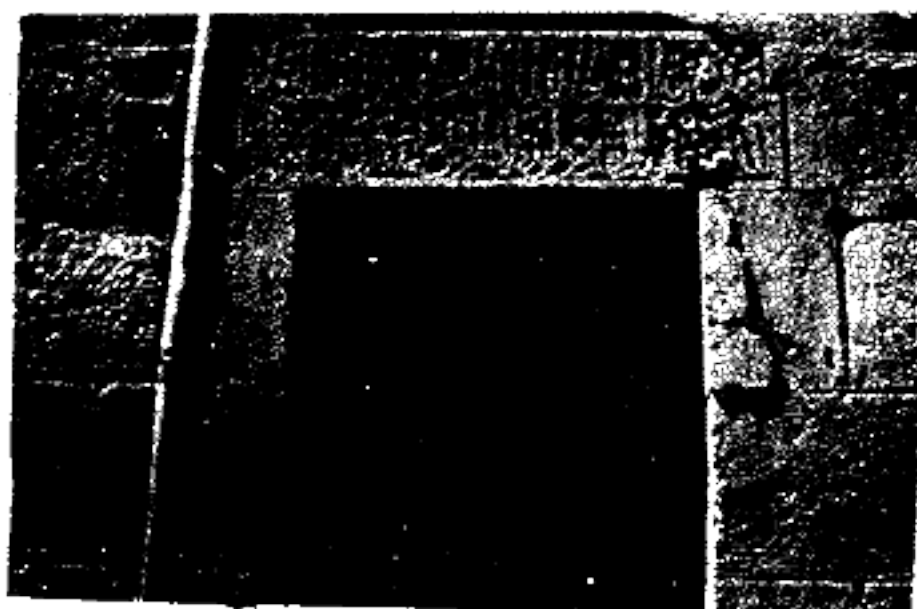
a. L'angle NE, montrant les
reprises d'appareil



b. La façade sud et, à droite, le
mausolée d'al-Malik az-Zâhir.

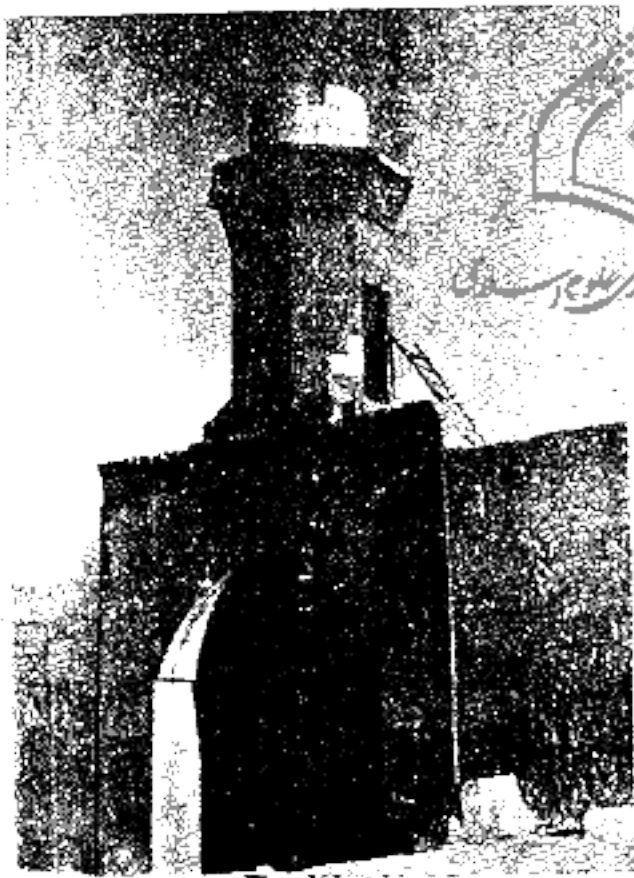


c. L'inscription CIA-147 B





a. La façade nord



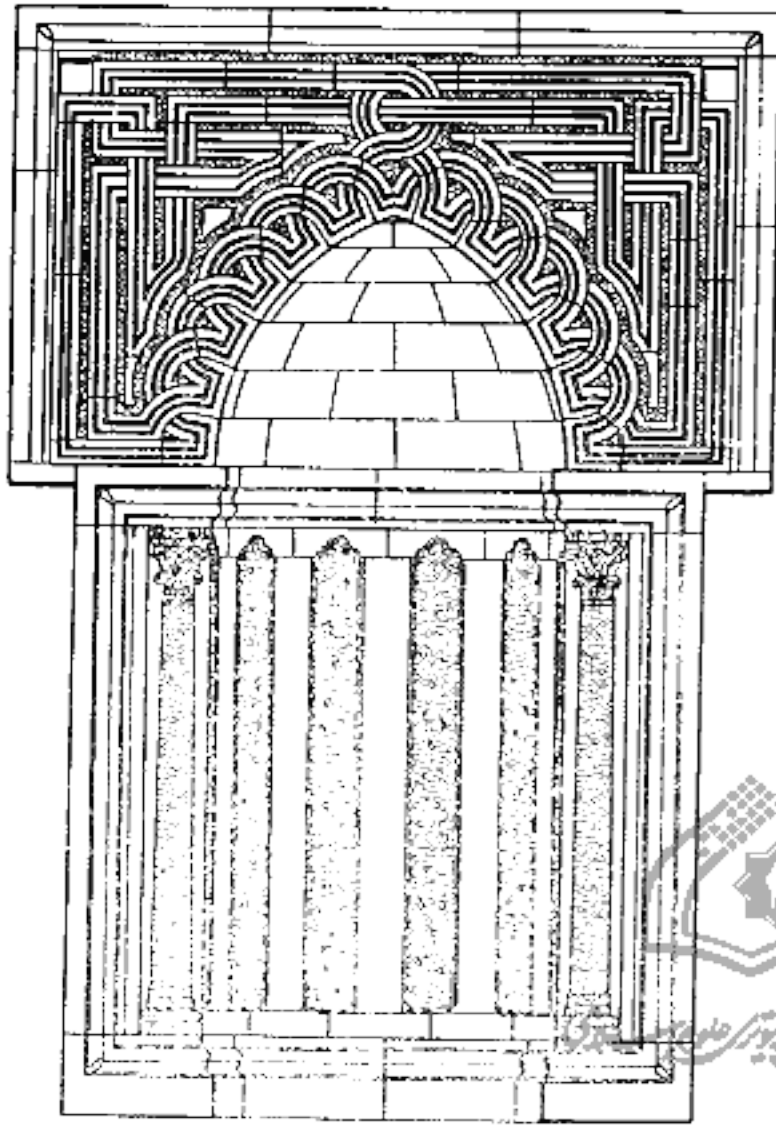
b. Le portail



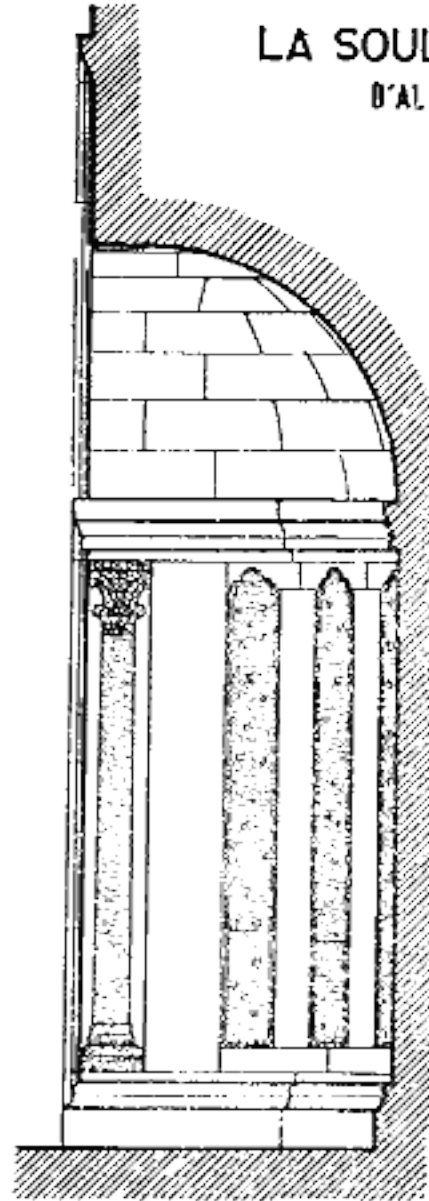
c. La voûte du portail
et l'inscription CIA-149

جام السلطنة
بدمشق

LA SOULTANIYA
D'ALEP



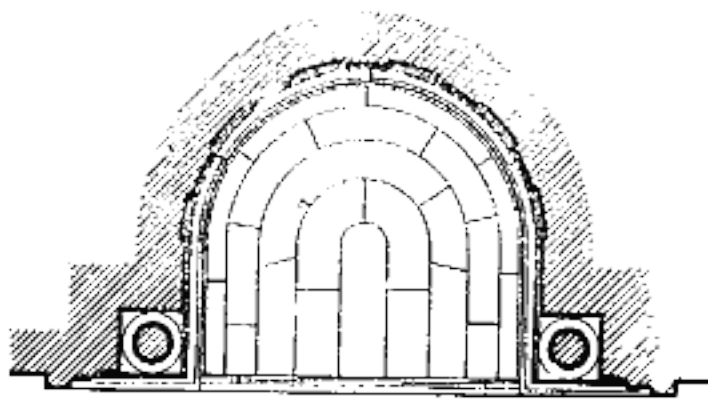
المحراب



مقطع دره فيب

تفاصيل المحراب

Les details du mihrab



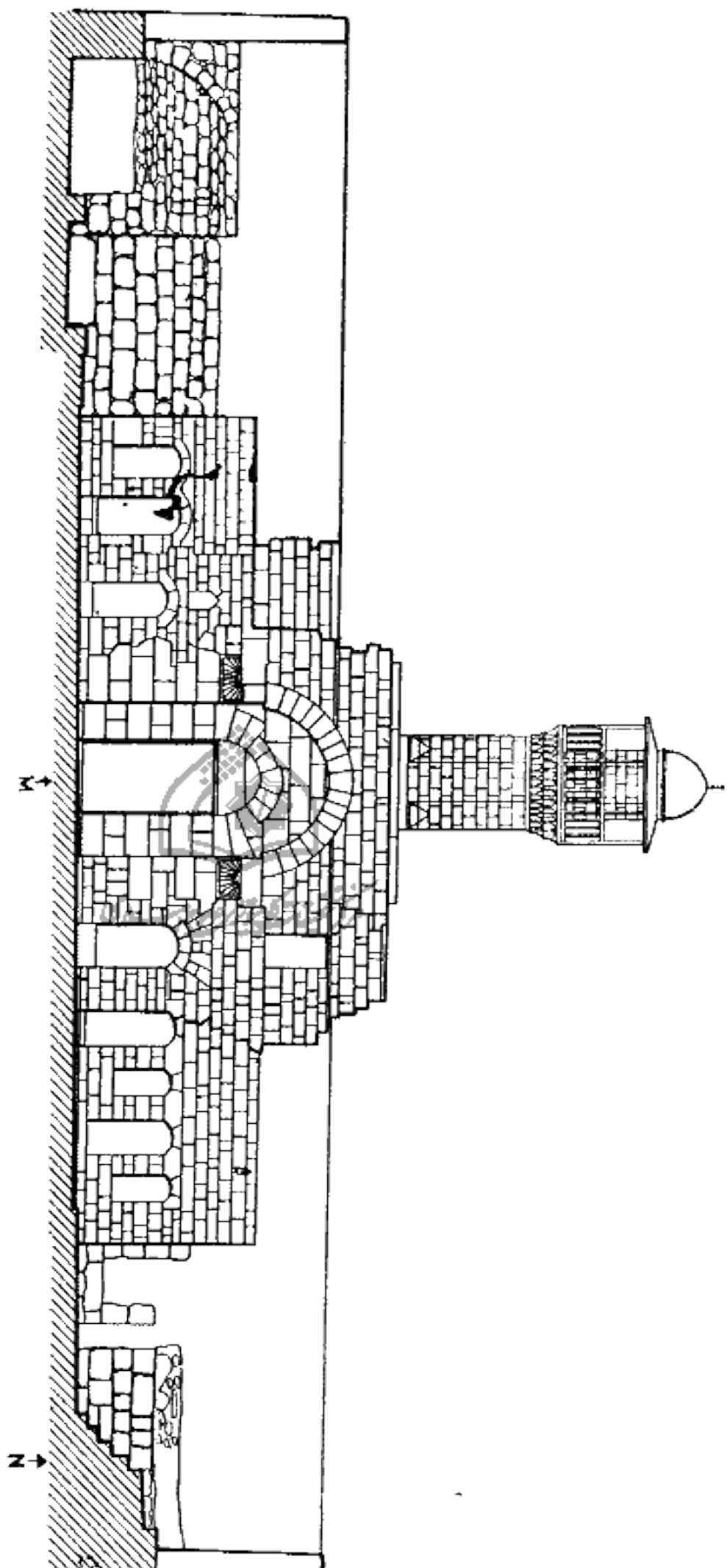
Le mihrab.

المقياس 1/2



Une Madrasa Ayyoubide

Pl. IV b



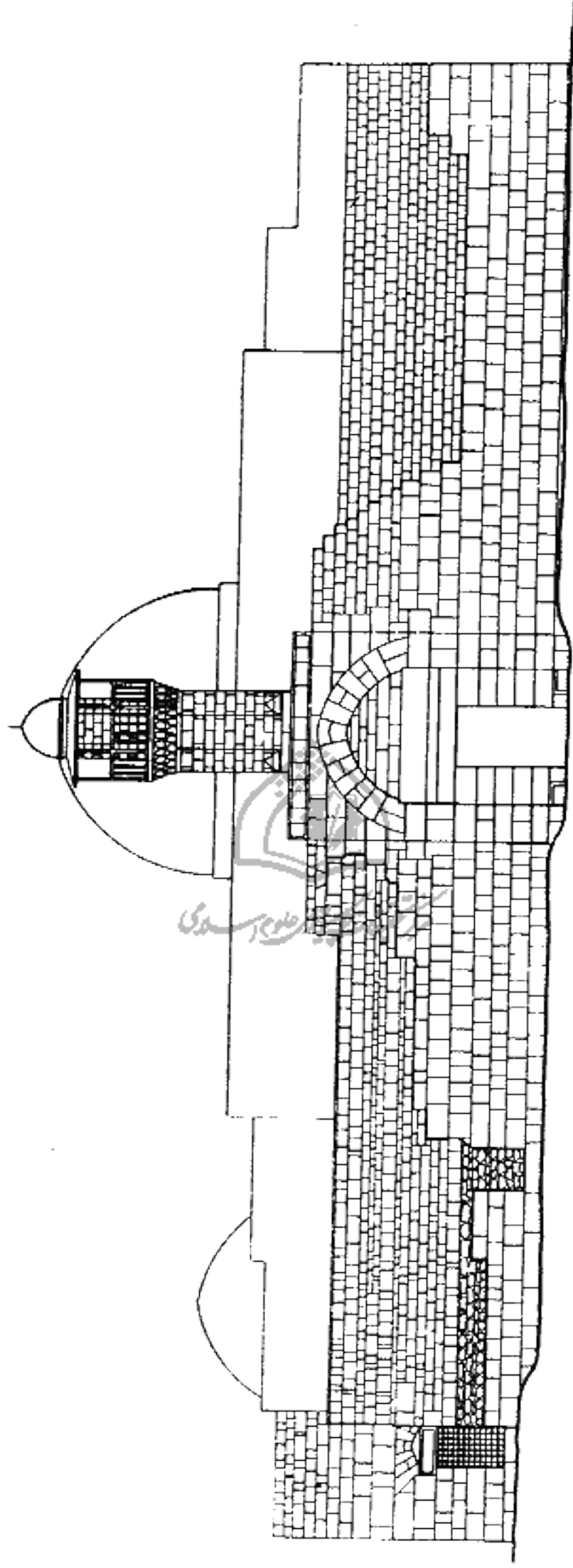
Coupe W-X



Coupe W-X sur le corps de bâtiment nord

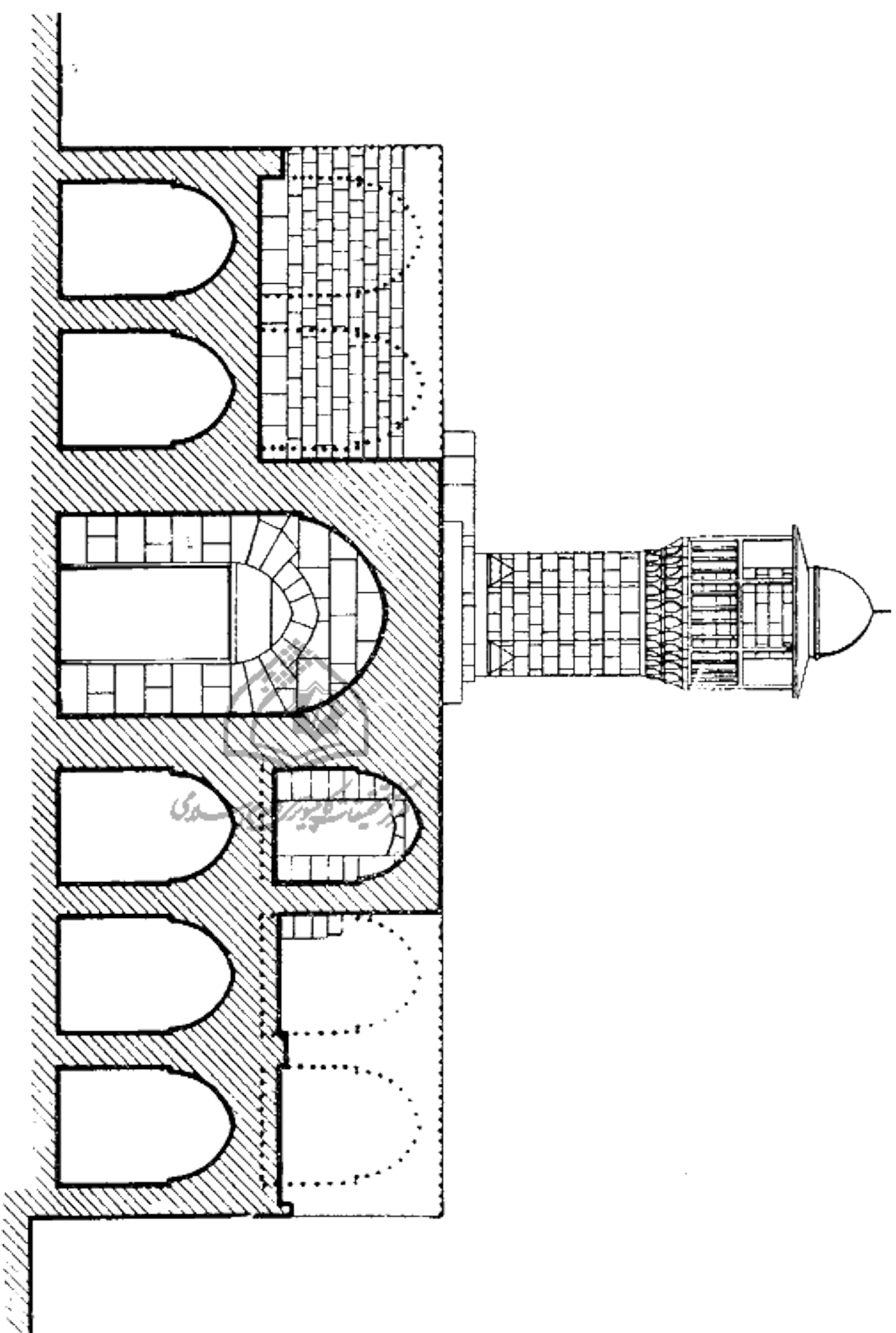
Pl. IVa

Une Madrasa Ayyoubide



Façade extérieure nord

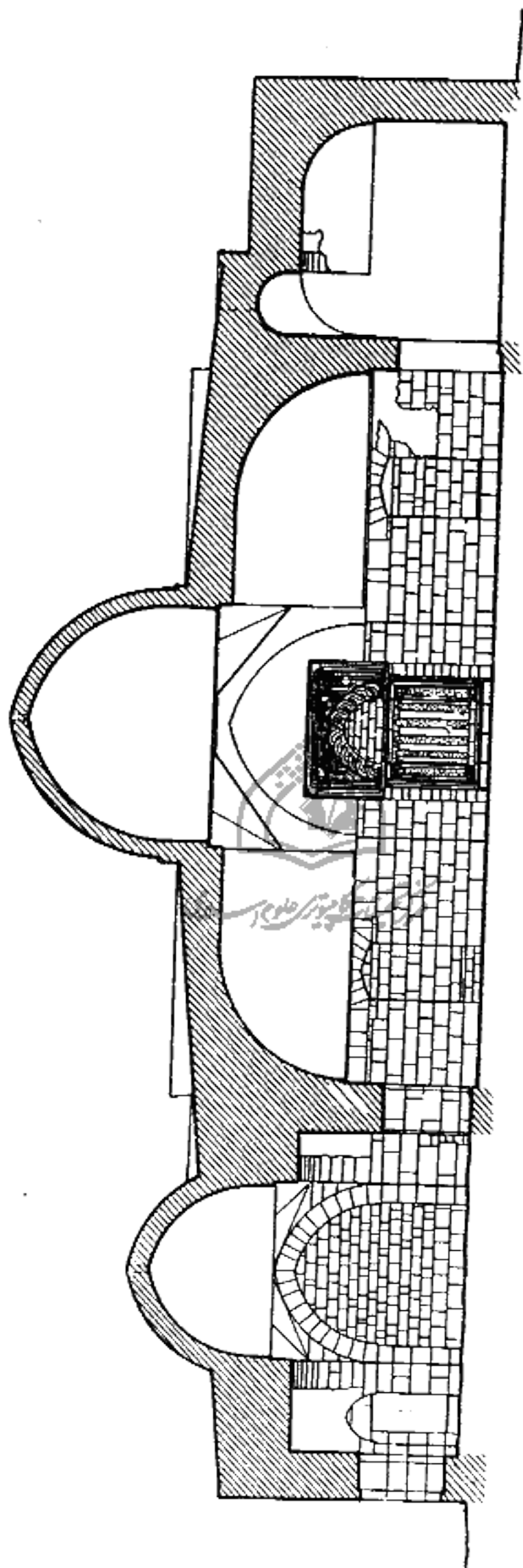
الواجهة الشمالية الخارجية



Coupe Y—Z

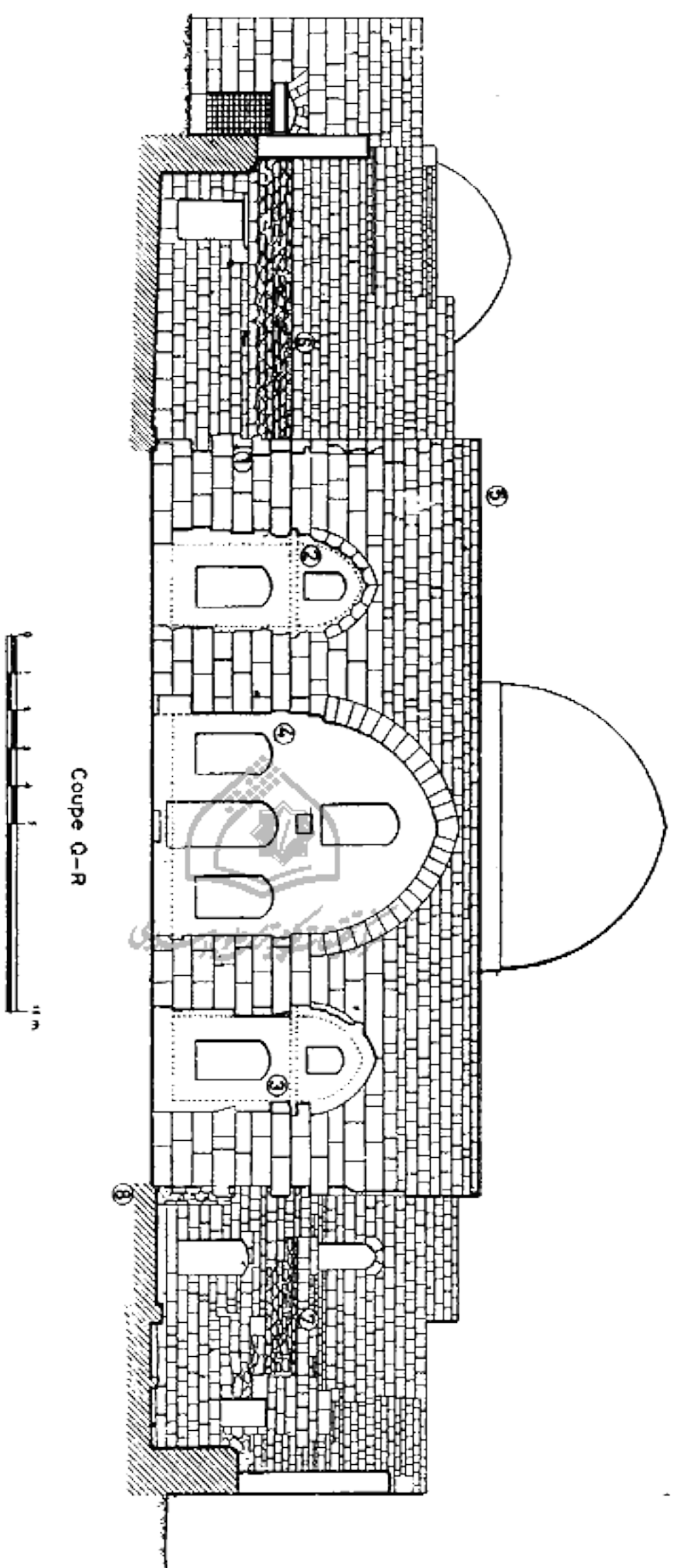


Coupe YZ sur le corps de bâtiment nord

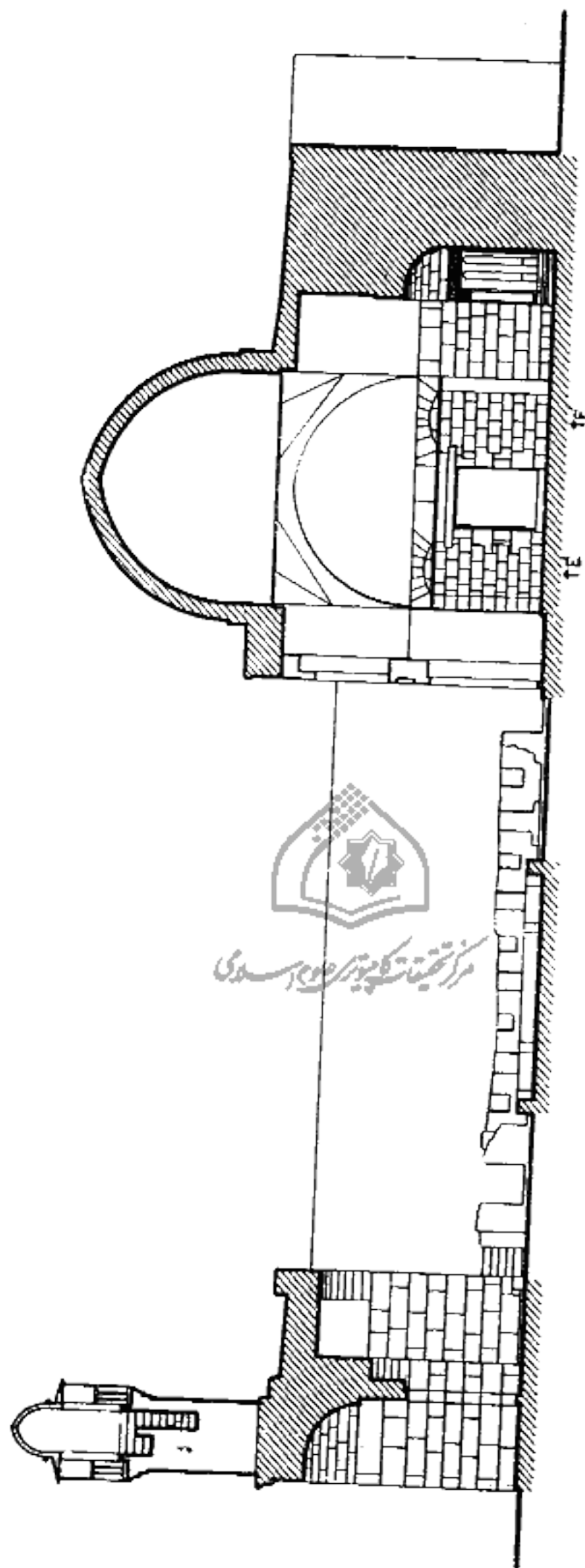


Coupe U-V

Coupe Est-Ouest sur le masjid et le mausolée

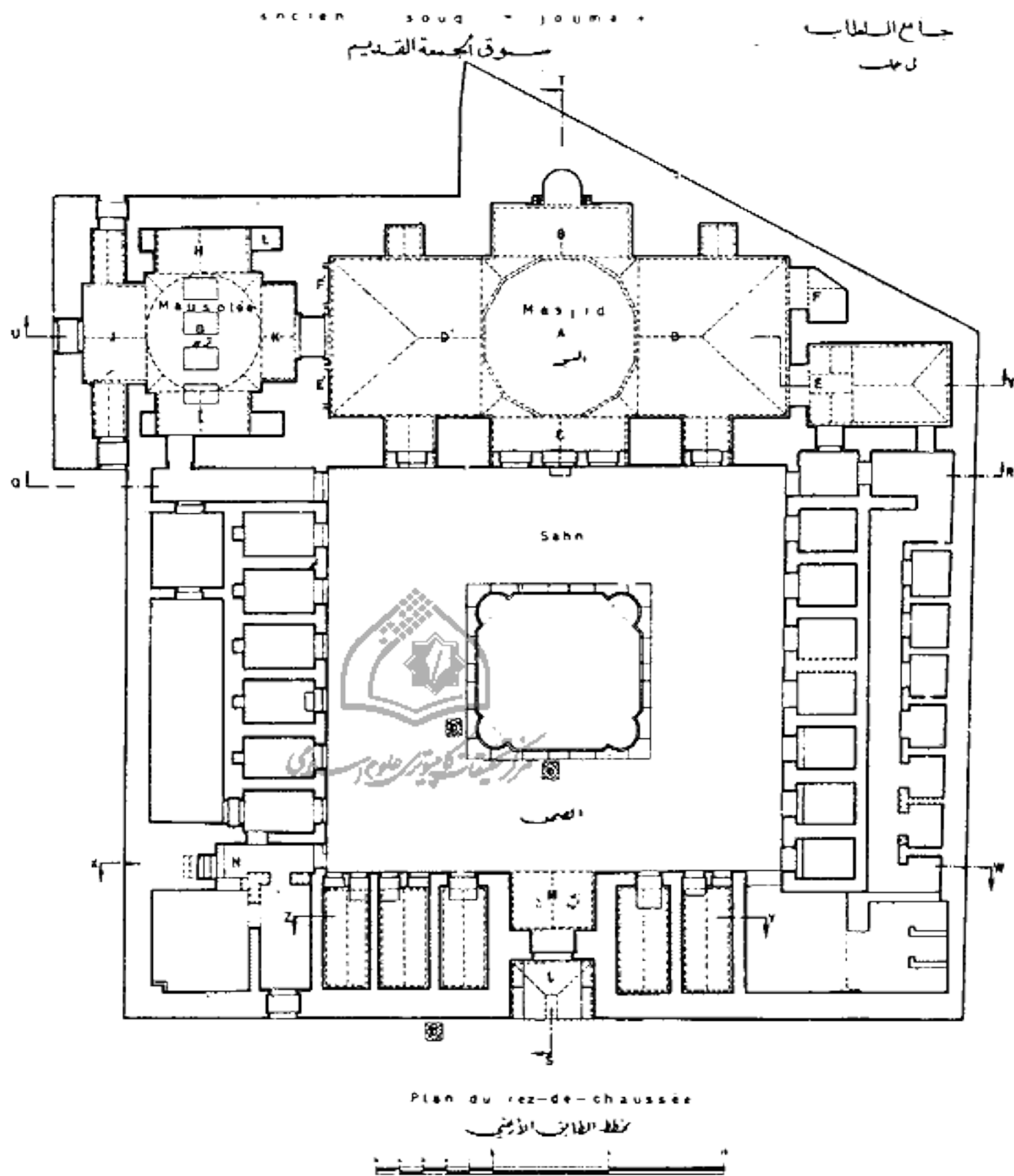


Coupe Est-Ouest sur le sahn et façade du masjid.



Coupe 5-1

Coupe Nord Sud sur le sahn et le masjid



Plan d'ensemble du rez-de chaussée

La Mosaïque de Chahba — Philippopolis





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



1 — Buste funéraire d'Ahînaï.



2 — Double-buste de Bêlsûr et Moqîmû.



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



1 — Relief palmyrénien archaïque.



2 — Kliné funéraire à double-buste datée de 148 ap. J.—C.